مكتبة ٢٠٠٦

سلسلة العلوم الاجتماعية

النوع

الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف

مقالات مختارة

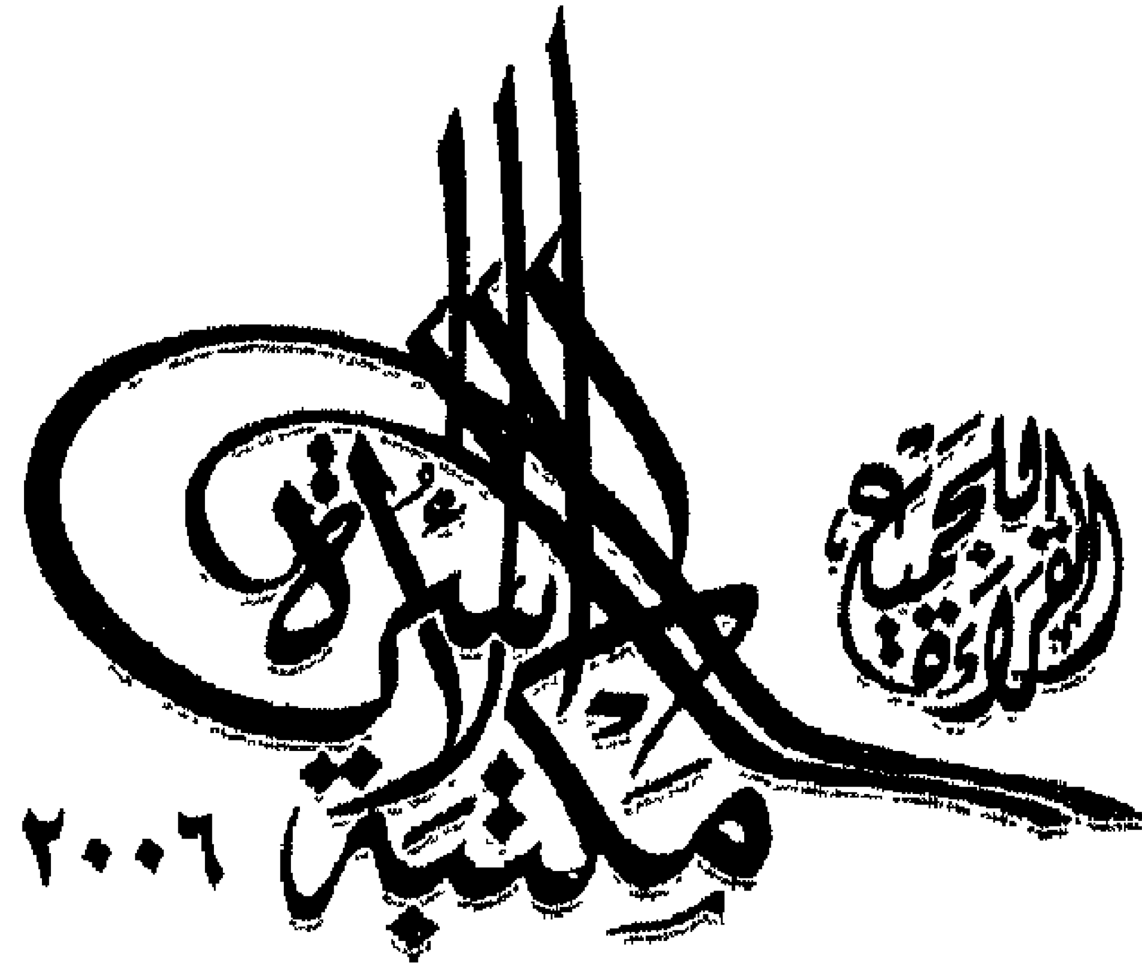
ترجمة: محمد قدري عمارة



النوع

الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف

مقالات مختارة



برعاية السيدة

سوزان مبارك



المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف

د. مدحت متولى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى

على أبو الخير

ماجدة عبد العليم

صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

النوع

الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف

مقالات مختارة

ترجمة : محمد قدري عمارة



النوع

لوحة الغلاف للفنان حمدى عبد الله
بدون عنوان - ١٩٩١ - كمبيوتر جرافيك - ١٤,٥ × ١٧,٥ سم

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف / تحرير ايفلين آشتون، جونز جارى، أ. اولسون، ترجمة محمد قدرى عمارة، مراجعة الهامى جلال عمارة، تقديم هالة كمال -
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٤٣٦ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٧-٣٦٨-٤١٩-٩٧٧.
١- الجنس
رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٦١٦ / ٢٠٠٦
I.S.B.N 977-419-368-7
ديوى ٣٢, ٥٧٤

توطئة

انطلاقًا من شعار «مكتبة الأسرة» هذا العام: الثقافة لغة السلام، والذى طرحته السيدة الفاضلة سوزان مبارك، انتقت مكتبة الأسرة حوالى ٣٠٠ عنوان، حاولت أن تقترب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم قيمة ثقافة السلام ودعم التسامح، وتعميق قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وترسيخ قيمة دور المرأة وتعزيز قيمة التجدد الثقافى، والتفكير النقدى، والحوار، والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى. وأخيرًا إبراز تواصل الإبداع المصرى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة.

إن مكتبة الأسرة من خلال سلاسلها المتنوعة تحاول استيعاب المشهد الثقافى والفكرى والإبداعى فى مصر عامًا بعد عام. وفى هذا العام تطرح أعمالاً جديدة، وتقدم أسماء لم تنشر من قبل فى هذا المشروع الرائد، وتقتحم مجالات فكرية وثقافية وأصوات إبداعية جديدة.

وسوف تدور عناوين مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ فى فلك سلاسل الأدب، والفكر، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والتكنولوجيا، والفنون، والمئويات التى تحتفى هذا العام مع العالم كله بمرور ستمائة عام على رحيل المفكر العربى الكبير عبدالرحمن بن خلدون، الذى يعد واحدًا من بُناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت الأساس الذى قامت عليه

الحضارة الأوروبية الحديثة، فابن خلدون يعتبر نموذجًا واضحًا لأهمية حوار الحضارات وطريقة تواصلها.

سيظل هدف **مكتبة الأسرة** فتح نوافذ جديدة للقارئ المصرى للاطلاع على منابع الثقافة العربية والعالمية وتكوين ثقافته ومعرفته بأيسر السبل، والوقوف أمام ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والثقافى والعلمى والفكرى المستنير، حتى يستطيع القارئ مواجهة العنف والأصولية، والفخر بإسهامات أسلافه العرب فى تشكيل مسيرة الحضارة الإنسانية.

مكتبة الأسرة

تقديم

هذا كتاب شائق وبرغم تخصصه النوعى، إلا أن قارئه لن يصاب بالملل، بل على العكس تماما، سيجد نفسه مأخوذا حتى ينتهى من القراءة، وكأنه يتابع عملا إبداعيا ذا مستوى رفيه.

«النوع، الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف، مقالات مختارة «كتاب يضم مجموعة من المقالات والدراسات التى تم تصنيفها بشكل يلائم احتياجات الباحثين والمهتمين بالتعرف على أبرز المفاهيم المتعلقة بقضايا التمييز بين نوع ونوع.

وتنبع أهمية هذه المقالات، من أنها تأتى كشهادات حية لكتاب يقدمون للقارئ تجربتهم الخاصة، وبعضها يأتى كدراسات متخصصة فى الشأن النوعى.

يأتى الكتاب فى فصول ثمانية، ناقشت كثيرا من الإشكاليات المتعلقة بالتميز والاختلاف بين الذكر والأنثى، مثل «الأنوثة والتضامن» و «المرأة والمساواة» و«التحيز الجنسى» و «التمييز ووضع النساء».

حرر هذا الكتاب كل من : إيفيلين آشتون، وجونز جارى، وأ. أولسون، ونقله إلى اللغة العربية الباحث الدكتور محمد قدرى عمارة، الحاصل على الدكتوراه

من جامعة ويلز عام ١٩٩٧ فى علم الوراثة والجينات، والذين أثرى المكتبة العربية بالعديد من الترجمات القيمة لبرتراند راسل وأنطون تشيكوف وكارلو كولودى، وستيفن هيوز. وقد راجع الكتاب الدكتور إلهامى جلال عمارة، وقدمته الأستاذة هالة كمال.

ويسر مكتبة الأسرة أن تقدمه للقارئ العربى هذا العام بعد أن صدرت طبعته العربية الأولى عام ٢٠٠٥، إثراءً لجانب شديد الأهمية من جوانب المعارف العامة.

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

تقــديم

هالة كمال

يضم كتاب "النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف" مجموعة من المقالات والدراسات التى تم جمعها وتصنيفها بحيث تلائم احتياجات الباحثين المهتمين بالتعرف على المفاهيم الأساسية الخاصة بقضايا التمييز بين الرجل والمرأة على أساس الجنس. ويشتمل الكتاب على مقالات منها ما هو أقرب إلى الشهادات والخبرات الشخصية، ومنها ما يقدم دراسات متخصصة تمثل كلاسيكيات الفكر النسوى. وتلتقى تلك المقالات والدراسات فى كونها تعبيرا عن الوعى بالتفرقة والتمييز بين الجنسين بناء على المفاهيم الثقافية الرائجة لمعايير الذكورة والأنوثة، وما تفرضه من أدوار اجتماعية صارمة.

ومن الجدير بالاهتمام فى هذا الكتاب أنه لا يقتصر على منظور النساء، حيث يضم مقالات بأقلام رجال مؤكدين أن قضية التمييز ليست قضية خاصة بالنساء فحسب، بل إن إدراك مظاهر التفرقة والتمييز وتغيير أوضاع النساء وتحريرهن من القهر الاجتماعى سينعكس إيجابا على الرجال والمجتمع ككل، حيث إن مفاهيم الذكورة والأنوثة مفاهيم يخلقها المجتمع ويستخدمها لضبط سلوك أفراده بما يحقق مصالح أصحاب السلطة فيه. ومن هنا نستشعر فى عدد من المقالات نقدا لما يفرضه المجتمع على الرجال من تنميط لصورتهم وسلوكهم بما يتفق مع معايير الرجولة المفروضة عليهم. وينقسم الكتاب إلى ثمانية فصول يركز كل منها على فكرة بعينها، وتساهم جميعها فى تقديم مدخل إلى مفهوم الجندر باعتباره تعبيراً عن التشكيل الثقافى والاجتماعى للجنسين.

ونلاحظ أن الفصل الأول من هذا الكتاب يطرح مسألة الاختلاف بين الجنسين فى صورة تساؤل يتضح من عنوان الفصل **"الاختلافات الجنسية : اجتماعية أم بيولوجية؟"**، وهى قضية شغلت بال دعاة النسوية ومعارضيها. ومن المثير للانتباه هنا أن المقالات الأربعة التى يتضمنها هذا الفصل، والمكتوبة بأيدى كاتبات من النساء، تعكس اختلاف وجهات النظر فى تلك المسألة، فبعضها يقدم براهين بحثية موثقة بتجارب ومصادر علمية، بينما تتخذ مقالتان موقفا انطباعيا يقترب إلى الأسلوب الصحفى فى الكتابة، المبنى على الملاحظات الشخصية.

فالمقالة الأولى بعنوان "الذكر والأنثى .. الاختلافات بينهما" بقلم فرچينيا آدامز تقدم بحثا تستعرض فيه الكاتبة مظاهر الاختلاف بين الذكر والأنثى موضحة أن منها ما هو بيولوچى تحدده الهرمونات ومنها ما هو اجتماعى يعتمد على كيفية معاملة الولد والبنت منذ الطفولة الأولى. وتخلص إلى أن "المجتمع يلعب دوراً هائلاً فى تشكيل الفروق" بين الرجل والمرأة مؤكدة أنه فى عصر التكنولوچيا تصبح الفروق البيولوجية المرتبطة بالقوة البدنية غير ذات قيمة.

وفى المقالة الثانية وعنوانها "المخ.. مخ الذكر ومخ الأنثى" تحاول باميلا وانتروب الإجابة عن سؤال حول اختلاف مخ المرأة عن مخ الرجل، ومدى تأثير ذلك على قدرات كل منهما. وتشير الكاتبة إلى موقف الحركات النسائية فى التأكيد على دور المجتمع فى ترسيخ الاختلافات بين الجنسين فى صالح الرجل، إلا أنها تتخذ موقفا يسلم بالفروق البيولوچية الناجمة عن الاختلافات بين الجنسين فيما يتعلق بهرمونات الجنس المتمركزة فى المخ، حيث ترى أن تركيب المخ "يحدد" سلوك صاحبه فى الوقت الذى "يشكل" فيه المجتمع ذلك السلوك، وبالتالى تطالب المجتمع بمراعاة تلك الفروق لأنها لا تبرر التمييز وغياب المساواة بين الجنسين.

ويلى ذلك مقالة دوروثى سايرز "هل النساء بشر؟" تقدم فيها رؤية غير متعمقة مبنية أساساً على ملاحظات شخصية. فهى تؤمن بوجود وظائف نسائية، وتبرهن على ذلك بقولها أن "القليلات يولدن بموهبة فى الميكانيكا". وتخلط دوروثى سايرز هنا بين الاستعداد

البيولوجي والقدرات التى يتم تنميتها اجتماعيا، وتعجز عن إقناعنا - نحن القراء - برأيها بـ ـأن علاقة النساء (أو عدمها) بالميكانيكا بسبب عدم التفاتها إلى القيم والأدوار الاجتماعية التى تحول دون اكتساب النساء مهارات ميكانيكية. كما أن الكاتبة تميل فى نهاية مقالتها إلى تسفيه مفهوم "وجهة نظر المرأة"، حيث تذكر أنه لا قيمة لوجهة نظر المرأة فى بعض المجالات "فرأى المرأة فى الأدب أو التمويل له قيمة فقط كرأى فردى بحت. والكاتبة بذلك تكشف عن عدم وعيها بدلالات مفهوم "وجهة نظر المرأة" ومدى اعتماد النظرية النسوية على مجموعة متسقة من الأنماط والنماذج المتكررة، فى الاعتراف بقيمة وجهة نظر مجموعة اجتماعية ما تشترك فى الطبقة أو الأصل العرقى أو الجنس أو غيرها، بناء على الخبرة الجماعية لفئة ما والتى تنعكس على رؤيتها لواقعها ودورها فى الحياة.

وفى مقالتهما المشتركة "مخاطر الأنوثة" تؤكد الكاتبتان لوسى جلبرت وبولا وبستر على أن "تقسيم البشرية إلى مجموعتين جنسيتين يبدأ عند مولدنا"، وبالتالى يعتمد الانتماء إلى مجموعة دون أخرى على البيولوجيا ثم يفرض المجتمع أدوارا على كل فرد وفئة تبعا لجنسهما. وتتخذ الورقة موقفا واعيا بأن الأدوار الاجتماعية ليست نتاجا طبيعيا، بل نتيجة للثقافة السائدة فى المجتمع. كما تؤكد المقالة على أن التقسيم الاجتماعى للجنس لا يمثل مشكلة فى حد ذاته، وإنما تنبع المشكلة من التمييز بينهما لصالح طرف على حساب الآخر، أى منح الرجال السلطة الاجتماعية على حساب النساء. وتشير الورقة أيضا إلى معايير الرجولة والأنوثة، ونظرا لارتكاز نموذج الذكورة على سلطة الرجل يفرض ذلك النموذج معايير وقواعد وسلوكا معينا. أما نموذج الأنوثة فيتمثل لدى كاتبتى المقال فى ثلاثة أنماط: الفتاة الأميرة، والفتاة القديسة الطيبة، والفتاة السيئة وهى التى تتبنى قيما تتنافى مع قواعد الأنوثة من تبعية وخضوع وإنكار للذات، وبالتالى يعتبرها المجتمع خارجة عن نظامه.

يضم الفصل الثانى بعنوان **"الرجولة فى تحول"** عددا من المقالات حول مفاهيم الرجولة تتداخل فيها الملاحظات العامة بتجارب شخصية أقرب إلى الشهادات. واللافت للانتباه هنا هو قيام عدد من الكتاب الرجال بنقد مفاهيم الذكورة المفروضة اجتماعيا.

ففى مقالته "ما يجب أن تعرفه كل امرأة عن الرجال" يوضح آلان ألدا أن الفروق الهرمونية بين الذكر والأنثى تتفاوت من حيث النسبة والدرجة، حيث إن الهرمون الذكرى التيستوستيرون موجود لدى كل من الرجال والنساء ولكن بنسب أعلى فى الرجال. وفى محاولة تفسير عدوانية بعض الرجال ومبالغتهم فى السلوك "الذكورى" من حيث العنف وشدة المنافسة وممارسة السيادة فإن المؤلف يراها مظاهر لزيادة معدلات هرمون الذكورة لديهم وإصابتهم بـ "التسمم التيستوستيرونى". وبعيداً عن محورية التركيبة البيولوچية والطبيعة الهرمونية للذكور، يرى هيرب جولدبرج فى مقالته بعنوان "عبودية الذكر" أن الرجل ينشأ اجتماعيا منذ طفولته على العبودية لنموذج الذكورة فى سلوكه الإنسانى، وبالتالى يكون أقل مرونة وقدرة على التحرر من ذلك النموذج المفروض اجتماعيا، فى حين أن النساء، ونظرا لتعدد أدوارهن الاجتماعية، أصبحن أكثر قدرة على التمرد ورفض النموذج الأنثوى المفروض والمتوقع منهن سلوكيا.

وفيما يتعلق بالمجتمع الأمريكى تحديداً ينطلق هارولد روزنبرج فى "الرجولة.. أسلوب وسلوك" من فكرة ارتباط الرجولة بالخلاء بما فى ذلك من أنشطة وملابس ومظهر عام. ويشير إلى أن الرجولة بوصفها مفهوما اجتماعيا فى الثقافة الأمريكية نشأت من حياة رعاة البقر بما فيها من روح المخاطرة والمغامرة، فى حين يصبح الأدباء والمفكرون مهددين بوصمهم بالخنوثة لامتهانهم مهنا أقرب إلى نمط الحياة الأنثوية. ويقدم روزنبرج الأديب الأمريكى هيمنجواى مثالا للأديب الذى سعى إلى تأسيس رجولته "على إظهار شهيته للعنف والجنس والموت" فى كتاباته كوسيلة لتبديد شكوك المجتمع الأمريكى حول رجولته. ومن هنا يرى صاحب المقال أنه مع تراجع قيم الذكورة الممثلة فى حياة الخلاء والمغامرة والصراع الجسدى فى العصر الحديث والمعاصر، أصبح الإعلام هو المصدر الذى يوفر للرجل النماذج العدوانية لتأكيد قيم الذكورة التقليدية.

وفى مقاله عن "الصداقة بين الرجال" يشير الكاتب مارك فيجن فاسيتو إلى "الصداقات العظيمة بين الرجال" باعتبارها أسطورة، ويُرجع ذلك إلى أننا نعيش فى عالم يجد الرجل نفسه فى صراع للاختيار بين التعبير الصادق عن العواطف وبين

مظاهر القوة الرجولية الممثلة فى روح التنافس واستعراض الصلابة والقوة والتحكم. ومن هنا يرى الكاتب أن سيادة النموذج الذكورى المبنى على التنافس يمثل عائقا أمام نشأة الصداقة بين الرجال، حيث يسعى كل طرف إلى استغلال نقاط ضعف الآخر لصالحه. كما يشير الكاتب إلى المأزق الذى يواجه الرجل الذى يخرج على النموذج الرجولى ويميل إلى التعبير عن مشاعره، حيث إن ذلك يثير مخاوفه من أن يتهم بالشذوذ. وفيما يتعلق بالمثلية الجنسية نجد أن إدموند وايت يشير إلى أن الرجال المثليين يقسمون غيرهم من الرجال إما إلى عشاق أو أصدقاء. ويرى الكاتب أن المجتمع يميل إلى خلق صورة للمثليين على أسس جنسية، فى الوقت الذى يميل فيه المثليون إلى الانغلاق داخل "جيتو" خاص بهم بعيدا عن تحفظ المجتمع ونبذه لهم، حيث يسعون إلى خلق مساحات من الصداقة وثقافة جديرة بالاحترام.

وعندما يتحدث نويل بيرن عن "الذكر المخنث" فهو ينطلق من وصف نفسه بالخنوثة، متحدياً الأنماط السائدة وعلى سبيل نفى خصائص الذكورة المفروضة اجتماعيا على الرجال، ويتهكم بصورة غير مباشرة على معايير الذكورة والأنوثة من حيث اهتمام الرجال مثلا بالميكانيكا والعلوم فى الوقت الذى تتحدد خصائص الأنوثة فى إطار الاهتمام بالفن والطبيعة. ويرى الكاتب أنه من المحزن أن يفتتن الرجال بالقوة الجسدية ونزعة السيطرة والسيادة. ويختتم بيرن مقالته بالتأكيد على دور الحركة النسوية فى تحرير الرجال، حيث إن سعى بعض النساء للتحرر من نمط الأنوثة ساعد الواعين من الرجال أيضا على السعى إلى التحرر من نمط الذكورة.

ويجىء الفصل الثالث **"الأنوثة والتضامن"** ليركز على قضايا هى فى صميم الفكر النسوى. فنجد أن ناعومى ويزتين فى دراستها "علم النفس ونظرة إلى الأنثى" تنتقد مقولات علماء النفس التى تُقصر أدوار النساء على "الدور الطبيعى للمرأة" أى الأنوثة والأمومة، وتضيف الباحثة بعدا إضافيا حيث ترى أن سوق التجارة يسعى إلى ترسيخ تلك القيم لما تشكله من "تجارة عالمية رائجة". وتؤكد الكاتبة أن علم النفس قد فشل فى تشكيل رؤية علمية صالحة لتأسيس نظرية لتحرير الجنسين، وتُرجع أسباب هذا الفشل إلى عاملين : أولهما أن علم النفس يبحث فى الخصائص الداخلية للشخصية

متجاهلا الظروف الاجتماعية المحيطة بالشخصية وأثرها فى تشكيل الشخصية. وثانيهما هو أن واضعى النظريات قد اعتمدوا على البحث الكلينيكى لتعضيد نظرياتهم. وبالتالى يغيب عن علم النفس الالتفات إلى دور التمييز بين الجنسين وغياب المساواة فى المجتمع عند نظرته للنساء.

ومن ناحية أخرى تتناول سوزان براونميلر "العاطفة" موضوعا لمقالتها، حيث تتبع الاختلافات فى نظرة المجتمع لتعبير الرجل والمرأة عن العاطفة مع تقديم أمثلة حية من التاريخ الإنسانى. فعاطفة الحزن والبكاء مستهجنة بالنسبة إلى الرجال لما تكشف عنه من ضعف، وعلى النقيض من ذلك تكون عاطفة الغضب مقبولة، بل من خصائص البطولة عند الرجال، فى حين يرفضها المجتمع لدى النساء لتنافى الغضب مع جمال المظهر وقيمة الصبر والاحتمال. وعلى سبيل المثال، تشير الكاتبة إلى كيفية قيام المجتمع بتقييم صور التعبير الإنسانى كافة تبعا لنمطى الرجولة والأنوثة، حيث يسود الاعتقاد بأن "التعاطف والأحاسيس الجياشة هى القاعدة الثابتة والشهيرة للكتابة النسائية بالمقارنة بموضوعية الرجال".

أما الرائدة النسوية سيمون دى بوفوار فتوضح فى مقالتها الشهيرة عن "المرأة باعتبارها الآخر" أن المجتمع جعل الرجلَ المعيارَ الإنسانى المطلق، فى حين يتم تعريف المرأة نسبة إليه، أى باعتبارها "الآخر". كما تعقد مقارنة بين وضع النساء بوصفهن أقلية فى المجتمع، وبين وضع السود فى أمريكا ووضع الدول المستعمرة فى عصر السيادة الاستعمارية، ووضع البروليتاريا فى علاقتها بالطبقة الرأسمالية. وتضيف قائلة بأنه إذا كانت البروليتاريا قد حققت الثورة فى روسيا، كما تمكنت المستعمرات من التحرر من الاستعمار، ونجح السود فى تحقيق قدر من المساواة مع البيض، فإن النساء لم ينجحن فى التحرر لافتقارهن إلى التنظيم القوى القائم على التضامن.

وفى مقالتها عن "تضامن النساء" تعتبر جلوريا ستاينم الحركة النسوية والفكر النسوى مصدرَ إلهامٍ شخصى لها أخرجها من "حجرة مظلمة إلى نور الشمس". وتشير إلى أهمية العلاقات الشخصية العميقة بين النساء، كما تشيد بالدور الذى تلعبه مجموعات "إثارة الوعى" حيث تلتقى النساء لتبادل تجاربهن فى الحياة ومدى تعرضهن للتمييز،

وتساهم تلك المجموعات أيضا في تجاوز الفاصل العرقي بين النساء البيض والسود. إلا أن ستاينم واعية بالعوامل التي تهدد تضامن النساء ممثلة في إزكاء روح التنافس بين النساء وبالتالي تصيدهن لمواقع الضعف فيما بينهن من ناحية، ونبذ المجتمع للنساء المتمردات على النظام الاجتماعي القائم على السلطة الذكورية من ناحية أخرى، ومن واقع خبرتها الشخصية تبين الكاتبة أن التضامن بين النساء بدد شعورها بالغربة عن المجتمع كما أثار وعيها بهويتها كامرأة متمردة على مجتمع يسوده التمييز العرقي والجنسي.

أما الفصل الرابع من الكتاب فيحمل عنوان "أصوات من الماضي" حيث يتضمن كتابات تمثل أوضاع النساء خلال عصور تاريخية قديمة، بداية من رؤية الفيلسوف الإغريقي أفلاطون لدور النساء في مدينته الفاضلة، حيث نقرأ أحد حوارات أفلاطون حول طبيعتي الرجل والمرأة ومدى انعكاسهما على الأدوار التي يتعين أن يقوم كل منهما بها في المجتمع المثالي.

ويحتوي الفصل أيضا على دراسة ماري دالي "أشكرك ربي لأنك لم تخلقني امرأة" التي تتناول فيها صورة النساء في العهد القديم والعهد الجديد، مشيرة إلى تدني وضع النساء في العهد القديم، وتبعية النساء القانونية والاجتماعية للرجال العبرانيين إلى الدرجة التي تدفع الرجال في صلاتهم إلى القول "أشكرك ربي لأنك لم تخلقني امرأة". أما العهد الجديد فقد ربط بين خلق حواء وقصة الخطيئة، مما ساهم في إضفاء الدونية على النساء فكريا وأخلاقيا على مدى عصور من الثقافة المسيحية. وتؤكد ماري دالي أنه قد تم توظيف النصوص الدينية – وخاصة كتابات بولس الرسول والقديس أوغسطين وآباء الكنيسة – مع تجاهل الأطر الثقافية لتلك النصوص، لتكريس تبعية النساء بدعوى الإرادة الإلهية. كما يضم الفصل حديث البابا بيوس الحادي عشر "عن الزواج المسيحي" يعرِّف فيه الزواج المسيحي باعتباره مؤسسة إلهية هدفها الرباط الداخلي المتبادل للزواج مع الاعتراف بتبعية المرأة للرجل. كما يشن هجومه على مطالب النساء بالحرية والمساواة معتبراً إياها دعاوى زائفة وغير طبيعية، ويحذر من أن تعمل القوانين الوضعية على تغيير ما يعتبره أحكاما إلهية.

وفى مقالة بعنوان "أن تكونى امرأة"، تشير دوروثى ماك كيجان إلى الصعوبات التى كانت تواجه النساء الراغبات فى التعلم، وتقدم أمثلة بدءا بأول امرأة تحصل على درجة الدكتوراه فى إيطاليا عام ١٦٧٨، وتوضح المقالة أن مقومات تعلم النساء كانت تتمثل فى الآتى: العزوبية، والسعى إلى محو الأمية، والمقدرة الاقتصادية، والصبر على المضايقة والتهكم. أما سبيل المعرفة فكان فى الأساس هو التعليم الذاتى، حيث ظل حرمان النساء من التعليم الجامعى قائما حتى القرن التاسع عشر حين سمحت الجامعات الأمريكية وكل من أكسفورد وكيمبردج للنساء بالالتحاق للحصول على درجات علمية.

ويدور الفصل الخامس من الكتاب حول "المرأة والمساواة"، ويضم مجموعة من المقالات التى ترجع إلى بدايات الوعى بقضية المساواة بين الجنسين. حيث تتناول رائدة الفكر النسوى فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر، مارى ولستونكرافت، فى مقالتها "دفاع عن حقوق المرأة"، قضية تعليم النساء، مؤكدة أن إهمال تعليم الفتيات هو مصدر بؤسهن، حيث إن التعليم وتدريب العقول هو أساس استقلال الشخصية، ومن هنا يصبح تعليم النساء ضروريا فى المجتمع الأبوى كى لا تحكمهن سوى سلطة العقل لا سلطة الرجل. ودعت الكاتبة إلى انخراط النساء فى الحياة العامة، مؤكدة ضرورة تمثيل النساء فى البرلمان والحكومة، ذلك إلى جانب دعوة النساء إلى العمل فى التمريض والطب والولادة. وتطالب مارى ولستونكرافت الرجال بمساندة النساء فى سعيهن من أجل التحرر، وذلك لصالح المجتمع ككل، لأن "البؤس الذى ينتجه القهر لا يقتصر على المرأة فقط، ولكنه يصيب المجتمع ككل". وترى أن السبيل إلى ذلك هو توفير فرص متساوية بين الأولاد والبنات فى التعليم.

وحول "تبعية المرأة" ننتقل إلى القرن التاسع عشر فنستمع إلى صوت المفكر البريطانى جون ستيوارت ميل حيث ينتقد النظام الاجتماعى القائم على تبعية النساء للرجال مؤكدا أن "التبعية القانونية لأحد الجنسين للآخر هى خطأ فى حد ذاتها، وتعد من المعوقات الرئيسية للتقدم الإنسانى، وأنها يجب أن يستبدل بها قاعدة المساواة التامة". ويقارن ميل بين معارك التحرر السياسى وتحرر النساء، ويرى أن وضع الرعايا

فى نظام الدولة المتسلطة يماثل وضع النساء فى نظام أبوى متسلط. ويلقى چون ستيوارت ميل الضوء على شواهد ذلك التسلط من حيث الوضع القانونى الظالم للنساء من ناحية، وغياب العدالة في فرص العمل، وتبرير ذلك الحرمان والاضطهاد بعجز النساء، فى حين أن الواقع والتاريخ يثبتان أن النساء قادرات إذا أتيحت لهن الفرص. ويختتم مقالته بالدعوة إلى إلغاء التبعية حيث إن "الحرية هى المطلب الأول والأقوى للطبيعة الإنسانية".

أما الكاتبة الأمريكية شارلوت بيركنز جيلمان فتتناول "النساء والاقتصاد" من كتابها الصادر بالعنوان نفسه عام ١٨٩٨، حيث ترى أن النساء يمثلن عوامل اقتصادية فى المجتمع لأن المرأة تتيح للرجل فرصة أكبر للإنتاج، وبالتالى من حقها الحصول على أجر مقابل الخدمة التى تؤديها. أما الواقع الاجتماعى فيشير إلى أن المرأة تقوم بالخدمة المنزلية كواجب اجتماعى لا من منطلق تأدية خدمة اقتصادية مقابل أجر. أما من المنظور الاقتصادى فإن الزوجة العاملة فى منزلها إنما تنتمى إلى الطبقة الدنيا من خادمات المنازل. كما أنه لا يحق للمجتمع أن يعتبر الأمومة هى الأجر الذى تناله المرأة مقابل الخدمة فى منزل زوجها، لأن الأمومة ليست سلعة قابلة للتبادل. وتختتم شارلوت بيركنز جيلمان مقالتها بالدعوة إلى تراجع تبعية النساء للرجال، وتوظيف القدرة الإنسانية فى الخدمة الاجتماعية والعمل العام لا الخدمة المنزلية فحسب، كما تؤكد أن تربية الأطفال ليست واجبا نسائيا بل وظيفة اجتماعية.

ويلى ذلك مقالتان بقلم مارجريت سانجر، تقدم الأولى "صحوة وثورة" شهادة عن تجربة الكاتبة عندما كانت تعمل ممرضة، فى بدايات القرن العشرين، ترى أمام عينيها وفاة النساء الفقيرات بسبب محاولات الإجهاض الناتجة عن حمل غير مرغوب فيه بسبب العجز المادى، مع عدم معرفة هؤلاء النساء بوسائل منع الحمل. ومن هنا كان قرار مارجريت سانجر ترك التمريض والتفرغ للدعوة إلى إثارة وعى النساء بوسائل منع الحمل. وفى مقالتها التالية وعنوانها "تنظيم النسل .. مشكلة الرجل أم المرأة؟" تشير إلى أنه فى المجتمع المثالى تكون تلك المسألة شأنا يهم الرجل والمرأة على حد سواء، إلا أن الواقع يشير إلى أن المرأة هى التى تتحمل عبء الحمل والولادة ثم التربية،

وبالتالى تخلص إلى أن "تنظيم النسل هو مشكلة المرأة، وبالتالى فعليها أن تنال حريتها فى اختيار أن تكون أما أو لا تكون، وعدد الأطفال الذين ستنجبهم".

ثم ننتقل إلى نص كلمة للمفكرة والكاتبة النسوية ڤرچينيا وولف بعنوان "وظائف النساء" ألقتها عام ١٩٣١ فى لقاء جمعية الخدمة النسائية المهتمة بتوظيف النساء. وتشير إلى تجربتها باعتبارها تمتهن الكتابة، وهى وظيفة نادرة بالنسبة للنساء، ولكنها ترى نفسها امتدادا لرائدات سبقنها فى هذا المجال. وتوضح أن الكتابة لا تتطلب سوى ورق وأقلام، وهى أرخص تكلفة من العطور والأزياء. أما الكتابة الصحفية فتتطلب إضافة إلى ذلك مظروفًا وطابعًا لإلقاء الكتابات فى صندوق البريد. أما الكتابة الروائية فهى الأكثر متعة، وتتطلب رهافة الحواس وتحليق الخيال. وتدعو النساء إلى التخلص من صورة المرأة التقليدية "الملاك القابع بالبيت" وتبديد الأشباح والعقبات التى تصطدم بها، وضرورة أن تكتسب المرأة "غرفة خاصة بها" والاستقلال الاقتصادى من خلال القدرة على العمل وكسب المال.

ويضم الفصل السادس الذى يدور حول **"اللغة والتحيز الجنسى"** مسألة استخدام اللغة لدى الجنسين، حيث تنطلق روبين لاكوف فى مقالتها حول هوية المتحدث من كشف لمدى تنوع اللغة تبعا لما إذا كان المتحدث رجلا أم امرأة، ومن حيث اللغة المستخدمة للإشارة إلى كلا الجنسين. وفى حديثها تعتمد الكاتبة على أبحاث تمت على جوانب متعددة من اللغة، فعلى مستوى المفردات تكشف الأبحاث أن النساء على سبيل المثال يستخدمن حصيلة أكبر من المفردات لوصف درجات الألوان، مما يعكس اهتمامهن الأكبر بالتفاصيل. أما على مستوى تركيب الجملة، فتشير الدراسات إلى أن الرجال يميلون إلى استخدام الجمل التقريرية بينما تستخدم النساء الأسئلة الموصولة، أى الجمل التقريرية الملحقة بسؤال "أليس كذلك؟" بما قد يوحى بعدم الثقة فيما يقال، إلا أنه فى الوقت نفسه يكشف عن لغة غير تصادمية. أما من حيث المفردات المستخدمة للإشارة إلى النساء، فمن ضمن الأمثلة العديدة التى توردها يلفت نظرنا التمييز بين "العانس" و"الأعزب"، حيث تشير الكلمتان إلى الرجل والمرأة قبل الزواج، وبينما تحمل الأولى إيحاء بالتحقير، تبدو الثانية محايدة إن لم تكن توحى بجاذبية صاحبها.

وهى كلها إيحاءات اجتماعية وثقافية يتم إسقاطها على المفردات اللغوية بما يعكس مواقف المجتمع من الرجل والمرأة.

وفى دراستها "كيف يتحدث الرجال.. وكيف تتحدث النساء" تفند جلوريا ستاينم مزاعم علماء النفس بأن النساء يستخدمن لغة أكثر إبهاما من الرجال مما يعوق تواصلهن مع الآخرين. كما تنتقد الادعاءات بأن النساء كثيرات الثرثرة مقارنة بالرجال، وتوضح أن الرجال قليلو الحديث فى الحوارات المختلطة إما لعدم اهتمامهم بما يقال أو عدم رغبتهم فى الكشف عن مشاعرهم وهمومهم الشخصية. أما فى الجلسات غير المختلطة فتشير الدراسات إلى أن الرجال يتحدثون إلى رفاقهم الرجال بقدر من العدوانية مع رغبة فى إظهار التفوق، فى حين تدور الحوارات بين النساء فى إطار من الانفعال العاطفى بما تقوله الأخريات. كما ترد على اتهام النساء بالنميمة بأن النساء يملن إلى الحديث عن الناس والعلاقات الإنسانية وتفاصيل الحياة بينما يحول الرجال دفة أحاديثهم إلى القضايا العامة من تجارة وسياسة وغيرها. ومن عرضها المقارن للغة ونبرة الصوت لدى كل من الرجل والمرأة نستنتج أن الاختلافات بينهما إنما هى وليدة للثقافة والأدوار الاجتماعية المتوقعة من كل منهما.

ويتناول الفصل السابع **"الدور الجنسى والمؤسسات الاجتماعية"** صوراً متنوعة لأدوار النساء فى المجتمع ممثلة فى التعليم والزواج والأمومة. ففى مقالة: م. كارى توماس حول "المرأة المتعلمة" تبدأ الكاتبة بتجربتها الخاصة كطفلة تتساءل عن مدى صحة المقولات الشائعة بشأن تفوق الأولاد على البنات فى الذكاء. كما تتذكر سخطها على صورة المرأة فى الأدب، وهى صورة لنموذج الأنوثة النمطية التنميطية. وترى ضرورة التأكيد على مثال المرأة المتعلمة، وتشيد بكليات النساء التى تقدم نماذج معرفية بديلة لما هو سائد، وتطالب بألا تخضع تلك الكليات لأساليب التعليم التقليدى، خاصة مع تزايد أعداد النساء فى الكليات والجامعات. ويلى ذلك مقالة جودى سايفرز الساخرة "أريد زوجة" تتحدث فيها من موقعها باعتبارها زوجة وأمًا، فترى أنها فى حاجة إلى زوجة. فالزوجة تعتنى بزوجها وترعى الأطفال وتتحمل المسئوليات كافة، وبالتالى تختم مقالتها متسائلة: "من ذا الذى لا يريد زوجة؟".

وفيما يتعلق بنموذج "المرأة المتزوجة" تتحدث سيمون دى بوڤوار عن رتابة المهام المنزلية التى تضع النساء فى حلقة مفرغة من الملل، بل توصل بعض النساء إلى حالة أقرب إلى السادية - المازوكية و"الاهتمام بالبيت إلى درجة الهوس". وترى أن إعداد الطعام عمل أكثر إيجابية من التنظيف، لأن كل ما تنظفه المرأة معرض للاتساخ وكل ما تنتجه معرض للاستهلاك، أما الطهو باستعمال النار فهو أشبه بأعمال السحر، ولكن التكرار والاضطرار "سرعان ما يفسدان تلك المتع الصغيرة". أما من يكتبون عن عظمة دور المرأة المتزوجة فلم يمارسوا أعمالها إلا نادراً، بل يظل المجتمع يعتبر المرأة المتزوجة تابعة ودورها ثانويا.

أما فيما يتعلق بدور الأمومة، فتأتى مقالة بيتى رولان "الأمومة.. ومن الذى يحتاجها" مؤكدة أن احتياج المرأة للأمومة ليس بدافع احتياج بيولوچى غريزى كما يدعى الكثيرون، بل احتياج نفسى مرتبط بأسطورة الأمومة. فالمقولة السائدة بأن النساء مهيآت بيولوچيا لحمل الأطفال وبالتالى مهيآت نفسيا وعقليا وعاطفيا لتنشئتهم هى مجرد أسطورة، لأن الأمومة ممارسة وعملية تعلُّم، وهو ما ينطبق على الأبوة. وكثيراً ما تصبح الأمومة قهرية ثقافيا نظراً لثقافة المجتمع الذى يرى فى الأمومة الإنجاز الحقيقى والوحيد بالنسبة إلى المرأة.

ويضم الفصل الثامن الأخير من هذا الكتاب، وعنوانه **"التمييز ووضع النساء"** عدداً من المقالات التى تتناول أوجها من التمييز ضد النساء فى المجتمعات المعاصرة. ففى بداية مقالته "هل النساء متحيزات ضد النساء؟" يتساءل فيليب جولدبرج عن مدى اقتناع النساء بنظرة المجتمع والمقولات الشائعة بشأن كونهن "ناقصات"، مما يدفع النساء إلى التحيز ضد بنات جنسهن. ويستشهد بدراسة قام بها كشفت عن مواقف النساء، حيث اتضح بالفعل أن مجموعات الطالبات الجامعيات اللاتى تناولتهن الدراسة يعتبرن النساء ناقصات عن الرجال فى القدرات. وإذا كان المؤلف يعترف بالاختلاف الجسمانى والنفسى والعاطفى بين الجنسين، فإن ما يثير دهشته هو الحكم على هذا الاختلاف بالدونية، مما يؤدى إلى تشويه صورة النساء فى المجتمع ككل: رجالا ونساء.

وبناء على وضع الرجل كمعيار، وباعتبار كل وجه للاختلاف بالضرورة نقصانا، يصبح ذلك مبررا للتحيز والتمييز ضد النساء.

أما بريجيد برونى فتورد فى مقالتها "النساء خلف قضبان خفية" مقارنة بين وضع النساء فى المجتمع ووضع الحيوانات فى حديقة الحيوان، حيث ترى أن النساء موهومات بالحرية بينما يعشن فى الأقفاص، وذلك بالرغم من دور الحركة النسائية فى إجبار المجتمع على اقتلاع القضبان. والمجتمعات الحديثة كحدائق الحيوان، التى ما زالت الحيوانات تعيش فيها خلف الأسوار والأقفاص الخفية. وتشير الكاتبة إلى ما يفرضه المجتمع من ضغوط لإقناع النساء بالتفرغ للعمل في إطار جدران البيت بينما يتم دفع الرجال خارج المنزل، وهو ما تراه أمرًا غير عادل لكلا الجنسين. وتختتم مقالتها بالتأكيد على دور التعليم والوعى فى تغيير الأدوار الاجتماعية بما يتيح فرصا متساوية للجنسين فى ممارسة الحرية وحق الاختيار.

وفيما يتعلق بقضية "الاغتصاب" تنتقد دايان چونسون المقولات بأن المرأة التى تتعرض للاغتصاب تكون شريكة فى الفعل، وتعرض كتابين لبراونميلر وماكيلر حول تلك القضية، وبالتالى تكشف عن فشل المؤسسات الاجتماعية فى حماية النساء من الاغتصاب ثم اللجوء إلى لوم الضحية مؤكدة أنه "مهما كانت ملابسات حادث الاغتصاب فإن السلوك الاجتماعى والإجراءات القانونية المطبقة حاليا يجعلان الضحية مذنبة ومسئولة عن اغتصابها". وفى مقالتها "التصوير الإباحى" تربط سوزان براونميلر بين انتشار الأفلام الإباحية وبين الاغتصاب، فقد ثبت أن "التصوير الإباحى عامل رئيسى فى جرائم العنف الجنسى"، حيث إن معظم مستهلكى الأفلام الجنسية فى أمريكا هم من الذكور الذين أثبتت الدراسات أنهم يستثارون بالأفلام بينما يكون التقزز هو شعور غالبية النساء. فالتصوير الإباحى هو اختراع ذكورى يحط من قيمة النساء.

وبعد هذا العرض العام لمحتوى الكتاب أود فيما يلى التوقف عند بعض المفاهيم الرئيسية فى الفكر والنظرية النسوية. تقوم النظرية النسوية على فرضية مؤداها خضوع النساء لمختلف أشكال القهر والظلم على مدى التاريخ بسبب انتمائهن إلى جنس النساء، وهو قهر تتبدى مظاهره فى ما تتعرض له النساء فى حياتهن اليومية من ظلم،

بالإضافة إلى غياب المساواة بين الجنسين في القوانين، بل تجاهلهن وتهميشهن فى نواحي الحياة كافة. ويرى التاريخ النسوى أن الرجل قد استغل منذ بدء الإنسانية الطبيعة البيولوچية للنساء ممثلة فى أشهر الحمل ورعاية الأطفال فى سبيل تحديد مجال تحركها وفرض سلطته عليها. ومع تغير الحياة الإنسانية، وانتهاء عصور الصيد والقنص وأهمية القوة العضلية فى الحماية، واصل المجتمع نظامه القديم فارضا على النساء الحياة فى الإطار الخاص مع دفع الرجل إلى المجال العام. ومع انتهاء مبررات التفاخر بقوة الذكر الجسدية، حافظ المجتمع على تلك الصورة البدائية لنموذج الرجولة القوية المتحكمة والصارمة.

ومن هنا تقوم النظرية على وجود وجهة نظر خاصة بالمرأة، أى الاعتراف بأن النساء لهن رؤية خاصة للمجتمع والحياة مبنية على خبراتهن وواعية بتمتع الرجل بالسيادة فى علاقات القوى بين الجنسين التى يكرسها المجتمع الإنسانى - بدرجات متفاوتة - بما يحقق مصالح الفئة الأقوى، واعتبار النساء الطرف الأضعف والتابع. ويسود تصور بأن دونية المرأة هى وضع طبيعى وحكم إلهى نظرا لاختلاف قدراتها عن الرجل، إلا أن الفكر النسوى ينظر إلى "الاختلاف" لا باعتباره يشير إلى الاختلاف البيولوچى بين أعضاء الرجل والمرأة، بل يتجاوز ذلك الفهم الضيق بحيث يحمل المصطلح معانىَ ذات صلة بعلاقات القوى بين الجنسين. فالاختلاف لا يجب أبدًا أن يكون مبررًا للقهر، بل يتم استغلال الاختلافات البيولوچية لفرض أدوار اجتماعية متباينة على الجنسين. ومن هنا كانت مقولة سيمون دى بوڤوار الشهيرة " الإنسان لا يولد امرأة، بل تصبح امرأة"(١) فى إشارة إلى التشكيل الثقافى والاجتماعى لمفهوم الذكورة والأنوثة. فالمجتمع هو الذى يصنع من الإنسان، ذكرًا كان أم أنثى، ما يتفق مع مفاهيمه وتوقعاته، وطبقًا لمعايير ومصالح الفئة صاحبة السلطة والسيادة.

(١) Simone de Beauvior The Second Sex trans. H. M. Parshley (London: Pan Books 1988; c.1953).

ومن هنا تحمل مصطلحات الأنوثة والذكورة دلائل خاصة من المنظور النسوى، حيث لا تستخدم كمجرد إشارات إلى الطبيعة البيولوچية وإنما تضعها فى سياق ثقافى مؤشر لما يترتب على الأنوثة البيولوچية من تبعات اجتماعية خاصة بالأدوار المفروضة على النساء. حيث تلتفت الدراسات النسوية إلى صورة النساء والتنميط الذى يخضعن له فى الإعلام والثقافة السائدة. كما تنتقد النظرية النسوية صياغة نموذج الأنوثة باعتباره نقيضا للذكورة والرجولة، وهو ما يتضح لنا فى هذا الكتاب فى مقالة سيمون دى بوڤوار "المرأة باعتبارها الآخر".

أما مصطلح الذكورة فيستخدم هنا أيضا بمعناه الاجتماعى والثقافى، فلا يشير إلى جنس الرجل، بل إلى مجموعة الخصائص والأدوار الاجتماعية المفروضة على الرجل. وفى المجتمعات الذكورية يصبح النموذج الذكورى هو المعيار بينما ينظر إلى كل من لا يندرج تحت معالمه بالنقص؛ وبالتالى تعتبر المرأة فى وجهة نظر المجتمع ناقصة عن الرجل، مثلما ينظر إلى الرجل الذى لا يستعرض أو يتمسك بالأدوار الذكورية بأنه ناقص أو شاذ أو مخنث.

ومن اللافت للنظر أن ذلك الطرح النسوى الجديد لمفاهيم الذكورة والأنوثة وجد له مؤيدين من بين الرجال. فبالقدر نفسه الذى تتعرض فيه النساء المتمردات على الأدوار الاجتماعية والأنماط السلوكية للنساء للاتهام بالاسترجال، يتعرض الرجال ممن يخرجون عن مبادئ النمط الذكورى للاتهام بالتخنث. وفى هذا السياق يصبح "الاسترجال والشذوذ والتخنث أيضا مصطلحات ثقافية لا تعبر عن طبيعة بيولوچية بل تكشف عن سلوك خارج الأطر الاجتماعية والثقافية المحدودة. وعلى سبيل المثال يتحدث نويل بيرن فى هذا الكتاب عن نفسه كـ"ذكر مخنث" على سبيل رفض انتمائه لنموذج الرجولة المفروض على الرجال من حيث استهجان اندماجهم فى أدوار (منوطة بالنساء) كالعناية بالأطفال، وهو ما يراه بيرن مخالفا للمنطق الإنسانى ولكونه أبا يسعى إلى ممارسة أبوته بالكيفية التى يريدها لا طبقا لمعايير المجتمع الذى يعيش فيه.

وكثيراً ما يتم اتهام النساء أنفسهن بترسيخ نماذج الأنوثة السلبية حتى بما يتعارض مع مصالحهن. إلا أن التأمل فى أوضاع النساء يشير إلى مدى صعوبة خروج

الأفراد، رجالا ونساء، عن النسق الذى يفرضه المجتمع. فبالقدر نفسه الذى عبر به الرجال عن صعوبة تجاوز النموذج الذكورى تتعرض المرأة الخارجة عن النموذج الأنثوى إلى نبذ المجتمع لها وتوجيه مختلف التهم إليها. كما تخشى النساء الواعيات من تبعات اتخاذ قرار بمعارضة المجتمع وما قد يسببه من غربة واستبعاد وتهميش لهن، بخلاف ما قد يتعرضن له من اتهامات بالانحراف والخروج عن الأدب بل أحيانا بالجنون. ومن هنا يكون الأسهل والأسلم هو الرضوخ لما هو قائم ثم التحايل عليه ما أمكن ذلك، فى حين يتطلب التمرد قدراً كبيراً من الشجاعة والمخاطرة والثبات على الموقف.

ويعترض الفكر النسوى تماماً على اعتبار الاختلاف البيولوچى عائقًا فكريا أو إبداعيا فى حياة النساء مقارنة بالرجال، حيث يتم التأكيد على دور المجتمعات فى تقليص فرص النساء على مدار التاريخ الإنسانى، وتحديد أدوارهن فى الأعمال المنزلية. وفى هذا السياق أشير إلى النموذج الذى ساقته ڤرچينيا وولف فى كتابها "غرفة خاصة بها" حيث قارنت بين الفرص التى أتيحت لشيكسبير ليتفرغ للكتابة والإبداع فى الوقت الذى ربما لو افترضنا أن له أختا تتمتع بالقدر نفسه من الموهبة والعبقرية لما أتيحت لها إمكانية تعلم القراءة والكتابة ثم التفرغ للكتابة فى مجتمع يثقل النساء بالمهام المنزلية على حساب تطوير إمكاناتهن وقدراتهن الأخرى[1]، فالعائق الحقيقى هو حبس النساء فى أدوارهن التقليدية التى يحددها المجتمع. ومن هنا كانت أهمية "إثارة وعى" النساء بما يتعرضن له من قهر فى سبيل سعيهن من أجل التحرر.

وتقوم المفكرة النسوية جيردا ليرنر بتعريف "الوعى النسوى" باعتباره عملية تشتمل على عدة مراحل : ١ - وعى النساء بأنهن ينتمين إلى فئة تابعة وثانوية، ٢ - أن هذا الوضع ليس أمرا طبيعيا بل مفروضًا عليهن من المجتمع، لا بصورة شخصية بل بشكل جماعى باعتبارهن نساء، ٣ - ضرورة تضامن النساء للتخلص من الظلم

(١) Virginia Woolf, A Room of One's Own, (Harvest Books, 1989; c.1929), pp.46-49.

الواقع عليهن، ٤ - العمل فى سبيل صياغة رؤية بديلة للنظام الاجتماعى بما يضمن للمجتمع رجاله ونسائه الاستقلالية وحق تقرير المصير[1]. ومن هنا يكتسب التضامن النسوى قيمته باعتباره السبيل الذى يتعين على النساء تبنيه من أجل كشف أوجه التمييز ضدهن والعمل على تغيير المجتمع بما يحقق المساواة بين الجنسين. ومن الجدير بالذكر أن النظرية النسوية أخذت فى التطور فى الغرب منذ سبعينيات القرن العشرين، ولعل من أهم ما يميزها أنها من خلال تبنيها لوجهة نظر المرأة أمكن لها أن تجد لنفسها مساحات داخل المجالات المعرفية المختلفة. فكونها نظرية يقربها إلى مجال الفلسفة، إلا أن تفعيلها على مستوى المجتمع أدى إلى نشأة نظريات نسوية فى النقد الأدبى واللغة والقانون والسياسة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس، ذلك إلى جانب تداخلها مع نظريات أخرى خاصة بعلاقات القوى بين الفئات المختلفة على مستوى الطبقة والأصل العرقى واللون وفى سياق الإمبريالية والعالم الثالث والاستعمار.

وإذا كان المجال لم يتسع فى هذا الكتاب لتناول تلك الروافد المتنوعة للنظرية النسوية، فإن قيمته تتمثل فى تركيزه على تقديم عرض عام للأفكار الأساسية المكونة للفكر النسوى وخاصة فيما يتعلق بمفاهيم الذكورة والأنوثة بمعناها الاجتماعى والثقافى، لا على مستوى النقاش النظرى، بل من خلال عدد من القراءات الرئيسية، عبر عصور مختلفة، والتى تقدم مدخلا للمهتمين بالتعرف على المفاهيم وتطبيقاتها البحثية. كما يتميز هذا الكتاب بما يتضمنه من شهادات وتجارب ذاتية، والتى قد لا تعتبر فى العرف العام مصدراً موثقًا للمعرفة المتخصصة، إلا أنها تعبر عن روح الكتاب، حيث إن الفكر النسوى مبنى فى جوهره على مصداقية التجربة الذاتية وجوهريتها فى صياغة النظرية النسوية.

(١) Gerda Lerner, The Creation of Feminist Consciousness: From the Middle Ages to Eighteen-Seventy, (Oxford University Press, 1993), p.14.

مقدمة المترجم

هل تختلف النساء عن الرجال؟ يثير هذا التساؤل تناقضًا مهما، فقد تفضل الطبيعة المرأة.. ولكن كل المجتمعات تنحاز للرجل. المحررات المنحازات للمرأة يعتقدن أن أية اختلافات - بخلاف تلك الاختلافات التشريحية - إنما هى نتاج لحدوث التكيف بواسطة المجتمع، بينما يرى الرجال المعارضون أن الاختلافات تمليها الچينات الموجودة فى خلية كل منهما. أما العلماء فيرون أن الإنسان سواء المرأة أو الرجل هو نتيجة تفاعل معقد بين القوتين: البيئة والوراثة، وأن القول بأن بعض الفروق مكتسبة وبعضها وراثى قول زائف تمامًا، فهما وجهان لعملة واحدة، ومحاولة تمييز نوع عن الآخر تماثل أن تسأل: هل هذا القرش وجه أم ظهر؟

بعض الأبحاث الحديثة تنبئ عن احتمال وجود فروق فى تركيب المخ بين الجنسين تؤثر على الجهاز العصبى المركزى لكليهما، بما يجعل كلا منهما يستجيب بشكل مختلف للمؤثرات التى تأتيهم من جهازهم العصبى. فالبنات حديثات الولادة يظهرن استجابات مختلفة فى بعض المواقف، فهن ينفعلن بدرجة أعلى من الذكر للألم واللمس.

إن افتراض أن الرجال والنساء يفكرون ويسلكون بطرائق مختلفة،هى فكرة يقبلها الجميع، فأجيال من الكتاب والباحثين قد انتبهوا إلى هذه الفروق، وأشاروا إلى أن السلوك العدوانى والانفعال الأهوج تعد أمورًا طبيعية عند الذكور بينما تميل الإناث إلى المهام الاستثنائية. وتعترف الحركات النسائية ببعض الفروق، ولكنها ترفض فكرة أنها فطرية، وتؤكد على أن المجتمع وليست الطبيعة هو ما يعطى الرجال النزعة للسيادة، ويمنع النساء من الوصول إلى وظائف عليا أو سلطات أكبر.

إن محاولة إثبات أن الفروق السلوكية والفكرية ترجع إلى الاختلاف فى تركيب المخ، وأن النساء يبدين تفوقًا فى بعض الأمور عن الرجال لا يهدر بأى حال مشروعية طلب المساواة الاجتماعية بين الجنسين.

مقدمة المحررين

(١)

هناك مثل باكستاني يقول " مكان المرأة هو البيت أو القبر"، وتوجد مقولة أمريكية مماثلة فحواها أن المرأة يجب أن تظل "حافية وحامل فى المطبخ".

هذه التعبيرات الشائعة تكشف سلوكًا أصبحنا نسميه "عنصرية جنسية". ولكن مثل العديد من الكلمات والعبارات التى تتردد كثيرًا، فإن كلمة عنصرية جنسية أصبحت كليشيهًا وفقدت قوة معناها. ويرى الكثيرون من مؤلفى مقالات هذا الكتاب، أن العنصرية الجنسية هى المرادف للعنصرية العرقية. حيث إن العنصرية العرقية تشير إلى أن الاختلافات الفطرية بين الأعراف والسلالات تجعل أناسًا وأعراقًا متفوقين على أناس وأعراق أخرى، وبالتالى تبرر سوء معاملة وانتهاك حقوق العرق "الأدنى"، فالعندسرية الجنسية تعنى أن معاملة الاختلافات البيولوچية بين الرجال والنساء تجعل أحد الجنسين دائمًا وهم الرجال، متفوقين على النساء وبالتالى تبرر التمييز وسوء المعاملة للجنس "الأدنى". وعلى ذلك فإن العنصرية الجنسية هى طراز من الكراهية، والحط من قيمة مجموعة كاملة من الناس على أساس جنسهم فقط، وفى حالة العنصرية الجنسية، على أساس لون جلدهم. فى الحالتين، المجموعة "الأدنى" تعامل بوصفها طبقة أدنى. وحيث إن النصف الثانى من القرن الماضى قد شهد تناميا فى الإدراك والحساسية تجاه التمييز العرقى، فقد أصبحنا أكثر إدراكا لآثار التمييز الجنسى، وقادت الحركات النسائية معركة تعليم المجتمع لكى يعيد صياغة سلوكياته تجاه الجنس، وبالتالى فإن أدوار الرجال والنساء - وكذلك مفهومنا الخاص بالجنس -

يعد فى عملية تحول، وأين "مكان المرأة" وما دور الرجل فى المجتمع؟ يجيب هذا الكتاب عن تلك الأسئلة المعقدة والمثيرة، وأيضًا يناقش الموضوعات العديدة الأخرى المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين.

(٢)

هذه الموضوعات مناسبة لمن يقومون بدراسات عن المرأة أو أى شخص آخر يفكر ويبحث عن إجابة لأسئلة تتعلق بالدور الجنسى لكل من المرأة والرجل. والمقالات الواردة فى هذه المجموعة تشمل مجالاً واسعًا وتغطى العديد من الأمور المهمة. وعلى الرغم من أن معظم المقالات المختارة نشرت فى السنوات القليلة الماضية، فإن العديد منها يعد نصوصًا تاريخية توفر التواصل مع الماضى.

إذا كان لنا أن نفكر فى هذه المختارات كأصوات لنقاش ممتد عبر العصور عن طبيعة الرجال والنساء وأدوارهم الاجتماعية، فمن المسلم به أن أى نقاش بين مجموعة من المشاركين يتميز بأوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف، الإجماع والشقاق، المنازعات والجدال، المحاجاة المنطقية والدفاع العاطفى. ولكن النقاش فى حد ذاته يؤدى إلى الاستثارة ؛ لأنه يوقظ الإدراك ويثير العواطف الكامنة ويجبر الناس على المشاركة واتخاذ المواقف.

وإعطاء الأمثلة للأصوات المشتركة فى الحوار يعد مهما ولازمًا، لأنه لا يوفر فقط إطارًا للموضوع بوصفه نشاطًا إنسانيا عضويا دائمَ التغير (بدلا من البحث عن الحقيقة بالطريقة الثنائية : صواب أم خطأ) ولكنه يشير أيضا إلى الادعاء النسائى بأن عصر المؤسسات الاجتماعية والقانونية التى يتسيدها الذكر قد تآمرت على قهر النساء، ومنعهن من الاشتراك فى الحوارات الواسعة والمهمة جدا. والأكثر ملاءمة لغرضنا الحالى هو النظر إلى هذا الموضوع كنقاش متصل يمكن أن يعين الدارسين على اكتشاف أنهم أيضا لهم أصوات وأنهم أيضا يستطيعون المشاركة فى هذا النقاش، ولا يجب أن ترعبهم المقالات الموجودة فى هذا الكتاب لمجرد أنها كتبت بواسطة مؤلفين معروفين ومفكرين عظام. فنحن ندعوك أنت والدارسين للمشاركة فى النقاش.

(٣)

يبدأ الحوار فى الفصل الأول : "الدور الجنسى : الاختلاف والتغير" باستكشاف الفروق بين الرجال والنساء ومناظرة عن أصل هذه الاختلاف، أيضا تغير مفاهيم الأنوثة والرجولة.

الفصل الثانى : "دور النساء: منظورات تاريخية"، يقدم أصواتًا من الماضى، يتحدث عن الماضى، ويختبر وجهات النظر السابقة عن النساء وعن دورهن ووضعهن فى المجتمع.

الفصل الثالث : يختص باللغة الجنسية، ويحل طبيعة النمطية اللغوية الجنسية وآثارها.

وفى الفصل الرابع : "الدور الجنسي والمؤسسات الاجتماعية" يدور الحديث عن العلاقات بين الجنس، النظام التعليمى، البيت والأسرة.

االفصل الخامس : "الجنس والسياسة العامة" يقدم العديد من المجادلات الساخنة عن القيمة المناظرة، والمنشورات الإباحية والإجهاض.

الفصل السادس : يتناول "العنصرية الجنسية ووضع النساء" ويختبر التمييز الاقتصادى والعجز الاجتماعى.

الفصل السابع : "قراءات إضافية" يحتوى على مناقشة موضوعات لها صلة بالدراسات الخاصة بالدور الجنسى، عن معاملة المرأة فى بلدان الشرق الأوسط إلى الصلة بين العنصرية العرقية والأنوثة.

المقالات التى يحتويها هذا الكتاب تمثل عينة من حديث أكبر، ولكنها توضح، كما نأمل، العديد من الجوانب الحاسمة للمفاهيم الخاصة بالدور الجنسى وتقترح منظورات عديدة لها.

بعد قراءتك للمقالات الموجودة فى هذا الكتاب، نأمل أن تصبح مسروراً، ومتفائلا، ومستريحاً، بحيث تسارع وتضم صوتك إلى هذا الحديث المستمر عبر العصور.

الفصل الأول

الاختلافات بين الجنسين

عوامل اجتماعية أم خصائص بيولوچية؟

الذكر والأنثى .. الاختلافات بينهما

ڤيرچينيا آدمز

(١)

"إن ما جاء في سفر التكوين كان خطأ، ففي البدء خلق الله حواء". هذا ما ذكره چون موني عالم النفس الطبي بجامعة جونز هوبكنز، قاصداً بذلك أن الميل الأساسي للجنين البشري هو أن يصبح أنثى، فإذا ما أدى بچينات الغدد الجنسية إلى أن تصبح خصيتين وتفرزان الهرمونات الذكرية، انقلب الجنين ذكراً، وما لم يحدث ذلك أصبح الجنين أنثى. فكما لاحظ موني "يجب أن يضاف شيءٌ للحصول على ذكر، فغرض الطبيعة الأول أن تخلق أنثى".

فالطبيعة قد تفضل المرأة، ولكن كل المجتمعات تنحاز إلى الرجل. يثير هذا التناقض تساؤلاً مهماً - وتثيره أيضا ناشطات الحركة النسائية - وهو هل تختلف النساء جذرياً عن الرجال؟ الداعيات إلى تحرير المرأة يعتقدن أن أية اختلافات - بخلاف التشريحية - هي نتاج عملية التكيف بواسطة المجتمع، بينما الرأي المعارض هو: إن كل الاختلافات تمليها الچينات. أما بالنسبة إلى العلماء، فمشكلة الوراثة والبيئة قد تم تبسيطها أكثر من اللازم، فالإنسان ما هو إلا نتاج لتفاعل معقد بين الوراثة والبيئة. وكما يقرر كريستوفر أونستيد من جامعة أكسفورد فإن "القول بأن بعض الفروق مكتسب وبعضها الآخر وراثي قول زائف تماماً، فمحاولة تمييز هذا عن ذاك كمحاولة أن تسأل هل القرش هو الصورة أم الظهر؟".

يقرر فرانك بيتش من جامعة بيركلي أن "الاستعدادات قد تكون وراثية، أما الأطر السلوكية المعقدة فمن الأرجح أنها ليست كذلك".

إن فكرة وجود الاستعدادات الوراثية تقوم على ثلاثة أنواع من الأدلة، الأول هو الإجماع العالمي الذى أشارت إليه مرجريت مايد. فتقريباً وفى كل مكان، تعد الأم هى الراعية الأساسية للطفل، وسيادة الذكر وعدوانيته هما القاعدة.

بعض علماء الأجناس القديمة يعتقد أنه أحيانا ما وجدت مجتمعات تتسيدها النساء بينما يصر البعض الآخر على أن ذلك لم يحدث.

التصنيف طبقًا للجنس

إن هناك حقيقــة وهى أنه فى معظم السـلالات الرئيسية على الأرض، الذكور هم الذين يسودون ولهم وظيفة أساسية فى حمـاية الإناث والنسل. ويرى بعض الباحثين أن هذه الحقيقة صادقة تماماً حتى ولو تم تنشئة الصغار بعيداً عن البالغين، مما يشير إلى أنهم لم يتعلموا دورهم من مجتمعاتهم.

وعلى ذلك، فإن الفروق الجنسية فى السلوك تظهر مبكرًا قبل أن يستطيع أى طفل أن يدرك الاختلافات الواضحة بين والديه أو أن يعرف أيا من الأبوين عليه أن يقلده. وكما يقرر جيروم كاجان عالم النفس بجامعة هارفارد "أن من الإستراتيچيات المفيدة افتراض أنه كلما كان الفرق بين الجنسين مبكرًا فى الظهور، زادت فرصة أن يكون متأثرًا بعوامل بيولوچية".

إن الفروق الجسمية بين الجنسين يمكن تحديدها حتى قبل المولد، فقلب الجنين الأنثى ينبض عادة أسرع من الذكر، وتتشكل ملامح الإناث بسرعة أكبر. وكما يقول باريت بلاكنجتون "إن الإناث مخلوقات صنعت بصورة أفضل". وإذا كان الذكور أكثر قوة وأعظم احتمالا فإن ذلك لا يعد فارقا ذا أهمية فى مجتمع تكنولوجى.

(٢)

الأبحاث الحديثة تنبئ عن احتمال وجود فروق بين الجنسين فى المخ. فوفقًا لبعض التجارب، فإن وجود الهرمون الذكرى "التستوستيرون" فى الجنين ربما يؤدى إلى تحفيز المخ بصورة معينة قبل الولادة عن طريق تنظيم المراكز العصبية للجنين. هذا "التشكيل الجنسي" للجهاز العصبي المركزى للجنين قبل أن يولد يجعل الرجال والنساء يستجيبون بشكل مختلف للمنبهات التى تأتيهم عن طريقه، كما يعتقد جون جاجنون الباحث الاجتماعى، أن البنات حديثات الولادة يظهرن استجابات مختلفة فى بعض المواقف، فهن ينفعلن بدرجة أشد لإزاحة الغطاء من عليهن، وبسرعة أكبر للمس وللألم، إضافة لذلك، أظهرت التجارب أن البنات فى عمر الاثنى عشر أسبوعًا يحملقن لفترة أطول فى الصور الفوتوغرافية للوجوه عن الأشكال الهندسية. أما الأولاد فلا يظهرون تفضيلا عند ذلك العمر، رغم أنهم بمرور الوقت يبدون اهتمامًا أكبر بالأشكال الهندسية.

ويعترف كاجان بأهمية أثر البيئة، ولكنه وجد أن أثرها يكون أكبر على البنات من الأولاد، والأطفال الإناث اللاتى يمارسن التفاعل وجها لوجه مع أمهاتهن يكن أكثر التفاتا للوجوه عن الأطفال الإناث اللاتى لا تتبادل الأمهات معهن النظر كثيرًا. وبالنسبة إلى الأولاد، لا توجد أى علاقة فى ذلك الخصوص.

الأعضاء الداخلية

كما يرى معظم الفسيولوچيون، فإن هذا الاهتمام الأنثوى المبكر بالوجه الإنسانى يشير إلى أن النساء ربما لديهن حساسية فطرية أكبر بدرجة ما تجاه غيرهن من البشر، وهذا قد يفسر لماذا تحصل البنات على إشباع أكبر من العلاقات بالناس.

بعد الطفولة يظهر الجنسان اهتمامات مختلفة، يبدو أنها لا تنبع من الخبرة فحسب، فالمحلل النفسى إريك إريكسون وجد أن الأولاد والبنات عند عمر (١٠ إلى ١٢) سنة يستعملون الفراغ بطريقة مختلفة عندما يطلب منهم بناء أشكال بأدوات اللعب،

فالبنات عادة ما يبنين جداراً منخفضاً يكون أحيانا بمدخل أنيق، يحيط بمنظر داخلى هادئ، أما الأولاد فعادة ما يبنون أبراجًا بواجهات ذات مدافع، ومناظر داخلية أكثر حيوية. وقد اعترف إريكسون بأن أثر الثقافة قد يكون فاعلا ولكنه على اقتناع بأن ذلك لا يشرح بصورة كاملة طبيعة لعب الأطفال، فالفروق كما يقول، يبدو أنها تكون موازية للشكل الظاهرى للفروق فى الأعضاء التناسلية نفسها : ففى الذكر (المدفع) هو العضو الخارجى القابل للانتصاب، وبالنسبة إلى الأنثى (المدخل الأنيق) هو الفرج ذو المدخل الدهليزى والذى يتحول إلى بويضة ساكنة فى الانتظار.

وبالنسبة إلى الاستعداد كما هو أيضا للاهتمام، تتضح الفروق الجنسية مبكراً فى الحياة، فعلى الرغم من أن البنات يكن عادة أقل تكيفًا عن الأولاد للرياضيات والتفكير الفراغى، فهن يتعلمن العد، ويتكلمن أسرع من الذكر وبصورة أفضل. ويعتقد بعض العلماء أن التفوق الأنثوى فى سرعة الكلام قد يكون راجعًا لفروق مرتبطة بالنوع فيما يختص بالمخ. ويعتقد آخرون أن ذلك قد يرجع - كما ثبت بالملاحظة - إلى أن الأمهات يتحدثن لأطفالهن الإناث أكثر من الذكور. ولكن هل يؤدى حديث الأم إلى مثل هذا الاختلاف فى رد الفعل أم بسبب آخر؟ عالم النفس مايكل لويس، يعتقد بأن ذلك يرجع إلى أن الأمهات يملن إلى التحدث إلى البنات أكثر لأنهن وبسبب بيولوجى، يستجبن للكلام بصورة أفضل من الأولاد، وبالتالى ينبهن أمهاتهن للاستمرار فى الحديث إليهن.

(٣)

والدليل على أن سلوك الأبوين يؤثر فى القدرة على الكلام يأتى من الاختبارات التى أجراها كاجان على الأطفال الجواتيماليين الفقراء. فالأولاد أكثر قيمة من البنات ويتم التحدث إليهم أكثر ويصبحون أكثر قدرة على الكلام. فى الولايات المتحدة وجد عالم النفس دايفد ليفى، أن الأولاد المتميزين فى استخدام الكلمات وغير المتوافقين مع الأشكال، كانت أمهاتهم مسرفات فى حمايتهم. وقد لاحظت عالمة النفس إليزابيث بنج أن البنات المتفوقات فى الرياضيات والهنسة الفراغية عادة ما كانت أمهاتهن يتركنهن للعمل بمفردهن،

بينما البنات ذوات الطلاقة الكلامية كانت أمهاتهن مفرطات فى الثرثرة والضحك وكثيرات الشكوى. وإذا كانت البنات يتفوقن عن الأولاد فى الكلام، فإنهن عادة ما يأتين خلفهم فى حل المسائل التحليلية التى تتطلب الانتباه إلى التفاصيل. فالبنات عادة ما يفكرن بطريقة كلية، وينظرن إلى المسائل بصورة كلية بدلا من الالتفات إلى العناصر المفردة.

ففى اختبار "العصا والإطار" مثلا، يجلس الشخص فى غرفة مظلمة وأمامه عصا مضيئة داخل إطار مائل قليلا، ويطلب منه تحريك العصا إلى وضع رأسي. وبمجرد النظر يستطيع الأولاد وبسرعة فصل العصا عن الإطار وجعلها تقف رأسيا، أما البنات، فينخدعن بالإطار المائل، وعادة ما يجعلن العصا ليست فى الوضع الرأسى الصحيح ولكن فى وضع مواز لجوانب الإطار.

(٤)

فى تجربة أخرى، يطلب من الأطفال تجميع الصور ذات الصلة. الأولاد مرة أخرى يظهرون اهتمامًا بالتفاصيل، ويضعون معًا الصور التى تظهر أناسًا يرفعون ذراعا ويخفضون أخرى، أما البنات فيصنعن مجموعات عمل، مثلاً طبيب وممرضة وعربة إسعاف... إلخ.

مع كل هذه الفروق تتضح الآثار البيئية من حقيقة أن الأطفال الذين يفكرون بطريقة تحليلية عادة ما يتضح أن أمهاتهم كانوا يشجعونهم على المبادرات والاستكشافات، بينما الذين يفكرون بطريقة كلية كانوا مرتبطين بأمهاتهم بشدة. فى المجتمع الغربى يتم تحفيز الأولاد على حب المغامرة والاستكشاف، وهذا ليس بكافٍ ليكون دليلاً، ولكنه يمكن أن يكون تفسيراً لقدرة الذكور الواضحة على التفكير التخيلى.

فى اختبار الذكاء I.Q يسجل الذكور والإناث درجات متماثلة. وحيث إن هذا صحيح، فلماذا تبدو النساء أقل إبداعًا؟ الكثيرون من علماء الاجتماع مقتنعون بأن الأسباب ثقافية. فالنساء، كما يقولون، يتعلمن مبكرًا أن الإنجازات الأنثوية تأتى بقليل من العائد.

فى بعض الحالات لا تستطيع النساء أن يكن مبدعات نتيجة التمييز ضدهن. فى حالات أخرى فإن إبداع المرأة قـد يحول دونه الخـوف من عدم القبول، أو من الفشل أو حتى من النجـاح. فعلى العكس من الرجل، كما يقول كيجان، النساء يتدربن على أن يكن شديدات الحذر من الوقوع فى الخطأ.

بالنسبة إلى كثير من المحللين النفسيين يكمن التفسير فى حقيقة أن المرأة تمثل أكبر قوة إبداع على الإطلاق، وهى أنها تأتى بحياة جديدة إلى الوجود، وبالتالى، فإنها ليست مطالبة بأن تبدع فى مجالات أخرى، فالرجال كما تشير النظرية، مدفوعون لتعويض ما يبدو لهم إخفاقًا ونقيصة. فهم يشعرون – وإن كان ذلك بطريقة لا إرادية – بعدم قدرتهم على حمل الأطفال وإنجابهم، ويتضح ذلك فى الاعترافات التى يدلون بها على طاولة التحليل النفسى، وفى سلوك الأولاد الصغار الذين يلعبون بالعرائس ويسيرون وبطونهم للأمام مقلدين أمهاتهم الحوامل. وفى الديانات والأساطير أن الله قد خلق حواء بانتزاعها من أحد ضلوع آدم، وزيوس أنجب أثينا من رأسه، وعندما تم إحراق سيميل حتى الموت أمسك زيوس بديونيسس من جوف رحمها وخاطه بفخذه حتى يتمكن الجنين من النمو.

هناك أيضا فروق فى الشخصية بين الجنسين. ورغم عدم وجود صفة ما قاصرة على جنس دون الآخر، فهناك نساء يتجاوزن قدرات الرجال بالنسبة إلى بعض الأفعال التى من المفترض أنها ذكورية.

(٥)

وجد الباحثون بجامعة نيويورك أن الطفلة تتوقف عن الرضاعة من الزجاجة وتلتفت عندما يدخل أحد إلى الغرفة بينما لا يولى الطفل أى انتباه للزائر. ومن تجارب كيجان ما أظهر أن البنات عند عمر اثنى عشر شهراً يعتريهن الخوف إذا تركن وحدهن فى غرفة غريبة عليهن، ويندفعن إلى أمهاتهن، بينما الأولاد ينظرون إلى شىء

مثير ليفعلوه. وعند عمر أربعة أشهر، فإن عدد البنات اللاتى يبكين عند الخوف من وجودهن فى مكان غريب يكون ضعف ذلك الخاص بالأولاد. والأكثر من ذلك كما يقول كيجان، أن وجود فروق مماثلة بين الجنسين من القرود والبابون "يدفعنا إلى التفكير فى احتمال أن تكون بعض هذه الفروق النفسية بين الرجال والنساء ليست نتاجًا للخبرة فقط وإنما لفروق بيولوجية محددة".

سلبية الأنثى

كثير من الباحثين وجدوا تبعية أكبر وانقياداً أشد فى كل بنت صغيرة، واستقلالية ونشاطًا أكبر فى الأولاد. فعندما يوضع حائل لفصل الصغار عن أمهاتهم، يحاول الأولاد إسقاطه، بينما تبكى البنات فى عجز. لاشك فى أن التشجيع الأمومى – أو عدم التشجيع – لمثل هذا السلوك يلعب دوراً أساسيا فى تحديد شخصية البالغ. فمثلا، تنشط الأم استقلالية الذكر بأن تقذف باللعبة بعيداً عن ولدها الصغير وهى بذلك تشير إلى أنه عليه أن يبتعد عنها لكى يحصل على اللعبة.

وتشير الدراسات على الحيوانات إلى احتمال وجود عامل بيولوچى فى السلوك الأمومى : فأمهات قرود الريسس يعاقبن أطفالهن الذكور مبكرًا وبصورة أكثر تواترًا عن أطفالهن الإناث، كما يقمن بلمس أطفالهن الإناث أكثر ويكن أشد حماية لهن.

أما فيما يختص بالسؤال المثير للجدل الخاص بـ "سلبية الأنثى" فالمحللة النفسية هيلين دويتش تعتقد أن الفكرة أسىء فهمها حيث لا يوجد تعارض بين الأنوثة والعمل. فالذات يمكن أن تكون نشطة فى الرجال والنساء على السواء. فقط فى الحب والجنس تكون السلبية مناسبة للنساء. وكما ترى فالسلبية "ليست أكثر من أنها طراز من الاستحياء والدفء، ولا تعنى البلادة أو الخواء أو عدم الانفعال".

(٦)

ويثار الجدل أيضا عن أثر الهرمونات.. فالمتحيزات من النساء اللاتى لا يعترفن بأثر الهرمونات، يعترضن بشدة على الباحثين العلميين الذين يوافقون بالإجماع على أن الهرمونات تساعد فى تحديد كيف يشعر الناس وكيف يتصرفون، وحتى الآن لا يوجد سوى القليل من الدراسات عن الهرمونات الذكرية، ولكن العلماء يعتقدون أنهم سيكتشفون دورات هرمونية فى الرجال تنتج تغيرات دورية فى المزاج والسلوك. أما بالنسبة إلى النساء، فقد أشارت الدراسات إلى أن ٤٩٪ من النساء اللاتى يدخلن المستشفيات للعلاج أو الجراحة، ومعظم من يدخلن المستشفيات النفسية، و ٦٥٪ من الجرائم العنيفة بين السجينات - تحدث فى الأيام التى تسبق الحيض أو فى أثناء الحيض.

ففى مستشفى ورشستر بولاية ماساشوستس وجد العالم النفسى دونالد برفرمان أن هرمون الإستروجين الأنثوى يؤدى إلى شحذ الاستقبال الحسى. ويعتقد أن هذه الحساسية الزائدة قد تقود الكثيرات من النساء إلى الابتعاد عن المواقف المجهدة.

الثيران الشرسة

من الخصائص التى يبدو أنها تتأثر بالهرمونات: خاصية الميل إلى العدوان. ففى كل المجتمعات، يشير الباحثون إلى أن الأطفال الذكور يميلون إلى اللعب بطريقة أكثر عدوانية من الإناث. وبينما يعتقد العلماء بوجود عامل وراثى مسئول عن ذلك، فهم أيضا يلاحظون أن المجتمع يقوى هذا الفارق بقبوله لعدوانية الذكور وتشجيعه الإناث على التكيف. ويقترح البعض أن الإناث قد يكن عدوانيات بدرجة الرجال نفسها، ولكن بالكلمات لا بالأفعال.

البحث المؤكد للعلاقة بين الهرمونات والعدوانية لم يجر بعد. ولكن من الثابت أن الهرمون الأنثوى إستروجين يثبط العدوانية فى ذكور الحيوانات والإنسان. وقد ثبت

بالفعل أن الهرمون الذكرى أندروجين يؤثر على العدوانية فى الحيوانات، مثلا إزالة الخصيتين فى العجول تؤدى إلى إنتاج عجول مطيعة بدلا من الثيران الشرسة.

أثر الأندروجين (الهرمون الذكرى) يبدأ حتى قبل الولادة، فعند إعطائه لحيوانات حوامل، أدى الهرمون بالإناث حديثات الولادة إلى اللعب بطريقة أكثر عدوانية عن الإناث الطبيعية. هذه الحيوانات التى تم "تذكيرها" تظل عدوانية طوال حياتها، حتى ولو لم تتعرض للأندروجين ثانية. ووفقًا لآراء بعض الخبراء فإن هذا الأثر طويل البقاء للهرمونات التى تم إعطاؤها أو إفرازها قبل الولادة، قد يساعد فى شرح لماذا يكون الأولاد أكثر عدوانية من البنات حتى خلال أعوامهم الأولى عندما يبدو أن الجنسين يفرزان كميات متساوية من الهرمونات الذكرية والأنثوية. ويقترح آخرون أن القفزة فى إنتاج الهرمونات الذكرية عند البلوغ قد تكون أحد أسباب جنوح الأولاد البالغين، إلا أنه لا يوجد دليل على ذلك.

(٧)

هل سيأتى يوم يوجد فيه مجتمع بلا فروق بين الرجال والنساء فيما عدا الفروق التشريحية؟ لا يبدو ذلك محتملاً. فالفروق التشريحية، الولادة والجنس لا يمكن أن نتمنى محوها فى " لفتة من الإرادة المغرورة"،" كما لو أن الإرادة فى بحثها عن الإمكانية البشرية الكلية، تستطيع تضخيم نفسها بتجاوز ما هو ممكن" كما يقول چوزيف أولسون، أو كما تقول تريزا بنديك "التكوين يسبق الشخصية".

وكما يلاحظ مايكل لويس "أن الطبيعة كانت دائمًا هى الظالمة؛ فدور الأنثى بوصفها راعية كان النتيجة التطويرية لدورها البيولوچى فى الولادة والتغذية". لقد حررت زجاجة الرضاعة النساء من بعض المهام الخاصة بهذا الدور ولكن كما تقول جوديث ماربويك من جامعة متشيجان "المسئولية الكبيرة لتربية الطفل هى مسئولية المرأة" حتى فى الاتحاد السوفييتى، أو الكيبوتزات الإسرائيلية أو فى إسكندنافيا أو الصين". إضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن مهارات الأمومة يتم تعلمها، فمن الثابت أنه إذا نشأت

الحيوانات بمعزل عن بعضها ثم وضعت فى حجرة مع صغار النوع، فإن الإناث هى التى تذهب إلى الصغار وترعاهم.

"ربما يمكن تجاوز كل الفروق البيولوچية المعروفة بين الجنسين، وأن يصل المجتمع إلى مرحلة يكون فيها جنس الفرد لا أهمية له بالنسبة إلى أى نشاط مهم فيما عدا حمل الأطفال" كما يقول جيروم كاجان، "ولكن يجب أن نسأل ما إذا كان هذا المجتمع سوف يكون مشبعًا لأعضائه". فكما يرى التكامل والتعاون هو ما يجعل العلاقات ثابتة وسارة.

(٨)

ويوافق المحلل النفسي مارتن سيموندز على أن "السبب الأساسي للفشل الحتمى للجنس الواحد هو أنه في العملية الجنسية لابد للرجل من أن يكون مقتحمًا ولو برقة والمرأة أن تكون مستقبِلة، وتنجم المتاعب عندما يرى الرجل أن الاقتحام نوعٌ من العدوانية وترى المرأة أن الاستقبال استسلامٌ". فالجنس الواحد، كما يرى، سوف يكون "كارثة"؛ لأن الأطفال فى حاجة إلى أدوار يتشبهون بها ويتمردون عليها "لا يمكن أن تتشبه بشيء شائه وبلا ملامح. فالجنس الواحد سوف يكون بيئة جدباء وعقيم ولا يمكن لأى فرد أن ينمو فيها".

النقطة الحاسمة هى أن الفرق ليس نقصًا. فكما أوضح البيولوچى أونستيد ذلك بقوله : "كلنا بشر وبهذا المدلول فنحن متساوون، ولكننا، رغم ذلك، لسنا واحدًا"، ففى رأى چون مونى "يمكنك أن تكون عادلاً فقط إذا اعترفت بالفروق الحقيقية واحترمتها".

وعلى الرغم من عدم اتفاق العلماء على طبيعة هذه الفروق ومسبباتها، فلا جدال فى نقطتين : المجتمع يلعب دورًا هائلاً فى تشكيل الفروق، وإن معظم النساء قادرات على عمل ما يرون عمله. "فهن مثل الرجل يمتلكن القدرة"، كما يقول كاجان. "وتكون الفروق الطبيعية غير ذات أهمية". فبالنسبة إلى الرجل والمرأة "الفروق البيولوچية عديمة القيمة تمامًا". وكما يقرر دونالد لوند: " لا يوجد دليل على أن الرجال بدرجة أو بأخرى مؤهلون بالفروق الجنسية البيولوچية فقط لأداء المهام التى توكلها إليهم مجتمعاتنا الحالية".

المـــخ

مخ الذكر ومخ الأنثى

باميلا وانتروب

(١)

هل يختلف المخ بين المرأة والرجـل؟ فإذا كان هنـاك اختـلاف، هل يؤدى ذلك إلى اختلاف القدرات، المواهب والنقائص؟ الإجابة العلمية عن هذه الأسئلة يمكن أن تؤثر على المجتمع وعلى الثقافة وأن تصدم وتحير، وتسر وتحبط أو تمنح الثقة لأفراد من كلا الجنسين.

الآن توجد إجابة تلوح فى الأفق : نعم يختلف مخ الرجل عن مخ المرأة.

والافتراض القائل بأن الرجال والنساء يفكرون ويسلكون بطرق مختلفة يقبلها الجميع يعد صحيحًا، فأجيال من الكتاب وجهوا انتباههم إلى هذه الفروق مؤكدين مثلاً أن السلوك العدوانى والاندفاع الطائش أمران طبيعيان للذكور، بينما الاهتمامات الاستثنائية خاصة بالأنثى. حاليا تعترف الحركات النسائية ببعض الفروق، ولكنها ترفض فكرة أنها فطرية، وتؤكد أن المجتمع وليس الطبيعة هو ما يعطى الرجال النزعة للسيادة ويمنع النساء من الوصول إلى الدرجات الوظيفية الأعلى أو إلى قمة السلطة. ولكن إثبات أن الفروق السلوكية والفكرية بين الجنسين تضرب بجذورها فى تركيب المخ وأن النساء متفوقات فى بعض الأمور، والرجال فى أمور أخرى، لا يُهدر بأية درجة المطلب المشروع بالمساواة الاجتماعية. فبدلا من ذلك قد تكون النتيجة أفضل بعلاقات أكثر واقعية بين الجنسين.

(٢)

الدليل الذى يشير إلى وجود فروق بين مخ الذكر ومخ الأنثى يأتى من البحوث فى السلوك والكيمياء الحيوية والتشريح والفسيولوچيا العصبية. وأحدث هذه الدراسات تتناول الحقيقة السائدة منذ فترة طويلة، وهى أن المهارة فى الرياضيات أكثر شيوعًا بدرجة كبيرة بين الرجال عن النساء. وإذا كانت الحركات النسائية وكثير من العلماء يعارضون "التنميط الجنسى"، فإن علماء السيكولوچى مثل كاميلا بينبو وچوليان استانلى من جامعة جونز هوبكنز، يتحدون هذا التفسير بعد اختبارهم ٩٩٢٧ طالبًا بالمرحلتين السابعة والثامنة من ذوى الدرجة العالية فى اختبار I.Q للذكاء، فكما قالت بينبو فإن من بين الطلاب الذين سجلوا ٥٠٠ درجة أو أكثر فى الرياضيات كجزء من اختبار القدرات الدراسية، تفوق الأولاد على البنات بنسبة أكبر من اثنين إلى واحد. أى أن التفوق الذكورى فى الرياضيات كان واضحًا لدرجة أنه لابد من أن يكون فطريا.

هذه النتيجة تتبع العديد من الدراسات الحديثة التى تؤكد أن مخ الذكور يختلف تركيبيا عن مخ الإناث. فمن الهيبوثالاموس التى تعد مركز الرغبة الجنسية إلى القشرة المخية – مركز التفكير – وجد العلماء اختلافات مؤكدة بين الجنسين. أسباب هذه الاختلافات كما يقولون، هى هرمونات الجنس – الأندروچينات الذكورية والأستروچينات والبروجسترونات الأنثوية والتى تفرزها الغدد الجنسية، وتحمل عبر تدفق الدم إلى الأجزاء البعيدة من الجسم حيث تتحكم فى كل شىء، من الحيض إلى نمو الشعر فى الوجه وإلى كبر الأثداء.

والأساس فى كل الدراسات الخاصة بالجنس والمخ تلك الحقائق الخاصة بتحديد الجنس، فعندما يتم الحمل بطفل، فكل من الأبوين يشارك بكروموسوم جنس، إما X أو Y (يطلق عليها ذلك وفقًا لشكلها)، وعندما يتحد كروموسومان X يتكون فى الجنين مبيضان ويتطور إلى أنثى، أما اتحاد كروموسوم X مع Y ينتج عنه ذكر. فكروموسوم Y الذى يصنع بروتينًا يغلف الخلايا المبرمجة لكى تصبح مبيضين، يوجهها لتصبح خصيتين بدلا من ذلك. تقوم الخصيتان عند ذلك بإنتاج طرازين من الأندروچينات،

أحدهما يمتص ما كان سوف يصبح رحمًا والآخر وهو التستوستيرون، يؤدى إلى تكوين العضو الذكرى.

(٣)

على الرغم من أن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن تحديد الفروق الفسيولوچية بين أمخاخ الرجال وأمخاخ النساء، فإنهم يعتقدون أن تطور المخ يوازى ذلك الخاص بالأعضاء التناسلية. فإذا كان الجنين ذكرًا، فإن التستوستيرون الذى ينتج العضو الذكرى يؤدى أيضا إلى ذكورة نسيج الهيبوثالاموس وغيرها من التراكيب القريبة والعميقة بالمخ. والنتائج الحديثة تشير إلى أنه إذا كان الجنين أنثى، فإن هرمون الأستروجين الذى تفرزه المبايض يؤنث نسيج المخ فى القشرة المخية المحيطة. ولأن العلماء لا يستطيعون تشريح مخ الإنسان الحى، فقد وجدوا طرقًا وأساليب عبقرية لاختبار نظرياتهم. والأساليب الرئيسية هى :

السلوك الإنسانى

لإلقاء الضوء على جنس المخ، قامت چوليان إمبراتو ماكجنلى بجامعة كورنيل بدراسة ٣٨رجلاً فى بقعة منعزلة بجمهورية الدومنيكان، كانوا قد بدءوا حياتهم إناثًا نتيجة شذوذ وراثى. فقد ظلوا داخل المنزل يلعبون بالعرائس ويتعلمون الطهو بينما أقرانهم من الأولاد يلعبون ويتصارعون خارجه. وعند عمر ١١ سنة، عندما تبدأ صدور الفتيات الطبيعيات فى الكبر، لم يظهر هؤلاء الأطفال أى تغيير. ولكن عند عمر١٢ سنة بدأ معظمهم فى الإحساس بالرغبة الجنسية تجاه البنات. وعند البلوغ، خشنت أصواتهم، ونزلت الخصيتان وتضخم البظر ليصبح قضيبًا.

هؤلاء الأولاد جاءوا من عائلات تحمل چينًا طافرًا ويعد نادرًا، وهذا الچين يحرمهم من إنزيم ضرورى يجعل التستوستيرون يعمل فى داخل الأعضاء التناسلية. لهذا السبب، فإن أعضاءهم الجنسية الخارجية كانت تبدو أنثوية عند المولد، ولكن عند

البلوغ كانت أجسامهم باستطاعتها استعمال التستوستيرون فى غياب هذا الإنزيم، وأصبح واضحًا أنهم ذكور كما أوضحت الاختبارات الكروموسومية، وجميعهم فى ماعدا اثنين، يعيشون حاليًا مع نساء، ولهم أجساد وعضلات الرجال. وعلى الرغم من أنهم لا يستطيعون إنجاب أطفال فإنهم باستطاعتهم أداء المباشرة الجنسية. ولقد أخذوا أدوارًا ذكورية فى مجتمعهم. أما بالنسبة إلى العالم المحيط بهم، فكانوا يبدون كالبنات وهم صغار ولكن أجسامهم كانت فى الواقع غارقة بالتستوستيرون كما قالت ماكجنلى، واستنتجت أن سبب قدرتهم على التكيف بسهولة هو أن أجسام البنات كانت بداخلها مخ ذكر، طمسه التستوستيرون قبل الولادة ثم قام الإفراز الذى حدث عند البلوغ لهرمون التستوستيرون بتنشيطه.

(٤)

وعلى الرغم من أن ماكجنلى تشير إلى أن تركيب المخ يحدد السلوك، فإن عالمة أخرى تعتقد أن العكس قد يكون صحيحًا. فالعالمة آن بيترسن من جامعة شيكاغو، ترى أن التجارب يمكن أن "تذكِّر" أو "تؤنِّث" المخ. ففى دراسة حديثة، وجدت بيترسن أن الأولاد الذين يتميزون فى الألعاب الرياضية يتميزون أيضا فى التفكير الفراغى - وهى مهارة يحكمها النصف الأيمن من القشرة المخية وتتحدد بالقدرة على فهم الخرائط والمتاهات والأجسام السابحة فى الفضاء. وتقول بيترسن : "الرجل الرياضى يجب أن يكون مدركًا باستمرار لجسمه وللعديد من الأجسام الأخرى فى الفضاء. فمباراة يومية فى لعبة كرة السلة قد تنشط بميكانيكية غامضة، إفراز هرمونات تقوم بتحفيز مخ اللاعب للتفوق فى كرة السلة، ونفس التركيب المخى قد يستعمل فى التعامل مع المشاكل الفراغية".

وكما تقول بيترسن : "النساء أقل بكثير من الرجال فى مجال الرياضة"، وأقل تأقلمًا على الإدراك الفراغى. ومن المرجح أن يكون جزء من المشكلة يرجع إلى عدم استعدادهم للاشتراك فى الرياضة، أو أن بعض النساء ربما لم يطورن على الإطلاق المساحة من المخ المتخصصة فى التحكم الفراغى.

وتعتقد آنكى إثرهارد عالمة الغدد الصماء نفس ما تعتقده بيترسن، فى أن المجتمع يلعب دوراً مهما فى تشكيل السلوك الجنسى، ولكنها تقول "إن طرزاً معينة من السلوك الجنسى تتأثر بالهرمونات الجنسية". وقد أشارت آنكى إلى حالات لبنات كانت غددهن الأدرينالينية – نتيجة نقص إنزيمى– تنتج كميات كبيرة بصورة شاذة من الأندروچينات (الهرمونات الذكرية) وهن مازلن فى الرحم. وتقول: "وقد وجدنا أنهن كن مسترجلات بدرجة شديدة، فهن مرتبطات بمستقبلهن الوظيفى ويقضين القليل من الوقت فى اللعب بالعرائس، وقد علمنا أن الأولاد الذين يتعرضون قبل مولدهم لعقاقير تحتوى على جرعات كبيرة من هرمونات الأنوثة، يشتركون بدرجة أقل من غيرهم من الأولاد فى الأعمال العنيفة".

السلوك الحيوانى

تعترف إثرهارد بأن تمييز السعى لمستقبل وظيفى بأنه ذكورى، وأن اللعب بالعرائس على أنه أنثوى يبدو وكأنه تنميط. ولكى تعضد من دلائلها، قامت بمقارنة نتائج بحوثها بتلك الناتجة عن دراسات على الحيوانات التى يكون سلوكها الجنسى محدداً ومن السهل تعريفه.

علماء فسيولوچيا الحيوان قاموا بالربط بين الهرمونات والسلوك عام ١٨٤٩، عندما قام العالم الألمانى أرنولد بيرتهولد بخصى الديوك فوجد أنها توقفت عن الصراع مع غيرها من الديوك، وفقدت الاهتمام بجذب الدجاجات إليها. وعندما قام بزرع الخصيتين فى تجويف البطن للطيور المخصية، عادت الديوك للسلوك العدوانى مرة أخرى. وبملاحظة أن الخصيتين المزروعتين لم تشكلا أى اتصال بالجهاز العصبى للديوك، ولكن كونتا اتصالات بالجهاز الدورى، وقد وجد أن أثرها على السلوك ينتج عن مادة يحملها الدم، تم تحديدها فيما بعد على أنها الهرمون.

(٥)

في عام ١٩١٦ لاحظ فرانك ليلي، عالم الفسيولوچيا الكندى أن عجول الفريمارتن، والتي تكون أنثى من الناحية الوراثية (XX) والتي تسلك سلوك الذكر، دائمًا ما يكون لها توأم ذكر. واعتقد ليلي أن غدد إناث الفريمارتن قد تم "تذكيرها" في الرحم بواسطة الهرمونات التي أفرزتها خصيتا التوأم الذكر.

بدأ العلماء بعد ذلك باستخدام التستوستيرون لعمل "فريمارتن" من خنازير غينيا ومن الفئران والقرود والكلاب، وأعدوا المسرح لتجربة رائدة أجريت في جامعة كانساس عام ١٩٥٩ بواسطة الفسيولوچي وليام يونج وروبرت جوى، وكانت نتائج التجربة حسب قولهما كالآتي : "لقد قمنا بحقن خنازير غينيا بكميات كبيرة من التستوستيرون، وأدى ذلك إلى إنتاج سلالة من النسل كانت الإناث فيها لهن أعضاء تناسلية ذكرية بالإضافة إلى المبايض". وعندما أصبحت الإناث عند عمر ٩٠ يومًا، أزال الباحثان المبايض من بعضها وحقنوها بكميات إضافية من التستوستيرون، فبدأت الإناث المحقونة في السلوك مسلك الذكور باعتلاء غيرها من الإناث ومحاولة التسيد على المجموعة. وكما يقول جوى "أدركنا عندئذ أننا قد غيرنا جنس المخ لخنازير غينيا".

(٦)

استنتج الباحثان أن الهرمونات تؤثر في السلوك عن طريقين؛ فقبل المولد تطبع الهرمونات شفرة على المخ "مثلما يطبع الضوء صورة على الفيلم" كما يقول جوى، "لاحقا وعبر الحياة بطولها، تنشط الهرمونات الأخرى هذه الشفرة بما يؤدى إلى تغيير سلوك الحيوان وهي التي تحدد ما إذا كان الحيوان سيسلك مسلك الذكر أم مسلك الأنثى".

وقد أمضى جوى عشرين السنة الأخيرة في إثبات هذه النظرية مستخدمًا مجموعة كبيرة من الأنواع التي شملت قرود الريسس، وقد وجد أن القرود التي تم "تذكيرها" تظهر سلوكًا جنسيا يتراوح بين الذكورة والأنوثة، ويتوقف ذلك على كمية

التستوستيرون التى حقنت بها وهى لا تزال فى الرحم وعبر الحياة بأكملها. "وليس بذى قيمة كبيرة ما إذا كان هذا السلوك هو اللعب بخشونة أو اعتلاء الأقران فى القطيع أو محاولة تسيد المجموعة. فكل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى طول الفترة التى حقنت فيها بالتستوستيرون".

ربما كان الأكثر أهمية أن جوى وجد أنه بتغيير المعاملة يمكن إنتاج قرود تكون إناثًا فى شكل الجسم وذكورًا فى السلوك. ويعد هذا إثباتًا بأن "هذه الحيوانات تسلك سلوك الذكور بسبب الهرمونات الذكرية وليس بسبب مظهر الذكر الذى يجعل الحيوانات الأخرى تعاملها بوصفها ذكورًا".

ومخ قرد الريسس، مثله مثل المخ البشرى، له قشرة شديدة الإتقان والالتفاف، ولكن جوى يعتقد أن القرود يمكن مقارنتها بالبشر حتى نقطة معينة فقط، فعلى الرغم من أن البواعث البدائية متماثلة فيهما، فإن البشر تقودهم ثقافتهم بدرجة أكبر من القرود. "ولكن هناك حالات يكون فيها الناس أقل التزامًا بالثقافة، عندئذ يسلكون مسلكًا شديد الشبه بالقرود".

الكيمياء الحيوية

ويرجح علماء آخرون هذا الدليل بنتائج قوية من الكيمياء الحيوية. فلمعرفة أين تعمل هرمونات الجنس، قام دونالد بفاف من جامعة روكفلر، بحقن العديد من الحيوانات بهرمونات مشعة، وقام بفصل أمخاخها وتقطيع كل مخ إلى شرائح رقيقة ووضع كل شريحة على فيلم حساس للإشعاع ، ثم قام بعمل خرائط أظهرت أن الهرمونات تجمعت فى أماكن معينة، تسمى الآن مواقع الاستقبال، وتبين أنها متماثلة فى مواقعها فى أمخاخ الأنواع المختلفة من الأسماك إلى الفئران إلى قرود الريسس.

الموقع الرئيسى لعمل الهرمونات، كما قرر بفاف، هى غدة الهيبوثالاموس، وهى تركيب بدائى يوجد عند قاعدة عنق المخ. ويعد ذلك منطقيا، لأن الهيبوثالاموس هى مركز البواعث الجنسية والسلوك الجنسى الاقترانى. ولكن أكثر الأمور التى تبعث

على الحيرة هى المستقبلات التى وجدت فى الأميجدالا (جزء من المخ يقع فوق الأذنين)، فخلال الستينات من القرن الماضى، وجد الجراحون أنهم عند تدمير الأميجدالا، فإن المرضى المصابين بنوبات الهياج العدوانى يصبحون مسالمين تمامًا. وبالتالى ربما كانت الهرمونات الجنسية هى التى تتحكم فى السلوك العدوانى وكذلك فى الشعور بالخوف.

(٧)

وقد وجد بروس ماك إيوين من جامعة روكفلر أن هناك مستقبلات للأستروجين فى القشرة المخية للفئران، وهذه المستقبلات تختفى بعد ثلاثة أسابيع من الولادة، وعلى الرغم من أن القشرة المخية هى التى تتحكم فى التفكير والإدراك، فإن من غير المعروف أهمية هذه المستقبلات.

وهذه المستقبلات توجد فى المواقع نفسها فى أمخاخ الجنسين، ولكن لأن كل جنس له خليط مميز من الهرمونات، فإن أمخاخ الذكور تختلف فى أداء الوظائف عن أمخاخ الإناث. ولفك غموض كيفية عمل الهرمونات، قام ماك إيوين بتحليل كيميائى لمخ الفأر واكتشف أن مواقع الاستقبال تكون مخصصة لاستقبال الهرمون، فموقع التستوستيرون مثلا غير حساس للأستروجين، ربما كان الأهم أنه ما إن ترتبط الهرمونات المستقبلات حتى تغير تركيب المخ بتوجيه الخلايا العصبية لتخليق البروتينات ويكون ذلك مبكرًا وفى أول الحياة، حيث تبنى البروتينات الخلايا العصبية وتخلق بذلك تراكيب دائمة تظل موجودة فى مخ أحد الجنسين وليس فى مخ الجنس الآخر.

فى المراحل اللاحقة من الحياة، تنتج البروتينات المواد الكيماوية التى تمكّن إحدى الخلايا العصبية من الاتصال بخلية أخرى، فتنشأ بذلك الأنماط السلوكية الجنسية المختلفة، وتظل ثابتة على مر الزمن. وإذا كان ماك إيوين وبفاف لم يقوما بتشريح المخ البشرى، فإنهما يشعران بأنه يمكن تطبيق بعض من نتائجهما على البشر، فكما شرح بفاف، فإن التطور محافظ بطبيعته، "فعندما نشأت الأنواع الجديدة، لم تتخلص

الطبيعة تماماً من الأجزاء القديمة للمخ، وإنما أضافت إليه نظماً جديدة، فكل شخص لديه مخ سمكة فى العمق الداخلى لمخه، وخارج مخ السمكة يوجد مخ الزواحف الذى يماثل ذلك الذى يوجد فى السحالى، وحول مخ الزواحف يوجد مخ الثدييات ثم فى النهاية توجد القشرة المخية، مثلها فى الحيوانات مثل التى فى القرود والإنسان". ويعتقد ماك إيوين أن المستقبلات فى الهيبوثالاموس يبدو أن لها الآثار نفسها فى الإنسان والفئران، "الفرق هو أن الإنسان يمكنه تجاوز دوافعه البدائية بواسطة النبضات العصبية من القشرة المخية القوية".

التشريح

ظهر الدليل التشريحى على أن الهرمونات الجنسية تغير من تركيب المخ، نتيجة لأبحاث روجر جورسكى من جامعة كاليفورنيا، فباختياره لغدة الهيبوثالاموس فى الفئران وجد حزمة كبيرة من الخلايا العصبية فى الذكور وحزمة صغيرة فى الإناث، وبإعطاء الإناث هرمون تستوستيرون بعد الولادة بقليل تمكن من بناء حزمة كبيرة من الخلايا فى الهيبوثالاموس تشبه تلك الموجودة فى الذكور، وعند إخصاء الذكور بعد الولادة مباشرة انكمشت الحزمة الخلوية، ولا يعرف جورسكى ما يعنيه هذا التركيب الخلوى ولكنه يعتقد أنه يختلف باختلاف السلوك الجنسى.

(٨)

لا تقف الفروق التشريحية عند ذلك فقط، فقد اكتشف فرناندو نوتبوم من جامعة روكفلر أن هناك تجمعاً خلويا مخيا كبيراً فى ذكور طائر الكنارى وتجمعاً صغيراً فى الإناث، وهذه الخلايا ليست فى الحبل الشوكى أو فى الهيبوثالاموس وإنما فى المخ الأمامى – المعادل فى هذه الطيور للقشرة المخية فى الإنسان – التى تتحكم فى التفكير والإدراك.

الوظيفة التى قام نوتبوم بدراستها كانت "الأغنية"، فذكور طائر الكنارى هى فقط التى يمكنها الغناء، وكلما كانت الأغنية أكثر تعقيداً ازداد انجذاب الإناث للذكر، وهذا يستلزم طبعًا عملاً من المخ، كما يقول نوتبوم، "فمجموعة كبيرة من المقاطع يمكن أن تتداخل بشكل لا نهائى لتكوين ألحانٍ تكون فيها كل أغنية مميزة".

وإلى أن اكتشف نوتبوم التجمع الكبير من خلايا المخ فى الذكور والذى يتحكم فى عضلات الحنجرة - عضو الغناء - كان قد افترض أن أمخاخ الذكور وأمخاخ الإناث متطابقة تشريحيا، وقد وجد أنه إذا أعطى إناث الكنارى هرمون التستوستيرون قبل الفقس ومرة أخرى خلال البلوغ، يكون باستطاعتها تعلم الغناء، وعندما درس أمخاخ الإناث المغنية وجد أن تجمعات خلاياها قد نمت. ويقول نوتبوم: "الشىء المحير هو أن مساحة اللحن تكون متناسبة مع حجم التجمع الخلوى".

وقد وجد العلماء الدارسون للثدييات فروقًا تشريحية بين الجنسين فى أجزاء التفكير فى المخ، وتظهر هذه الفروق بوضوح فى القشرة المخية للفئران. وقد اكتشفت ماريان دايموند من جامعة كاليفورنيا أن النصف الأيمن من قشرة مخ الفئران الذكور يكون أكثر سُمكًا من النصف الأيسر، بينما فى الإناث يكون النصف الأيسر أكثر سمكًا من الأيمن، وعند إخصاء ذكور الفئران بعد الولادة أو عند إزالة المبايض من الإناث، أمكن تغيير هذا النمط، كما أنه بإعطاء الهرمونات الأنثوية للذكور والهرمونات الذكرية للإناث أثر أيضًا على سُمك القشـــرة. وكما تقول دياموند : "إن الهرمونات التى توجد خلال الحمل والهرمونات التى توجد فى حبوب منع الحمل كلها تؤثر فى تركيب القشرة المخية".

(٩)

وقد شجعت نتائج دياموند، العالمة جير ليفى بجامعة شيكاغو لأنها أتت بدلائل تشريحية قوية لنظريتها "فالقشرة المخية تختلف فى الرجال عن النساء، لأن الهرمونات تغير تنظيم نصفى المخ مبكراً فى بداية الحياة".

وتعد ليفى مسئولة عن كثير مما هو معروف الآن عن جانبى المخ الإنسانى، وعن اختلاف الأدوار التى يقوم بها النصف الأيمن والنصف الأيسر. وقد بدأت ليفى عملها فى هذا المجال فى ستينات القرن الماضى عندما كانت تقوم بدراسة المرضى المصابين "بالمخ المنقسم"، وكذلك المصابين بالصرع الذين تم فصل نصفى المخ لديهم كوسيلة للتحكم فى نوبات الهياج، وقد وجد الباحثون أن نصفى المخ باستطاعتهما العمل باستقلال عن بعضهما البعض، مثل عقلين فى رأس واحد؛ النصف الأيمن متخصص فى إدراك العلاقات الفراغية مثل تلك التى توجد فى الأبعاد والأحجام والهندسة الفراغية، والنصف الأيسر يتحكم فى اللغة وذاكرة الحفظ.

وقد وجدت ليفى أن هذه القدرات تختلف باختلاف الجنس. وباختبار تلو اختبار، تفوق الرجال فى علاقات الفراغ والنساء تفوقن فى اللغة. وقد شجعها ذلك على اختبار جانبى المخ فى الناس الطبيعيين، وركزت تجاربها على حقيقة معروفة جيدا وهى أن الضوء والصوت اللذين تستقبلهما العين والأذن فى جانب من الرأس ينتقلان إلى النصف المخى فى الجانب الآخر لكى يتم تجهيزهما.

(١٠)

وقد اكتشف أن الأذن اليمنى والعين اليمنى أكثر حساسية فى النساء، بينما الأذن اليسرى والعين اليسرى أكثر حساسية فى الرجال، واستنتجت من ذلك أن النصف الأيمن من المخ يتفوق فى المخ الذكرى والنصف الأيسر يتفوق فى الأنثوى.

أشارت ليفى إلى نتائج ديبورا وابر من جامعة هارفارد التى وجدت أن الأطفال الذين يبلغون مبكرًا عن العادة تكون أمخاخهم أقل جانبية - أى أن النصفين الأيمن والأيسر يشتركان معًا فى أداء مهام أكثر - ولأن البنات يصلن للبلوغ عادة قبل الأولاد بسنتين، فقد أدت هذه النتائج إلى التكهن بأن حزمة الأعصاب الرابطة بين نصفى المخ فى الإناث يكون الوقت المتاح لها لكى تصبح جانبية أو تبتعد عن بعضها أقصر خلال البلوغ. وإذا كان ذلك صحيحًا، كما تقول ليفى، فقد يساعد فى تفسير الحدس الأنثوى

وأيضا التفوق الذكرى فى الميكانيكا والرياضيات. فالنصفان المرتبطان بشدة من المخ الأنثوى ستكون قدرتهما على الاتصال أكثر بسرعة، وهى ميزة فى إدماج كل التفاصيل فى المواقف المعقدة، ولكن وفقًا لقول ليفى فهى ليست ميزة "عندما يصل الأمر إلى إدخال بعض التفاصيل القليلة ذات الصلة". عندما يكون هناك القليل من التداخل من النصف الأيسر من المخ، تقول ليفى إن الرجل يمكنه "استعمال النصف الأيمن بدقة أكبر فى فهم خريطة أو فى إيجاد شىء ثلاثى الأبعاد فى مجال ثنائى الأبعاد".

(١١)

كل ذلك يعيد ليفى مرة أخرى إلى الهرمونات، فهى تعتقد أن الإستروجين الذى يغير حجم القشرة المخية فى الفئران، يغير أيضا حجم القشرة المخية وتنظيمها فى الأفراد ذوى الشذوذات الهرمونية، مثل البنات اللاتى ينتجن زيادة من الأندروجينات والأولاد الذين تعرضوا لكميات كبيرة من الإستروجين قبل الولادة.

ومن الخطط الطموحة للبحوث المستقبلية، فحص الأمخاخ الحية واختبار الأطفال الذين تعرضت أمهاتهم لإجهادات عصيبة خلال الحمل. إن الكثير من العمل لا يزال فى الانتظار، فعلى الرغم من أن وجود فروق مادية بين أمخاخ الرجال وأمخاخ النساء هى حقيقة لا تقبل النقض، فإن ما ينجم عن ذلك لا يبدو واضحًا. فالموهبة فى الرياضيات، مثلا، ليست قاصرة على الرجال، وليست الموهبة فى اللغة قاصرة على النساء؛ إن هذه النتائج قد أدت إلى تغيير النظرة الحديثة للعالم ولكن تداعياتها قد يساء فهمها.

لقد ادعى جانتر دورنر الباحث فى الهرمونات بألمانيا، أن بإمكانه القضاء على المثلية الجنسية (الشذوذ الجنسى) فى الرجال بحقن النساء الحوامل بالتستوستيرون. وقد أقام نظريته على دراسات قام بها اثنان من الباحثين الأمريكيين عرضا فيها فئران حوامل للإجهاد بوضعها فى أقفاص صغيرة تحت الضوء الباهر. وقد وجدا أن النسل من الذكور كان لديه مستويات منخفضة من التستوستيرون خلال فترات معينة، وأدى إلى ظهور سلوك الشذوذ الجنسى. استنتج دورنر أن الإجهاد للإناث الحوامل

يغير أطر التفضيل الجنسي في أمخاخ نسلها من الذكور، وأن هذه النتائج تنطبق على البشر أيضا، واقترح أن يكون العلاج هو: التستوستيرون.

(١٢)

أفزعت استنتاجاته الباحثين الأمريكيين اللذين وافقاه على أن الأمهات المجهدات يلدن نسلا له سلوكيات شاذة، ولكنهما أشارا إلى أن دورنر قد شطح بعيداً. وقد ساندت الحكومة الألمانية أبحاث دورنر لمعارضتها الشديدة للمثلية الجنسية (الشذوذ الجنسي)، وخشي العلماء الأمريكان من أن تتاح له فرصة وضع أفكاره موضع التنفيذ على البشر.

ومن أمثلة سوء تفسير النتائج ذلك المقال الذى ظهر في مجلة "Commentry" في ديسمبر ١٩٨٠، والذى فسر آخر الأبحاث في المخ على أنها دعوة ضد حقوق المرأة مما أغضب بيترسن، التي قالت: "إن الكثيرين يصنعون من عملنا موجة من الإثارة السياسية، فهم يستخدمونه لكي يقولوا إن الحركة النسائية ستفشل، وإن النساء لسن مساويات للرجال بالفطرة. إن أبحاثنا لا تظهر أي شيء من هذا القبيل، هناك بالطبع أشياء يقوم بها الرجال بصورة أفضل وأشياء تقوم بها النساء بصورة أفضل، لكن من المهم جدا أن نفرق بين الاستدلالات والنتائج العلمية".

(١٣)

هذه النتائج يمكن أن تؤثر في مجالات الأنشطة الإنسانية المختلفة، مثل الفلسفة، وعلم النفس وفنون التربية والقانون والطب. فإذا كانت النساء أقل قدرة على البراعة في الرياضيات، فقد تكون هناك طرق أخرى للتدريس أو لقبول حقيقة أن الرياضيات ليست مهمة لوظائف معينة، مثلا اختبارات القدرات في الرياضيات استخدمت معياراً للقبول بكليات الحقوق حيث لا تستعمل الرياضيات إلا نادراً، واختبارات الهندسة الفراغية

تستخدم لتصنيف الأفراد لكل الحرف التى لا تتطلب مهارة تقنية. إذا استطاع العلماء إثبات أن هذه الاختبارات تعد غير ضرورية بالمرة للمرأة، فإن سياسات الاختيار للوظائف يمكن تغييرها. وبمرور الزمن، فإن علماء النفس والمحامين سيصبح لزامًا عليهم أن ينظروا إلى زبائنهم من الرجال والنساء فى ضوء معيار جديد، كما أن جراحى المخ أيضا يجب عليهم مراعاة جنس المريض قبل إجراء العملية، لأنه إذا كان نصفى المخ أكثر اتصالا فى النساء عن الرجال، فربما أمكن للمرأة أن تتحكم فى وظيفة الكلام عندما تتحدث بالنصف الذى تختاره، وبالتالى يمكن للجراحين الإحساس بالثقة بأن المرأة سوف تستعيد قدرتها على الكلام حتى لو تم تدمير مركز الكلام لديها، وبالتالى يمكنهم إجراء عملية جراحية قد يترددون فى إجرائها لرجل.

لقد أنجز الباحثون تقدما مذهلا فى عملهم البحثى عن الفروق بين الجنسين فى المخ، لكنها فى الحقيقة تعد مجرد بداية، فما زال عليهم الربط بين مئات النتائج التى توصلوا إليها من أبحاثهم فى دراسة المخ قبل أن يتمكنوا من تقديم تفسير كامل للإنسانية التى يتقاسمها الرجال والنساء.

الرجولة والأنوثة

برودنس ماكنتوش

(١)

كنت قد عقدت العزم على تنشئة أولادى متحررين وغير عدوانيين، بحيث تؤدى الحساسية والحنان إلى تلطيف ميولهم العدوانية، حيث يدعى علماء النفس أن جيل آبائهم قد حرم منهما.

لم أشتر مسدسات أو لعبًا للحرب (على الرغم من أن جدتهم فعلت ذلك)، بل كان لدى أولادى دمية مستعملة وبعض اللعب القديمة الأخرى حتى بيعت. اشتريت لهم أسطوانة مارلو توماس التى تقول "الحرية هى أن نكون أنا وأنت" وهى مجموعة من الأغنيات غير الجنسية، كما اشتريت لهم أيضا بعض القصص والقصائد، وقلت لهم مرات ومرات إنه لا يعد خطأً أن يبكوا أو يحسوا بالخوف أحيانا، كما أننى عارضت والدهم وأصررت على أنه لم يحن لهم بعد أن ينخرطوا فى المنافسات المنظمة لكرة القدم وهم لا يزالون فى المراحل الأولى من التعليم. إنهم يعرفون أن الأم والأب يقومان بغسل الأطباق وتغيير الحفاضات، ويغسلون السيارة فى عطلة الأحد، ويقصون الحشائش وينظفون الحديقة.. ويفعلون فى المنزل أشياء كثيرة أخرى. فى مثل هذه البيئة، من المؤكد أن ينشأ الأولاد متحررين. أصدقائى الذين لديهم بنات كانوا أكثر حماساً، فقد أعطوا بناتهم أسماء قوية باردة مشتركة بين الجنسين مثل: بلانكى، برايت، بروك، لندساى، بلير، وهى الأسماء المستعارة من عناوين شركات وليست من دعوات رقيقة لحفلات الزواج. هؤلاء الأمهات كن ينظرن إلى باربى (إحدى العرائس الشهيرة التى تلعب بها

البنات) بازدراء، واشترين بدلا منها ذلك لعباً من عربات النقل والسفن الحربية لتلعب بها البنات، وابتعدن عن الثياب الموشاة واخترن إلباس بناتهن أفرولات، واشتركن لهن في المطبوعات الخاصة بالجمعيات النسائية ليقرأن قصصاً مثل "أمي حاملة البريد" بدلاً من "الجمال النائم".

(٢)

عند حمام السباحة في ظهيرة أحد الأيام راقبت أما صغيرة السن شديدة التوقد والجمال تلبس بكيني رفيعًا جدا، وتشجع ابنتها قائلة "أنت قوية جدا يا بلانكي، اضربي بذراعيك أقوى من ذلك فتصبحين أقوى طفلة في هذا الحمام". عندما رش أولادي بلانكي بالماء على عينيها وجرت إلى أمها تشكو باكية، صاحت الأم" ارجعي إلى الحمام وهزي قبضتك هكذا، وقولي لهم إذا فعلتم ذلك ثانية معي سوف أفقأ عيونكم": بلا شك إن هذا جيل جديد من البنات الصغيرات الواثقات الطموحات، ولا يرضين أبدًا أن يكن خلف أي أحد.

إن من المبكر تقدير نتائج جهودنا، فإما أننا ننحدر للخلف أو أن الكثير مما يتعلمونه عن الدور الجنسي لا تستطيع بيئة البيت أن تتعامل معه.

وقد سمعت عن حيرة مماثلة من أم إحدى البنات "لقد اعتادت ابنتها أن تخبر كل شخص أنها ستصبح محامية عندما تكبر، مثل والدها، وكانت متمسكة جدا بهذه الرغبة منذ أن عرفت أنه لا أحد يلبس جونلة زرقاء قصيرة جدا في قاعة المحكمة".

أم أخرى لها ولدان وبنت وتعمل بوظيفة ناجحة جدا، لاحظت أن ابنتها، وبدون أي تشجيع خاص، تحافظ على غرفتها منظمة جدا وتحب أن تجهز المائدة، وتقوم بالاحتفاء بوالديها وإجلاسهما في الصفوف الأولى لمشاهدة المباريات بين الصغار، وخوفًا من أن تكون هذه البنت الصغيرة تتشرب النمط الجنس الأنثوي "الأولاد يلعبون والبنات يراقبون" قام والدها بالتأكيد لها أن باستطاعتها المشاركة عندما يصبح عمرها ثماني سنوات، فتنهدت "آه" وقالتها بفرحة واضحة "لم أعرف أن هناك مباريات للفتيات"!!

وفى مقالة بعنوان "أن تكونى امرأة"، تشير دوروثى ماك كيجان إلى الصعوبات التى كانت تواجه النساء الراغبات فى التعلم، وتقدم أمثلة بدءا بأول امرأة تحصل على درجة الدكتوراه فى إيطاليا عام ١٦٧٨، وتوضح المقالة أن مقومات تعلم النساء كانت تتمثل فى الآتى: العزوبية، والسعى إلى محو الأمية، والمقدرة الاقتصادية، والصبر على المضايقة والتهكم. أما سبيل المعرفة فكان فى الأساس هو التعليم الذاتى، حيث ظل حرمان النساء من التعليم الجامعى قائما حتى القرن التاسع عشر حين سمحت الجامعات الأمريكية وكل من أكسفورد وكيمبردج للنساء بالالتحاق للحصول على درجات علمية.

ويدور الفصل الخامس من الكتاب حول **"المرأة والمساواة"**، ويضم مجموعة من المقالات التى ترجع إلى بدايات الوعى بقضية المساواة بين الجنسين. حيث تتناول رائدة الفكر النسوى فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر، مارى ولستونكرافت، فى مقالتها "دفاع عن حقوق المرأة"، قضية تعليم النساء، مؤكدة أن إهمال تعليم الفتيات هو مصدر بؤسهن، حيث إن التعليم وتدريب العقول هو أساس استقلال الشخصية، ومن هنا يصبح تعليم النساء ضروريا فى المجتمع الأبوى كى لا تحكمهن سوى سلطة العقل لا سلطة الرجل. ودعت الكاتبة إلى انخراط النساء فى الحياة العامة، مؤكدة ضرورة تمثيل النساء فى البرلمان والحكومة، ذلك إلى جانب دعوة النساء إلى العمل فى التمريض والطب والولادة. وتطالب مارى ولستونكرافت الرجال بمساندة النساء فى سعيهن من أجل التحرر، وذلك لصالح المجتمع ككل، لأن "البؤس الذى ينتجه القهر لا يقتصر على المرأة فقط، ولكنه يصيب المجتمع ككل". وترى أن السبيل إلى ذلك هو توفير فرص متساوية بين الأولاد والبنات فى التعليم.

وحول "تبعية المرأة" ننتقل إلى القرن التاسع عشر فنستمع إلى صوت المفكر البريطانى جون ستيوارت ميل حيث ينتقد النظام الاجتماعى القائم على تبعية النساء للرجال مؤكدا أن "التبعية القانونية لأحد الجنسين للآخر هى خطأ فى حد ذاتها، وتعد من المعوقات الرئيسية للتقدم الإنسانى، وأنها يجب أن يستبدل بها قاعدة المساواة التامة". ويقارن ميل بين معارك التحرر السياسى وتحرر النساء، ويرى أن وضع الرعايا

فقرر أن يلتحق بفريق للهوكى ولكنه لم يستطع اللعب جيدا أيضا، فقد كان دائما ما يخالف القواعد، فقرر الخروج من الفريق والانضمام لفريق كرة القدم. كان هؤلاء الرجال أكثر "تفهما" له. كان ممتازًا في كرة القدم، وكان من أفضل اللاعبين، في ذلك العام كسب فريقه البطولة، وظل لباقى حياته سعيدا".

بعد قراءة هذه الفقرة طرأ على ذهنى أن هذه البنت الصغيرة سوف يتقدم دورها فى الحياة بواسطة مدرس ينفق القليل من الوقت فى "مشروع التدخل غير الجنسى"، ووقتا أطول في مهارات الكتابة، ولكن ذلك بالطبع ليس ما تهدف إليه الدراسة.

المنهج الذى تهدف إليه هو "التخلص من النظرة النمطية للجنس" وله أهداف واضحة لرفع درجة الإدراك. فمثلا عند تدريس موضوعات مثل "دور النساء فى التاريخ الأمريكى" و "مجتمعية النساء، وصورة النساء فى الإعلام" يتم تشجيع الشباب تحت العشرين لاختبار الإعلانات التلفزيونية والأوبرات والشكسبيريات ونقدها، ولكنى لم أستسغ أن يستخدم المؤلف روميو وچولييت كدراسة عن وضع المرأة؟ فالدراما فيها تبدو سطحية عندما تتعرض لمشكلات چولييت فى محاولة تحقيق الذات.

استنتاجات ذلك البرنامج لم أتفهمها، فقررت عدم الاستمرار فى القراءة عندما بدأ المؤلف يتحدث عن أطفال المستوى التاسع الذين كانوا "عند مستوى إدراك مناسب"، وإن كنت لم أحدد ما هو "موقفى الفسيوسيكولوچى". ولكن أعتقد أننى فهمت بعض الاستنتاجات التى وصل إليها الأطفال من عباراتهم التالية :

"البنات ذكيات".

"إذا قامت امرأة بقيادة عربة فى المكان الذى يعمل فيه أبى، سننسحب كلنا ونترك المكان".

"الأولاد لا يمكن أن يكونوا بنات بدينات".

(٤)

عند قراءة كتاب "كيف تربى بنات مستقلات وناجحات مهنيا" لكل من ريتا وكينث دن، نجد أن الفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب هى أن الصبية الصغار تتم تربيتهم بطريقة صحيحة باستمرار، وبدون أى تدخل مباشر من الأبوين، فى حين تميل البنات لمقاومة التوجيه، وأحياناً يرفضن قيم المجتمع. وقد رسم المؤلفان صورة قاتمة للأبوين اللذين يفشلان في توجيه بناتهما للنجاح المهنى، فالمرأة التى ترضى أن تبقى بالبيت مع الأطفال، بينما ينزل زوجها إلى معترك الحياة اليومية، لابد من أن يكون معامل ذكائها منخفضاً، فمن المتوقع أن ينغمس الزوج فى علاقة غرامية وما يتبع ذلك من احتمال هجره لزوجته، مما يترك الزوجة مكتئبة عاطفيا ومعتمدة ماليا على والديها.

أنا أؤيد أن تطور المرأة من قدراتها وتصبح أكثر اعتماداً على نفسها، ولكن تأييد المؤلفين للمرأة التى تمتهن مهنة ما كان زائداً بعض الشىء، لأن أى فرد يعمل بأية مهنة لفترة أطول من السنة، يعرف أن الوظيفة تفقد بريقها بمرور الوقت. والعمل بالبيت ليس أقل شأنا، لهذا السبب قد يكون عمل الأمهات بالبيت لا يقل أهمية عن عمل موظف البنك أو عمل المحامى، فكيف تكون مشكلة مهنية معينة مهمة أكثر من إرشاداتى للخادمة؟ كيف تكون قراءة كشف حساب تعادل تهدئة طفل عمره خمس سنوات، يحتضن قطته العرجاء ويريد أن يعرف لماذا يجب أن نفقد الأشياء التى نحبها؟!!

بالتأكيد، هناك قيمة فى تنشئة البنات ليصبحن معتمدات ماليا على أنفسهن، ولكن لا توجد حكمة كبيرة فى تعليم البنت أنها يجب أن تصل إلى النجاح المهنى وإلا فإن زواجها لن يدوم.

(٥)

فى الفصل الخاص "ماذا تفعل منذ ولادة طفلك حتى بلوغه سن الستين"، يوجه المؤلفان الآباء لتقديم العرائس للبنات إذا كانت هذه العرائس تمثل أشخاصاً بالغين أو مجموعات من الأشخاص. وألا تحاول أن تعطيها عروسة لطفلة مثلها، وإذا أعطى

شخص عروسة تمثل طفلة لابنتك وأعجبتها، فإن المؤلفان يوصيان بأن يسمح لها بالاحتفاظ بها دون أن تظهر أى مشاعر سلبية، ولكن لا تنزلق إلى احتضان العروسة ولا تشجع ابنتك على أن تفعل ذلك. عاملها كأى شيء آخر ووجه نظرها إلى لعب مفيدة أكثر.

فى مقالة ظهرت بمجلة "فوج" منذ سنتين، تستهجن الكاتبة التطرفات التى وصلنا إليها نتيجة تحررنا وتقول: "من اللطيف أن تكون قدمك جميلة وقد يكون مرغوباً أن تكون قدمك صغيرة ولكن من المؤلم والمهين حبس القدم، من الجيد أيضا أن تكون النساء مستقلات ومتحررات، قادرات على الاختيار والحركة واغتنام الفرص، ولكنى لست واثقة بأن الاندفاعة الحالية ضد الأمومة لن تكون طرازاً آخر من حبس القدم.. فنحن كنساء فكرنا فقط فى أنفسنا بحيث إنه عندما جاءت "القوات" لتحررنا اندفعنا إلى الشوارع تاركات أثمن وأغلى صفاتنا كما لو أنها تخص الأعداء". الكتاب عميق ويأخذ الوالدين خطوة خطوة عبر السنوات الأولى وحتى المدرسة الثانوية. وفى فصل "ماذا تفعل من عمر اثنين إلى خمس سنوات" الذى يناقش تطور واستخدام المفردات اللغوية، ينصح المؤلفان بتجنب استخدام الكلمات عديمة المعنى لوظائف الجسم. فالطفل الذى يصيح "أريد التبرز يا أمى" فى متجر يعج بالناس، من المرجح أنه سيعاقب عند عودته للمنزل لسوء ألفاظه، وأنا أعتقد أن الأسرة التى لا تستخدم بعض الألفاظ المرحة ليست بأسرة على الإطلاق.

لم يساعدنى هؤلاء التربويون كثيرا فى جهودى لتحرير أولادى. ورغم أننى أعتقد أن البنات الصغار لديهن حاليا فرصة أفضل فى الحصول على التدريبات الرياضية والاختبارات أمامهن أوسع، لكنى أعتقد أيضًا أننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن بمقدورنا تنشئة أولادنا الذكور والإناث بنفس الكيفية، فبعض الخصائص التى يولدون بها تقف حائلا ضد محاولات التغيير بواسطة الأبوين أو بالثقافة، فكيف يمكننى أن أشرح لماذا تجلس طفلة صغيرة على وسادة فى الحديقة وهى تختبر فرعًا من النجيل، فى حين أن ابنى وليام ينزع النجيل من جذوره ويأكله؟ قالت لى أم لبنات شديدات الذكاء والنشاط إنها وإلى أن ذهبت فى مخيم مع أسرة لها أولاد كانت تخشى من أن أولادى قد يكون لديهم مشكلة النشاط الزائد؟ أنا متأكدة من وجود الكثيرات من البنات

الصغيرات المشاغبات والصاخبات، ولكنى لا أتحدث هنا عن الشغب والصخب.. أنا أتحدث عن نوع من النشاط الجسمى الأولى الذى يجعل جدران بيتى تهتز فى الأيام الممطرة.. أنا أتحدث عن شىء يصعب شرحه، يجعل أولادى وهم يتشاجرون، يتراشقون بألفاظ تعد ضرباً من الجنون، مثل سأقطع أذنيك وسأسقط لك أسنانك..إلخ.

(٦)

وعلى الرغم من تشجيعى لهم، يرفض أولادى دعوة البنات الصغيرات لكى يلعبن معهم. أحيانا يترك بعض الأصدقاء بناتهم الصغار لدينا عندما يكون لديهم أمر عارض. دائما ما أثار فضولى أن أكتشف ما الذى يمكن أن تجدنه تلك الإناث الصغيرات مثيراً فى غرفة مليئة باللعب المختلفة.. كالجرارات والعربات وكرات القدم. ففى صباح أحد الأيام اقترح الأولاد أن تشترك معهم البنات فى لعبة بعربات الإطفاء مستخدمين مقطورات المطافئ الكبيرة الحمراء وسيارة الإسعاف، كانت البنات مسرورات وفى التو قررن أن تكون سيارة الإسعاف خاصة بهن وكانت لعبة عربات الإطفاء كما رأيتهم يلعبونها كثيراً من المرات مع مجموعة من الأولاد الصغار الآخرين هى أن تصنع ضجيجاً بقدر ما تستطيع مستخدما السرينة، وأن تجعل السيارات تصطدم ببعضها أو بأرجل كراسى غرفة المعيشة قبل أن تصل إلى هدفها.

كانت للبنات أفكار مختلفة، أدركت على أثرها لماذا اخترن عربة الإسعاف، فقد كان بها ثلاث من الدمى واحدة لسائق، وأخرى لمرضة وأخرى لرجل مريض يرقد على النقالة. وقد لاحظت أن أولادى يستخدمون عربة الإسعاف كثيرا ويهملون الدمى التى كانت دائما ثانوية بالنسبة إلى السباق المحموم بعربات المطافئ، فهى كانت مجرد أشياء ملقاة فى مؤخرة العربة، ومع تطور اللعب أخرجت البنات الدمى من العربة وجردهما من ملابسهما ثم ألبسنها لهما ثانية برقة، وتأكدن من جلوس كل منهما فى المكان المناسب لعملية الإنقاذ. ما إن تم إطفاء الحريق حتى طلبت الفتيات صندوقاً من الضمادات وقضين نصف الساعة التالية فى صنع سرير للمصاب وهن يؤكدن له أنه

سوف يصبح فى أفضل حال، الفتيات الصغيرات وأولادى شاهدوا على قناة "NBC" المسلسل الجوانب الخاصة برعاية المصابين فقط، بينما ركز الأولاد على عربة الإطفاء والقيادة السريعة وآلة التنبيه، وعلى الرغم من أننى كنت أود أن ينشأ أولادى وهم يعرفون أن ما بداخل رأس المرأة يعد أكثر أهمية عن مظهرها، لكنى تأكدت أنهم يتلقون إشارات مختلطة تجعلهم يتصرفون بشكل مختلف تماماً عن المتوقع، كما أننى أتعجب أيضا مما يأخذونه عن والدهم الذى يردد دائما كلمته المفضلة "النساء الجميلات يحكمن العالم". أعتقد أن ما نريده لهؤلاء الأولاد وللنساء اللاتى سيتزوجونهن يوماً ما هو الفهم العميق الذى يمكنهم من أن يكونوا مرنين ومقتنعين بأداء الأدوار الموكلة إليهم، بحيث يصبح عقد الزواج ليس مهما.

جاءنى أحد أولادى مرة بزهرتى سوسن بلون أرجوانى من الحديقة المجاورة وسألنى "هل أنت حقيقة أجمل أم فى العالم بأسره كما يقول أبى، وأن كل رجل يريد أن يتزوجك؟" فسكت ولم أجد ما أقوله، فهو كان يردد الكلمات التى يرددها والده أمامه، والتى لا يعيها بالمرة.

هل النساء بشر ؟

دوروثى سايرز

(١)

من العلامات المميزة لأية حركة، مهما كان نبل مقصدها، أن روادها يميلون نتيجة اندماجهم فى الإثارة إلى فقدان القدرة على رؤية ما هو واضح. ففى خضم الثورة على المقولة التاريخية "المرأة هى المخلوق الأضعف" أو المقولة الأكثر عدائية "المرأة مخلوق مقدس"، سمحنا لأنفسنا كما أعتقد بالجنوح إلى تأكيد أن "المرأة تماثل الرجل" دون أى تريث للتفكير فيما نعنيه بذلك. ما أشعر أننا يجب أن نعيه هو شيء واضح لدرجة أنه قد لا يلفت الانتباه على الإطلاق، وهو أنه ليست كل امرأة، بفضل جنسها، تماثل الرجل فى القوة والذكاء والحس الفنى والاتزان والمثابرة إلى آخره؛ ولكن المرأة هى إنسان عادى كالرجل ولها التفضيلات نفسها وحقوق الفرد نفسها فى الإحساس والتفضيلات. لكن ما يعد كريهًا لكل إنسان هو أن ينظر إليه دائما على أنه ينتمى إلى طبقة وليس شخصًا بذاته. بالطبع، من الضرورى أن يكون هناك تقسيم بكيفية ما للأغراض العملية، فلا ضرر من القول بأن النساء كطبقة لهن عظام أصغر من الرجال، ويرتدين ملابس أخف ولديهن شعرا أكثر على رءوسهن وأقل فى وجوههن، ويذهبن بمثابرة أكبر إلى الكنيسة وإلى دور السينما، وأنهن أكثر صبرًا مع الأطفال الصغار. بالطريقة نفسها، يمكن القول إن الأفراد أقوياء الجسم من كلا الجنسين، أفضل مزاجًا من ضعاف البنية،أو أن أساتذة الجامعات من كلا الجنسين أرقى فى حديثهم من العمال الزراعيين، أو أن الشيوعيين من كلا الجنسين أكثر شراسة من الفاشيين أو العكس. الذى يعد غير معقول ومثير هو افتراض أن كل أحاسيس الفرد وتفضيلاته تتحدد

بالطبقة التى ينتمى إليها. كان هذا هو الخطأ الشائع جدا الذى يقع فيه الرجال فيما يختص بالنساء، وهو الخطأ الذى تميل عضوات الحركة النسائية فى الوقوع فيه فيما يختص بأنفسهن.

خذ على سبيل المثال، القول المعتاد فى أن النساء هذه الأيام يملن إلى "تقليد ما يفعله الرجال". فى هذا القول، الكثير من الصدق والكثير من الهراء السخيف أيضا. فهناك العديد من الأعمال والمسرات التى احتفظ بها الرجال، فى زمن ماض لأنفسهم. ففى وقت ما، احتكر الرجال التعليم التقليدى. وعندما طالبت رائدات التعليم الجامعى بضرورة قبول النساء فى الجامعات، انطلقت الصيحة فى التو "لماذا تريد النساء دراسة أرسطو؟" الإجابة هى ليست كل النساء سوف يكن الأفضل فى دراسة أرسطو – وليس كما اعتقد لورد تنيسون أنهن سوف يكن زوجات أكثر توافقًا مع أزواجهن إذا درسن أرسطو – ولكن ببساطة "ما تريده النساء يعد غير مناسب إذا صاحت بعضهن أنا أريد أن أدرس أرسطو. فى الحقيقة، معظم النساء لا يولين لهذه الصيحة اهتمامًا، والكثيرون جدا من الطلاب الذكور تصفر وجوههم ويغشى عليهم من جرد التفكير فيه – ولكن أنا مثلا كامرأة غريبة الأطوار على النحو الذى أنا عليه، أود أن أدرس أرسطو وأؤكد أنه لا يوجد فى تكوينى الجسدى أو وظائف جسمى ما يمنعنى من معرفة كل شيء عنه".

(٢)

عندما نسمع أن النساء وضعن أيديهن مرة أخرى على شيء، كان فى السابق ميزة مطلقة للرجل، أعتقد أننا يجب أن نسأل أنفسنا: هل هذه سراويل أم أنها مشدات؟ هل هى شيء مفيد مريح ومناسب للإنسان بصفة عامة؟ أم أنها مجرد أشياء غير ضرورية لنا وقبيحة، وتبنيناها لمجرد امتلاك خصائص شخص آخر؟ بالنسبة إلى الوظائف والمهن، من غير المعقول أخذ وظيفة رجل لمجرد القول "لقد فعلتها المرأة". السبب المحترم الوحيد لأخذ أى عمل هى أنه عملك وأنك تريدين القيام به.

عند هذه النقطة قد يقول شخص ما: "نعم، هذا طيب للغاية، ولكنها المرأة هى التى تحاول أن تقلد الرجل. إنها هى المخلوق الأدنى. وكقاعدة إنك لا تجدين الرجال يحاولون أخذ وظائف النساء دائما منهن. إنهم لا يقتحمون طريقهم إلى الأمور المنزلية ويطردون النساء من أعمالهن المستحقة لهن".

بالتأكيد إنهن لا يحاولون فقط، فقد فعلوا ذلك بالفعل. فلنقبل إذن فكرة أن النساء يجب أن يتمسكن بوظائفهن الخاصة، تلك الوظائف التى قمن بها جيدا فى الأزمان الماضية قبل أن يبدأن فى الحديث عن التصويت وحقوق المرأة، ولنعد إلى العصور الوسطى ونسأل ما الذى كان سيعود علينا فى مقابل المزايا السياسية والتعليمية التى كان علينا أن ننبذها.

إنها قائمة طويلة من الوظائف التى كنا نقوم بها وتشمل كل صناعة الغزل، وصناعة الصباغة وصناعة النسيج وصناعة الأطعمة وكل صناعات التخمير والتقطير، وكل صناعات حفظ الأغذية وتعبئة الزجاجات وحفظ اللحوم. وأيضا حصة كبيرة فى إدارة العقارات، تلك كانت هى وظائف النساء، لكن ماذا أصبح وضعها؟ جميعها الآن تدار بمعرفة الرجال. جميل جدا القول بأن مكان النساء هو المنزل، ولكن الحضارة الحديثة أخذت كل هذه الأنشطة الممتعة والمربحة من المنزل حيث كانت النساء يقمن بها، وأعطتها للصناعات الضخمة التى يديرها وينظمها الرجال القائمون على رأس المصانع، حتى فتاة الحليب بغطاء رأسها البسيط ذهبت وحل محلها ميكانيكى من الرجال مسئول عن محلب آلى.

(٣)

الآن من المرجح جدا أن الرجال فى الصناعات الضخمة يؤدون هذه الأعمال أفضل مما كانت النساء يقمن به فى المنزل. ولكن تبقى حقيقة أن البيت أصبح يحتوى على أنشطة أقل إثارة مما اعتاد أن يحتويه. الأكثر من ذلك - حتى إذا حددنا وظائف النساء فى الحمل والرعاية الأسرية - فلا يوجد مكان كاف لها لفعل ذلك. من غير

المنطقى حث المرأة الحديثة على أن تكون لها دستة من الأطفال مثل جدتها. فأين ستضعهم عندما تأتى بهم؟ وأين الرجل الحديث الذى يريد أن ينشغل بهم؟ من الغباء التام أن تؤخذ من النساء وظائفهن التقليدية ثم نشكو من أنها تبحث عن وظائف جديدة. كل امرأة هى إنسانة – ولا يجب أن نكرر ذلك كثيرًا – والإنسان لابد له من وظيفة إذا لم يكن يراد به أن يصبح مصدرًا للإزعاج فى العالم.

أنا لا أشكو من أن صناعة العجين والخبز أصبحت فى أيدى الرجال إذا كانوا يستطيعون العجن والخبز بنفس كفاءة المرأة أو أفضل، فليفعلوا ذلك على الرحب والسعة، ولكن لا يمكنهم الحصول على ذلك بكلا السبيلين. فإذا كانوا سوف يتبنون القاعدة الرائعة فى أن الوظيفة يجب أن تؤدى بواسطة أفضل من يقوم بها، فلا بد من تطبيق هذه القاعدة بصورة عامة، فإذا كانت النساء مثلا أفضل من الرجال فى العمل المكتبى، إذا استطاعت أى امرأة أن تجعل من نفسها محامية من الطراز الأول أو طبيبة أو معمارية أو مهندسة فيجب أن يسمح لها بمزاولة ذلك. وإذا كنا سنتبع القاعدة التى تقضى بأن الوظيفة تأتى فى المرتبة الأولى من الأهمية، فعلينا أن نفتح مجالها لكل فرد، سواء كان رجلاً أو امرأة، بدينًا أو نحيفًا، قبيحًا أو جميلاً، فقط القادر على أداء الوظيفة بصورة أفضل من أى فرد آخر.

(٤)

إذا كان من الشائع التأكيد على أن الوظيفة بالنسبة إلى النساء، ليست لها الأولوية، فما الذى تفعله النساء بحريتهن؟ هل تفضل المرأة فعلا الوظيفة على البيت والأسرة؟ القليلات عليهن دائما أن يخترن، فى حين أن الرجل لا يتعرض للاختيار. إنه يحصل على الاثنين، إذا أراد البيت والأسرة فإن عليه عادة أن يحصل على الوظيفة أيضا إذا استطاع. وعلى الرغم من ذلك، كانت هناك نساء مثل الملكة إليزابيث والملكة بياتريس اللاتى كان عليهن الاختيار واخترن الوظيفة، وكن ناجحات فيها. ويوجد الكثير من الرجال الذين ضحوا بمستقبلهم الوظيفى من أجل النساء وبطريقة مأساوية، مثل

أنطونيو أو بارنل، فعندما يتعلق الأمر بالاختيار، فكل رجل أو امرأة يجب عليه أن يختار بصفته فرداً من الأسرة الإنسانية وأن يتحمل التبعات بصفته إنساناً.

أحيانا يسليني وأيضا يثيرني ما يقوله متعاطو الأخبار الذين أعلمونا، بنشوة المكتشف، أنهم قد سألوا عدداً من النساء العاملات اللاتي قلن لهم إنهن "سئمن الوظيفة ويوددن لو أنهن تركنها". وأين ذلك الإنسان الذى من وقت لآخر لا يصاب بالضجر من المكتب ولا يود أن يتركه؟ إن وقت عمل الإناث بالمكتب يضيع يوميا فى التعاطف مع زميل ساخط يود لو أنه غادر المكتب، ولا يوجد إنسان يحب العمل على الدوام. العمل معروف أنه لعنة، وإذا أحبت النساء العمل الدائم لا يكن بشرا على الإطلاق، ولأنهن بشر، فإنهن يحببن العمل كثيراً أو قليلاً كأى فرد آخر. هن يكرهن الغسيل والطهو الدائمين كما يكرهن الكتابة على الآلة الكاتبة بصورة دائمة أو الوقوف وراء ڤاترينات المحلات. والبعض يفضلن الكتابة على الآلة الكاتبة عن المسح، ولكن ذلك لا يعنى أنهن بوصفهن بشراً ليس مسموح لهن بأن يلعن الآلة الكاتبة عندما يردن ذلك. إن عدد الرجال الذين يلعنون الآلة الكاتبة يوميا لا يحصى، ولكن ذلك لا يعنى أنهم سيكونون أسعد حالاً لو قاموا بأعمال التطريز أو الحياكة، ولا حتى النساء!!

لقد تأكدت تماما من أن البعض من النساء يضع الوظيفة قبل أى اعتبار آخر. وإذا ذهبنا لأبعد من ذلك ستجد أن القليل جدا من الرجال هم الذين يفعلون ذلك أيضا، وفى الحقيقة، يوجد شخص واحد من كل ألف شخص يمارس وظيفته بشغف، ومن أجل الوظيفة فقط. الفرق هو أن هذا الشخص الواحد من الألف هو رجل تستطيع أن تقول ببساطة، إنه مولع جدا بوظيفته، أما إذا كانت امرأة فسنقول إنها شاذة.

(٥)

من المسلى بصورة استثنائية، أن نراقب المؤرخين وهم يربكون أنفسهم فيما يصفونه وبسرور بالغ "مشكلة" الملكة إليزابيث، لقد اخترعوا أكثر الأسباب تعقيداً ودهشة لنجاحها كملكة ولسياستها الأمومية والتغييبية فى الوقت نفسه، فهم يقولون

عنها "لقد كانت حمقاء"، "لقد كانت مريضة ومشوهة"، "لقد كانت رجلاً متنكراً"، "لقد كانت غامضة"، وبالتالى يجب أن يكون لها وضع "استثنائى" وغير عادى. حديثا فقط طرأ على فكر بعض المستنيرين أن هذا الوضع الاستثنائى قد يكون مقبولاً رغم كل شيء، فالملكة ربما كانت واحدة من النادرات من النساء اللاتى ولدن لأداء الوظيفة الصحيحة لها ووضعت هذه الوظيفة فى أول أولوياتها.

لقد كانت متعطشة للدماء وعديمة الأنوثة لتوقع حكم الإعدام على مارى ملكة اسكتلندا، ولنفس الأسباب التى جعلت الملك چورچ الخامس يقول "إذا لم يوافق مجلس اللوردات على قرار البرلمان فسوف يجد من يقومون بتمريره". لقد كانت بمعيار زمانها ملكة دستورية، وكانت تعرف أن هناك نقطة معينة لا يمكن للملك عندها أن يعارض البرلمان. فلأنها كانت امرأة استثنائية وتعرف تماماً مهام وظيفتها، فعلت ما كان ضروريا، ولو كانت امرأة عادية لترددت كثيراً قبل أن تتدخل بمبررات ضعيفة وغير حاسمة، أما بالنسبة إلى غموضها كأنثى فهى بالقطع ليست كذلك، لقد كانت امرأة عظيمة جدا، ومن بين أعظم إنجازاتها أنها أثبتت أن وظيفة "الملكة" هى إحدى الوظائف التى تلائم النموذج الصحيح للمرأة.

(٦)

هذا يعيدنا مرة أخرى إلى السؤال : ما الوظائف، إذا كان هناك منها تلك التى تعد وظائف نسائية؟ القليلون سوف يذهبون بعيداً للقول إن كل النساء مهيآت جيداً لكل وظائف الرجال. عندما يقول الناس ذلك، فإن ذلك سيكون مدعاة للحنق وأيضا للتحفظ، فمن الغباء الإصرار على أن هناك من النساء موسيقيات وعالمات رياضيات بما يعادل الرجال، فالحقيقة غير ذلك، القليلات من النساء يحدث أن يولدن بموهبة فى أعمال الميكانيكا، ولكن إذا وجدت واحدة منهن كذلك، فمن العبث إقناعها بأن تمارس شيئًا آخر، ما لا يجب أن نفعله هو أن نجادل بأن الظهور النادر لأنثى ذات موهبة ميكانيكية عبقرية يثبت أن النساء يستطعن أن يكن ميكانيكيات عبقريات إذا ما تعلمن. بالقطع لا، فهن لن يصبحن كذلك.

إن أكثر الأفكار جدلاً وتشوشاً ظهرت عند الفشل فى التفرقة بين المعرفة الخاصة والقدرة الخاصة، فهناك أسئلة خاصة يكون فيها ما يسمى: "وجهة نظر المرأة" شيئًا ذا قيمة لأنها تنطوى على معرفة خاصة. فالنساء يجب استشارتهن فى أشياء مثل تصميم البيوت والديكور المنزلى، لأنهن تحت الظروف الحالية عليهن أن يتعايشن مع ما بداخل المنزل ومكونات المطبخ، وبمقدورهن تقديم آراء خاصة فى الموضوع. بالمثل، بعضهن (لسن جميعًا) يعرفن عن الأطفال أكثر من معظم الرجال، وآراؤهن بصفتهن نساء لها قيمة. وبنفس الكيفية، آراء عمال المناجم لها قيمة بالنسبة إلى التنقيب عن الفحم، وآراء الأطباء لها قيمة بالنسبة إلى الأمراض. ولكن هناك أسئلة أخرى، مثل الأسئلة فى الأدب أو فى التمويل، تكون فيها "وجهة نظر المرأة" ليست بذات قيمة على الإطلاق. فرأى المرأة فى الأدب أو فى التمويل له قيمة فقط كرأى فردى بحت. أحيانا يطلب منى رؤساء تحرير بعض المجلات أن أقول شيئا عن كتابات القصص البوليسية "من وجهة نظر المرأة"، وأمام هذه الطلبات يمكن للمرء أن يقول للسائل "اذهب بعيدًا ولا تكن سخيفًا".

(٧)

لقد سألنى أحد الرجال ذات مرة بعد حفلة عشاء، كيف أتمكن من أن أضع فى كتبى سردًا لتلك الأحاديث الطبيعية بين الرجال، عندما يكون الحديث قاصراً عليهم؟ هل كنت، بأى حال عضوة فى عائلة كبيرة لها أصدقاء كثيرون من الرجال؟ وكان ردى عليه.. إننى على العكس، كنت طفلة وحيدة، ولم أر زوارًا لهم لأى ذكر من سنى لأتحدث إليه، إلى أن أصبحت فى الخامسة والعشرين من عمرى. "حسنًا" أجاب هو، "لم أكن أتوقع أن هناك امرأة (وكان يقصدنى)، تستطيع أن تجعل الحوار شديد الإقناع بهذه الصورة"، وكان ردى "إننى أستطيع التجاوب مع هذه المشكلة الصعبة بأننى أترك الرجال يتحدثون بحرية إلى أقصى مدى مستطاع وكأناس عاديين".

هذا الجانب من الموضوع يبدو أنه أدهش المتحدث الآخر، فلم يقل شيئا بعدها، وانسحب من أمامى وذهب ليهضمه على مهل، وأعتقد أنه يوم ما سوف يعرف أن النساء – مثلهن مثل الرجال – إذا كن وحدهن، سيتحدثن كنساء أيضا وفى أمور تخصهن.

إن الوقت قد حان لكي يصر كل منهما، رجلا كان أم امرأة على متطلباته بوصفه فرداً متميزاً. وإذا كان من الشائع القول بأن النساء ليس لديهن روح النضال، فقد أثبتنا أننا نملكها. وأقول للرجال لا تجعلونا نهرول دائما إلى ارتكاب الأخطاء المضادة، بالإصرار دائمًا على وجود "وجهة نظر" نسائية عدائية.

إن معارضة طبقة باستمرار لطبقة أخرى، الصغار ضد الكبار، الأغنياء ضد الفقراء، النساء ضد الرجال، يعنى انقسام أساس الدولة، وإذا زاد هذا الأساس عمقًا فلن يكون هناك علاج سوى الدكتاتورية. وإذا أردنا الحفاظ على الديمقراطية الحرة فلا يجب أن تقوم الدولة على أساس التطبيقات والتقسيمات، لأن ذلك سوف يؤدى إلى دولة شمولية، حيث لا يمكن للفرد أن يعمل أو يفكر إلا كعضو فى طبقته. يجب أن تقوم على الأفراد المتميزين، أى عليك وعلى.

مخاطر الأنوثة

لوسى جلبرت ،
ويولا ويستر

(١)

فى أحد الأيام، وعندما كانت ابنتى سارة بالكاد فى التاسعة من عمرها، تسللت إلى غرفة شقيقها وسحبت من درجه سروالاً داخليا وفانلة بيضاء، وأخذت الملابس إلى الحمام لتجربتها، وقفت بجوار الحوض ثم دفعت بشعرها إلى الخلف وربطته برباط مطاطى ونظرت محملقة فى المرآة لترى ما إذا كان وجهها يلائم الملابس الجديدة. ظنت أنها رأت رجلا أكثر رجولة فكان شيئًا مثيرًا ومربكا لها ولكن ذلك كان هو ما رغبت فيه. لقد بدت مثل الولد.

كانت فخورة بإنجازها، فذهبت إلى المطبخ لتعرض على أمها نتيجة تجربتها. لم تشاركها أمها فى الإثارة وأمرتها بخلع الملابس الداخلية لشقيقها، لكنها لم تكن متأكدة من الشىء الذى أغضب والدتها، ولكن كان من الواضح أنها فعلت شيئا خطأ. عادت سارة إلى حجرتها ولبست فانلة أخرى بألوان فاقعة جعلتها تبدو مثل الأولاد كثيرى الشغب، ثم عادت إلى أمها تبحث عن موافقتها، ولكن الأم لم يعجبها ذلك ولو قليلا. لم تقدر الأم هذا اللعب التخيلى ولم تكن لتشجعه. وقالت لها إن البنات لا يلبسن الملابس الداخلية للأولاد لأنهن لسن لديهن ما لدى الأولاد، وطبعًا لم تدرك سارة مغزى الفكاهة فى ذلك، وأحست بالهزيمة والهوان. لقد تعلمت أن الأولاد والبنات يجب أن يظلوا فى ملابسهم الخاصة وفى وضعهم الخاص.

ومثلمـا حدث مع سارة، يمكن للكثيرات منا أن يتذكرن أول مرة قمن فيها باختبار قـواعـد الذكـورة والأنوثـة بتـجـربة المـلابس والأدوات والسلوكـيـات الخـاصـة بالذكـور، والمتجاوزة للمألوف، أحيانا كان يقال لنا إننا لن نستطيع تغيير ما أرادته الطبيعة، وإننا يجب أن نبـقى بناتا أو صبِيـة، وأن نحـاول أن نجـد سعـادة فى الدور الجنسى الذى خلقنا من أجله. كانت تلك التصرفات تبدو ساذجة ولكنها لابد من أن تكون قد منحتنا ومـضـات عما أردنا معرفته ولكن كان علينا أن نقلع عنها إذا كان لنا أن ننجز المهمة الاجتماعية المؤهلين لها كما هى عليه. فإذا كسرنا قواعد السلوك الذكورى أو الأنثوى المناسب، تعرضنا لأخطار اختراق محرمات غير معلنة. فنحن فى حياتنا نتخلى مبكرًا عن رغبتنا فى القيام بتلك السذاجات، ونفقد فضولنا فى أن نصبح "الآخر"، فنصير "رجالا" أو "نساء" بخلاف الذى نحن عليه.

(٢)

إن تقسيم البشرية إلى مجموعتين جنسيتين : نساء ورجال، يبدأ عند مولدنا، فكل مولود ينسب إلى أحد المجموعتين وفقا لشكل أعضائه التناسلية وحجمها، وبمجرد أن يحدث ذلك، نصبح ما يريد النظام الاجتماعى لكل منا أن يكونه، أنثى أو ذكر. وعلى الرغم من أن الكثيرين يعتقدون أن الرجال والنساء هم التعبير الطبيعى للحتمية الوراثية، فالدور الجنسى هو نتاج التفكير الإنسانى والثقافة، والتشكيل الثقافى هو الذى يخلق "الطبيعة الحقيقية" لكل الأفراد، مثل الصفات الذاتية والقدرات والأفكار والمشاعر، كما أنها تقسم بين الجنسين ويتم التعرف عليها والتعبير عنها بالتوافق مع مجموعة معقدة من القواعد والطقوس التى نتعلمها. فالذكور والإناث البيولوچيون يتحولون بذلك بفعل الثقافة إلى رجال ونساء متكيفين اجتماعيا وسيكولوچيا ليمارسوا أدوارهم كذكـور أو إناث.

كما أن تقسيم المواليد إلى مجموعتين جنسيتين يقوم على أساس أن الرجال والنساء نوعان مختلفان من الكائنات، والتركيز على الفروق النوعية ينتج عنه اختلاف فى طريقة تنشئة الأولاد والبنات بأساليب وطرق مختلفة. وعلى الرغم من أن كل

مجموعة تعتقد أنها ناقصة وغير كاملة، فمن المفترض أنهما عندما يصبحان معًا فى صورة أزواج مختلفين جنسيا، سيصلان إلى استيعاب تلك الخصائص التى تجعلهما منفصلين. وحيث إن التمييز الأصلى للاثنين يضعهما فى تعارض، وإن التمييز الحاد يعمق الفروق بينهما، فإن هذا التمييز يتلاشى عند الجماع فقط، ففى تلك اللحظة يمكن لكل منهما إدراك الفوائد المفترضة من حقيقة أن كلا منهما يكمل الآخر.

(٣)

إن نظام الجنسين الذى تفرضه الثقافة يخلق خصائص جنسية متميزة لكل نوع، تشعره بالطبيعية رغم الخطوات الصعبة التي يجب أن يمر بها كل طفل لكي يصنف بأنه ذكر أو أنثى. وما إن يدرك كل منهما خصائصه المميزة، فإن هذه الخصائص تنعكس شعوريًا للداخل وتمارس بوصفها حقيقة حتمية وغير قابلة للتغيير. وبتقدم الأطفال اجتماعيا وسيكولوچيا، فإن آثار الفرق تتأكد وتتعمق فى العقل الواعى وغير الواعى، وينجم عن ذلك أن الدور الجنسى يظهر وكأنه نتيجة للتركيب الفطرى للشخصية وليس نتيجة للتكيف الاجتماعي وتشكيل الوجدان.

وبتقدم الرجال والنساء فى الحياة، يكون من المتوقع أن يقوموا بأداء الدور الجنسى المناسب لكل منهما. فوفقًا للافتراضات السيكولوچية التى تتعلق بالعلاقات الجنسية، يجب أن يكون الرجال ذكورا ليكونوا مناسبين لأنوثة النساء، ولأنهما منفصلان وغير متساويين، فإن نصفى البشرية يواجهان بعضهما أحيانًا بسلوكيات غير متوقعة نابعة من الفروق بينهما، لكن من النادر أن يفاجأ كل منهما بهذه السلوكيات، فالامتثال للقواعد النوعية عندما لا يكون أمام الأطفال يملى عليهم اختيار واحد لا يكون سوى الامتثال والطاعة، كما أن الرغبة فى أن يكون لديهم الطراز الصحيح من الأطفال، ذكورًا كانوا أم إناثًا، يدفع كلا من الوالدين إلى اتباع النظام الجنسى كما يعرفونه، وبالتالى تكون النتيجة إعادة تأكيد التقسيم الحالى لنظام الجنسين.

إن تقسيم مواليد العالم إلى ذكور وإناث، لا يجب أن يسبب أى مشاكل لو أن هناك مساواة اجتماعية بين الجنسين، وكانت الفروق مجرد ميزات خاصة ليست على

درجة من الأهمية. ولكن فى مجتمع أبوى فإن نظام الجنسين يتطلب كائنات ذكورية وكائنات أنثوية على الدرجة نفسها من المساواة، يمنح أحدهما السلطة الاجتماعية ولا يمنح الآخر شيئا. ولأن النساء يعتبرن عاجزات وينظر إليهن نظرة أدنى من الرجال، تدخل كل المواليد الإناث إلى العالم الذى لا يزال يحتقر الأنوثة ويلفها بالغموض، والنظام الاجتماعى والثقافى الذى ينظر إلى الثقافة نظرة دونية إذا قورنت بالرجولة، وينظر إلى النساء باعتبارهن أدنى من الرجال مرتبة، يخلق صداماً معقداً بين مصالح الجنسين واهتماماتهما.

(٤)

عادة ما ينشأ الأولاد والبنات طبقًا لقواعد النمط الثقافى لدورهم الجنسى، فلكى يصبحوا ما يفترض أن يكونوا عليه، لا يجب أن يسلكوا أى مسلك لا يتوافق مع الفكرة الرئيسية للرجولة والأنوثة. فخصائص الأنوثة يجب اقتلاعها من الأولاد، فى المقابل فإن خصائص الذكورة يجب اقتلاعها من البنات. ولإعادة تثبيت التقسيم الجنسى الحالى والمحافظة على الحدود الفاصلة التى تفصل الأولاد عن البنات، يجب أن يصبح كل قسم غير الذى عليه الآخر، فالأنوثة والذكورة يتم تصورهما فى الغالب متضادين، وبالتالى فإن كل طفل يجب أن يعرف طبيعة إمكانياته الإنسانية، والقواعد الثقافية التى تحكم الرجولة والأنوثة تعمل بنجاح عندما يكون بمقدور الأطفال التصريح بأنهم يعرفون ما هم عليه، ويسلكون بوصفهم ذكوراً أو إناثاً بطريقة مناسبة.

نموذج "الذكورة" الذى يقدم للولد الصغير يرتكز على الرؤية المثالية لسلطة الذكر، وغالبًا ما تريد الأمهات أن يصبح أولادهن أكثر نماذج الذكور قيمة، "الرجل الحقيقى". وعلى الرغم من أن هذا المثال لا يتوافق مع كل الرجال، فإن الفكرة تملى على الآباء مسلكًا آخر لتنشئة أولادهم، وهذا المسلك يمثل معياراً يقيس عليه الكثيرون من الرجال سلوكهم الخاص وسلوك غيرهم من الرجال، حتى الناضجين من الرجال الذين يرفضون نسبة كبيرة من صفات "النموذج" الرجولى يهتمون بإظهار جودة ما "يؤدونه" من صفات رجولية.

(٥)

يُظهر الرجل الحقيقي كل صفات الشخص القوي الواثق بنفسه بأن يكون طبيعيا ومنافساً، وفخوراً، وحاميا لذاته، وقويا جسمانيا ونشطًا جنسيا، فهذا السلوك كرجل حقيقي يعني الدفاع عن معتقداتك، أن تقول آراءك بتصميم وشجاعة في مواجهة خصومك، أو حتى في مواجهة من يعتقدون أنهم دائما على صواب، أن تناضل من أجل العدل، فالرجل الحقيقي يؤدي مهامه وهو على يقين من سلامة مقصده، كما أن الرجل الحقيقي يحمي من هم أضعف منه عند الضرورة، لأن من واجبه أن يستعمل قوته من أجل الآخرين، حتى ولو كان طاغية في استخدام سلطته، فإنه يكسب احترامًا عامًا لقوة إرادته. وهو قد لا يكون محبا للصراع، ولكنه يستمتع بالحرب، حيث تمكنه من إظهار براعته في استخدام القوة وحسم الصراع، وهي النتيجة الوحيدة المقبولة له.

إن الصراعات التي تتطلب قوة رجل حقيقي هو الذي يختارها بنفسه، فهو يؤكد بها رجولته وفروسيته وأيضًا استقلاليته في مواجهة الآخرين، وهو عادة ما يستنفر لأمور أشد وأكبر عندما يكون الصراع صعبًا، وهو يتحدث بثقة وهدوء عندما يشرح لماذا يجب أن يستخدم القوة ويؤدي المهام بطريقته الخاصة. وهو لا يشكو أبداً من حياته، فهو سعيد، ولأنه حي ولديه الكثير لإنجازه، وهو دائما ما يبدأ بالمبادرات ويظهر طاقة فائقة، ويقوم بكل الأمور بثقة كاملة بما لا يدع مجالاً للشك في أنه سوف ينجح. ولأنه واثق بنفسه، فهو لا يفهم أولئك الذين يميلون إلى المماطلة لعدم قدرتهم على اتخاذ القرار الصحيح. إنه رجل الفعل، القدير والمتوقد ذكاءً.

والرجل الحقيقي يتعلم الدروس بسرعة ويطبق ما يعرفه. ولأنه فخور ببراعته، فدائما ما يعتقد أنه من الغباء أن تكون متواضعًا بصورة مبالغ فيها، ولا يعتبر أن الحديث عن أحلامه وخططه ونجاحاته تباهيا. إنه يشق طريقه في الدنيا بتحديد إستراتيجيات ما يريده. هو يعرف أنه يجب عليه أن يتقدم معتمداً على نفسه ويتحرى أن يكون في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، هو يعرف من يمكنه مساعدته، ويكون صديقًا لمن يستحقون صداقته ويفكر في العلاقات الضرورية اللازمة لنجاح مراميه.

هو لا يخشى فرض نفسه، بأن يطلب الكثير من وقت الآخرين إذ يرى أنه لا بد له من ذلك، إذا لم ينجح فى البداية، يتمهل قليلا ثم ينطلق من جديد ليناضل. هو لا يفقد اليقين أو الثقة أبدًا وإنما يستمر فى النضال حتى يحسم الأمر تمامًا ولصالحه. الرجل الحقيقى لا ينسحب أبدًا مهما كانت الشدائد.

هو مع رفاقه صديق وفى، ولكن صداقته تقوم على الأنشطة المشتركة كالخروج معًا أو اللعب أو مشاهدة الرياضة أو إقامة المخيمات، أو المجادلة فى السياسة، أو فى الموضوعات العامة والقضايا المشتركة. عندما تكون هناك مشاكل مع زوجته أو أمه، لا يكشف عن ضيقه للرجال الآخرين حتى لا يشعر أمامهم بالضعف. فالرجال هم منافسوه وهو لا يريد أن يشعرهم بضعفه. هو يتفادى التعبير المفتوح عن مشاعره حتى لا يثير التساؤلات عن رزانته، كما يفضل أن يظل هادئًا مع رفاقه حتى يضمن ألا يساء فهم مشاعره، وبالرغم أن بإمكانه بل يجب أن يكون جادا ليظهر فى أوج قوته وسلطته أمام الآخرين، فهو يعرف أن الشخص الممتلئ حيوية وقوة يجب أيضًا أن يستمتع بإعجاب الغير. هو يحب التنزه ويحب أن يكون نشطًا بدنيا، وأن يمارس اللعب أو على الأقل يستمتع بمشاهدة الألعاب الرياضية، كما أن التزامه بالمسلك الرجولى يكون صريحًا وشديد الوضوح، هو يحب أقرانه من الرجال ويقضى معظم الوقت معهم، يتكلمون فى موضوعات رجولية ولكن ليس لوقت طويل، فعليه دائما أن يكون قويا وواثقًا ومتأكدا من أهدافه، حتى لو تشدد فى موافقه وعلا صوته واحتد، فإنه يمضى قدما فى طريقه، فالناس تتسامح فى هذه الهفوات لأن قوته وسلطته تكونان هما محل الاهتمام، بحيث تجعلان أكثر مستمعيه عنادًا يخشى الاستمرار فى عناده.

(٦)

الرجل الحقيقى يعتقد أن الحياة مباراة فيها الفائز وفيها الخاسر، الضعيف فيها هو الخاسر، والقوى يكسب. وقد تكون هذه الحقيقة ليست محبذة، لكنها حقيقة يجب الاعتراف بها، فهكذا يعمل المجتمع. فى هذا العالم الذى يأكل فيه السمك الكبير الأسماك الصغيرة،

يكون الهدف دائمًا هو الحصول على السلطة وبدون انتظار لإقرارها من أحد. ولكي تفوز دائمًا فمن الضروري أحيانًا أن تسلك مسلكًا غير أخلاقي وأن تخاطر، وأن تساوم إذا لزم الأمر، ولكن لا يجب أبدًا أن تخضع للهزيمة ولا أن تستسلم مطلقًا، فالاستسلام والسلبية هما سلوك أنثوي، والرجل الحقيقي يتجنب ذلك مهما كلفه الأمر، حتى إذا لم يستطع تجنب الخسارة فسوف يحظى بالاحترام لأنه بذل قصارى جهده لتفاديها. أما إذا استسلم فيكون ذلك بطريقة متعالية تجعله في هزيمته يبدو كما لو كان فائزًا.

الرجل الحقيقي يحب النساء ولكنه يفضل صحبة الرجال رغم أنه يشارك أحيانًا في المهاترات الذي يفتعلها الشاذون جنسيًا والذين هم ليسوا رجالاً "حقيقيين". هو دائما رقيق مع النساء ويصفهن بأنهن جذابات، ولكنه شديد الدقة في الاختيار ويهتم فقط بأكثرهن جاذبية. فهو يتفحص الحجرات المزدحمة بالنساء بنظرات سريعة باحثًا عن المرأة التي تلائمه. هو لا يجد معظم النساء مثيرات للاهتمام، وأحيانا يقيم علاقات مع اللاتي يكن لسن على درجة من الجمال حتى يجد نموذجه المفضل. هو يريد أن يكون أيضا جذابا في نظرهن، لذا فملبسه يتوافق مع أحدث الموديلات لأزياء الرجال، بحيث يمكن أن يبدو في أي مظهر... الأستاذ الجامعي أو رجل الأعمال أو الرياضي المنطلق، ولا يعتقد أبدًا أن شخصيته الحقيقية يمكن أن تتأثر بالزي الذي يلبسه، فهو لا تشغله الطريقة التي يظهر عليها.. ولكنه قد يقضي وقتًا طويلاً يفكر في ما يجب عليه أن يرتديه لكي يؤكد جوانب شخصيته الرجولية.

مما لا شك فيه أن النساء ضروريات لتأكيد الرجولة والقدرات الجنسية، فلا يوجد رجل حقيقي باستطاعته إثبات رجولته إذا لم يمارس الجنس مع النساء. وفي ثقافتنا الأبوية، الرجال العذاب ممتهنون ومشكوك في رجولتهم، فلكي يظهر الذكر رجولته، يجب عليه أن يستخدم لغة ممزوجة بإيحاءات جنسية في أحاديثه مع النساء، وعندما يقيم علاقة جنسية مع امرأة، يعرف أخيرًا وبدون أي شك أنه رجل.

ولكي ينجح في إثبات الرجولة، فإن الرجل الحقيقي يجب عليه دائمًا أن يقوم بمغامرات جنسية، وأن يكون قادرًا على أن يبدأ المغامرة وأن يقودها بمهارة الإغواء،

أن يشجع النساء بنعومة على الاستسلام ويؤكد ما يقلنه لأن أثمن ما لديهن هى، أنوثتهن وأحاسيسهن الجنسية.

الرجل الحقيقى ليس عليه أن يطلب الجنس من النساء، فالنساء يقدمن أنفسهن إليه بآهات الامتنان.

(٧)

عندما يصل الولد الصغير إلى بداية الرجولة ، كما تعرفها الثقافة، سيجد أنه نتيجة كونه رجلا يحس إحساسًا طيبًا عن نفسه وعمله،إنه يحس وكأنه الفائز، ففى مجتمع يشيده الذكر كمجتمعنا حيث قيمة الأولاد تعلو قيمة البنات والرجال قيمتهم تعلو قيمة النساء، يكبر الأولاد وهم معتقدون أنهم أكثر أهمية وأعلى قيمة وأفضل من البنات، وإذا كان باستطاعتهم اكتساب متطلبات الرجولة فسيظلون على اعتقادهم بأنهم الأعلى والأفضل.

كلما كان سلوك الرجل أكثر رجولة كان أكثر قربًا من تحقيق النموذج الكامل للذكر، ولكن المبالغة فى خصائص الرجولة يمكن أن تقود إلى التنامى المستمر للاهتمام الزائد بالنفس، وهذا يؤدى فى بعض الحالات إلى النرجسية وعدم الرغبة فى التعاطف مع الآخرين والتنافس غير الشريف، والميل على العدوان، وإذا كانت هذه الخصائص سلبية ومبالغا فيها وانتقاداً للرجولة بشكل يفوق المعقول، لكن نادراً ما ينتقد الرجال لكونهم أكثر رجولة من اللازم. فقط عندما يفرط الرجال فى استخدام القوة التى يكتسبونها بفضل جنسهم، ويصبحون مثل چاك السفاح، يبدأ المجتمع فى النظر إليهم نظرة سلبية، أما الرجال الأكثر تطرفًا الذين يفقدون التحكم فى عواطفهم فيكون مصيرهم الوقوع ضحايا لاستخدام امتيازاتهم كرجال فى مناوشات غير مفهومة. لكن الرجولة كما تحددها الثقافة وتتولد فى الأسرة، تجعل الرجال مطمئنين إلى أنهم إذا اتبعوا القواعد الصحيحة فلن يقعوا ضحايا على الإطلاق.

الرجولة الزائدة رغم عدم سهولة التعايش معها، لا تسيء إلى السمعة أبداً، بل تمنح الهيبة والاحترام، والأولاد الذين يتبعون قواعد الدور الجنسي يصبحون أكثر اعتدالاً ويمسكون بمقاليد السلطة والقوة المهيأة للرجال. وبينما كانت السلطة هى المكافأة على الأداء الجيد للرجولة، فعدم الاستحسان هو عادة مكافأة أداء دور الأنوثة جيداً. فالبنت التى تصبح "المرأة" التى من المفروض أن تكونها، تسعى إلى الحب لا السلطة، وأحياناً يكون النمط الأنثوى الثقافى جامداً وباعثاً إلى اغتراب الذات، وكذلك النمط الخاص بالرجولة، ولكن النتيجة مختلفة، فبرنامج تنشئة البنات يجب أن يجعل منهن نساءً، والنساء يجب أن يكن مختلفات عن الرجال، لكن من الغريب أنهن حتى قبل أن يعرفن القواعد، يحرمن من فرصة أن يصبحن مميزات كالأولاد.

(٨)

إن الرسالة الثقافية الموجهة للبنات والخاصة بالكيفية التى يجب أن يكن عليها، تشتمل على كل ما هو خاص بالنمط الأنثوى، فبينما تتحدد الرجولة فى برنامج متكامل لنجاحه، نجد أن برنامج الأنوثة ينطوى على مفهوم الاستسلام. فلكى تعتبر "أنثى"، يجب على الفتاة أن تكبت الخصائص الإيجابية التى تميز الرجولة. فكل بنت يجب أن تعكس المعتاد لما له قيمة بالنسبة إلى الرجال، يجب أن تتعلم أن تخرس قواها وفرديتها، وأن تحرم نفسها من احتياجاتها الخاصة، وتستجيب للعالم بأسلوب عاطفى غير تنافسى، ويجب أن تغتنم كل فرصة لإظهار أنها امرأة حقيقية، مرنة وغير أنانية، متعاونة وقادرة على مساعدة الآخرين، سلوكها الأنثوى يجب أن يتوافق مع النموذج الثقافى للأنوثة وهو المعيار الذى سوف يحكم عليها وفقا له كعضو مناسب "للأنوثة" التى تتسبب إليها.

عندما تمارس الأنوثة جيدا، تصبح البنات نساء يرغب الرجال فى حبهن وحمايتهن وإعزازهن ويتزوجونهن فى النهاية، والنساء اللاتى باستطاعتهن إثارة عواطف الرجال وخيالاتهم يجب أن يكن فائقات الأنوثة، جميلات وساحرات، بمقدورهن إغراء الرجال وجرهم إلى أماكنهن المفضلة، وعندما يطلبن مساعدة الذكر يطلبنها بصوت جميل مقنع.

(٩)

الأنوثة تخلق من المرأة "أميرة" وتجعلها مثيرة بدرجة كافية لتستحق اهتمام الرجل العاطفى الدافئ المشاعر، ويجب أن تكون رقيقة ولا تبدى قوتها بدرجة تنفر منها الرجال، تبدى ضعفها وكأنها لا تشعر بالأمان، تتحكم فى عواطفها لتظهر أمام الرجال وكأنها ليست قديرة ومشوشة وغير منطقية، وليس عندها قدرة على المنافسة، ويجب أن تشعر وكأنها أميرة تنتظر أن يتم اختيارها وإيقاظها بلمسة رقيقة من سيدها. المرأة التى تستطيع إظهار هذه الصورة من النموذج الأنثوى تحظى،بالاحترام الدائم من الرجال والغيرة الدائمة من النساء. ولكى تصبح النموذج الأمثل للثقافة، يجب أن تلتزم بالقواعد بقوة.

والمرأة "الأميرة" تنتظر من الرجال أن يحددوا لها دورها واتجاهها، وبأنها تعتمد عليهم، ولكى تشعر بأنها أنثى كاملة فإنها تجذب انتباههم بمدح رجولتهم، فهى تؤكد لهم أنها رقيقة بدرجة لا تسمح لها بالاعتماد على نفسها أو التجاوب مع الحقائق الخشنة للحياة اليومية. فإذا كانت إمكانيتها المادية لا تفى باحتياجاتها، فإنها تنتظر من صديقها أو زوجها أن يقوم بترتيب الأمور بالطريقة الصحيحة. هى تنزعج بسهولة إذا كانت الأمور لا تسير وفقًا لما تريده، ولكنها لا تعرف كيف تتولى تسييرها. ولأنها ضعيفة فإنها تتوقع من الآخرين القيام بالعمل من أجلها، وجعل الأمور أسهل بدرجة تسمح بأن تؤديها دون أن تتسخ يداها.

ولكى تجعل الرجال يتولون رعايتها تظهر "الأميرة" عجزها وعدم قدرتها، لكى تدافع عن رقتها وأنوثتها وبإغماض عينيها وهز كتفيها، تسخر من كونها عديمة المقدرة، فى حين أنها تكون تبحث عن رجل يقول لها ماذا تفعل. ولأنها تخشى من أن تظهر بمظهر المكتفية ذاتيا أو ليست فى حاجة إلى الرجال، فعادة ما تستسلم بسهولة وتدع الآخرين يعرضون عليها المساعدة بينما تكون هى متجهمة طوال الوقت.

وقد يكون سلوك الأميرة غير فعال أيضًا، فرغم أنها تحاول إجادة استعمال التكنولوجيا الحديثة فى المكتب، فإنها تجد أنه واجب ثقيل عليها، فهى ترفض قراءة

تعليمات التشغيل أو تقرأها على مضض، وعندما يتواعد معها الأصدقاء على العشاء، فإنها تأتى دائما متأخرة مبررة ذلك بأنها تأخرت فى ارتداء ملابسها، أو أنها كان عليها الانتهاء من غسيل الأطباق قبل أن تتراكم، أى أنها لا يمكنها إنجاز ما تقوم به من أعمال، ولأنها مشوشة ومضطربة، لا تستطيع "الأميرة" أن تجمع الأمور معًا بشكل منظم.

وعندما تواجه بالنقد وباللغط الذى أثارته، تخفض رأسها وتهمس بأنها آسفة أو بأنها سوف لا تفعل ذلك مستقبلاً. هى تظهر الخوف من الذين هم فى السلطة وتبدى رغبتها فى الامتثال لأوامرهم. وإذا أراد منها رئيسها أن تتأخر بعض الوقت لكى تنتهى من بعض الأعمال الخاصة بمشروعه، تجد أنها من المستحيل أن ترفض ذلك، ولكنها تغضب ولا تبدى غضبها له، فهى تريد أن تجعله راضيًا، ولكن الأكثر من ذلك أنها لا تستطيع تحمل أن يغضب منها أحد وبالتالى تمتص غضبها وتوافقه على مطلبه. هى تعتقد أن اللباقة والسلوك الحسن مع الرجال سوف يجعلها تتفادى سخطهم وعدم رضاهم، وهى جد بارعة فى التعامل بالأسلوب غير المباشر، لأن كثرة السؤال والطلب ليسا من الأمور الأنثوية، ويجلبان لها الضيق وعدم الإحساس بالراحة. هى تجاهد لإظهار جمالها وفتنتها، ولكن بشىء من الحشمة بأن تلبس أزياءً تظهر أنوثتها ورقتها على أمل أن تفلح فى اجتذاب الرجل الذى تريده، فهى تبدى تمنعًا ولكن مع إمكانية الاقتراب منها. وحيث إنها ليس من المفروض أن تفى بما تعبر به بوضعها الجنسى المثير، ولكن يجب عليها الحذر، فلا تقدم على الإتيان بأفعال لها دلالات جنسية مباشرة تهدد صورتها، وتكون "الأميرة" جريئة ولكن بحذر، فهى تحمى نفسها بأن تلعب دور الساذجة مع بعض اللمسات الشيطانية الصغيرة، وعلى الرغم من أنها ترفض الإقرار بأنها تفهم أن ما يريده منها الرجال فى النهاية هو الجنس، فإنها على استعداد دائما للغزل. فى النهاية، لا يجب أن يؤخذ ذكاؤها على محمل الجد، فبينما يمكنها أن تكون لعوبًا يجب أن تظل بعيداً عن الجنس حتى لا يفهم الرجال أنها امرأة لعوب.

وتكون "الأميرة" دائمًا هى المرأة المرغوبة بدرجة كبيرة فى الثقافة الأبوية، والتى تنتظر الرجل ليجعل لحياتها معنى. وعلى الرغم من أن الكثيرات حاولن باستماتة

أن يصبحن نموذج "الأميرة" وهو المسعى الصعب إن لم يكن المستحيل، فقد نجحت القليلات فى الوصول إليه، حيث من الصعب أن تقف المرأة مظهرة عجزها فى حين أن الأنوثة تتطلب عملاً كثيراً.

(١٠)

الأنوثة حالة انفصام فى الشخصية، حيث فى الوقت الذى تمثل فيه المرأة دور العجز والسلبية، يجب أن تقوم بأعمال تقدم فيها المساعدة وتبدى فيها قدرة الاحتمال، كمثل أمهاتنا، يجب أن تكون لنا القدرة على العطاء إلى أن يؤلمنا ذلك. وبالإضافة إلى تأكيد الأنوثة، عليها أن تصبح المرأة العاملة التى لا تتعب، والصديقة التى تعطى كل شىء، وكذلك المرأة التى ترعى الآخرين بأن تضع نفسها فى خدمتهم، وتجعل من حياة من يستحق رعايتها أفضل من حياتها. وبالتالى، فالأميرة يجب أن تخلع كل ما هو براق وتلبس مريلة المطبخ لتصبح الصورة الكاملة للمرأة الحقيقية؛ الفتاة الطيبة التى تحظى بتقدير الآخرين.

فالفتاة الطيبة تمارس دورها وفى ذهنها صورة القديسة، فهى تواجه مآسى الحياة وتقف بصمود بجانب من يحتاجون مساعدتها، وهى امرأة، قد لا تستطيع التحكم فى مسار أحداث الحياة، ولكنها يجب أن تكون مستعدة لأن تلتزم الصمت وتتحمل المشاق وتستمر فى الحياة. إن صبرها وأمنياتها الطيبة سوف يجعلانها فى مواجهة الصعاب تدفئ قلوب كل من يسمع بتضحياتها، فهى يمكنها أن تتحمل وبصورة غير محدودة، فما لديها من المرونة يجعلها تتحمل أثقال العالم على الرغم من وضعها الثانوى، وهى قوية بالدرجة التى يحتاجها الآخرون، ولكن قوتها تستحق الثناء فقط تحت ضغط الصعوبات التى تدفعها بعيداً عن ذاتها.

(١١)

الفتاة الطيبة ليست شديدة الاهتمام بجمالها، ولا تهتم كثيراً بأن تكون مرغوبة بالطريقة نفسها التي عليها "الأميرة" فى المجتمع العام، فهى أكثر تهذيباً وأكثر رزانة وعملية، ورغم أنها لا تتصنع الحشمة فإنها ترفض أن ترتدى ملابس تبرز أنوثتها بطريقة فاضحة، فبالنسبة إلى طريقة تفكيرها، الظهور بمظهر اللعوب يعد غير مقبول من الناحية الأخلاقية، وكذلك الظهور بمظهر يدعو للإثارة تكتنفه الأخطار، وبدلا من أن تظهر بمظهر يلفت الأنظار تفضل أن تكون "طبيعية"، وأن تدع إحساسها الطيب ينعكس على زيها المهندم المحتشم، وتسريحة شعرها الجيدة ومساحيقها البسيطة، فهى بذلك ترعى نفسها جيدا ولا تبدو مسرفة.

الفتاة الطيبة تصحو عند الفجر لتخطط لأعمالها الجيدة، فهى تحب نفسها بصورة أكبر عندما تعمل من أجل الآخرين، فهى تتطوع لرعاية أطفال الجيران دون مقابل، وتحمل أوراق العمل لتكملها فى البيت قبل أن يطلب منها ذلك. فهى منكرة لذاتها ولا تتعب أو تكل وترفض المديح، وتعتقد أن التواضع فضيلة ولا شىء أبداً يعد أكبر من طاقتها لأنها تستطيع التعامل معه.

(١٢)

وبينما تكون "الأميرة" متحفظة، وتتميز بالجمود العاطفى، فالفتاة الطيبة على النقيض منها.. فهى تتعامل مع حياتها بعاطفة حميمة، فهى تتأرجح لأعلى ولأسفل وتنتقل من الاكتئاب إلى الفرحة العارمة فى لحظة، وتتبدل مشاعرها فى المواقف العاطفية شديدة الصعوبة، بشكل بيِّن وغير منطقى بالمرة. هى تخشى أن يظن بها أنها باردة عندما تريد الحصول على الأفضل لنفسها وترفض المساومة، فهى تخشى أن توصف بالأنانية وهذا لا يسعدها، لأنه يعنى أنها تفعل ما يفعله الرجل، وهكذا تمارس الفتاة الطيبة دورها بلا تعب إلى أن تصل إلى قمة الإجهاد، وهو عادة ما يحدث ولكن ابتسامة الرضا التى ترتسم على وجهها تجعل الآخرين سعداء.

الفتاة الطيبة تتفادى إظهار نفسها فى الصورة، فتأكيد الذات يأتى بصعوبة ويبدو غير أنثوى، لذا فهى تنتظر اللحظة المناسبة تماما لإظهار مشاعرها. هى لا تغضب أبداً عندما لا تتحقق رغباتها، فهى دائما سعيدة ما دام الآخرون سعداء، وعندما تثار أمامها مشكلات، تجد طريقة للتدخل ولعب دور الوسيط بين أطرافها، فتؤكد لهم عدم جدوى الصياح والصراخ أو محاولة أى طرف فرض أسلوبه على الطرف الآخر، هى تكره الخصومة وتبحث عن الحلول الوسط والخير العام، فهى متوائمة مع الحلول الوسط. هى لا تتذمر أو تشكو من الأمور السخيفة التى عادة ما تشغل "الأميرة" الأكثر حساسية، والتى تغضب إذا لم تكن الأمور تسير كما تريد. الفتاة الطيبة تغوص فى المشكلات والمنافسات لكنها تقاوم رغبتها فى هزيمة الطرف الآخر مع حرصها على عدم الخسارة، فهى تنسحب عندما تتأزم الأمور وتأخذ موقف المتفرج الذى يناسبها أكثر.

(١٣)

الطراز الأخير للأنوثة هى "الفتاة السيئة"، وهى المرأة الوحيدة التى تخشى الطرد من الجماعات النسائية، لأنها لا تتبع قواعد إنكار الذات ولا تلتزم بها. فبينما تستجيب "الفتاة الطيبة" لرغبات الآخرين، و"الأميرة" تطلب ما تشاء، تحسب الفتاة السيئة تكاليف وعوائد أفعالها بطريقة صارمة، فلأنها لديها جرأة التفكير فى نفسها بجدية – كالرجل – فإنها تتبع رغباتها حتى ولو أدى ذلك لأن تظهر بمظهر خشن يفتقر إلى الأنوثة، فهى تبحث عن المتعة بأشكالها كافة وتحاول أن تتحكم فى كيفية إشباعها الذاتى، وهى بذلك تنشر الخوف فى قلوب الرجال والنساء لأنها تبدو فى نظرهم شاذة كأنثى، لأنها تخطئ فى فهم حدود دورها الجنسى.

فالمرأة التى ترفض القيام بالدور الذى تقوم به الأميرة أو الفتاة الطيبة، سوف تتهم بأنها سيئة، وهى أسوأ إهانة يمكن أن توجه للنساء اللائى يفترض فيهن أن يكن طيبات قبل أى شىء. فمعنى أنها سيئة، أنها لا تسلك مسلك "الفتاة"، بل تعبر الخط بين الأنوثة والرجولة، وتهدد التقسيم الطبيعى المفترض بين الجنسين، ولا توجد أم تريد

أن توصف ابنتها بأنها سيئة، ولا توجد امرأة تريد أن تعيش بتلك الوصمة الدائمة، فإذا خرجت المرأة عن إطار دورها الجنسي، لتجرب المزايا الخاصة بالرجل فى السلوكيات والأخلاقيات والمشاعر التى تتجاوز الحد، فإن المجتمع يحذرها من سوء العاقبة. فالفتاة السيئة تصاب بالأذى، وينتهى بها الأمر غالبًا إلى السجن، وتعانى من تجاوزاتها وتصبح فى النهاية وحيدة، فلو كانت طيبة وسلكت المسلك الذى يفترض أن تسلكه الفتيات، لم تكن لتجد نفسها منبوذة من صحبة النساء الطيبات اللاتى يشعرن بشعور طيب من تضحياتهن فى سبيل أنوثتهن، أو الرجال الحقيقيين الذين تتحول الإثارة لديهم تدريجيا إلى ملل ثم إلى شفقة.

(١٤)

الفتيات الصغار يتعلمن الطبيعة المعقدة للأنوثة وهن يكبرن فى الأسرة، ثم يتبنين ذلك السلوك ويخترنه لأنفسهن بعد فترة من الزمن. فهن يعكسن ما يتعلمنه عن طبيعة الأنثى إلى داخلهن ويستخدمنها بعد ذلك بطريقة تلقائية، فالطريق الوحيد لمعرفة الذات والإحساس بالأمان هو فى اتباع القواعد الموضوعة، وهن مقتنعات بأن اتباع القواعد يجعلهن يشعرن بالأنوثة، فهن يرين العالم والعلاقات الاجتماعية كافة من منظور الدور الجنسى لهن، والذى يبدو طبيعيا فى سلوكهن كنساء، وغير طبيعى إذا انحرفن عن هذا السلوك. والسلوك غير الأنثوى أو الإحساس بالخروج عن الدور الجنسى الطبيعى يؤدى غالبًا إلى القلق، فالمرأة التى يغريها الدفاع عن نفسها بسلوك مسلك الرجل تكون أنانية وتعانى من الاضطراب وتخاف أن توصف بأنها سيئة، وتفتقر إلى الأنوثة، أو بأنها ربما تكون شاذة أو غير طبيعية. هذا الاضطراب له علاقة بالخوف من فقدان الدور الجنسى والخوف من أن تكون خارج حدود الأنوثة، وبدون أى شخصية محددة، فبدون إحساس آمن بمن تكون، ومن المفروض أن تكون، تخشى المرأة من أن تخرج عن الحدود "الطبيعية". ومن المؤكد أنها تريد أن تكون طبيعية.

والأنوثة مثلها مثل الرجولة، تتأكد بالمؤثرات الخارجية أيضا، فالمرأة التى تريد أن تختبر حدود دورها الجنسى بالاندفاع عكس هذا الدور، يتهددها فقدان الاعتبار

وفقدان الحب والاهتمام من الرجال. فالمرأة الاندفاعية المتحفزة، قد يؤدى بها اندفاعها إلى فقدان وظيفتها أو صديقها أو اهتمامات الآخرين، ولاشك فى أن التوافق الاجتماعى يحافظ على النظام الجنسى، ويحافظ على النساء ويجعل النساء يسلكن كنساء والرجال يسلكون كرجال، ويجعل كل النساء ملتزمات بطبيعتهن الاجتماعية والنفسية، التى تتطلب كبت الرغبات الاستقلالية والنزعات والميول غير السوية. فالأداء الجيد للأنوثة يستقطب الثناء والاستحسان من المجتمع، وجائزته أن تحظى المرأة بالقبول كأنثى، أى أن تستطيع الحصول على الرجل والاحتفاظ به. فإذا كانت جيدة وملتزمة بالمبادئ التى يقدرها المجتمع فى المرأة، فسوف تعرف بأنها امرأة حقيقية، مستعدة لقضاء حياتها تابعة لرجل دون أن تخضع للاختبارات التى تؤكد انتماءها لجنس النساء.

(١٥)

ولأن البنات لا يمكن أن يكن أولاداً أو يسلكن سلوك الأولاد، يجب على البنات قبول أحكام الأنوثة، وأن يقبلن التناقض بين أداء دور الأنثى الضعيفة والأم الشجاعة المتحملة، وأن يستجبن للحياة بمفهوم الطفولة التى تعتمد على الغير. فإذا استطعن موازنة الاعتماد على الذات مع الاعتماد على الغير فى حدود مقبولة، فإنهن بذلك يكتسبن احترام الرجال وحبهم، ويتمتعن بالجوانب الطيبة فيهم ويحظين بالتقدير لكونهن طيبات ويتلاشى إحساسهن بأنهن سيئات، ويوضعن فى أماكنهن الطبيعية داخل النظام الجنسى.

ولأن المرأة يجب عليها القيام بالدور الأنثوى فى مجتمع يتميز فيه الرجال عن النساء، فإن كونها امرأة يعنى أنها أقل شأنا وثانوية، فالأولاد يحصلون على سلطة أكبر ومميزات أكبر، وعند البلوغ يحصلون على الكثير مما يقدمه المجتمع من سلطة وتحكم، والبنات يحصلن على أقل، وما عليهن إلا الحصول على ما يقدم لهن فقط ولا يسألن المزيد. وتدريجيا تصبح الأنوثة أقرب إلى الدونية وقبول الحرمان.

والنتيجة التى تستخلصها الفتيات من احترام القواعد والمشاركة فى مجتمع يُعلى من شأن الأولاد على البنات هى أنهن أقل من الأولاد استحقاقًا وأهمية، والتجربة

المتكررة للحرمان تشجع البنات، على قبول التحديد الثقافى بأنهن أقل من الأولاد ولا يجب أن يطلبن المزيد. فالأنوثة التى تتطلب من النساء أن يكن سلبيات، وهادئات الطباع وغير أنانيات وتابعات للرجل، تجعل النساء يتوقعن أن يكن الخاسرات ولسن الفائزات فى الدنيا.

ولأنهن مهيآت لقبول الحرمان على أنه أمر "طبيعى"، تكون النساء ضعيفات الحجة فى الدفاع عن مصالحهن أو فى طلب ما يحتجنه، وأيضا فى الصراع من أجل ما يردنه.

(١٦)

النساء اللاتى يتبعن قواعد الأنوثة يشعرن بأنهن عاجزات فى مواجهة مطالب الآخرين، وغير قادرات على أن يجعلن لاحتياجاتهن الأولوية، ورفضهن السماح للآخرين بأن يتدخلوا فى اختيار أسلوب حياتهن يؤدى بهن إلى الإحساس بعدم الراحة.

النساء اللاتى لا يستطعن قول "لا" عند مطالبتهن بالامتثال للقواعد، ينتهى بهن الأمر إلى الإحساس بالاستغلال، وهذا يبدو مفضلا عندهن عن الإحساس بالأنانية. فالنساء اللاتى يقلن "لا" يضعن حدوداً لحماية ما يعتقدن أنه مهم، ويتجنبن غضب الآخرين وعدم رضاهم إذا كن غير طيبات ويشعرن بأنهن سيئات، بينما إذا كن فتيات طيبات فالأمر ينتهى بهن إلى الإحساس بسوء معاملتهن.

المرأة الملتزمة بأن تكون طيبة حتى لو كان ذلك يخدم الآخرين ولا يخدمها هى، تظهر بذلك ما أدى إليه "التكييف الأنثوى"، لأنها تخشى أن يعتقد أنها غير مهذبة، ولعدم قدرتها على تحديد الخط الفاصل الذى يوفر لها الراحة والإشباع، تكون عاجزة فى المواقف التى تبدو فيها حاجات الآخرين للإشباع أكثر إلحاحًا من حاجتها هى، والسلوك كفتاة طيبة حتى فى المواقف المؤلمة هو الصيغة الوحيدة التى تعد مقبولة وصحيحة، حيث تصل بالنساء إلى الاعتقاد بأنهن أقل شأنا وعليهن دائما قبول الأقل، ولا يجب أن يتذمرن أو يحاربن من أجل ما يطلبنه.

(١٧)

تشكو النساء من استغلالهن ويفشلن في فهم صعوبة أن يقمن بحماية أنفسهن، حتى في أبسط التجارب اليومية يتوقعن القليل وبالتالي يحصلن على القليل. نحن نراقب أنفسنا ونحن نتخلى عن دورنا فى الطابور لأننا نخشى الاعتراض، نحن نرضى أحيانًا بتسريحة شعر رديئة لعدم قدرتنا على إيقاف المقص أو الخروج من المكان. ولخوفنا من أن نكون شديدات النرجسية، فإننا نعانى فى صمت، بعضنا يقضين أوقاتًا أطول من المعتاد مع الأصدقاء والأطفال والأحباب والأزواج، متعللات بأن احتياجات الآخرين لها الأولوية، لأننا لا نريد خذلان أحد أو التسبب فى أى ألم لأحد، والنساء على أهبة الاستعداد دائما لتقديم الخدمة حتى لو كن متعَبات وغير مستعدات. عندما نختلف فى آرائنا مع شخص ما، نصمت.. ونكتم الرغبة فى الكلام تمامًا؛ لأن إحساسنا بالعجز عن تأكيد أنفسنا وخوفنا من سرعة غضبنا يجعلاننا نفضل الصمت، ونتحدث بطريقة غير مباشرة عن ما نريده.

نحن ننكر على أنفسنا الغضب عندما لا تسير الأمور وفقًا لما نرضاه، وننكر خيبة الأمل عندما لا تشبع رغباتنا. نحن نلوم أنفسنا عندما يصدنا أحد أو نجابه بقوة السلطة وبقسوة الأصدقاء قائلات إننا لا بد قد فعلنا ما نستحق عليه ذلك، ونجد من الصعب أن نصدق أن الناس ليسوا بالطيبة التى نود أن يكونوا عليها، ونتحمل مسئولية المواقف السيئة فى حياتنا، معتقدات أننا فى وضع التحكم، بينما فى الحقيقة أننا لسنا كذلك.

إذا لم تحصل امرأة على الوظيفة التى تريدها، فإنها عادة ما تفترض أنها لم تكن مؤهلة لها بالدرجة الكافية، وإذا تشاجرت مع صديقها تفترض أنها كانت هى المخطئة وأنه كان على صواب وهى على خطأ، ولأنها لا تشك فى دوافع الآخرين، فإنها لا تأمن مطلقًا فى أن تثق بمشاعرها، فالنساء يعتقدن أن كل شخص سوف يحمى مصالحهن إذا لم يثرن المتاعب.

(١٨)

إن مشاعر الأنوثة والإحساس الداخلي بها، اللذين يجعلان النساء يسلكن كنساء وهو ما يفترض أن يكن عليه، لا يهيئهن للدفاع عن مصالحهن الخاصة، فهن مستعدات للاستسلام لرغبات الآخرين، لذا تسعى النساء دائمًا إلى مواقف تكون الهزيمة فيها حتمية ويخـرجن منها بأحاسيس الأسى، ولكنهـن لا يغضبن أبداً ولا تتملكهن الرغبة فى النضال مطلقا ليحصلن على ما يُردن.

ومثل البئر التى بلا قـاع، تعد المـرأة الأنثوية بحق داخلنـا جميعا، فهى مصدر لا ينضب للرحمة والرعاية للآخرين، حيث تحس بأنها أنثى حقيقية عندما يحتاجها الغير، وترى أنها عندما تحيد عن دورها، فإن ذلك سيؤدى إلى اغترابها عن أولئك الذين تهتم بهم بصورة خاصة ما عدا نفسها، فهى تشعر بأنها من الأفضل أن تكون مفيدة لنفسها. وترفض النساء أن يسلكن مسلك الفائزات خوفًا من فقدان الحب والاحترام أو الأمنيات الطيبة للرجال والنساء على السواء، الذين يعتقدون أنهم أفضل منهن وأكثر استحقاقًا لتلبية احتياجاتهم. ولرغبتهن فى أن يكن طيبات وأن يُظن بهن ظنا طيبا، وفى أن يكن مقبولات، تتحمل النساء الافتئات على وقتهن وطاقتهن وإرادتهن لكى يتمسكن بآراء الآخرين الطيبة. ولخوفهن من طلب الأفضل أو المزيد، ولخشيتهن من قول "لا" ورفض أداء ما يطلب منهن، تخطو المرأة "الأنثى" فى طريق يؤدى إلى إنكار الذات والطاعة، وهو الطريق الوحيد المهيأة له، والذى هيأها له التكيف الأنثوى.

ولأن الاتصاف بالأنوثة يبدو أمراً طبيعيا، ولأن هذه الحالة "الطبيعية" تنزع عنها القوة التى تحتاجها للصراع من أجل نفسها، تعتقد النساء بحتمية أن يكن مغلوبات، ولأن النساء يخشين أن يقال عنهن إنهن أنانيات أو سيئات أو قليلات الأنوثة، فعادة ما يخترن أن يكن الخاسرات بدلا من أن يكن الغالبات. فالفوز يفترض أن يكون أحدٌ أفضل من الآخر، وهذا لا يتطابق مع صورة الشخصية الأنثوية. والمرأة الحقيقية تقول إنه ليس من المهم أن تفوز أو تخسر، بل المهم هو كيف تلعب المباراة. ولأنها تلعب وفقًا لقواعد "الأنوثة"، فهى تؤكد بذلك حتمية هزيمتها، وفى كل مرة تنهزم فيها تتأكد أنوثتها، وهى بذلك تكون قد أصبحت المرأة التى من المفترض أن تكونها.

(١٩)

المرأة التى تلعب دور الفتاة الطيبة عادة ما توعد ببعض المكاسب نتيجة مجهوداتها مثل حب الرجل، فالرجل الذى تعلى ثقافة المجتمع من شأنه، سوف يعوضها عن الحرمان الذى عانت منه ويؤكد لها طبيعتها الأنثوية وقيمتها، كما أنه يستطيع أن ينزع عنها رداء الدونية الاجتماعية الذى أجبرت على ارتدائه، كما يمكنه أيضًا أن يرفعها من مرتبتها الدنيا كأنثى، فبوجود رجل بجوارها تشعر بأنها أكثر أمنًا وأكثر قيمة، وأكثر قدرة على تحمل ضعف قدرتها الاقتصادية والسياسية. وبدون رجل سوف تعد فاشلة جنسيا ومرفوضة وتوصف بأنها مخلوق شاذ محكوم عليه بالعزوبة والهوان. وتكون وحدتها هى البرهان الصحيح لعدم قدرتها على العطاء وفشلها فى أن تكون أنثى.

(٢٠)

الرجولة والأنوثة تلعبان دورًا مهما فى العلاقات الاجتماعية بين الجنسين، ونظرًا لتوزيع السلطة والامتيازات الاجتماعية، يشوب العلاقات بينهما دائما شىء من عدم المساواة. فالنساء يجب أن يظهرن بوضوح إعجابهن بالأقوى ورغبتهن فى خدمته، بينما يجب على الرجال أن يعبروا عن احترامهم للضعيف ورغبتهم فى حمايته، ومشكلة التناقض فى حب النساء لأولئك الذين يملكون قوة وسلطة أكبر منهن يحلها مفهوم الرومانسية بين الجنسين، الذى يؤكد أن النساء يخترن الرجال لأنهن يشعرن بانجذاب لا يقاوم تجاههم. فالمرأة لابد من أن تختار رجلاً إذا أرادت استكمال مصيرها الأنثوى. فبدون رجل لا يمكن أن تصبح "امرأة حقيقية" وهو الشكل الوحيد الذى يرضى به الرجل.

ولكى تتأكد أنوثتهن، يجب أن تحظى النساء بانتباه الرجل وتأييده، فتمضى النساء فى إسعاد الرجال بطاقة أحادية الاتجاه نادرًا ما يستعملنها من أجل أنفسهن. ولأنهن مهتمات بقوة باعتراف الذكر بأنوثتهن ومنبهرات بقوته، يشغف النساء أن يرين

الرجال ينالون ما يرغبون، فمديح الرجال لهن، حتى لو منحوه بصعوبة، يكون مثل العباءة الدافئة لشعورهن بالأمان. ولعل وضع اهتمامات الرجال أولا قد يبدو عبثًا، ومع ذلك فالمرأة الأنثى تكون قادرة على الابتسام، فلا شيء يعد إسرافا إذا منحته للرجل الذى تحبه، وإذا نجحت فى جعله يشعر بأنه مهم، يمكنها إذن أن تستريح؛ لأنها قد قامت بواجبها جيداً. وغالبا ما يطلب الرجال من النساء خدمات تجعل حياتهم أكثر دفئًا وراحة، لكن الرجل ينسى أحيانًا حدود سلطته الاجتماعية ويسأل الكثير، ويبرر طلباته الزائدة من المرأة "باحتياجه" لها، لكن على الرغم من ذلك فهى تحس بالغبطة والسرور لأن "الرجل" فى وضعه القوى يريد الكثير منها فى وضعها الضعيف. وهى تشرح ذلك بأن الرجال متجبرون ولكنهم فى داخلهم مجرد أطفال وبالنسبة إليها "مجرد طفل آخر تقوم برعايته"، ولكن الحقيقة أنها تحبه أكثر، لأنه يستطيع الاعتماد عليها، ولديها الرغبة فى تحمل "طيشه" لأنه يحبها.

وهى تلتمس له العذر وتسامحه لأنها تعرف أن الرجال ينفجرون أحيانًا تحت ضغوط العمل ويحتاجون للتخلص من هذه الضغوط، فالرجال على هذا الحال، وهى لا تبالى بأن تكون المتحملة لثوراته لأن النساء يتقبلن ذلك واعتدن عليه، ولذلك لا يبادرنه باللوم ويعفينه من الاعتذار. هى غالبًا ما تقرر أنها كانت غلطتها وأنها ستحاول ألا تشكو بعد ذلك، وأن تتصرف بأنوثة أكثر، وأن تصبح حبيبته أو زوجته أو صديقته، كما أنها تعده وتعد نفسها بأن تصبح أقل غضبا فى المستقبل لتمر العاصفة. فهى تعيد صياغة سلوكياتها كفتاة طيبة، على أمل أن يعاملها بطريقة أفضل فى المستقبل.

(٢١)

تنزع "الأنوثة" عن المرأة رغبتها فى حماية مصالحها أو أن تحصل على ما تريده من الرجال، فهى غير مهيأة للسلوك كرجل مع الرجال، وهى دائمًا تقول إنها لا تستطيع إغضابه ولا إهماله، ولا تغييره.

النساء تم تكييفهن اجتماعيا وجسمانيا لقبول العلاقات الجنسية، ولكن يعتقدن أنه ليس بوسعهن أن يكن المبادئات بها حتى لا يساء فهمهن، وهذا ما يجعلهن يكتفين بالحصول على متعة أقل ويتصنعن أنها كافية. ولأن النساء قد يتكيفن ليكن إناثا لا رجالاً، يرغمن أحيانا على المشاركة فى حرمان أنفسهن من المتعة إذا اضطررن إلى ذلك. إن الخضوع لمطالب الرجل يبدو بالنسبة إليها أمرًا طبيعيا ومشبعًا، لكن تحدى سلطته أمر خطير، فعدم الموافقة على آرائه عمل من أعمال العصيان ويولد عندها قلقًا صريحًا. وعادة ما ترى أنه من الأسهل أن تكون طيبة عن أن تكون مناوئة له؛ لأن ذلك يعنى المجازفة بإغضابه. فإذا كان الرجال قد منحوا السلطة على النساء فى الثقافة والمجتمع، فيجب أن يوجه الشكر للنساء على إعلاء مصالح الذكور بصورة أكبر. حتى فى مواجهة القسوة وعدم الاهتمام، تكون النساء مشغوفات بتأييد الذكور ويفعلن أى شيء ليحصلن عليه.

استجابة النساء لما يمليه عليهن الذكور أمر متوقع؛ فالنساء يتحملن عدم الإنصاف من التقسيم الجنسى، ويعانين من فكرة أن الرجال لا يجب أن يوجد أبدا ما يهدد رجولتهم. والمرأة التى تجرؤ على تحدى هذا النظام يتهددها القلق من اعتبارها خارج الإطار الجنسى وبأنها غير طبيعية، وبالتالى غير جذابة، فهى تكز على أسنانها وتغلق فمها عند استفزاز أحساسيها نتيجة كثرة طلبات الرجل، لكن الحزن يمر والغضب يذهب. فإذا كان رجلاً "حقيقيا" فهى فى نهاية الأمر ضحيته لأنها "امرأة حقيقية".

الفصل الثانى

الرجولة فى تحول

ما يجب أن تعرفه كل امرأة عن الرجال !

آلان ألدا

(١)

كل فرد يعرف أن التستوستيرون، الذى يسمى بالهرمون الذكرى، يوجد فى كل من الرجال والنساء. ما لا يعرفونه بصفة خاصة هو أن الرجال لديهم كمية زائدة.

حتى الآن كان من المعتقد أن مستوى التستوستيرون فى الرجال يعد طبيعيا لأنه ببساطة يوجد بهم أصلا. ولكن إذا أخذ فى الاعتبار مدى شذوذ سلوكهم، فسوف يدفعك ذلك إلى افتراض أن كل الرجال تقريباً يعانون من التسمم بالتستوستيرون.

الأعراض يسهل التعرف عليها، الذين يعانون من التسمم التستوستيرونى يظهرون تفضيلا مبكراً (وهم لا يزالون فى المهد) للأشكال الهندسية. وفى مرحلة لاحقة، تستحوذ عليهم الميكانيكا والأشياء الصماء الخالية من المعانى الإنسانية، كما توجد لديهم حاجة ملحة لترتيب كل شىء وفقًا لقيمته كما أنهم مغرمون بالأحجام. ففى كل فترة عمرية يقيس كل ذكر عضوه ليتعرف على حجمه.

ومن المعروف جيدا أن الرجال لا يشبهون بعضهم، فلكل رجل سماته الخاصة، ومن المعروف أيضا أنهم يميلون إلى العنف إلى حد المرض. والعنف المرضى لأغلب الرجال لا يتطلب تنويهاً، فهم مسئولون عن الحروب أكثر من الجنس الآخر.

والتسمم التستوستيرونى شديد القسوة بصورة خاصة، لأن من يعانون منه لا يعرفون عادة أنهم مصابون به فى الواقع، فهم عندما يكونون تحت تأثيره يعتقدون أنهم فى أوج صحتهم وجاذبيتهم. لكن يمكن للذين يعانون منه أن يتغيروا، ولكى يحدث

هذا التغير يجب عليهم أولا إدراك أنهم مرضى. ففى الحقيقة أن هذه الحالة موروثة بالكيفية نفسها التى تورث بها غمازات الخدين لتجعلها جميلة. بمرور الوقت، بالطبع، سوف تظهر الأعراض ويعرف الرجل حقيقة التسمم التستوستيرونى، ولكن فى الوقت نفسه من الضرورى أن يقول لأصدقائه ومن يحبهم كل الحقائق عن هذا الخطر.

(٢)

علامات التحذير السبعة للتسمم التستوستيرونى هى كالتالى :

(١) هل تشعر بضرورة أن تكون الفائز فى أى منافسة؟ وهل عندما تمارس الجنس تشعر بالفخر دائما لأنك انتهيت من العملية قبل رفيقتك؟.. هل دائما ما تسأل رفيقتك ما إذا كانت هذه المرة هى "الأحسن" وتقضم أظافرك إذا كانت إجابتها مبهمة؟

(٢) هل يلعب العنف دوراً كبيرا فى حياتك؟ قبل أن تجيب، عليك أن تحصى عدد الساعات التى قضيتها فى مشاهدة كرة القدم الأمريكية وهوكى الجليد وأفلام الكارتون الخاصة بالأطفال على شاشة التلفزيون هذا العام. عندما يغضبك أحد هل تتمنى لو أنك ضربته فى فكه بقبضتك؟ هل تزاحم الناس وتدفعهم للأمام والخلف بقوة أثناء السير فى الزحام؟ عندما يعترض طريقك أحد فى أثناء سيرك بالسيارة هل تندفع من فمك اللعنات رغماً عنك ودون أن تدرك ذلك؟ إذا كان هذا ما يحدث فأنت فى ورطة كبيرة ونحن لا زلنا عند السؤال الثاني.

(٣) هل أنت مهتم بتفاصيل الأشياء؟ وهل تعطى قيمة كبيرة لأعضاء جسم المرأة أكثر من المرأة نفسها؟ وهل تستثار جنسيا بتلك الأعضاء؟

(٤) هل تكون لديك رغبة فى عقلك لتشكيل أى موقف صعب وتحويله إلى خرائط وأرقام؟ وإذا كنت موجوداً فى زحام شديد، هل تميل لعد الناس حولك؟ إذا كانت زوجتك مضطربة نتيجة قلق عميق هل تقيس حرارتها؟

(٥) هل تميل إلى قياس الأشياء التي في الحقيقة يجب أن توصف؟ هل تنبهر بمدى الارتفاع الذى يمكن لراقص البالية أن يصل إليه عما يفعله عندما يصل إلى هذا الارتفاع؟ هل تهتم أكثر بطول الوقت الذى تستغرقه فى ممارسة الجنس وبعدد مرات القذف عن ما تحسه أنت ورفيقتك فى أثناء الممارسة؟

(٦) هل عقلك ميكانيكيٌ بدرجة كبيرة؟ وهل تحب مشاهدة الغروب مع صديقة لك وتشعر بأنك فى اندماج مع الطبيعة، أم أنك تخرج ساعتك وتنظر فيها؟

(٧) هل من السهل أن يستفزك الآخرون؟ وهل عندما يحاول البعض تجاوزك على الطريق السريع وأنت تقود سيارتك، هل تسرع قليلاً؟ هل تحب أن تدخل فى منافسة لثقب علب العصير بإصبعك لإظهار قوتك؟

(٣)

إذا كانت إجابتك بنعم على ثلاث أو أقل من الأسئلة السابقة فربما أنت تتعلم كيف تتعامل مع حالتك. أما الرجل الذى يجيب بنعم على أكثر من ثلاثة فيعتبر مريضًا. ولا يعتبر شخصا يعتمد عليه فى المواقف الصعبة، وأى فرد يجيب بنعم عن الأسئلة السبعة يجب أن يبحث عن المساعدة فوراً.

ماذا تفعل إذا كنت تعاني من التسمم بالتستوستيرون؟

(١) لا تفزع لأن انفعالك يعنى أنك أكثر مرضًا من أى فرد آخر، ولأنك تعرف أنك تعانى الحالة، فأنت الرجل الوحيد الذى يعرف كيف يبرأ منه، عليك الاسترخاء أولا، ثم فكر فى كيفية إسعاد شخص آخر.

(٢) حاول أن تشعر بشيء مختلف، انظر إلى طفل وتمعن فى معنى الطفولة، فكر كيف أنه لطيف. ابحث عن كيف ومتى يمكنك البكاء، ليس بأن تعصر عينيك طبعًا أو أن تخسر مبلغًا كبيرًا من المال.

(٣) فكر إذا كنت تستطيع الإنصات جيدًا عندما يتحدث شخص آخر إليك، وهل كنت أنت المتكلم أولاً وهو لم يفهم فكرتك.

(٤)

للنساء فقط : ماذا تفعلين إذا كنت تعيشين مع شخص يعانى من المرض؟

(١) تذكرى أن القليل من التعاطف يعد أمراً خطيراً، لأن المريض سوف يفسر أى اهتمام على أنه استسلام للمرض.

(٢) هو يعرف أنك تتوقعين منه أن يقاوم ليعود إلى طبيعته ويسلك مسلك الأصحاء، ليس من أجلك، بل من أجله هو.

(٣) عندما يبدأ التحكم فى حالته وتزول أعراض المرض يبدأ فى الاستمتاع بالحياة.. حينئذ يدرك أنه لا يوجد شىء يعرف بالتسمم التستوستيرونى.

عبودية الذكر..

هيرب جولدبرج

(١)

يشعر معظم الرجال فى مرحلة ما بعد البلوغ برجولة فائرة.. كان ريتشارد واحداً منهم، لم يكن لديه أى إدراك لما يسببه إحساس الذكورة الفائر من اختناق إلى أن أوشكت حياته الشخصية والمهنية على الانهيار.

كانت تنتابه نوبات قصيرة من الاكتئاب تخلصه منها الخمر. وقد حدث الانهيار لريتشارد فى عمر مبكر. وفى الثالثة والثلاثين حضر للعلاج النفسى مبديا المقاومة، كان يعانى من قرحة سيئة، وفقدان الوزن، وعلى الرغم من تحذيره من أن الخمر قد تقتله، كان يشرب الخمر بشراهة.

كانت حياته الشخصية أيضا فى مأزق شديد، فهو قد فقد وظيفته فى إحدى محطات الإذاعة الكبيرة بسبب اعتقاله لقيادته السيارة وهو مخمور، حيث دخل بسيارته فى شجرة وصورت الصحف الحادث فى الصفحات الأولى. بعد ذلك الحادث تركته زوجته آخذة معها ابنته ذات السنوات الثمانية، وقد هجرته زوجته بناءً على نصيحة الأصدقاء الذين كانوا يعلمون أنه كان عنيفا وهو مخمور.

عندما بدأ ريتشارد فى الحديث عن نفسه كان واضحًا أنه لبس رداء الذكورة مبكرًا وهو فى عمر المراهقة. ففى المدرسة الثانوية، كان أطول وأقوى من معظم زملائه مما شجعه على الالتحاق بفريق كرة السلة، كما استحوذ على كثير من الاهتمام لأن صوته كان عميقًا ورنانًا، وكانوا يقولون له إنه يصلح للعمل مذيعًا أو ممثلا بالراديو،

مما جعله يشترك فى كل مسرحيات المدرسة الثانوية. وفى دراسته الجامعية اختار الفنون المسرحية موضوعًا رئيسيًا لدراسته.

وخلال سنوات دراسته الجامعية أقام علاقة مع أكثر الفتيات جمالاً فى الجامعة وكان رفاقه يحسدونه على ذلك مما أكد لريتشارد أن ما يحدث له هو أمر طيب وبالتالى تزوج من صديقته چوانا بعد تخرجه بعام، والتحق بوظيفة بإحدى محطات الراديو بكاليفورنيا. وخلال السنوات العشر التالية كان يقوم بأداء دوره الذكورى، فأنجب طفلة وتابع طريقه لأعلى فى مهنة شديدة المنافسة.

(٢)

لم يدرك ريتشارد أن له أحاسيس خاصة به إلا عندما بدأت الأمور تسوء معه، وفى أثناء العلاج بدأ يرى لماذا كان من الضرورى أن يحافظ على إحساسه داخله، فقد كان إحساسه مشوشًا ومضطربًا.

كان لديه اهتمام مبالغ فيه عما يعتقده الآخرون عنه "كرجل"، وما إن بدأت أحاسيسه المكبوتة فى الظهور حتى أصابته الدهشة، فقد أدرك أنه كان يكره كونه لاعب سلة للجامعة. لقد كان شديد الاهتمام بأن يكون ممتازًا وفائزًا على الدوام، وهو ما جعله يكره الجامعة.

وعلى الرغم من ممارسته للجنس مع الكثير من الفتيات قبل الزواج وبعد الزواج، فقد اعترف بأن تلك العلاقات نادرًا ما كانت مشبعة. فقد أحب الإحساس بأنه قادر على إغواء الفتيات، ولكن التجارب ذاتها لم تكن فى كل مرة مشبعة، فكان يبدأ من جديد فى البحث عن فتاة أخرى. وقد اعترف بأن بعض تلك الفتيات كن كوابيس، وبأنه كان سيصير أسعد حالاً بدونهن، ولكنه فعل ذلك لإثبات فحولته، ولم يكن فيما يبدو بمقدوره أن يتحكم فى ذلك.

كان مهتما بشدة وهو فى المدرسة الثانوية ثم فى الجامعة بأن يكون صوته عميقًا، رنانًا، ذكوريا، مثل الاهتمام الذى توليه بعض النساء لقوامهن، وعلى الرغم من أنه كان يستمتع بالاهتمام الذى يناله وهو على المسرح، فقد اعترف بأنه فى الواقع كان يكره كونه ممثلاً مغموراً وغير معروف إلا فى محيط الجامعة المحدود.

حين كان يفكر كيف تزوج كان ينتابه شعور غير مريح ويقول "كنت فى الحقيقة أشعر بالملل مع چوانا بعد خمسة أشهر من مقابلتها، ولكنى لم أستطع الاعتراف بذلك، لأننى اعتقدت أن شيئًا طيبًا يحدث لى. لقد تزوجتها لأننى اعتقدت أننى إن لم أفعل فسوف يتزوجها غيرى، ولم أكن لأسمح لذلك بالحدوث".

كان محتومًا أن يمرض ريتشارد وأن يتحطم تقريبًا بلعب دور "الذكورة" قبل أن يسمح لنفسه بأن يكون شخصًا ذا مشاعر، بدلا من أن يكون صورة باهتة للذكر، ولولا إصابته بالقرحة النازفة فلربما كان قد أهمل النظر إلى نفسه لسنوات طوال.

(٣)

كان ريتشارد يعانى فى صمت ويبدو كالمصاب بمرض المشى فى أثناء النوم، أو كالميت الحى، ومع ذلك كان دائم النجاح، مما جعله لا يفكر فى تغيير حياته، إذ كان ذلك بالنسبة إليه أمراً شديد الصعوبة، والحياة من حولنا مليئة بمن هم مثل ريتشارد – السائرون نيامًا – مثل رجال الأعمال، ولاعبى الجولف، وهواة السيارات الرياضية، والمولعين بالنساء.. إلخ، الذين يلعبون وفقًا لقواعد منافسات الذكور، فهم قد فقدوا القدرة على اكتشاف أنفسهم وماتت مشاعرهم الذاتية، وضعف إدراكهم لذواتهم، وخلطوا بين وظائفهم الاجتماعية وحقيقتهم الجوهرية.. فهم يدمرون أنفسهم عندما يحققون الانتصارات التقليدية للتنافس الذكورى، ويتركون حياتهم تسير وفقًا لقواعد الدور الذكورى، فهم الأبطال الفائزون دومًا، والمحاربون الأشداء الذين لا يخافون. إن حقيقتهم دائمًا ما يتم التعرف عليها من تلك الأقنعة التى يلبسونها لأداء الدور الذكورى التقليدى.

(٤)

عندما يحدث أمر ما بطريق الخطأ يكتشفون أنهم مجرد ظلال للآخرين، فهم غير معروفين لأنهم كانوا شديدى الانشغال بإخفاء حقيقتهم وارتداء الأقنعة لكى يحافظوا على وضع أفضل، لدرجة أن المواجهة الحقيقية مع شخص آخر تهددهم وتؤدى بهم إلى الهرب أو إلى اتخاذ موقف دفاعى متطرف.

الرجال يقيّمون بعضهم البعض، ويقيّمون بواسطة النساء على أساس مدى اقترابهم من صورة الرجل المثالى. وقد حاربت النساء - ولهن الحق فى ذلك - ضد اعتبارهن غاية جنسية، والكثيرات من النساء وصفن دورهن فى الزواج بأنه شكل من الدعارة التى يعضدها المجتمع، حيث يبعن أنفسهن مقابل الأمان المفترض، ولأسباب دفاعية ونفسية فى حين لم يصل الذكر إلى النظر إلى نفسه على أنه من الممكن أن يكون بغيا مثل بائعة هوى داخل العلاقة الزوجية أو خارجها.

(٥)

غريزة حب البقاء لدى الذكر تضعفها بواعث الحفاظ على صورته الرجولية، فهو على سبيل المثال يفضل أن يموت فى المعركة عن أن يوصف بـ "الجبان" أو بأنه "ليس رجلاً"، كما أنه يفضل أن يموت إلى مكتبه قبل الأوان عن أن يحرر نفسه من أسر العمل وضغوطه بالتقاعد، وكما أوضحت دراسة نشرت حديثاً أن عدداً كبيراً يثير الدهشة من الرجال الذين وصلوا لعمر متقدم يفضلون الموت على تركهم العمل أو الإحالة إلى المعاش.

الذكر فى مجتمعنا الحديث يعتبر فى مأزق من حيث خضوعه للتطور، فهو لا يريد الحركة - ليس لأنه يحمى موقعه الذكورى الذى يعتز به، ولكن لأنه لا يستطيع الحركة - ، فهو فى توازن غير ثابت يوشك على السقوط إذا ما دفع ولو بخفة بعيداً عن مساره الذى يعرفه جيداً، فهو يفتقر إلى المرونة الأنثوية التى تمكن المرأة من التحرك بحرية

بين القواعد التقليدية التى تحكم سلوك وأدوار وأداء الذكور والإناث.. فهى تستطيع أن تكون زوجة وأمًا أو مديرة تنفيذية، ويمكنهـا أن تختار ملابسها على الموضة النسائية، أو تلبس الأزياء الرجولية، كما تستطيع أن تحصل على وظائف أو تمارس أعمالاً ذات طبيعة "أنثوية" كأشغال الإبرة أو الطهو، كما يمكنها أن تنال الإعجاب لمشاركتها الذكر في بعض صفاته الرجولية، وهذا يجعلها "امرأة الرجل"، وبمقدورها أن تكون مثيرة الغرائز أو سلبية من الناحية الجنسية، فى حين أن الذكر يكون سجينًا لوضعه الرجولى بالعديد من القيود التى يلام بشدة إذا ما تخلى عنها.

وعلى العكس مشكلات النساء، فمشكلات الرجال لم يمكن حلها بسهولة عن طريق التشريع.. فالذكر ليس لديه قضايا محددة يريد حلها ولا يطلب المساواة كالمرأة، ورغم ذلك تقهره الضغوط الاجتماعية التي تنكر سخطه وتذمره، ولأن نظرته إلى المرأة تعتبر مشوهة، فإن حاجته الملحة إلي أن يسلك مسلك الرجل تعطل قدرته على الاستجابة لضروراته الداخلية، سواء العاطفية أو الفسيولوچية.

(٦)

رد الفعل الشائع للذكر المستنير تجاه حركات تحرير المرأة يشهد بعدم قدرته على التقدم إلى الأمام من أجل نفسه، فقد استجاب لمطالب المرأة بأن اتهم نفسه بنفس ما تتهمه به هى. وفى مقال عنوانه "لقد قطعت طريقًا طويلاً يا رفيقى" تظهر كراهية الذكر لذاته بوضوح حيث يقول الكاتب :

"أعضاء حركة تحرير الرجال هم طليعة محيِّرة، فهم أول رجال فى التاريخ لهم موقف سياسى قائم على أن ما تقوله النساء صحيح - إن الرجال جماعة من الكسالى الأنانيين التعساء".

العديد من الكتاب الآخرين اتخذوا سبيلاً يتصف بالإحساس بالذنب والخجل تجاه الذكر، ونصحوه بأنه من الأفضل له أن يتغير ولا يكون متعصبًا لذكورته، وخلال

بسنوات عديدة من الممارسة لأحد الأطباء النفسيين، أفاد بأنه لم ير أبداً شخصاً يتغير بطريقة ذاتية عندما يكون حافزه الأساسي الإحساس بالذنب أو الخجل أو كراهية الذات، فهذا أسلوب يعود إلى الديانات القديمة، حيث يحقر الذكر نفسه ويظهر عدم تعقد الأوامر والنواهي التي عليه أن يتبعها بدقة وبتفانٍ شديد.

وإذا توخينا الدقة فسنجد أن أسلوب الجهود الخاصة التي تتبع لتحرير الذكر من التعصب لذكورته وحتى الآن، كانت هي اتهام الذات، كراهية الذات، وتكراراً للادعاءات الأنثوية، فأنا أعتقد أنها ستفشل بالضرورة في شكلها الحالي، لأنها عملياً تعد قبولا لمقولة أن الذكر هو المفضل اجتماعيا، وأن كل الناس يقبلون بهذه الحقيقة على الرغم من أن كل الإحصائيات في مجال طول العمر والمرض والانتحار والجريمة وحوادث الطرق والاضطرابات العاطفية والإفراط في الخمر وإدمان المخدرات تظهر معدلات أعلى للذكور عن الإناث.

(٧)

الكثير من الرجال الذين ينضمون لحركة تحرير الذكر عادة ما يفعلون ذلك لإسعاد نسائهم، أو ليتركوا لديهن انطباعًا طيبًا، أو ليتعلموا كيف يتعاملون ويواصلون الحياة مع زوجاتهم أو صديقاتهم المتحررات حديثًا، فما إن ينضموا إلى إحدى جماعات تحرير الذكر حتى يحاولوا ترجمة مشاعرهم إلى أفكار، وانفعالاتهم إلى سلوك. هذا بالإضافة إلى أن الرجال يميلون بطبعهم إلى غيرهم من الرجال لأنهم يفكرون بعقلية "المتعصب لجنسه"، ويستخدمون في وصفهم لغيرهم كلمات مثل: "خشن"، "فظ"، "غبي" ... إلخ. وهم بذلك يستخدمون الأوصاف نفسها التي تستخدمها النساء عندما يضقن بالرجال. والنتيجة مناخ جاف يفتقر إلى الصواب ويفتقر إلى الحيوية.

(٨)

لم تصل حركة تحرير المرأة إلى نتائجها المجدية عبر كراهية الذات أو الإحساس بالذنب أو الرغبة فى تهدئة الذكر، لكنها استمدت قدرتها على التقدم من الشعور بالغضب والرغبة فى التمرد والثورة. فالذكر لا يتغير بأية طريقة فعالة حتى يختبر ثورته على الأفكار البالية التى يعيش تحت تأثيرها، والتعريفات الجامدة لدوره بصفته ذكراً والضغوط الهائلة التى يتعرض لها لكى يغير نظرته وتكون كل الأشياء لكل الناس. أما الإحساس بالذنب وإنكار الذات اللذين يراهما أسلوباً تقليديا تجاه النساء، فلم يعد فعالاً ولا مجدياً.

لأن الذكر مكبوت بشدة، فإن غضبه لا يظهر إلا بصورة غير مباشرة وبطرق احتيالية، فهو يأخذ شكل الانفصال العاطفى والفتور والسلبية تجاه المرأة.. لقد انسحب الذكر إلى داخل ذاته لكى يكبت انفعالاته وليحمي نفسه من الآثار السيئة للانفعال والغضب. ومحاولاته لكى لا يبدو متعصباً لذكورته لن تفلح فى أداء المهمة.

هناك أيضا فكرة شائعة وهى أن الرجال سوف يتحررون بكيفية ما نتيجةً لحركة تحرير المرأة، وهذه أمنيات مريحة للذكر، ولكننى لا أرى أى أساس فى أن تصبح واقعًا. إنها ببساطة تخفى خوفه من أن يجد نفسه مضطراً إلى أن يبدأ فى تغييره لذاته. ولكى يحدث تغير بنَّاء فى الذكر، فعليه أن يحدد طريقه بنفسه، وأن يطور أسلوبه وأن يختبر مواضع قلقه.

(٩)

سألت عدداً من الرجال أن يكتبوا لى ما يعنيه التحرر بالنسبة إليهم. كان الإحساس بالاختناق والبلبلة يعتريهم باستمرار، فقد كتب أحد رجال الأعمال عمره ستة وأربعون عاما يقول: "من أى شيء أريد التحرر؟ لقد تقدمت فى العمر ولم أعد أخاف على نفسى، أعرف أننى مجرد إنسان عادى من الطبقة العليا، ومضطر إلى

قبول حياة أصبحت الأحلام فيها غير حقيقية. أنا لا أعرف ما إذا كان يجب أن يتغير دورى كرجل أو دور ولدى. لو كنت أعرف فأنا أعتقد أن التغير سيجعل زوجتى أسعد حالاً وأقل شراسة".

وكتب نجار عمره تسعة وثلاثون عاما قائلا: "إننى مقتنع بأن الأوقات التى كانت تعد ممتعة كانت محدودة للغاية، فمعظم الوقت كان الدافع للاستمرار هو الخوف من الفشل". ومشيراً إلى علاقاته قال: "هناك جانب من حركات تحرير المرأة وتحرير الرجل لم أختبرها بعمق، وهى إنشاء صداقات قوية خارج إطار الزواج، وخبراتى السابقة كانت مضطربة إلى الدرجة التى أصبحت معها شديد الحرص على وضع حد لمثل هذه العلاقات؛ لأننى أشعر معها بالخوف، كما أننى لم أحب الإحساس بعدم الأمان الذى تحسه زوجتى".

وقد عبر عنها أستاذ جامعى يبلغ السابعة والخمسين كالتالى: "نعم، هناك حاجة إلى تحرير الذكر ولم يكتب أحد عن الحالة التى هو عليها، إحساسى الداخلى هو أن الرجال الذين يهملون زوجاتهم هم مجرد عبيد. إنهم هناك يعرقون فى الحقول ويضربون بالسياط ويعملون لخمسين ساعة أسبوعيا ليعولوا أنفسهم، وعندما يعودون إلى البيت يعملون عشرين ساعة إضافية فى الأسبوع، يغسلون فيها الأطباق ويحملون أكياس القمامة. أما الرجال المسنون، فبعضهم كانت حياته طيبة وبعضهم كانت حياته مرة".

ويستطرد قائلاً : "أما دورى بصفتى رجلا وكيف أثر ذلك فى حياتى؟ فكان كالتالى.. فى عمر الخامسة والثلاثين اخترت التركيز على جمع شمل العائلة وأهملت مهنتى، وفى السابعة والخمسين، لم أجد أى عائد للوقت الذى أنفقته من أجل العائلة فيما يختص بالحب والتقدير، وإنما رأيت ألف عقوبة على إهمالى لمهنتى. لقد تعبت، وأفكر فى الابتعاد عن العائلة، والبدء مرة أخرى فى إجراء الأبحاث وفى التدريس والإدارة ولعب التنس والسفر. لكنى لن أفعل ذلك، فالإحساس بالذنب وحبى لهم والخوف من الوحدة يمنعنى. يجب أن يتغير دورى بصفتى رجلا فى أسرتى! أنا لا أعرف حقيقةً كيف يمكن ذلك؟ ولكنى أود أن يكون لدى وقت أكبر لكى أقوم بعمل الأشياء التى أحبها".

(١٠)

إن أكثر جوانب حركة تحرير المرأة وضوحًا وأهمية حتى الآن هو جرأة المرأة، واستعدادها للاعتراف بتمردها ورفضها لدورها كزوجة وحتى كأم. وعلى الذكر أن يدرك ذلك تمامًا، وأن يتمرد على الجوانب السيئة لكثير من الأدوار التى يلعبها، من الزوج الطيب إلى الأب الطيب إلى المانح إلى العاشق الطيب... إلخ، ولكنه وللأسف ونتيجة للضغوط الواقعة عليه، ولكى يؤكد سيادته ورجولته، يستمر فى أداء دوره الذكورى.. كما تعلّمه.

الرجولة.. أسلوب وسلوك

هارولد روزنبرج

(١)

كانت المجتمعات القديمة تعجب بصور مختلفة من الخصال الرجولية كصفة المحارب، والزعيم والحكيم والعاشق والشجاع والمغامر... إلخ.

وفى أمريكا، ترتبط الرجولة أساساً بالخلاء، والأنشطة المتصلة به كقيادة القطعان ودق القضبان وصيد الحيتان وقيادة الشاحنات. فالحياة فى الخلاء يُفترض أنها تؤكد خصال الرجولة كالصلابة وقوة الاحتمال، حب الوحدة، التآلف مع الحيوانات والجاذبية للنساء. والدافع لهجرهن فى نفس الوقت. وإلى رجل الخلاء المفتوح تنسب الخاصية العظمى للرجولة وهى الاستعداد للموت.

وللخلاء زيه الخاص فى أمريكا، كالأحذية الطويلة الرقبة والسترات القماشية الثقيلة والقمصان المثنية الحافة والغليون والمسدسات. وللغرابة الشديدة لا تضفى الملابس العسكرية أو البوليسية فى الولايات المتحدة صفة الرجولة على من يرتديها، كما هو الحال بالنسبة إلى القوقازيين أو الهوساريين، لأن النساء يرتدين ملابس الجيش كالرجال. فلكى يثبت الرجل أنه كامل الرجولة، كان على الچنرال باتون أن يضيف إلى زيه العسكرى حزاماً به مسدس له مقبض مرصع باللؤلؤ.

أما بالنسبة إلى ما يمثله شعر الرجل. فهناك بعض التناقض.. فالشعر الطويل يخص كشافة الحدود وقناصة الحيوانات وهم أكثر الرجال ذكورة. ولكن نجد أن تعبير "طوال الشعر" يطلق على المفكرين وهم الفئة التى تكون دائما محل شك فى قدراتها الجنسية. أما اللحية فمن المعتاد أن تعبر عن الذكورة، ولكنها حاليا من أدوات التنكر الشائعة.

(٢)

فى القرن التاسع عشر كان الخلاء يمثل أخطاراً حقيقية، وكان الأمر يتطلب الاعتماد على النفس المرتبط بالرجولة، لأنهم يغامرون بالابتعاد لمسافة كبيرة عن المزرعة أو المدينة ولأيام طويلة.

وحاليًا لا تزال هناك وظائف غاية فى الخطورة، مثل قيادة سفن الفضاء والتعامل مع المواد النووية.. ولكن هذه الأمور أصبحت تقنية بدرجة كبيرة ولا يتداولها أشخاص. أما بالنسبة إلى الخلاء فأصبح يستخدم أساسا فى الألعاب الرياضية.

والخلاء الذى كان يمثل الطبيعة الخطرة تحول إلى منصة مسرح، وبالتالى فقدت الرجولة بالمفهوم الأمريكى مكانتها وربما سبب وجودها. فالبرارى الموحشة أضيئت بالنيون والرجولة فيها عبارة عن مهرجان لارتداء أزياء راعى البقر التقليدية.. القبعة والجينز والعزف على الجيتار. لقد صار من الواضح أن الصفات التقليدية لرجل الرجال يمكن محاكاتها أيضًا. لقد أصبحت الرجولة دوراً تمثيليا يؤدى وبدون مجهود كبير، فصائدو الحيوانات ومتسلقو الجبال وراكبو الخيل وغيرهم ممن يمثلون أدوار الذكور، هم ممثلون تدفعهم رغبة العودة إلى الماضى. والرياضات العنيفة مثل المصارعة أو البيسبول عندما تمارس ليلاً تحت الأضواء تصبح مشابهة للمشاهد التليفزيونية التى نشاهدها فى غرف المعيشة، وفى عصر الصورة المنقولة بالتلفاز لا يمكن الفصل بين الحقيقة والتمثيل.

(٣)

فى المجتمعات الحديثة المزدحمة، تتنافس أزياء الطوائف المختلفة فيما بينها. الرجال هم إحدى هذه الطوائف، ولكى يتركوا انطباعا لدى الناس فإن من يمارس دور الرجل يجب أن يكون ظاهراً فى الزحام، أما الأفراد ذوى الميول الأخرى فإنهم ليسوا مهيأين للاهتمام بموضوع جنسهم. فقط الأطباء النفسيون وعلماء الاجتماع يثيرون

مشكلة أن الأولاد والبنات هذه الأيام يبدون بنفس الشكل، وعادة ما يتم الخلط بينهما بطريق الخطأ. حتى الشبان اليافعون الأشداء أعضاء عصابات المدن الكبيرة لا يبدون اهتمامًا إذا ما ارتدت صديقاتهم نفس القمصان والجينز الخاصين بالرجال، فهم يهتمون بدرجة أكبر بتمييز أنفسهم باعتبارهم خارجين على النظام عن اهتمامهم بتمييز أنفسهم باعتبارهم ذكورًا أو إناثًا.

ولعلنا نستطيع القول بأن الرجولة هذه الأيام خرافة تحولت إلى ملهاة. فالقبعة الكبيرة التى يصل حجمها إلى حجم إطار السيارة، لا تزال تضفى على من يرتديها الخصائص الذكورية القديمة كالشجاعة والجرأة وحب المغامرة، وهى الصفات القديمة لراعى البقر وسائق الشاحنة. والشخص غير المتأكد من هويته الجنسية - المخنث - يلبس الأحذية ذات الرقبة العالية وسراويل ركوب الخيل، لا لكى يخدع العامة بل ليوحى للآخرين بذكورته، والذين يتجاوزون الحدود قد يعلنون عن رغبتهم فى صحبة الرجال بوضع لحية مستعارة ولبس جلود الماشية، كما يمكن للنساء أيضا أن يكن مسترجلات أحيانا لكى يجعلن أنفسهن جذابات للرجال المخنثين.

(٤)

هيمنجواى الذى ظل محافظًا على مفهوم الرجولة حيا فى كتاباته، كان متباهيا بمظهر رجل الخلاء، والخصائص المفترضة فى الجرأة والرغبة فى العزلة واحتقار التمدين الزائد والرغبة فى الموت. وأداء هيمنجواى الرجولى كان من بين أشياء أخرى استخدمها كوسيلة لمحاربة ما أشاع عنه الأمريكيون بأنه مخنث وغير مكتمل الرجولة.

فى الولايات المتحدة عاش الفنان ورجل الفكر دائما تحت تهديد الشك فى رجولتهما. وفى كتابه "معاداة الفكر فى الحياة الأمريكية" أورد ريتشارد هوفستادتر اثنتى عشرة حالة وُصِمَ فيها مفكرون بالخنوثة من بلطجية السياسة، بدءًا من قادة قاعة "تامانى" فى القرن التاسع عشر الذين هاجموا المصلحين باعتبارهم "مخنثين سياسيين"، إلى دعاة الجزب الشيوعي فى الثلاثينيات من القرن الماضى، الذين وصفوا الكتاب المستقلين

بـ"العاهرات ذوات الرائحة"، حيث كان من السهل دائما إقناع رجل الشارع بأن من يتفوقون عليه فى العقل هم أقل منه رجولة.

وبالنسبة إلى التهمة التى كانت توجه دائما إلى الأدباء والمفكرين بأنهم يمتهنون مهنة تشبه مهنة السيدات، استجاب هيمنجواى بحقن الرومانسية الرجولية عند كتابة الأدب، على الأقل بالنسبة إلى ما كان يكتبه هو، فالشرعية الجنسية للكاتب الذكر كان لا بد من تأكيدها خارج إطار الشك فى رجولته. فبالإضافة إلى اشتراكه فى الأنماط التقليدية لرجال الخلاء مثل مصارعى الثيران وصيادى أعالى البحار، كانت إستراتيچية هيمنجواى تنطوى على الظهور بالصورة الجديدة لنشطاء حقبة الكساد، وهم الثوريون ذوو السترات الجلدية المتحالفون مع الفلاحين وعمال المصانع، حيث يمكن للمرء أن يقول إن كل رواية من رواياته نبعت من اختيار جديد لشكل هندام الذكر. لكن لسوء الحظ فإن إظهار الرجولة لم يكن وحده كافيا لهيمنجواى. لقد وجد أنه من الضرورى أن يتحدى رجولة غيره من الأدباء من أمثال تيودور روزفلت الذى كان فى القرن الماضى مثالا للمفكر الذى افترى على المفكرين عامة على أمل أن يضع نفسه مع الأفراد العاديين.

لقد نسى هيمنجواى نفسه خلال الحرب الأهلية الإسبانية لدرجة التهكم علانية على ليون تروتسكى لأنه ظل بالمكسيك ملازمًا للآلة الكاتبة، وتضمن نقده أن الرئيس السابق للجيش الأحمر تنقصه الرجولة لكى يذهب إلى إسبانيا للقتال، كما جاء فى روايته "لمن تدق الأجراس"، كما صور نفسه فى شخصية جوردان خبير الديناميت الذى فاق الجميع لمهارته فى ممارسة الحب داخل كيس النوم.

(٥)

منذ ثلاثين عاما مضت، لم يكن معاصرو هيمنجواى مقتنعين بأنه أسس رجولته على إظهار شهيته للعنف والجنس والموت. ففى رواية "لا، شكرًا" ترجم كمنجز رومانسيات هيمنجواى الرجولية فى أحلام يقظته أثناء الصبا. فبالنسبة إلى كمنجز كانت بطولات هيمنجواى طفولية وأيضا أنثوية.

وقد عانت الرجولة فيما بعد هيمنجواى من معوقات الذكورة، حيث كان معروفًا بصفة عامة أنها تنكرية. فالمغامر الذى يعيش فى خطر تقلص إلى مجرد صور سينمائية وكلمات تقال كما فى حالة چيمس بوند. فلم تعد الذكورة سواء فى العمل أو فى البيت مثار انتقاد، فالأب الذى دخل مرحلة المشاركة فى تغيير حفاضات الأطفال مع زوجته ليس لديه أى شىء من صفات الزعيم، وبالنسبة إلى جمهور نورمان مالرو الذى يبدو فائق الرجولة بصورته فى كاب الكابتن البحار وأخبار التفوق الجنسى هما فى موضع شك لأنه من الناحية السيكولوچية، فإن وجود الرجل الأبيض بصورته السابقة كان تحديا لرجولة الشاب الأسود، وكان يتطلب منه أن يثبت رجولته، وهو على يقين بأنه سيصبح رجلاً عندما يقرر أن يحارب الرجل الأبيض. ولكى يواجهوه، كان على المقاتلين السود أن يعيدوا بعث صورة الزنوج الأقوياء الباحثين عن الحرية فى الثلاثينيات من القرن الماضى، وهم فى ذلك كنماذج رجال هيمنجواى، الذين يغامرون بحياتهم فى الصراع الجسدى.

(٦)

فى مقال نشر بمجلة نيويورك تايمز عن الفهود السود وكان مصحوبًا بصورتين لاثنين من قادتهم، كان كلاهما يرتدى السترة الجلدية التقليدية ويضع على رأسه البيريه الذى كان يضعه مقاتلو اليسار منذ ثلاثين عامًا، وفى إحدى خطب واحد من الفهود السود استطعت أن ألمس الجوهر الفلسفى للتصور الرومانسى للرجولة، وهو أنك لكى تكون رجلاً لا يجب أن تخاف الموت ويجب أن تكون مستعدًا له فى أى لحظة. لقد قال بوبى سيل : "رجل الجيتو الأسود لا يخاف من مواجهة الشرطة لأنه يعيش بالفعل بالعنف ويتوقع أن يموت فى أى لحظة".

فى ثقافتنا، كل الخصائص الإنسانية تكاد تكون محدودة، وأن تصبح أساسًا للإحساس بالذات. ولقد تعاون علم السلوك الإنسانى مع أجهزة الإعلام فى جعل الرجل قلقًا بالنسبة إلى وضعه الجنسى، فكلاهما يوفر له نماذج للعدوانية لكى يصحح بها نقائصه.

ولكن عدم الارتياح الحالى فيما يختص بالرجولة ومع وجود الكوميديا المسرحية التى تجسد نقائصه قد تجعل التصحيح أشد ضرراً من أى نقص فى الرجولة يكتشفه الباحثون أو الكتاب، فالضرر الحقيقى قد يكون فى الدواء لا فى المرض. فرغبة أى شخص فى الاعتراف برجولته قد تعود كما رأينا إلى مواقف عبثية وأفعال عنيفة، ومن الصعب الاعتقاد بأن الأمريكيين سوف يكونون أسوأ إذا ما أصبحوا أكثر رقة، ولا أن الوسطية فى الأخلاق سوف تجعلهم أقل رجولة.

فى العالم الحقيقى لا شىء يكون ما هو عليه تماما.. فالذكورة لا توجد دون قليل من الأنوثة. لقد أدرك الإغريق ذلك وجعلوه موضوعاً لقصصهم عن التحولات الجنسية، وأكثر الأمثلة وضوحاً ذلك المثال الخاص بهرقل، فمن بين كل الرجال، أخذ هرقل شكل الأنثى لفترة وارتدى ملابس النساء. إن الرجولة الكاملة هى المثل الأعلى لمن يشعر بنقص فى رجولته، وليست على الإطلاق حقيقة بيولوجية، وإذا ما تم تنحية النموذج الذكورى الكامل جانباً، فقد يكون هناك فرصة لتطور مفهوم الرجولة فى الولايات المتحدة.

الصداقة بين الرجال

مارك فيجن فاستيو

(١)

هناك أسطورة قديمة في مجتمعنا تقول، إن الصداقات العظيمة هي التي تقوم بين الرجال. ويتم تصوير صداقة الذكور على أنها أشد صور العلاقات الإنسانية في إنكار الذات وعدم الأنانية، إن لم تكن أرقاها على الإطلاق. وكلما كانت الخبرة المشتركة التي ينبع منها هذا الاعتقاد رجولية، افتُرض أن الصداقة أقوى وأشمل. فالذهاب إلى الحرب معًا والتغلب معًا على الأزمات الشخصية أو أزمات العمل أو اللعب معًا في الفريق الرياضي نفسه، هي كلها بعض الخبرات الكلاسيكية التي تتوطد من خلالها الصداقات بين الرجال.

ويفضل الرجال بدرجة كبيرة صحبة أقرانهم من الرجال، ليس فقط في أوقاتهم العادية، بل أيضًا في الأوقات التي يملأونها بأنشطة حيوية غير اضطرارية. فهم يفضلون لعب المباريات أو الشراب أو العمل أو الشجار أحيانًا. ومع ذلك، ينقص شيء مهم، فعلى الرغم من طول الوقت الذي يقضيه الرجال معًا فأحيانًا يكون الاتصال بينهم ضعيفًا ولا يتجاوز الظاهر بما يجعل صداقتهم سطحية وغير مشبعة.

(٢)

ذكريات طفولتي الخاصة عبارة عن عمل أشياء مع أصدقائي، مثل لعب المباريات الرياضية أو تجميع أجهزة الاتصال اللاسلكي أو الذهاب في مخيمات كشفية. أما الآخرون من جيراني وأقربائي فلم يكونوا أبدا محلا لاهتمامي. إذا أحبني أحد،

فقد كان ذلك يعد حدثًا غامضًا لا يحتمل التحليل، وعندما يستخف بى أحد أشعر بأننى قد جرحت، ولكن العلاقات مع الناس لابد من أن تحدث، فأنا بالتأكيد لدى مشاعر وأحاسيس تجاه أصدقائى كلهم، ولكننى لا أتذكر مناسبة واحدة حاولت فيها التمييز بينهم إلى أن التحقت بالجامعة. وبالنسبة إلى كثيرين من الرجال، يستمر سلوك تجنب مصادقة الغير نتيجة الخجل حتى مرحلة البلوغ، وفى الحديث مع بعضنا نادراً ما نشير إلى أنفسنا كمحور للحديث، فنحن نتحدث تقريبًا عن كل شىء فيما عدا كيف نتأثر نحن بالناس والأحداث، ونتناقش فى كل شىء كما لو كان يحدث فى مكان بعيد عنا وكما لو كنا لا نشعر بأى استجابة له أكثر من استجابتنا لحالة الطقس.

والموضوعات التى نتناولها بهذا الأسلوب الانفصالى أصبحت أساس النقاش فى الوقت الحالى، أما الموضوعات المحدودة والتى تعد شخصية بصورة أساسية، فيتم صياغتها فى صورة أسئلة ومناقشات مجردة وعامة، حتى فى أثناء تبادل الحديث عن النساء المتحررات – وهو موضوع له أهمية شخصية كبيرة – يكون الميل أكثر للحديث فى العموميات وبطريقة نظرية بحتة.

والحديث عن العمل فى جوانبه الموضوعية، عادة ما يكون موضوعًا آمنًا، ويقضى الرجال أيضًا وقتًا كبيراً فى مناقشة الموضوعات العامة الكبيرة التى تحدث فى الساحة. فحتى أوائل ١٩٧٣ كانت ڤيتنام هى موضوع الحديث فى كل مكان، ثم بعد ذلك فضيحة ووترجيت. ولا يبدو ذو أهمية أننا قمنا قبل ذلك بمئات المناقشات للموضوع نفسه. فنحن ندخل فى مناقشات أخرى لمحاولة الخروج بزاوية جديدة لنفس الموضوع ولكى نترك انطباعا جيدا لدى الآخرين عما نعرفه، ولكى نبتعد عن جمود الملل.

(٣)

تلعب المباريات دورًا مركزيا فى الأنشطة التى ينظمها الرجال. أنا أتذكر أنه فى عطلة نهاية الأسبوع منذ سنوات عديدة مضت، وفى بيت ريفى لزميل فى كلية الحقوق، كانت توجد ألعاب كرة القدم والكروكيه والبوكر ولعبة الرجبى، بالإضافة إلى السباحة، وما إن تنتهى لعبة حتى تبدأ أخرى.

وإذا أخذنا كل لعبة ونظرنا إليها على انفراد، فسنجد أن هذه الأنشطة كانت رائعة ومبهجة، ولكن الانطباع الذى لم يكن ليغيب عنا هو أن المضيف وأغلب الضيوف سيفعلون أي شيء لتجنب أي لحظة هدوء يكونون فيها معًا. إن التقاط صورة لأي ناد للرجال سوف يظهر الشيء نفسه، فتسعون في المائة من الرجال الذين يشتركون معا في بعض الأنشطة يكون النشاط الذى يمارسونه أو مشاهدته سببا وحيداً لتبادل الحديث.

ذكرياتى عن الأمسيات التى قضيتها مع صديق بالجامعة شاركته المعيشة فى شقة بواشنطون، هى عن المناقشات التى تتخللها فترات سكون نتخلص فيها من أية أفكار شخصية أو عاطفية قد تكون قد طرأت على أذهاننا، إلى أن نعود إلى حديثنا الذى بدأناه، وعندما كنت لا أستطيع إبعاد عقلى عن التفكير فى الأمور الشخصية، كنت أتكلم قليلاً. والأحاديث مع أبى كانت دائمًا ما تتخذ هذا المنوال. كان احترام الخصوصية هو المرجع فى أى حديث بيننا، كانت أسئلته لى عن كيف تسير الأمور فى المدرسة أو العمل غالبًا ما تتسم بالذكاء، فتأتى كما لو كان يسأل صديقًا. كانت مناقشتنا عميقة ومثمرة وتتناول موضوعات كبيرة أحيانًا وأكبر من قدرتى على استيعاب دلالتها، وكنا لا نقول أى شيء عن الأمور الحساسة ونعود بسرعة إلى الموضوعات الآمنة ذات الاهتمامات العامة.

(٤)

فى أدبياتنا الشائعة، نموذج البطل الذى يتميز بقلة الكلام ويميل إلى الصمت هو راعى البقر، وهذه الصورة التقليدية للشخصية جاءت عام ١٩٠٢ فى رواية أوين ويستر "الفرچينى" التى أوضح فيها المؤلف بدقة خصائص هذا البطل. فهكذا يدور الحوار مع صديقين حميمين للفرچينى لم يرهما منذ فترة ويصطحبانه للشراب معًا، وكانوا قد عاصروا أياما عصيبة معًا ويشعرون بالذنب وبالعاطفة نحوه.

- "إنه لطقس حار" قال ويجن..

- "إنه أشد حرارة فى بوكس إلدر" أجاب ماكلين "لقد بدأ طفلى فى التسنين".

ثم ذبلت الكلمات مرة أخرى.

غيروا من أماكن جلوسهم ونظروا فى أكواب الشراب وقرأوا العلامات على الزجاجات، وكانوا يقولون كلمة من حين لآخر لصاحب الحانة عن عمله وديكور المكان.

كانت إحدي واجبات الڤرچينى أن يساعد فى شنق أحد أصدقائه القدامى كانت تهمته سرقة الجياد. كان من الواضح أنه مكتئب. وضع الراوى ذراعه حول كتف الڤرچينى ووصف انفعال الڤرچينى على لسانه قائلاً:

"كان لدى إحساس بضرورة أن أبقى صامتًا، وبعد لحظة صافحنى ولم ينظر إلى وجهى وهو يفعل ذلك. كان خجولاً ويخشى إظهار عواطفه".

ولشرح هذا الموقف يقول: "كان يدرك أن الكثير من الأمور فى هذا العالم يجب عملها فى صمت وأن الكلام عنها خطأ".

غير أن هناك استثناءات تثبت القاعدة. أحد هذه الاستثناءات هى ثقة المخمور بإمكانية استقطاب الأصدقاء، فالخمر هنا تصبح وسيلة لجلب الثقة للنفس وتدبيراً لتخفيف الحظر على التعبير عن الحاجة للتعاطف والتعضيد من الرجال الآخرين، مما قد يفسر أهميته بالنسبة إلى بعض الرجال، كما أن الماريجوانا تقوم بالأثر نفسه.

(٥)

الاستثناء الثانى هو التحدث إلى غريب، والذى إما أن يكون واحداً لا يعرفه المتحدث أو واحداً ليس من نفس دائرة العمل أو الدائرة الاجتماعية. العديد من الأصدقاء الزنوج قالوا لى إنهم كانوا يستمعون إلى أحاديث ثقة من معارف بيض كانوا متأكدين من أنهم لم يقولوها لأصدقاء من البيض. فى أى من الحالتين، يكون الرجال أكثر استعداداً للحديث عن أنفسهم فقط لغيرهم من الرجال الذين لا يتنافسون معهم أو لن يواجهوهم اجتماعيا فيما بعد.

أخيراً، هناك الطريقة التى يعتمد فيها الرجال على النساء لتسهيل إجراء أحاديث معينة، فالنساء فى المجاميع المختلطة عادة ما يكن أول من يقوم بالتحدث عن أنفسهن.

أولاً ليكن مصدراً للثقة، ثم يتحدث عن الآخرين من الموجودين. ويمكن للرجال عندئذ القفز إلى الموضوع مباشرة دون الحاجة لبدء حديث عن "الشخصيات". الرجال بصورة جمعية، كان يمكنهم إلقاء اللوم على النساء فى الحديث، ويمكنهم أيضاً أن يشعروا من خلال هذه الأحاديث، حين يتحدثون إلى النساء بدلاً من الرجال، بأنه يمكن التماس العذر لهم حين ينحرفون عن الخط الرجولى فى الحديث. وعندما تغادر النساء، تتغير لهجة الحديث كما تتغير الموضوعات التى تتناول الأمور الشخصية. وهذه القيود تجعل من معرفة الرجال لبعضهم البعض أمراً صعباً بطريقة غير عادية. وقد جمع طبيب نفسى هذه الآثار بعد قيامه بسلسلة طويلة من المقابلات الجماعية للرجال. وقد وصف أعضاء هذه الجماعات كيف أنهم كانوا بحاجة ملحة إلى أن يكون لهم علاقات أكثر حميمية وأكثر إشباعاً بغيرهم من الرجال. وقد اعترف أحدهم قائلاً : "يمكننى أن أقنع بأن يكون لى صديق واحد رجل يكون قريباً منى حقاً، وعلى الرغم من أن لى حالياً بعض الأصدقاء الرجال المقربين، وكثيراً ما نلعب الجولف معاً أو نذهب لتناول مشروب، كما نشكو لبعضنا من وظائفنا وزوجاتنا، وأنا أهتم بهم وهم يهتمون بى، ونحضن بعضنا بعضاً فى المناسبات الكبيرة، إلا أن ذلك ليس كافياً".

(٦)

إن صعوبة رفع الحظر عن التعبير عن الذات، وأسباب إخفاء الرجال لأنفسهم عن بعضهم، تكمن فى المحرمات المتصلة بجنس الذكر.

فى البداية كان يجب على الرجال أن يكونوا فعالين وذلك بأن يقضوا وقتهم يعملون أو يلعبون أو يفكرون كيف يحلون المشاكل، أما الانفعالات الشخصية وكيف يشعر الرجل تجاه الناس وعلى الأخص الرجال، فتعد غير فعالة لأنها فى أفضل الحالات تكون إلهاء غير ذى قيمة عن الفعالية المتوقعة. فالرجال الضعاف فقط والنساء هم الذين يتكلمون بحرية ويطلقون العنان لأحاسيسهم الخاصة. "أنا مثلاً أضع أصدقائى فى مجموعتين – الكلام على لسان مدير أعمال تنفيذى – الذين يفعلون ولا يشتكون، والذين لا يفعلون،

المجموعة الثانية هم فقط الذين ينفقون الوقت فى الحديث عن مشاكلهم لزوجاتهم وكيف أن رئيسهم فى العمل سيئ الطباع وما إلى ذلك، أما الذين يركزون أكثر على الاتصال.. فهم الذين أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا". فى عالم يقال فيه للرجال إن عليهم الاختيار بين الانفتاح التعبيرى أو القوة الرجولية، يبدو هذا التشخيص دقيقًا. فمعظم الرجال الذين يتكلمون عن أنفسهم لأقرانهم من الرجال هم الذين تغرقهم مشاكلهم ولا يستطيعون المقاومة. أما الرجال الذين لم يصلوا بعد إلى مرحلة اليأس فلا يتحدثون عن أنفسهم، وبالتالى تكون فكرة أن الحديث عن الذات والتعبير عن النفس مرتبطة بالمشكلات وتتسم بالضعف.

شعور التنافس الذى يتملك الرجال يحد هو الآخر من الاتصال فى مجال الصداقة بين الرجال، فالتنافس هو الأداة الرئيسية التى يستخدمها الرجال للتعرف ببعضهم البعض عند مستوى معين، لأنهم لا يعرفون كيف يقيمون اتصالا بطريقة أخرى، ويكون التنافس فى الأساس، هو الطريقة التى يظهرون بها لأنفسهم وللآخرين ما عندهم من خصائص رجولية كالصلابة والقوة والخشونة والتحكم. النتيجة هى أنهم يستخدمون المنافسة فى مواقف لا تستدعيها.

(٧)

عندما تتحدث، يجب أن تظهر أنك تعرف عن الموضوع أكثر من الرجل الذى تتحدث إليه، أو على الأقل ما يعرفه هو. إقناع الشخص الآخر يعد انتصارًا فى حد ذاته، فالرجال يميلون إلى إلقاء المحاضرات على بعضهم البعض ويصرون على أن يكون النقاش تبعًا لخط تفكيرهم، فهم عادة لا يرغبون فى الإنصات. وكما ذكر أحد الرجال :

"عندما كنت أتكلم، اعتدت أن أقود المستمعين إلى نقطة معينة يجب أن تكون منطقية ومقبولة، وأننى يجب أن أكون مقنعًا طوال الوقت لا أن أتبادل الأفكار والتصورات".

حتى فى الحديث العابر، يلتزم بعض الرجال الصمت ما لم يكونوا متأكدين تماماً مما يقولونه. فما إن يحصلوا على وضع معين فإنهم لا يرغبون أن يرغموا على تغييره، كى لا يقال "إنه تماما كالمرأة" إذا غير تفكيره. والأكثر أهمية أن ذلك لا يتفق مع الموقف الرجولى المقبول للاستقلال الكامل.

(٨)

كانت المنافسة فى صميم شخصية أحد أصدقائى المقربين، كان بيننا الكثير من المودة المتبادلة والاحترام.. كنا نخرج معًا كثيراً ونقضى أوقاتًا طيبة، ثم قررنا أن نعمل معًا. كان لكل مناً طموحات بوصفنا رجالاً صغاراً لامعين، ونفس وجهات النظر المتحررة والتى كانت أحيانًا متطرفة وصلبة، وقد تعرفنا على ذلك فى كل منا وكانت هذه المعرفة أساس احترامنا وإحساسنا بالمساواة. كان من المهم أن نرى فى كل منا شخصًا مساويًا للآخر، وقد توطدت صداقتنا بفعل انعكاس شخصية كل منا فى الآخر، ولكن تنافسنا الدائم فى كل شىء جعل هذه المساواة مزعزعة وهشة. فبطريقة أو بأخرى، كان كل شىء محلاً للمنافسة عند عملية القياس، فمثلاً كنا فى مباريات التنس نلعب بقوة ونتنافس بضراوة كأن حياتنا كلها تعتمد عليها، وفى لعبة البوكر، كنا نستمر فى اللعب لساعات طوال بعد أن يغادر الآخرون، وكان الوقت الطويل جدا الذى نقضيه فى لعب البوكر – عندما أفكر فيه الآن – يعبر عن قوة التنافس بيننا، على الرغم من أننا كنا نلعب على مبالغ زهيدة، لكن السبب الرئيسى لاستمرارنا فى اللعب هو الرغبة فى التفوق، وتحقيق الهزيمة النفسية للاعب الآخر، أما المهارات الأخرى، فقد كانت غير ذات أهمية. كانت الرغبة فى تحقيق الفوز هى السعادة الوحيدة، وكانت تتلاشى بسرعة، وهى الحقيقة التى كانت تخطر بذهنى كلما انتهى اللعب فى الرابعة صباحًا. وعندما كنت أخرج من الباب بمكسبى البالغ خمسة دولارات، كنت أشعر بالصداع يدق رأسى وبالملل وبقيمة الوقت الذى أضعته وعلى الرغم من ذلك، كنت أفعل الشىء نفسه فى اليوم التالى.

(٩)

لقد كان ما نفعله معًا هو الذى له كل الاعتبار.. فالخسارة فى لعبة التنس يعوضها الفوز فى البوكر، وعلى مستوى تنافسى آخر، كانت الغيرة تتملكنى عندما كان صديقى ينال ترقية وظيفية فى الحكومة الفيدرالية، لكن كان يعوضها تقدمى الوظيفى فى جامعة هارفارد للقانون.

هذا التنافس فى نظرى يعد عقبة رئيسية لنمو الصداقة بين الرجال لأنه يدفع كل واحد لأن يلتمس نقاط ضعف الآخر، وقد تعلمنا مبكرًا أن الرجال الحقيقيين من المفترض أن تكون لديهم آمال أو طموحات لا يمكن تحقيقها؛ بالطبع هناك أشياء لا يحبونها فى أنفسهم مثل الخوف والتردد وعدم الثقة، لكن مثل هذه الأحاسيس تشكل جزءًا من الحياة الداخلية لكل منهم، وعلى الرجل أن يحتفظ بها فى نفسه لكيلا يعرف الآخرون شعورك وتكون تعليقاتهم مؤلمة، وهذا لا يتفق مع الرجولة. فالرجال عادة لا يشتركون فى مواقف عدم التأكد من الأشياء التى تعرض لهم فى الحياة اليومية، ويختلفون عادة مع أصدقائهم، لكنهم فى العادة يكونون حريصين على الإشارة إلى أنهم يعرفون كيف يتصرفون، أو أنهم فى الحقيقة لا يطلبون المساعدة وإنما فقط بعض المعلومات. فى أى من الحالتين فإن أى معلومات تقدم لهم يتم تقديمها على أنها خارجية ويتم تقديمها بعناية، وعلى أن لها علاقة بالموضوع وبعيدة عن المتكلم. إنهم فى الحقيقة شديدو الحذر من إظهار الاهتمام أو بالسؤال الذى يدعو إلى تعليق شخصى.

ولعل من المستحيل أن يتبادل الرجال أفكارًا عن أمور تتعلق بهم شخصيا بطريقة مريحة غير متأزمة. فمثلا إذا قال لك صديق بأنه لا يتوافق مع أصدقائه دائما، فمن المرجح أن يكون تفسيره الخاص شىء مثل "اختلافهم عنه فى الخلفية المهنية"، وذلك لكى يتفادى الملاحظات أو المقترحات التى لا تتلاءم مع مزاجه المتحفظ، وأنت لا تبدى له رأيك – حتى لو كنت تعتقد أنه صحيح – بأن عدم التوافق ينجم من أنه يقدم أفكاره بطريقة تميل إلى استثارة رد فعل عدائى، لأنه سوف يدفعه للاستياء. وربما كان شيئًا

لم يفكر فيه من قبل ولم يقبله عن نفسه، ولهذا السبب فمهما كنت بناءً وغرضك نبيلا فإن ذلك يضعك فى موقف الحكم، وهو لا يريد ذلك ويخشى أن يفقد احترامك. وبالتالى فإن تقديرك بأنه يشعر بهذا الشعور سيجعله يعتقد أنك تقول شيئًا آخر، فهنا لا يوجد أخذ وعطاء.

(١٠)

من الصعب أن يغضب الرجال من بعضهم، فالغضب بين الأصدقاء يعنى عادة أن واحداً منهم قد جرح مشاعر الآخر، وحيث إن التعبير الصريح عن الغضب فى هذه المواقف يتضمن الاعتراف بنقاط الضعف أو إيجاد مبرر موضوعى للثأر، فإنه فى كلتا الحالتين لا يتم استعادة الثقة بسهولة.

يحاول الرجال دائما إخفاء شعورهم بالسعادة والفرح. ولعلنا نحاول إبداء قدر من البهجة مع التحفظ فى إبداء أسباب سعادتنا إذا كانت لها علاقة بإنجازات عظيمة. ولكننا نفعل ذلك بوجه جامد، كما لو كنا نقول "هذا ما حدث، ولكنه لم يؤثر فى رزانتى ووقارى، ولا يتطلب أى صورة من صور الانفعال".

الفرحه الزائدة إحساس غير ضرورى وطفولى، من السهل أن يدفع الرجل إلى تصرفات غير حميدة، وقد يجد آخرون أن المناسبة التى أدت إلى السعادة بسيطة وغير مفهومة أو أنها تهدد اتزانهم ووقارهم.

فمثلا إذا كان أحد الرجال عالى المزاج ولا يخفى فرحته، فإن آخر قد يكون متزمتًا وبالتالى إذن لا داعى له للاندفاع وراء مشاعره وإظهار سعادته. أما الذى يعد صعبا بالنسبة إلى الرجال بصورة خاصة فهو البحث عن مساعدة الأصدقاء؛ فأنا كواحد من هؤلاء، تعلمت مبكراً أن الاعتماد على الآخرين أو قبول مساعدة من الأصدقاء؛ يعد أمراً غير مقبول. فعندما كنت فى الثامنة من العمر ذهبت إلى مخيم

صيفي كنت أكرهه، وقد زارني والداي في منتصف الصيف، وعندما حان وقت رحيلهما كنت أتوق للرحيل معهما، لكنهما رفضا، فصرخت وبكيت وكنت أشعر بتعاسة ويؤس لا حد لهما طوال ذلك اليوم. وفي المساء قام أحد الرفاق الأكبر سنا بتهدئتي حيث جلس بجانبي على حافة الفراش وأنا أبكي وظل يربت على ظهري ويواسيني، ويقول الكلمات التي تقال عادة في أوقات كهذه، لكنه كان مرتبكا بطريقة ما ويقول أشياء مضحكة. وبعد أيام قليلة اشتركت مع عدد من الأولاد في السخرية منه مما أساءني كثيراً عندما فكرت فيما فعلته معه، ولسنوات عديدة. وقد يمكنني أن أشرح ذلك بإحساس غلام في عمر الثامنة، بأنني عندما قبلت مساعدته لتجاوز ما أشعر به من يأس وبمواساته لي، أكون قد عرضت نفسي للرثاء والازدراء من جانبه، مما جعلني أرغب في وضعه في موقف مماثل بجعله عرضة للسخرية وبذلك أكون قد ثأرت لنفسي.

(١١)

قال أحد المديرين بشركة ما ذات مرة : "لا يمكنك التعبير عن مفهوم الاعتماد على الغير عندما تشعر بحاجتك إلى الاعتماد عليهم لأن هذا شيء يعد غير قابل للتحديد أو القياس.. فإذا كنت تعتمد عليهم بنسبة ٤٠٪ ولا تعتمد عليهم بنسبة ٦٠٪ فهل تعتبر معتمداً على الآخرين؟ الشيء نفسه يحدث مع الاستقلال الذاتي، فأنت إذن إما معتمد على الآخرين وإما مستقل، ولا يمكن أن تكون الأمرين معاً".

وهناك آخر يشرح موقفه ويقول: "الإحساس بالاعتماد يتميز بالضعف ويفتقر إلى الصلابة الواجبة، وثقافتنا لا تقبل هذه الأشياء في الرجال".

النتيجة هي أننا إما أن نقوم بالأمور وحدنا وإما أن نلعب أدواراً أو نمارس أفعالاً معينة لاستثارة الانفعال المرغوب إحداثه في الآخرين، وبذلك نشبع احتياجاتنا دون الحاجة إلى أن نطلب منهم ذلك صراحة.

(١٢)

وبدرجة قد تكون أقل وضوحًا، التعبير عن العواطف والبواعث يصطدم أحيانًا بالموانع الذكورية التى تنبع من كوننا رجالا. فعندما كنت طالبا بالجامعة، أحسست ذات مرة بتدفق عاطفى فجائى فى أثناء حضورى لحفل زواج أحد أصدقائى، وقد جعلنى هذا الإحساس غير مستريح وواعيا لذاتى. لم يكن هناك ما هو صعب أو غير رجولى فى انفعالى سوى حقيقة أن مشاعرى قد تحركت فى لحظة بشحنة متدفقة من الأحاسيس الرقيقة، ولكننى لم أعرف كيف أتعامل مع هذه المشاعر المتدفقة أو أن أقوم بتوصيل ما أحسست به. كنت سأعتبر نفسى إنسانًا عاطفيا، وقادراً تماماً على التعبير عن إحساسى. وفى أحد الأيام وصفت زوجتى صديقًا لى بأفضل أصدقائى لأنه يجيد التعبير عن مشاعره، وعند سماعى لها تقول ذلك أحسست بالحرج.

من المصادر الرئيسية لهذه المثبطات بالنسبة إلى الرجل، هو الخوف من أن يعتقد أنه شاذ جنسيا، ولا شىء يسبب الرعب لأى رجل طبيعى فى مجتمعنا أكثر من أن يوصف بأنه مصاب بالشذوذ. فهذا يهدده من أن تنزع عنه أية ادعاءات خاصة بطبيعته الرجولية بضربة واحدة، وهو أشبه بتدمير أساسات مبنى قائم، ويعرضه للنبذ الذى يتراوح بين التجنب المهذب إلى الاستبعاد العنيف من أصدقائه وزملائه. الرجل يوصف بالشذوذ الجنسى ليس فقط نتيجة السلوك الجنسى الشاذ الذى يمارسه، ولكن نتيجة أية علامة من علامات السلوك الذى لا يتفق مع النمط الرجولى، كأن يلمس رجل آخر بعد مصافحته باليد، أو أن يضع ذراعًا حول كتفه.

فالنساء قد يُقبِّلن بعضهن البعض عندما يتصافحن، بينما يكون الرجال غير مستريحين عندما يحتضنهم أصدقاؤهم المقربون. فالذين ينظرون قد يسيئون تفسير ما يرونه، لكن المهم هو ما نعتقده نحن فى أنفسنا إذا ما أحسسنا بشىء من السرور عند العناق.

(١٣)

التعبير اللفظى المباشر عن العاطفة أو النعومة هو أيضا شىء لا يشترك فيه سوى الشواذ جنسيا والنساء، لكن بين الرجال "الحقيقيين" يمكن أن تأخذ العاطفة صورة ضحكة عالية أو نكتة من نوع "تبا لك أيها العجوز". فى بعض الحالات، قد تستعمل كلمات الاعتزاز بين الرجال على أنها من متطلبات الرجولة، على شرط أن يكون ممن يتبادل هذه الكلمات من الرجال قد اعتادوا ذلك.

التلاعب بالشذوذ الجنسي الذى يعتبر من التقاليد المعروفة للعديد من نوادى الرجال يخدم هذا الغرض. كتب كلود براون عن حياة السود فى مدينة نيويورك فى الخمسينات قائلاً :

"لفظ (طفل) له جرس خاص لذلك.. إنه كأنك تقول "أيها الرجل، انظر إلىَّ، إن لدىَّ فائضاً من الرجولة أستطيع الاستغناء عنه، أستطيع أن أنادى آخر بالطفل ويمكنه أن ينادينى أيضا بالطفل، ويمكننا أن نقولها بأصوات قوية. فإذا كنت تستطيع أن تقولها فإن هذا يعنى أنك واثق بنفسك، واثق من برجولتك".

إن الخوف من الشذوذ الجنسى يفعل ما هو أكثر من تثبيط التعبير الجسدى للعاطفة. كانت إحدى الشكاوى المتكررة الرئيسية فى مجموعات الرجال التى يقودها المعالج النفسى دون كلارك هى :

"جزء كبير من إحساسى تجاه الرجال الآخرين غير معروف ومشوَّه لأننى أخشى أن يكون له علاقة بالشذوذ الجنسى. الآن أنا وحيد ولا أعرف ماذا أريد منهم".

وكما لاحظ كلارك "أن شبح الشذوذ الجنسى بالنسبة إلى أى رجل يبدو كالعفريت على باب إدراكه لذاته وفهمه لمدى احتياج الذكر إلى الذكر، وإذا ما حاول أن يدعى أن العفريت ليس موجوداً بإغماض عينيه عن الأحاسيس تجاه الرجال الآخرين، فهو بذلك يغمض عينيه عن ذلك التنوع الكبير من الأحاسيس ذات الصلة".

(١٤)

المواقف القليلة التى يعترف فيها الرجال بأحاسيسهم القوية بالحب والاعتماد تجاه غيرهم من الرجال تعد استثناءات تثبت القاعدة. على سبيل المثال "رجال البوليس أو الجنود فى ميدان القتال يجبرون على القرب كل من الآخر والاعتماد على بعضهم نتيجة انخراطهم فى العمل معًا، فهم إما أن يكونوا فى عربة الدورية أو فى الخندق معًا، وطبيعة الوظيفة نفسها واجهة ذكورية عالية، حيث يمكن للرجال أن يسلكوا سلوكًا قد يشتبه فيه تحت ظروف أخرى.

وحتى هذه العلاقة من الزمالة القتالية عند اختبارها بدقة يتضح أنها لا تجعل الرجال شديدى الاقتراب كما هو متصور، وليست شخصية بدرجة كافية.

كتبت مارجريت ماييد تقول :

"خلال الحرب العالمية الثانية أصابت المراقبين الإنجليز الحيرة نتيجة التناقض الواضح بين اهتمام الجنود الأمريكيين بالرفقاء، والذى كان يتمثل فى الانهيار الذى يحدث لهم بعد موت رفاقهم ونتائج التحقيقات التفصيلية التى أظهرت كيف أن علاقات الصداقة ورفقة السلاح تلك كانت مرحلية. وقد وجد أن الجنــود يقتربون من رفاقهم عند انضمامهم إلى فصيلتهم أو عند الحوادث التى يجابهونها معًا، لا نتيجة أى خصائص شخصية".

إحدى الطرق لإزالة آثار الخوف من الظهور بمظهر الشاذ جنسيا، هى ألا يجتمع رجلان وحدهما معًا دون سبب. ذات مرة اقترحت على صديق أن نتناول العشاء معًا، فقال "ما الأمر؟" وأحسست وقتها بعدم الارتياح وأنا أقول له إننى فقط أردت الحديث، ولم يكن هناك سبب آخر للدعوة.

(١٥)

إن الرجال يجتمعون معًا للقيام بأعمال مشتركة أو لتناول الشراب أو لعب المباريات، أو لتجديد الاتصال بعد غياب طويل، أو للمشاركة فى مناسبات اجتماعية يحضرها أفراد من الجنسين، وفى هذه الظروف لا يعد أى شخص مسئولاً عن الرغبة فى رؤية الآخر. والرجال يكونون أكثر ارتياحا عندما يتقابلون فى مجموعات، فوجود الرجال فى مجموعات يلغى الافتراض الممكن بأن يشعر أى رجل بعاطفة تجاه رجل آخر، ويوفر الأمان للرجال الموجودين حيث "كل الرفاق هنا"، مما يجعل الاتصال الشخصى الذى يتطلب مستوى من الثقة والفهم المتبادل الذى لا يشترك فيه كل أعضاء المجموعة أكثر صعوبة، ويوفر عذرًا لتجنب هذه المنطقة الشائكة، ويوفر ما هو مطلوب فى صداقة الرجال، وهو التأكيد المتبادل للرجولة.

ومن نافلة القول، إن الملاحظات الواردة فى هذا الباب لم تأت كلها من رأسى، لقد بدأت عندما فهمت أنه على الأقل مع برندا زوجتى، من الممكن أن تكون العلاقة بيننا أكثر انفتاحًا ولا تقتضى أى نوع من حماية الذات.

الذكر المخنَّث

نويل نيرين

(١)

فى الصيف الذى بلغت فيه سن السادسة عشرة، ركبت القطار من نيويورك إلى ستيم بوت سبرنجز بولاية كولورادو، حيث كنت سأعمل مساعد سائس جياد بأحد المخيمات. استغرقت الرحلة ثلاثة أيام، وحيث إننى شديد الخجل ويتملكنى الارتباك عندما أتحدث إلى غرباء، كان لدى وقت طويل للقراءة، فقرأت رواية "ذهب مع الريح" بكاملها وقرأت كل المقالات المهمة فى عدد من المجلات، ثم عدت وقرأت باقى المقالات الأخرى. حاولت أيضا حل كل الألغاز الموجودة بالمجلات والتى كانت آنذاك مليئة بالمقارنة كما هى عليه الآن.

استرعى انتباهى اختبار يسمى "ما درجة ذكورتك – أنوثتك؟" ويتكون من عدد كبير من الرسومات، وكان من المفروض أن يحدد القارئ مدى مطابقة الشكل المرسوم لواحد من أربعة أشياء، وهذه الاختيارات تكون على سبيل المثال.. سحابة، محرك، بنزين، دودة، طائر..الخ.

عندما انتهيت من الاختبار أصابتنى صدمة، فقد كانت درجة الاختبار من ١٠ درجات وحصلت أنا على درجة واحدة.

كانت نتيجة ذلك الاختبار مخيفة لى، لدرجة أننى وللمرة الأولى فى حياتى أجريت تحليلاً لذكورتى. ونظراً للوقت الذى أتيح لى فى القطار نظرت إلى الإجابات مرات ومرات محاولا معرفة ما الذى يميز الرجال الحقيقيين عن أناس مثلى، وقد اكتشفت

اثنين من النماذج البسيطة. فقد كان ذكوريا أن تعتقد أن الرسم يشبه أشياء يصنعها الرجل، وأنثويا أن تعتقد أنه يشبه الأشياء الطبيعية. كان ذكوريا أن تعتقد أن الرسوم تشبه أشياء بريئة ولا تحدث أضراراً.

حتى وأنا فى سن السادسة عشرة، كان لدى إحساس بأن من وضعوا الاختبار قد استخدموا خصائص محدودة.. فالذكورة والأنوثة أكثر تعقيداً من ذلك.. وتنفست الصعداء، فلم أكن بالضرورة أنثى رغم ذلك.

(٢)

بعد عدة سنوات أدركت أن ذلك الاختبار يكشف لى شيئًا بخلاف سطحية من وضعوه، وهو أن هناك قسمًا كبيراً من الرجال والنساء أنتمى أنا إليه، وهم المخنثون، لكن هذا لا يعنى أننا شواذ جنسيا أو نفتقر إلى الهرمونات المناسبة أو لا نشعر بالراحة فى أداء الوظائف التى توكل لجنسنا، فأنا أذكر أنه بعد سنوات قليلة من ذلك الصيف، كنت أقود جنوداً فى معارك حربية، ويجب أن أعترف بأننى استمتعت بذلك، فقد كانت الحرب مثيرة، ومن المحزن أن القرن العشرين أفسدها بالأسلحة التكنولوچية المتطورة.

ما يعنى أن تكون "مخنثًا" من الناحية الروحية هو أن تكون حرا. فالرجال الذين هم رجال بالكامل أى بنسبة ١٠٠٪ لديهم استعداد طبيعى يجعلهم مفتونين بالقوة الجسدية ولديهم أيضا نزعة للتفوق والسيادة، ولمشاهدة كرة القدم الأمريكية. أنا لا أقول ذلك انتقادا لهم.. فالرجال الذين هم ذكور تماما عادة ما يكونون أناسا رائعين وأزواجًا ممتازين وآباء طيبين، على الرغم من أنهم أحيانًا ما يميلون إلى السيطرة، وهم أعضاء عاديون فى المجتمع. وبالإضافة إلى ذلك فإنهم عادة ما يكونون غير مستغرقين فى ذواتهم وفى حالة سلام مع العالم لدرجة أن غيرهم من الرجال يرونهم جديرين بتقليدهم، ولكنهم غير أحرار مثلنا نحن المخنثين، لأنهم مرغمون على أن يكونوا على ما هم عليه، أما نحن، فأمامنا مجال متسع للاختيار.

(٣)

أما الأمر المحزن هـو أن الكثـيرين منا لم يكتشفوا ذلك أبـداً. فالرجـال الـذين لا يكونون مـائة فى المـائة رجـالاً – ولنقل الذين هم ٧٥٪ رجـال– يفـشلون عـادة فى مـلاحظة حريتـهم. إنهم يكونون مـشغولين جدا فى محـاولة تقليد النمط الرجـولى بحيث لا يدركون أن الرجـال – منهم طرز متبـاينة جـدا وكلـها مقـبولة، فلمـاذا هذا التقليد الأعمى؟ إجابتى هى بـالقطـع تأملـيَّـة وليست استنتاجا عرضيا، لقد تمعـنت فيها لزمن طـويل.

المخنثون عادة ما يحسدون الرجل الكامل لراحتـه المطمئنة لرجولته الكاملة، لكنهم غالبا يخشون أن يجدوا شيئًا ما يعد خطأ فيهم.. فى أعماقهم، شيئًا من الضعف فى قلوبهم، ولكي يتجنبـوا اكتشـاف ذلك فيـهم، يقـضـون حيـاتهم وهم يمـثلون الدور الذى يعيشـه الرجل الكامل، وهذا شىء محزن.

(٤)

ويدين الرجـال لحـركـة تحـرير المرأة بشىء واحـد هـو أن هذا الفـشل أصـبح أقل شيوعًا من ذى قبل. فالنساء بتحرير أنفسهن من المثال الوحيد للمرأة الكاملة المستقلة، حـررت النسـاء بالصـدفة العديد من الرجـال من المثـال الوحـيد للذكر الكامل المتسيد. الخطأ الوحـيد الذى وقـعت فـيه حـركـة تحرير المرأة كمـا أعـتقـد، هو افـتـراض أن كل الرجـال يحتـاجون إلى هـذا التحـرير، أو أن العالم سوف يكون أفـضل إذا أنجز الرجـال ذلك. لن يحدث ذلك بالطبع لأن العالم سوف يكون أسوأ.

ولعلنى حتى الآن لم أكن واضحًا بما تعنيه الحرية للرجل المخنث. من الواضح أن ذلك يختلف باختـلاف الحـالة. فى الحـالة التى أعـرفـها جيـدا وهـى حـالتى أسـتطيع أن أكون أكثر تحديداً. لقد حررتنى بالدرجة الأولى كآب، فـأنا من بين أشياء كثيرة أخرى

أستطيع أن أقوم بدور أم طبيعية بدرجة معقولة، فأنا أحب مثلا القيام برعاية الأطفال، ومما يجعلنى أشعر بالسعادة هو قيامى بإطعام طفل أو عدد من الأطفال، أو أن أرى طفلاً يمسك بيديه الصغيرتين كوبًا من اللبن ليشربه ثم أمسح له فمه بعد ذلك، وأستمتع أيضا عندما أخيط رقعة على ركبة بنطلون ابنتي. كل هذه المسرات لم أكن لأحصل عليها إذا كنت قد التزمت بفكرة الدور الأبوى الذى بدأت بها.

خذ مثالاً بسيطًا، وإن كان يبدو غريبًا وغير معقول، فأنا أحس بالحرية فى تقبيل القطط وحتى وقت قريب لم يخطر ببالى أننى قد أرغب في فعل ذلك، رغم أن بناتى كن يفعلن ذلك طوال حياتهن. ولكن ابنتى الكبرى وهى الآن فى الثانية والعشرين وتقيم بلندن للدراسة، بالطبع كان على أن أرعى قطها وهى غائبة، وهو قط ضخم يسمى بتروشكا وغير عاطفى بالمرة، ولكنه اعتاد منذ طفولته أن تقبله إليزابيث على قمة رأسه وقد أصبحت أنا مغرما جدا به، فهو من طراز القطط المغامرة التى تحب صعود المرتفعات معى، وفى إحدى الليالى أحسست بالرغبة فى تقبيله على قمة رأسه، وفعلت ذلك.. ولكن لماذا؟ لا أعرف بالتحديد، لكنى وجدت أن ملمس شعره ناعم كالحرير!

ثم تأتى بعد ذلك علاقتى بالسيارات. أنا لا تحرجنى على الإطلاق عدم قدرتى على معرفة المشكلات الصغيرة فى أى سيارة أقودها، ولا أقترح أية ملاحظات للميكانيكى لمحاولة تأكيد معرفتى بالعطل الذى أصاب السيارة. ويمتد الشىء نفسه إلى صيانة الأشياء المنزلية، أنا أقوم بذلك بالطبع. فعمال الصيانة مكلفون للغاية، وخلال الأعوام العشرة الماضية كان المنزل يعمل أفضل لأننى استعنت بكتاب يشرح كيفية إجراء الإصلاحات المنزلية البسيطة، والتى تستطيع أى سيدة القيام بها، والذى كان مناسبا جدا لمن هم فى مستوى مهارتى الفنية. وبالنسبة إلىَّ كان مجرد لمسى لمثل هذا الكتاب يعنى أننى قد أتحول إلى خنثى، على الرغم من أن المحتوى العام للكتاب لا يشير إلى وجود شىء "جنسى" بالمرة فى شرح الإصلاحات المنزلية لسيدات المنازل.

(٥)

إذا نظرنا للعاطفة العامة، فطوال حياتى كانت تحرك عاطفتى أنواع معينة من الأصوات. مثلا صوت الممثلة سيوبهان ماكين، فما إن أشاهدها تؤدى دوراً عاطفياً فى مسرحية حتى تمتلئ عيناى بالدموع بعد عشر ثوانٍ فقط .

كان خوفى الأعظم هو أن يلاحظ ذلك أحد، وقد قاومت بشدة لكبت هذا الشعور. أما الآن بالطبع فإنى لا أرى ذلك ضعفًا على الإطلاق، ولكن أراه شيئا طبيعيا جدا، حتى إننى أشك فى أن الرجل كامل الرجولة يشعر بالإحساس نفسه، وأن بعضًا منهم يفعل ذلك على الأقل مرة فى حياته، وأن رفاقى من المخنثين السيئين فقط هم الذين يجب أن يحاربوا لكبت أنفسهم.

لنعد مرة أخرى إلى الرسومات وافتراضاتها، حيث تفترض أن الرجولة تقابل الميكانيكا والهندسة والعلوم، والأنوثة تقابل الفن والطبيعة. أنا لا أعلم ما إذا كان الاسم الصحيح لله (هو)، أم (هى)، ولكن ما أنا واثق منه تمامًا هو أن الله له صفاته الخاصة، وذاته لا يعلمها إلا هو ويتصف بالكمال والجلال والعظمة، بحيث لا يمكن أن نقطع بأنه ذكر أو أنثى. وفى هذا بعض العزاء لنا.

ثقافة الشذوذ

إدموند وايت

(١)

"هل الرجال الشواذ أصدقاء؟ أعنى هل هم أصدقاء فيما بينهم؟" كانت السائلة من سكان مدينة نيويورك وتمتلك واحداً من أفخم مطاعم المدينة وأغلاها، أى أنها على معرفة بالشواذ طوال حياتها. وجدت السؤال صريحاً ومثيراً للصدمة. ويكشف عن عمق الفجوة التى توجد بيننا.

مدينة نيويورك هى بالطبع مدينة الغرباء، والغرباء تماما، ولكن الاغتراب ليس دينيا ولا عرقيا، فالمرأة وأنا نتكلم اللغة نفسها ونعرف الناس أنفسهم. فكم كان غريبا أنها، على الرغم من كونها مثلى من الطبقة الوسطى، لا تعرف إن كان الرجال الشواذ يصادق بعضهم بعضاً. عندئذ أدركت كم أن ثقافة الشواذ غامضة، ليست المثلية الجنسية التى هى مجرد انجذاب شهوانى، ولكن الثقافة الأمريكية الحديثة والتى هى أسلوب خاص للمرح وإنفاق المال. لا يمكن لأى نمط عادى لثقافة تقليدية أن ينفع هنا، لأن الرجال الشواذ تمت تنشئتهم بواسطة أناس طبيعيين لكى يصبحوا أفراداً عاديين ومستقيمين، لكنهم يسعون وراء الرجال نتيجة ما يحسون بأنه أمر قهرى على الرغم من أنهم دخلوا إلى المضمار باختيارهم، ولكنهم ما إن يقوموا بالاختيار حتى يعيد ذلك تشكيل حياتهم وحتى أجسادهم، وبالتأكيد دولاب ملابسهم. والعديد من الشواذ يعيشون بين الأفراد الطبيعيين مثل المارانوس، وهم "اليهود الإسبان الذين تظاهروا خلال مرحلة محاكم التفتيش بأنهم اعتنقوا المسيحية ولكنهم ظلوا على دينهم يمارسون طقوسه فى السراديب والأقبية وفى سرية تامة".

والشواذ ليسوا كالسود أو اليهود لأنهم أحيانا ما يكونون سوداً أو يهوداً، واختياراتهم وتفضيلاتهم العاطفية ليست لونًا أو دينًا، على الرغم من أن ذلك صنع للشواذ ثقافة لا تختلف عن ثقافة أقلية عرقية.

(٢)

بعض اليهود لهم أشقاء مسيحيون، ولكن معظم الشواذ لهم أشقاء وشقيقات طبيعيون وليسوا شواذًا، أو على الأقل لهم أبوان مستقيمان، والعديد من اليهود الأمريكان تلقوا تعاليم اليهودية وهم صغار ليشعروا بأنهم ينتمون إلى الشعب المختار، الذى كان فى الوقت نفسه أعظم من الطبقة الراقية، ولكن الشاذ يكتشف طبيعته الجنسية بمزيج من الألم والراحة، فهو يشعر بالأسى لكونه مستبعداً من القبيلة ولكنه فى الوقت نفسه يشعر بالسرور لأنه اكتشف حلا لمعضلته.

الشواذ ليست لهم جنسية خاصة بهم ولا ينتمون لدولة ما، فهم ليسوا أمريكان من أصل إيطالى أو أمريكان من أصل أيرلندى، ولكنهم يشكلون واحدة من أكبر القوى نفوذًا فى المدن الكبرى مثل نيويورك وفيلادلفيا وواشنطن وهيوستن، ولوس أنجليس وسان فرانسيسكو، حيث الشواذ بالكثرة التى سمحت لهم بالانفصال فى مجموعات لا تحصى بما فى ذلك جماعة الشاذات إس/إم وأخوات التسامح الدائم – وهى جماعة من الراهبات رشحت إحداهن نفسها فى انتخابات مدينة سان فرانسيسكو – وهذه الجماعات ليست عرقية وإنما أقلية، كما أنها ليست عقائدية وإن كان لها نشاط سياسى، وهى على درجة جيدة من التنظيم الداخلى، ولها زيها الخاص والعادات والطقوس والأعراف، وهم لا يمثلون طبقة ولكن لهم قوة اقتصادية لها ثقلها، فهى ليست مجرد سوق للتسجيلات والأفلام والإجازات والملابس، ولكن جيشا من النمل الدءوب الذى يحتل المدن الرئيسية خالقًا بذلك غداً أفضل للعزاب صغار السن من البيض المستقيمين ذوى المهن.

(٣)

تخيل بذلك ديانة يعتنقها الفرد ضد رغبة والديه، تصور فصيلة يلتحق بها الفرد عند عمر السادسة عشرة أو الستين دون أن يغير لون شعره أو لحيته. تخيل فئة عقيمة بلا نسل ولكن لها سلسلة غامضة من الأسلاف، فئة بلا تعريف ذاتي ولكن لها تاريخ يضرب بجذوره في عمق الزمن. تخيل ناديا خاصا يضم بين أعضائه صبيا في السادسة عشرة يرتدي حذاء كرة السلة الأبيض في الأسود، وقميصًا غريب اللون يتركه مفتوحًا لإظهار بطن رياضية، ويضم بين أعضائه أيضا عضوا تنفيذيًا في الأربعين، يلبس زى أمير ويلز المخطط ذو الشراشيب. إذا كان الفرد شاذًا، فهو على علاقة وطيدة بكل ما هو شاذ، بفئة مميزة ممتلئة تماما لدرجة تبدو معها فارغة.

كتب رينو كاموس يقول : *المثلية الجنسية دائما ما توجد في كل مكان آخر؟ لأنها توجد في أي مكان*"، الرجل الطبيعي لا يقف متأملاً استقامته ما لم يكن غبيا ومعجبًا بنفسه". بالتأكيد، قد يتعجب الطبيعيون أحيانًا لكنهم غالبا ما يستغربون خيالاتهم الشاذة، ولكن حتى هذا العمل الفاجع يعد أقل مدعاة لتأنيب الضمير. وقد لاحظت بربارا إهرنريتش بحذق في دراساتها عن ثورة الذكور الطبيعيين والذى أسمته "قلوب الرجال" أن بزوغ حركة تحرير الشواذ قد أنهى فترة كان كل رجل فيها يشك في أن كل رجل آخر ما هو إلا شاذ جنسيا. الآن يوجد رجال شواذ ويبدون طبيعيين وخارج إطار الشك في أنهم شواذ.

لا يوجد شاذ يقبل شذوذه الجنسي على ما هو عليه، حيث إن عليه أن يسمعه ويحسه ويدركه كما لو كان فرعًا حيا لشجرة أو قدمًا أو يدًا في جسد. لهذا السبب فإن كل الشواذ هم فلاسفة حيث إن عليهم صياغة ذواتهم الشاذة، فعند مراحل معينة قد يحدث للفرد تحول عنيف إلى حالة جديدة، وتكون بالنسبة إليه "المجهول" الذى يبدأ الفرد في محاولة معرفته.

إن كل إنسان يعرف أن حياته من المؤكد قد تشكلت منذ صغره وحتى الكبر حتى صار على ما هو عليه، كالزجاج المنصهر عندما يتم سحبه وتشكيله قبل أن يبرد

أو كقصة مثيرة وساذجة فى آن واحد، ولكن لا أحد أكثر قدرة على الابتكار والإبداع والصنع من الشاذ. سوف يكون من العبث بالطبع اعتبار أن هذه القدرة الخلاقة جديرة بالثناء، فسيكون ذلك مجرد إفراط فى تقدير طبيعة هذه القدرة الشاذة.

(٤)

أحيانًا أحاول أن أتصور كيف ينظر الرجال الطبيعيون لا المتشددون الجهلة ولا الريفيون السذج أو الفرويديون المتعصبون، وإنما المستقيمون المتعلمون- إلى الرجال الشواذ، وعندما يرون رجالاً شواذا، فماذا يرون؟ إنهم عادة ما يرون رجلاً بشارب كثيف وجسد ممشوق فى جينز أسود أو سترة عسكرية، ووشم ملفت للنظر حول عضلات الذراع، وماذا يعتقدون؟ قد تكون الانطباعات الأولى استفزازية، فالكثير من التأنق فى المظهر بالنسبة إلى رجل ناضج قد لا يكون مثيرًا للعداء ولكن على الأقل غير مرغوب وغير لائق بالمرة، فطاقة الرجل من الأفضل له أن ينفقها فى أداء مهنة أو فى رعاية عائلة، وهم يغضبون لأن هذا الصعلوك قد خرج من نمط الرجولة وأصبح طليقًا حرا، وجعل من الرجولة أمرًا يدعو للسخرية.

فى إحدى المرات ببرنامج أقدمه فى الراديو وأتلقى فيه اتصالات تليفونية من الجمهور، اتصل بى رجل شرطة ليقول لى إنه معجب بممالك الزمن القديم عندما كان صعبًا على الرجال أن يكونوا شواذا، ولكن الآن هؤلاء الشواذ يتبادلون العناق علنًا فى الشوارع والحانات بشكل يثير الاشمئزاز والتقزز، إنهم لا يعرفون الفن الرفيع للرجولة! إنهم مثيرون للاستفزاز.. هل هذه هى مشاعرك أيضًا؟ هل ترى الشواذ كما أراهم أنا مخلوقات تعسة ومفزعة وأبالسة جنس من الخطورة أن ننحنى فى وجودهم، وأنهم مخنثون أغبياء، هل أنت من الذين يستقبلون الشاذ عند مقابلته بصيحات الفرح كأنك قد وجدت فرصة للجنس المباح والتى يمكن الحصول عليها دون عناء كبير؟ فى الحقيقة إن مثل هؤلاء المستمتعين عادة ما ينظرون إلى شواذ الرجال كرفاق أو كأخوة متحررين أو كزملاء. أما إذا كان الشواذ يضايقونك، وتعتبرهم مخلوقات تعسة ويسيؤك وجودهم

فى المكان الذى يضمك معهم وتشعر بالنفـور منهم، وفى الرغبة فى مغادرة المكان، فهذا يؤكد رجولتك وإستقامتك. إن الشواذ إذا أصروا على شذوذهم لن ينفعوا بأية درجة في المحافل الاجتماعية المختلفة من حفلات الرقص، حيث تعتمد جميعها على التميز الجنسى الثنائى الصارم حتى فى عملية ترتيب طريقة جلوس المدعـوين، وحيث إن أى تجمع للجنسين يعنى وجود فرصة لإقامة علاقات غير مشروعة وللإثارة، وفرص متاحة للتعارف والزواج بين الجنسين، فما فائدة الشواذ إذن فى ذلك؟. حتى القليلين من الذين لا يخافون، والذين جاءوا إلى النادى الرياضى الخاص بنا نحن اتجهوا إلى بعضهم البعض، ليس خوفاً من الانحناء وإنما لكى لا تسقط النكات البذيئة على آذانهم أو لكى لا يكون المزاح العنيف ولطم المؤخرة بين الرفاق من الشواذ مثيراً للاستفزاز أو للإثارة لهم.

(٥)

لكن كيف ينظر الشواذ إلى الرجال الطبيعيين؟

فى رواية أندرو هوليرون "ليالى فى أوروبا" يتعجب الراوى كيف يكون الحال عندما تصبح رباً لعائلة وأنت شاذ؟ كما لو أن ذلك سيجعل كل مشاكلى تسقط بعيداً عنى، بينما فى الحقيقة سوف تحل محلها مجموعة أخرى من المشاكل. أنا لم أكن لأنزعج من حجم عضوى التناسلى، ولا من الحدود التي يمليها تقدم العمر، ولا من صعوبة أن أجد الحب من حولى. كنت منشغلاً بمشاكلى العادية مثل أقساط التعليم؛ الربو الذى أصاب ابنتى الطفلة ومشاكل أخرى كثيرة. لو تأملت الرجل الشاذ فى هذه الأيام لابد من أن يشتم ويسخر ويحتقر هذه الأمور العائلية البرجوازية التى لا توجد إلا فى خيال الشواذ. بالطبع، رجل العائلة يواجه مشكلاته بالصراخ ليتخلص من متاعبه الشخصية كما فى رواية "صوت القرية"، وليتملص من زيارات طفليه اللذين يعيشان مع والدتهما المطلقة بإحدى المستعمرات السكنية النسائية وهى فى الوقت نفسه شاذة جنسيا.

الكثير قد قيل عن كيف ينظر الجنسان (الطبيعيون والشواذ) إلى بعضهم البعض! وإذا كانت الكاميرا ستعود إلى الوراء وتصور كلا العالمين فكيف سيبدو النظامان من خلالها؟

الفرق الواضح هو أنه بينما الاستقامة تشتمل على جنسين (الذكر / والأنثى)، فالمثلية الجنسية ليست كذلك، فلها قطبية جديدة تناسبها، مثل هذه القطبية تبدو ضرورية للرغبة الجنسية لنفس الجنس أو على الأقل تبدو كذلك في ثقافتنا. ولا عجب إذن أن نجد بعض الرجال الشواذ يبحثون عن الأشكال الغريبة والمضادة جدا وشديدة التطرف لإشباع رغباتهم الشاذة مثل فرد من سلالة بعيدة له لغة غريبة، ومن فئة عمرية مختلفة. ولا عجب في أن شخصًا مستقيمًا مثل فلوبير، كان باستطاعته أخيراً أن يتحلل مع صبي شاذ وفر له كل الاختلافات التي تتطلبها الرغبة مثله مثل شواذ آخرين يبحثون عن توأمهم، بحيث يمكن للمحبوب، كما افترض، أن يجد نفسه، مع نفسه ويلعب معه دور والده أو معلمه أو ابنه، أو الأب الروحي له أو الإله الذي يعبده. البعض الآخر يقوم بتهيئة القطبية بأن يسعى إلى السادية أو المازوكية كبديل ثان للاستقامة، وهي النقيصة الوحيدة التي تهدد العلاقات العائلية الطبيعية. ولأن كل رجل شاذ يسعى إلى الرجال، فعليه أن يتعلم منذ البداية كيف يخفف من السلوك العنيف المتوقع من الآخر، فمهما كان سلبيا ومطيعا وخجولا معه في الفراش، فإن الشاذ الجديد سيصبح سيداً وحاكما بأمره على مائدة العشاء.

(٦)

دائمًا ما تخطط المجلات النسائية لمقالات عن الرجال الشواذ والنساء الطبيعيات. إن ما يوجد بينهما من أمور متماثلة بخلاف بعض الأساليب الجنسية المشتركة، هي مجموعة من الأقوال المأثورة عن هذا الكائن العنيد صلب الرأس والمغرق في حب ذاته.. ألا وهو الذكر أو الرجل. ولشدة العجب، وكما أوضحت الدراسات، فإن الرجال يتكلمون أكثر من النساء ويقاطعونهم أكثر في أثناء الحديث، ويحددون أحيانا موضوع الحوار،

وهم فى الغالب يعارضون كلية آراء النساء بقوة وإلحاح وبتكرار شديد. عندما يجتمع رجلان شاذان معًا خاصة بعد التمهيد العاطفى الأولى، تبدأ معركة السيادة فى الحوار، وهو الصدام الذى يعد علامة على خلافات أكبر فى كل موضوع تقريبا بدءا من أين يعيشان إلى كيف يستقبلان ضيوفهما، ومن يستضيفان؟ ومن المؤكد أنهما بهذه الطريقة يشبهان أى زوجين طبيعيين عندما تكون الزوجة من المتحررات. وبينما يحاول معظمُ النساء الصغيرات الطبيعيات والمتحررات الدفاع عن مجالات متسعة من اهتماماتهن الخاصة كالمهنة وطريقة الحياة والرغبات العاطفية دفاعًا مستميتًا، لكنهن مع ذلك على استعداد لقبول الرجل فى إطار اجتماعى بسيط يرونه ضروريا لتحقيق تكاملهن.

(٧)

إن أحد الجوانب الطيبة للحياة المستقيمة، أن النساء ينظرن إلى الرجال باعتبارهم شخصيات يصعب العيش بدونهم؛ لأنهم يجسدون مشاعر عديدة يحتجنها بشدة، فهم – أى الرجال – اجتماعيون أولا، وعائليون ثانيا، وعاشقون ثالثا، كما أنهم طيبون أو ودودون، وفى النهاية تأتى نظرتهم إلى أجسادهم.

أنا أحاول أن أقول إن النساء عادة ما يسئن الحكم على جمال الذكر، فهن من السهل أن يتأثرن ببعض الصفات السطحية مثل الولاء وإلى أى مدى يمكنهن الاعتماد عليهم، وأحيانا الجاذبية وخفة الظل. ولكن الرجال، سواء الطبيعيين أو الشواذ تميزهم ملامحهم أولا وهى السمة الواضحة ذات القيمة والثمن.

فلنقل إن النساء يرين الرجال كشخصيات فى رواية عائلية طويلة، يتم فيها تقديم الرجال كاملين بخواصهم المزعجة وخواصهم المحببة، فى حين يرى الرجال شركاءهم سواء من الذكور أو الإناث كالسيارات، تصنع لكى تجذب النظر فى التو واللحظة وتقيم وتحسد. المرأة تريد أن تحسد لكمال زوجها وشخصيته، بينما الرجل يود أن يحسد لجمال زوجته وأناقتها ووضعها وقدراتها. إن الحياة المستقيمة التى تشمل الدفء

والهدوء والوداعة والتى كانت سائدة فى القرن التاسع، وتتميز بها المرأة، تمتزج مع النفسية المتقلبة والخشونة فى الأداء الخاصة بالرجل فى نفسية الشاذ فى االقرن العشرين.

لو أن حياة الشاذ تخلصت من هذا التناقض وأصبح قادرا على التنازل ولو جزئيا عن رغباته التى تعتريه، كلما انخرط فى محفل يعج بالرجال، فسيكون المكسب جيداً، رغم أننى أشك كثيراً فى أن ذلك ممكن الحدوث.

(٨)

معظم الأخلاقيات، وأعنى هنا الأخلاقيات الشائعة، وليست الحقيقة التى لا تتأثر بإجماع الناس، تعد نوعًا من الموضة، هى مجرد شكل من أشكال التمويه على سلوكيات جديدة ممتعة ومريحة ولكن غير مقبولة. وإذا كان الكثير من الناس يدينون الانحلال ويكرهونه فإنهم يفعلون ذلك على الأقل جزئيًا لعدم توافر لغة يستطيعون بها العفو عن عدم توافر الحب. ولكن أعتقد أن الشواذ وهم أكثر الناس تجنبًا للقواعد الاجتماعية، والذين يجدون أنفسهم تمامًا فى كل ما هو غير منظم وارتجالى والمتسلحون ببوصلة داخلية توجههم فى الحال إلى المناسبات الاجتماعية الجديدة قد يكونون من أكثر المؤشرات حساسية للمستقبل. فمعدل المواليد يتراجع، ومعدل الطلاق يتزايد والثقافة الشائعة من سينما وتليفزيون وأنغام وأغانى وإعلانات وموضة وصحافة.. إلخ قد أصبحت بكاملها علمانية، بحيث أصبح الإحياء الدينى عديم الأهمية مثل "الكابوكى" فى اليابان الحديثة.

إن مجرد لفتة عارضة للماضى أو فرملة بسيطة للعجلة فى هذا العالم شديد التغير وشديد السرعة، نجد أن الأطفال ما إن يدخلوا المدرسة حتى يتعلموا القليل من والديهم ويصبح لزاما عليهم أن يتعلموا أشكالاً جديدة من السلوك من رفاقهم، ومعلومات جديدة من متعلمين متخصصين. ونتيجة ذلك، تتهاوى سلطة الوالدين وتصبح الفجوة بين الأجيال أكثر اتساعًا. قد لا يأسف الوالدان على فقدان التحكم فى أولادهما

لأنهما يكرسان كل طاقاتهما لتهذيب النفس الداخلية لأبنائهما فى فترة التحول وتعليمهم المبادئ الأساسية للأخلاق، من خليقة التضحية بالذات إلى التسامح مع الآخرين وإلى أرستقراطية الحياة للطبقة المتوسطة التى ينتمون إليها والتى سادت المناطق المسالمة فى العالم الصناعى.

(٩)

فى العالم المعاصر تعتبر تجربة القرن التاسع عشر للزواج الرفاقى الذى لم يكن فعالاً أبداً ساقطة تماما، والأسباب الفعلية للسقوط ليست واضحة. ولكن نظرا لعادتنا غير المناسبة بإرجاع كل شىء نجهل أسباب حدوثه إلى مسببات نفسية، فلعل التكهنات التى أوردتها الصحافة الصفراء عن الذكر غير المسئول والأنثى التى فقدت أنوثتها والنصائح المتناقضة والقاسية وغير العملية للنساء اللاتى يندفعن دون تفكير تجاه كل شىء، من الأسرة إلى المهنة إلى الزواج إلى الحب، تعد أسباباً جوهرية لانهياره. نحن نتعامل مع فشل الزواج كما لو أن سببه هو فشل الأفراد فى تحقيقه، أو التناقض بين أطرافه، أو افتقارهم إلى النضج أو فشلهم فى الالتزام به أو الضعف فى إرادتهم بدلا من أن يكون السبب هو العقدة المربوطة بغير إحكام.

الزواج البرجوازى كان يقصد به توطيد الصداقة والحب والجنس فى مؤسسة هى فى الوقت ذاته عائلية واقتصادية، ولكن القيود الصارمة فقط هى التى بمقدورها الحفاظ على مثل هذا الخليط الثقيل متماسكاً دون أن تكون هناك فرصة لانفجاره. فما إن جاءت حقبة الستينيات حتى خف هذا التوتر، وبدأ الناس فى التسليم بأن الصداقة تهدئ من الرغبات الجنسية المتحفزة، وأن الإعجاب المبنى على الرغبة بطبيعته لا يدوم رغم قابليته للتجدد اللانهائى طالما توافر معروض كاف من الشركاء الجدد.

فى الحقيقة، فإنه لا الانجذاب الجنسى ولا الغراميات يمكن أن تعمل كأساس لعلاقة راسخة ما دامت متقلبة الأطوار وشديدة العاطفية وغير ثابتة. فالعلاقة يمكن أن تتوازن فقط على قاعدة التقدير والحب الحميم من كلا الطرفين للآخر وغير المشوب

نظرات شهوانية، أي الذي يشبه الحب العائلي. فالحب العائلي يكون أكثر قوة وأكثر إستدامة واستقرارًا؛ إنه ذلك الحب الذي يسعى كل زوجين من الشواذ إليه، وأحيانا يعبران عنه، فالأمور تسير سيرًا حسنا حين يتقابل رجلان من الشواذ من خلال علاقة جنسية ويصبحان عشيقين، وتهدأ بينهما عواصف الغيرة وتنحسر الشهوة التي يتزاملان من أجلها مع اهتماماتهما المشتركة، سواء في العمل أو في البيت أو مع مجموعة الأصدقاء، وتنتهي العلاقة بأن تصبح رفقة غير جنسية وصداقة طويلة الأمد، لكنها لا تكون بالطبع مثل الصداقة التي تنشأ بين اثنين من الذكور الطبيعيين، والتي عادة ما تنشأ في ظروف تختلف عن تلك الظروف التي تنشأ فيها بين الشعراء، وتكون أكثر ملاءمة للطرفين.

(١٠)

الثنائي من الشواذ الصغار يشعران بأن هذه العلاقة عندما تحدث لهما تكون غير كاملة وإنما هي حل وسط، وينفصلان لكي يجدا إشباعًا كاملا في مكان آخر. ولكن ثنائيات الشواذ الأكبر سنا يظلان معًا في رعاية للحب المعقول وفي حماية له من الأخطار الدائمة الوجود ومن الانجذاب الجنسي الذي يثيره أي دخيل جديد، لأن نقطة الضعف في مثل هذه العلاقات هي النزوات دائمة الحدوث، والتي تكون في البداية لواحد من الشريكين ثم للشريك الآخر بحثًا عن الإشباع التام. لا يحتاج الأمر للقول بأنهم ينقمون من الغزو الذي قد يحدثه الوافد الجديد والذي لا يستطيع إدراك أن "بوب" و "فريد" ليسا مجرد رفاق غرفة واحدة، ربما يكون لهما فراشان مستقلان أو شركاء جنس، ولكن بوب يراقب غرام فريد بالوافد الجديد بشيء من الحذر، وعند نقطة معينة سيضطر إلى التدخل لإزاحة خصم محتمل.

أعتقد أن معظم الطبيعيين سوف يجدون أن هذه الترتيبات فاضحة بدرجة أكبر من أكثر الشواذ ولعًا بالجنس، ولأن هذه الترتيبات ليس لها اسم وليس لها طقوس أو تقاليد معترف بها بصفة عامة أو خاصة، فإنها تلقائية وغير مرئية حتى للمشاركين فيها،

وبالتالى إذا سألت بوب ماذا يريد؟ فربما أجاب بوضوح أنه يريد "عاشقًا حقيقيا"، وربما قال أيضًا إن فريد مجرد "رفيق غرفة، وأفضل أصدقائى، واعتدنا أن نكون عشاقا".

هذا لمجرد التحليل الدقيق، ولكن عبر السنوات كان بوب يقود بسهاء علاقته مع فريد ما بين الإخلاص الزائد (الذى يكون فى النهاية شديد القتامة لدرجة لا يتحملها رجلان لهما خيالات)، والتحمل الزائد (الذى يمكن أن يجعل كلا الرجلين يحس بالإهمال بحيث يبحث عن الحب فى مكان آخر).

هناك بالطبع اختلافات لا يمكن حصرها لهذا النمط من الشذوذ. فالرجال قد يعيشون معًا أو لا يعيشون، فإذا لم يكونوا قادرين على المحافظة على الصورة المتحضرة لعلاقتهم لفترة طويلة، فهم يخططون مواعيد للقاء ورحلات ونزهات خلوية، ويتبادلون النوم فى بيت كل واحد منهم لفترة، ويتجنبون الصدامات الخاصة بالأمور المنزلية. وهم يحافظون على حياتهم الجنسية الخارجة عن العلاقة منفصلة، ويتفقون على عدم العتاب، فقد يكون لواحد من الاثنين حياة جنسية نشطة ويكون الآخر قد هجر ميدان الشهوة تمامًا.

(١١)

هل الرجال الشواذ أصدقاء فيما بينهم؟ سألتنى المرأة هذا السؤال. يفترض السؤال أن الشواذ ما هم إلا شواذ مشغولون بالجنس، وأن الرجل الذى يبحث دائما عن شهوته لا وقت لديه للالتفات إلى المشاعر وعلاقات البشر، وأن دون جوان الشواذ يعد إنسانًا وحيدًا وبلا أصدقاء، أو ربما يكشف السؤال خلطا وعدم فهم لمجتمع الجنس الواحد. فكما أن المرأة الطبيعية لها صديقات أخريات من النساء وعشاق وأصدقاء من الرجال، فإن السائلة ربما تتعجب كيف يمكن لنفس الجنس أن يقوم بأداء الوظيفتين معًا.

الافتراض الأول وهو أن شواذ الرجال متعلقون بالجنس فحسب، هو مجرد فكر قديم ومتحيز، وككل الأفكار القديمة والتحيزات، يعد غير حقيقي. ولكن يمكن أن يعد دقيقًا بمدلول خاص إذا كان هؤلاء الشواذ وخاصة الواعين منهم يفضلون كلمة"مرح" على كلمة "مثلي"، لأنهم يريدون من العالم أن يعتبر الانجذاب لشخص من نفس الجنس انجذابا عاطفيا مفضلا، بالإضافة إلى كونه تحديداً لميولهم الجنسية.

مثلا.. هناك بعض الرجال الشواذ الذين يفضلون الإحساس بأجساد النساء عن أجساد الرجال، ويكونون أكثر راحة من الناحية الجنسية مع النساء، ولكن عواطفهم تتطلب الاتصال بغيرهم من الرجال الشواذ الذين تربطهم بهم علاقة عاطفية غير منتهية، والذين يرونها أكثر إثارة وفاعلية عن صحبة النساء؛ لأنها رغم متاعبها تكون أكثر إثارة وأشد عاطفية، بينما أحاسيسهم تجاه النساء (على الأقل النساء اللاتى لسن من العائلة) تكون أكثر بساطة وأكثر ثباتًا وأقل إثارة. فالعواطف المشبوبة ليست بسيطة، فهى مبنية من أجزاء متساوية من الشوق والخوف والشهوة. لهذا السبب فإن صداقة الرجل الشاذ اللاجنسية وغير المبنية على المصالح تكون أكثر استرخاء وأفضل مزاجًا كصداقة بين رجلين سويين.

شواذ الرجال إذن يقسمون الرجال الآخرين إلى مجموعتين: الذين هم شركاء (عشاق)، والذين هم ليسوا كذلك (أصدقاء فقط). ولكن لأن الحياة الشاذة شديدة التناقض عن العالم بأسره (وربما لهذا السبب تكون غريبة بالنسبة إلى من هم خارجها). فإن أعضاء المجموعتين، العشاق والأصدقاء، يتبادلون المراكز دائمًا أو يوجدون فى المنطقة الوسطى بين الاثنين.

إن هذه المشاعر غير المعترف بها هى ما يثيرنى دائمًا ككاتب قصة، وما يثيرنى أكثر هو الحب المكتوم بين اثنين من الشواذ الرجال اللذين يتظاهران بأنهما مجرد أصدقاء أو رفاق رحلة، إلى أن تظهر الحقيقة، وهو ما لا يحدث أبدًا.

(١٢)

تحت أى اعتبار يعد تعصب الرأى العام ضد انغماس الشواذ فى الجنس أمراً واضحاً. فالحق فى ممارسة الجنس والبحث عنه ينكره المجتمع بشدة على الشواذ منذ القدم، ولقرون عديدة مضت، حيث ظلت الدعوة إلى حرية الشواذ الجنسية كشجرة ضعيفة الجذور تكاد تقتلعها الريح العاتية التى تهب على "الجيتو" الخاص بهم. فالقوانين المقيدة لحرية ممارسة الجنس دائما ما خلقت أكبر المشكلات للشواذ، فقد ساعدت على وضع تعريف لفئة المثليين الجنسيين. لهذا السبب، فإن مجتمع الشواذ على الرغم من محاولته لاختراع ثقافة مهذبة وجديرة بالاحترام وتعبر عن علاقات ليست كلها شهوانية لتبدو مقبولة كغيرها من الثقافات، فإنه لايزال غير قادر على التخلى عن أصله فى الرغبة الجنسية وعجزه عن قمعها.

ولكن ماذا عن الانحلال الزائد لشواذ الرجال مثل "الكويكز"وهى الظاهرة التى أوقفها مؤقتًا تفشى مرض الإيدز! ألا يثبت "الكويكز" أن شواذ الرجال يعدون بالضرورة ظاهرة غير عادية، يفتقرون إلى الحكمة ومفرطون فى الجنس؟ بالطبع، يسلك شواذ الرجال مسلك كل الرجال عندما يمكن مصاحبة النساء وتلبية احتياجاتهن ونزواتهن وتوقعاتهن. ولعله لا يوجد فى حياة الشواذ ما لا يمكن إرجاعه إلى وضعهم كأقلية أو لكونهم عشيرة من الذكور فقط. فكل الرجال يسعون إلى الانغماس فى مغامرات جنسية سريعة غير معقدة أو إلى عاطفة غرامية دائمة. وفى عالم من الرجال فقط، فإن هذه الرغبة تكون متاحة وسهلة المنال.

إن عمومية الفرصة الجنسية داخل "جيتو" الشواذ الحديث أدت إلى زيادة أهمية الصداقة. ففى مجتمع لا يقوم على إغفال أو إهمال الرغبة الجنسية، سوف تتوافر طاقة زائدة للصداقة، فالعلاقات ليست مثقلة فى حياة الشواذ، فلا يزال الشواذ سجناء المجتمع المتحفظ تجاههم، ولكن على الرغم من ذلك، فالشواذ أكثر حرية من سجانيهم، لأن علاقات الشواذ ليست قائمة على دين، أو شرع أو اقتصاد أو نظرية سياسية، وإنما على مشاعر وأحاسيس لها خصوصية لا يمكن تحديدها أو صياغتها فى قانون، إنهم لا يؤيدون أى شىء يتعارض مع رغباتهم!

إنهم ليسوا رموزاً باهتة، بل وجوداً فعليا رغم أنهم كيانات منبوذة من الجميع.

الفصل الثالث

الأنوثة والتضامن

علم النفس.. ونظرة إلى الأنثى

ناعومى ويزتين

(١)

من المفترض ضمنيا أن علم النفس، الذى يهتم بتحليل الشخصية، هو الذى يقوم بالمهمة الشاقة والضرورية لتحليل النفس ومعرفة أبعاد الإمكانيات الإنسانية، وعلى ذلك، فعندما نوشك على النظر إلى ما يسمى بتحرير المرأة، نتجه بالطبع إلى علم النفس ليخبرنا ماذا يعنى التحرير "الحقيقى" للمرأة، وما الذى يعطى النساء الحرية لإشباع نزعاتهن الفردية وتطلعاتهن الذاتية. لقد دأب علماء النفس على وصف الطبيعة الحقيقية للنساء بدرجة عالية من الدقة وبإحساس مرهف بنفسية النساء، وبطريقة تكاد تكون كاملة فى العالم العلمانى.

يقول لنا "برونو. ب.ل." من جامعة شيكاغو :

"يجب أن نبدأ بحقيقة أن النساء كما يردن أن يصبحن عالمات أو مهندسات، فهن يردن أولا وبالأساس أن يكن رفيقات نسائيات للرجال وأمهات أيضًا". غير أن إيريك إريكسون من جامعة هارفارد يقول معلقًا، إن النساء عادة ما يسألن إن كان باستطاعتهن "الحصول على بطاقة تحقيق شخصية بالطريقة نفسها التى يردن أن يعرفن بها من سيتزوجن، ولمن سينشئن بيتا". ويضيف قائلا وبطريقة لا تخلو من الشجن :

إن الكثير من شخصية المرأة صغيرة السن يكون قد تحدد فى جاذبيتها وفى طريقة انتقائها لملابسها وهى تبحث عن الرجل الذى نرغب فى أن تصادقه أو تتزوجه.

إن الإشباع العاطفى الناضج للنساء، من وجهة نظر إريكسون يقوم على حقيقة مؤداها، أن التصميم البنائى لجسم المرأة يحتوى على "فراغ داخلى" مخصص لحمل النسل، من رجال مختارين، هذا بالإضافة إلى الاستعدادات الفطرية البيولوجية والسيكولوجية والأخلاقية لرعاية الطفولة الإنسانية".

إن بعض علماء النفس يرى فى قبول المرأة لدورها الذى خلقت له حلاً لمشكلة اجتماعية. "فالنساء بطبيعتهن مرضعات"، كما كتب جوزيف رينجولد عام ١٩٦٤، وهو عالم نفس فى جامعة هارفارد، ويضيف قائلا "إن التركيب التشريحى للمرأة يملى عليها وظيفتها فى الحياة، فعندما تكبر النساء وهن غير خائفات من أداء وظائفهن البيولوجية، ودون اتباع للتعاليم العقيمة لمفاهيم تحرير المرأة وما تحدثه من تخريب فى عقولهن، فإنهن يدخلن إلى الأمومة بإحساس طيب لإشباع غريزتهن الأساسية، وسوف نصل إلى الهدف الخاص بحياة طيبة وعالم آمن نعيش فيه".

(٢)

هذه الآراء لرجال يفترض فيهم أنهم خبراء، تعكس بطريقة مدهشة وشديدة الشفافية الإجماع الثقافى على الدور الطبيعى للمرأة. فهم لا يؤكدون فقط أن طبيعة المرأة تتحدد بقدرتها على جذب الرجال، بل لا يرون أى قيمة لأى تحديد آخر بديل، كما أنهم يعتقدون أن طبيعة تحديد المرأة قياساً إلى الرجل هو ما يجب أن يكون عليه الأمر، بل يؤيدون ذلك بحقائق نفسية وجنسية وأسانيد تعود بالدرجة الأولى إلى طبيعتها البيولوجية. فالمرأة لها سمة أنوثتها إذا كانت جذابة بدرجة كافية للحصول على رجل، وبالتالى على بيت، حيث إن ذلك سيسمح لها بالبدء فى تحقيق هدف حياتها الممتع : "الأمومة والإرضاع".

وسوق التجارة لا يعترض بالطبع، فإذا كانت آراء مثل تلك الخاصة ببرونو ب.ل. وإريكسون لها أى علاقة بتحرير المرأة، فسنجد أنه من النادر فى التاريخ الإنسانى ما تم إنفاق كل هذا المال والوقت على مساعدة مجموعة من النساء لتحقيق

تطلعاتهن غير المؤكدة. فالأزياء وأدوات التجميل وأثاث المنازل، كلها أعمال بملايين الملايين من الدولارات، وتشكل تجارة عالمية رائجة، فإذا لم نكن نرغب فى الاستثمار فى مصانع للسلاح أو البترول، فهناك الكثير من المال يمكن استثماره فى تجارة متعلقة بأمومة المرأة و"الفراغ الداخلى" لها، فصانعو الملاءات وأغطية الفرش مهتمون أيضا بالصناعات المغذية لهذا "الفراغ الداخلى" والمرتبطة بالأمومة.

(٣)

تقول إحدى الفتيات المتزوجات حديثًا، موجهة حديثها لأمها: "أمى، لقد فكرت لهنيهة هذا الصباح ووجدت أننى لم أخلق للزواج، لقد تأخر "هانك" فى الذهاب لعمله ونسى شراب المشمش وخرج دون أن يقبلنى، وعندما صرت وحيدة أخذت فى البكاء، ولكن جاء رجل البريد ومعه الملاءات والفوط التى أرسلتيهاوالتى بدت كأنها منديل ضخم من القماش، أو تعرفين فيم فكرت؟ هذا المنديل الضخم الأحمر فى أزرق هو لفتيات مثلى لكى يجففن به دموعهن عندما ينشغلن بما يجب على الزوجة القيام به من أعمال فى المنزل مثل فتح الشبابيك، والبدء فى تجهيز البيت، وتجهيز الغداء وربما تلميع الفضية وغيرها من الأعمال التى تورث الملل... إن كل شىء يجب أن يكون مجهزًا "لهانك" عندما يدخل من هذا الباب .

بالتأكيد، ليس صانعو الملاءات والأغطية ولا صناع أدوات التجميل أو باعة أثاث المنزل هم المستفيدون الوحيدون من استغلال التعريف الثقافى للمرأة والرجل. المثال السابق يشير بوضوح إلى طراز "المرأة المدللة"، والذى تؤكده كل وسائل الإعلام التى على علاقة بالطرق التى يجب على الأمريكيين العاديين أن يعيشوا بها حياتهم، أو يحددون الممكن والمتاح عادة بمعيار المؤنث والمذكر، ويظل الرجال والنساء على السواء فى انتظار هانك" عند عودته ودخوله من الباب!

(٤)

إنه اختبار مسلٍ وإن كان محدوداً لإظهار أن علماء النفس والأطباء النفسيين يحتضنون المعايير الجنسية لثقافتنا، وأنهم لا يرون أبعد من التصورات السطحية الإعلامية لطبيعة الأنثى، وأن أفكارهم هذه تخدم الصناعة والتجارة جيدا، ولكن هذا لا يعنى بالطبع - لأنها تخدم قطاع الأعمال - أنها صواب. ما سأوضحه هو أنها خطأ، وأنه لا يوجد أوهى دليل على أن تلك الأوهام الخاصة بعبودية المرأة والاعتماد الطفولى عليها لها علاقة بإمكانيات المرأة الحقيقية، وأن فكرة طبيعة النشاط الإنسانى الذى يتحدد للفرد طبقًا لنوعية أعضائه التناسلية وتكوينه البيولوچى، وعلى الأسطورة الأصولية لسببية الأعضاء الجنسية، قد قللت من أهمية دور علم النفس وانحرفت به بحيث أصبح عديم القيمة فى وصف سلوك البشر أو شرح طبيعة دوافعهم وأفعالهم أو توقع ردود أفعالهم.

من المسلم به إذن أن علم النفس الحالى قد أصبح عديم القيمة فى تشكيل رؤية علمية يمكن أن يتأسس عليها بحق نظرية واقعية لتحرير الرجال وأيضا النساء.

إن الدافع الرئيسى لكتابة هذا المقال هو أن علم النفس ليس لديه ما يقوله عن النساء : ماذا يحتجن، وماذا يردن؛ لأن علم النفس لا يكاد يعرف. وأريد أن أؤكد أن هذا الفشل لا يقتصر على النساء وحدهن، بل إن علم النفس الذى جعل دوره معرفة كيف يسلك الناس ولماذا يسلكون هذا السلوك، وبالتالى قد فشل أيضًا فى فهم لماذا يسلك الناس بالطريقة التى يمكن أن تجعلهم يسلكون مسلكًا مختلفًا.

من الناحية الأكاديمية والبحثية نجد أن علم النفس عندما يتناول هذه الأسئلة ينقسم إلى قسمين : الأول هو البحوث الأكاديمية للشخصية، والثانى هو علم النفس الإكلينكى الخاص بالعلاج النفسى.

(٥)

السبب الأساسى للفشل يعد واحداً فى القسمين : الافتراض الرئيسى للشخصية الإنسانية لمعظم علماء النفس هو أن السلوك الإنسانى يرتكز على ديناميكية فردية وداخلية، ربما يتحدد فى الطفولة وربما يتحدد حسب طبيعة الأعضاء التناسلية، وربما يتركز فى حزمة من الأفعال تتصف بالثبات وتتصل بالإدراك. ولكن هذا الافتراض يفقد أهميته بسرعة لأن علماء النفس المختصين بالشخصية يفشلون المرة تلو المرة فى تأكيد الثبات للشخصيات الخاضعة لبحوثهم، وبالتالى يتراكم الدليل على أن ما تفعله المرأة وكذلك ما تعتقده عن نفسها مجرد انعكاسات لما يتوقعه الناس حولها أن تكون عليه، وما يفرضه عليها الوضع العام الذى يحيط بها وتمارس فيه السلوك المفترض أن تسلكه. وبالمقارنة مع أثر الوضع الاجتماعى الذى تعيش فيه المرأة، تاريخ حياتها، تجربتها الخاصة، علاقتها.. صفاتها، وأيضا كيانها البيولوجى، فقد تكون هناك ثمة اختلافات، أو انحرافات عن التوقعات الصحيحة للسلوك المفترض.

بعض علماء النفس الدارسين للشخصية يبحثون فى أدلة أخرى، ويختبرون نظرياتهم، ولا يحدث مثل هذا التصحيح فى علم النفس الإكلينكى. فالفرويديون، والفرويديون الجدد، التقليديون والمتأرجحون، وكذلك الإكلينكيون والمعالجون النفسيون، يرفضون جميعًا النظر إلى أى دليل آخر مضاد لنظرياتهم وأسلوب ممارستهم، وهم يؤيدون نظرياتهم وأسلوبهم بأمور جدلية متحيزة لا ترقى إلى مستوى الأدلة الكاملة.

تلخيصًا لما سبق، فإن السبب الأول لفشل علم النفس فى فهم الناس وكيف يتصرفون هو أن علم النفس يبحث فى الخصائص الداخلية للشخصية، بينما كان يجب أن يبحث أولاً فى الظروف الاجتماعية المحيطة بالشخصية وأثرها فى صياغة الشخصية ذاتها.

والسبب الثانى لفشل علم النفس هو أن واضعى النظريات عن الشخصية كانوا عمومًا علاجيين، ولم يروا أن من الضرورى أن يوجد دليلٌ آخر غير البحث الإكلينكى يعضد هذه النظريات.

(٦)

إذا تأملنا السبب الثانى للفشل وهو : قبول المعالجين النفسيين للنظرية دون دليل، فسنجد أننا لو بحثنا فى نظريات تحليل الشخصية، لبدا واضحًا أن معظمها كتب بواسطة معالجين نفسانيين، وأن التأييد الرئيسى لتظرياتهم هو "سنوات طويلة من الخبرة الإكلينكية العميقة". هذه الطريقة بدأت بواسطة فرويد، حيث كانت بصيرته تنشط خلال فترة عمله مع مرضاه. الآن لا تعد هذه الطريقة خطأ فى تكوين النظرية، فالفرد حر فى وضع النظريات الخاصة بأية إلهامات يستشعرها هو، سواء أكانت وحيًا أم من خلال عمله الإكلينكى، ولكن هو/هى ليس حرا فى ادعاء صحة نظريته أو نظريتها إلى أن تختبر ويتم تأييدها. فالنظريات لا تعامل بمثل هذا الاسلوب فى الممارسة العلاجية، فلو نظرنا إلى فرويد فستجد أن ما اعتقد أنه دليل، يتعارض مع أبسط شروط الاستناد العلمى. ففى كتابه "التنوير الجنسى للأطفال" الذى يعد الوثيقة الكلاسيكية التى يفترض فيها أن توضح وجود عقدة الخصى وعلاقتها بالخوف الشديد، أقام فرويد تحليله على تقارير أب لطفل صغير، كان فيها الأب خاضعًا للعلاج ومتحمسًا لنظرية فرويد، بالتأكيد لن أعلق على الخلل الذى يلحق بمثل هذا النوع من الأدلة. ومن اللافت للنظر أيضًا أنه حديثًا فقط تبين أن نظرية فرويد الكلاسيكية عن "الانتشاء المزدوج"، وهى عن الجنس عند المرأة، وبعد إخضاعها للاختبار المزدوج كانت خاطئة تمامًا، وأن الذين يدعون أن خمسين عامًا من الخبرة النفسية التحليلية تشكل دليلا كافيا على صحة نظرية فرويد، يجب أن يعيدوا النظر ويتمعنوا جيدا فى نظرية الانتشاء المزدوج. فالنساء كن يعتقدن أنهن يحصلن على نوعين مختلفين من الانتشاء، حتى جاء ماسترز وجونسون" فأثبتا خطأ ذلك. فهل دفعهن المحلل النفسى إلى الإقرار بأمر ليس بصحيح؟ وإذا كانت هناك أمور أخرى أقررن بها ولم تكن أيضا صحيحة.. هل المعالجون النفسيون قد اعترفوا بأى شىء يختلف عن نظرياتهم التى يؤمنون بها؟ إذا كانت الخبرة العلمية تعنى أى شىء على الإطلاق، فلربما كنا تخلصنا من أسطورة "الانتشاء المزدوج" قبل دراسة ماسترز. جونسون بفترة طويلة.

(٧)

وقد يعترض علماء النفس بدعوى أن "سنوات من الخبرة الإكلينيكية" هى المعيار الوحيد الذى يعتمد عليه فى فرع يرتكز فى نتائجه على البصيرة والدقة والحدس، غير أن مشكلة البصيرة والدقة والحدس هى أنها يمكنها التكهن بتشخيص "الحالة" التى يبدأ بها الفرد فقط. وهى أشبه ما تكون بالتنجيم وأعمال السحر، لقد اعتاد الناس أن يؤمنوا بأفعال السحر، لأنهم يدركون تماماً أن للسحرة قوة خارقة، وكل ما يتطلبه الأمر هو بعض المعرفة بأعمال الشياطين.

وسنوات الخبرة العملية تعطى نتائج مشابهة للأدلة النظرية، فأول ما يتعلمه المجرب فى أية تجربة تشتمل على بشر هى نظرية العينة الضابطة أو (العمياء)، والمصطلح مأخوذ من التجارب الطبية حيث يعطى لمجموعة من الناس عقار يفترض أنه يغير من السلوك بطريقة معينة، وفى العينة الضابطة يعطى جرعة من العقار لا تحتوى على أى مادة فعالة لمجموعة، ومجموعة أخرى تعطى جرعة من المادة الفعالة، إذا عرف المجرب أو المتطوعون أى مجموعة أخذت العقار، فإن النتيجة دائما ما تأتى فى الجانب الإيجابى للعقار الجديد. فقط عندما لا يكون معروفًا أى من المتعاطين أخذ العقار، تقترب النتيجة من الحقيقة سلبًا أو إيجابا، بالإضافة لذلك، فإنه عند الحكم على السلوك الإنسانى يكون من الصعب جدا تفسير طبيعة السلوك الذى يحدث، ناهيك عن السلوك الذى يجب توقعه، بما يجعل المختبِر يجرى اختباره مرة ومرة ليثق بالنتائج؟ كم إذن عدد المحكمين الذين يتوافقون فى مشاهدتهم؟ عندما تختبر ظواهر الحكم هذه فى الممارسة الفعلية بالنسبة إلى الحكم الإكلينكى، نجد أن الحكام لا يمكنهم القطع بالثقة فى هذه الأحكام، كما لا يمكنهم ترجيح أى الأحكام يكون أكثرها رسوخًا، إنهم لا يفعلون.. وليس لديهم أفضل من الحكم الاعتباطى عند التمييز بين القصص التى كتبها رجال، وتلك التى كتبتها نساء، وأى من النتائج الخاصة بالاختبارات الإكلينكية نتجت من تجارب أجريت على شواذ أو على أسوياء، وأى من النتائج الخاصة بالاختبارات والمقابلات الشخصية - (التى يتم فيها السؤال عما إذا كان الفرد تنتابه الهواجس) - هى لأفراد مرضى نفسيًا أو عصبيا أو جسمانيا.

(٨)

وحتى لا يفوتك شيء من هذا الملخص، دعني أركز على ما تتضمنه هذه النتائج. إن قدرة الحكام الذين تم اختيارهم وفقا لخبرتهم الإكلينيكية، في التفرقة بين الرجال الشواذ جنسيا والأسوياء وفقا للاختبارات الثلاثة الشائعة الاستخدام مثل اختبار رورشاك وغيره، لم تكن أفضل من الحكم الاعتباطي المبني على الصدفة. السبب بالطبع هو أن الأمور الجنسية من المفترض أن تكون ذات أهمية جوهرية في التكوين العميق للشخصية، فإذا كان ما يعتبر انحرافا جنسيا كبيراً أمراً لا يمكن تمييزه، فما الذي يعنيه المحللون النفسيون عندما يقولون إن أساس الاضطراب النفسي هو "الخوف الكامن من الجنوح نحو الشذوذ الجنسي؟". هم لا يستطيعون مجرد تمييز أي شيء يخص الشذوذ الجنسي، ناهيك عن الذعر الكامن لدى الرجال من الشذوذ الجنسي، الأكثر تخويفًا هو أن الخبراء الإكلينكيين ليس باستطاعتهم أن يتفقوا على وضع الشخص في فئة تشخيصية معينة على أساس الاختبارات والمقابلات الشخصية التي يجرونها، فبعض الأشخاص الطبيعيين في دراسة ليتل وشنيدمان وصفوا بأنهم مرضى نفسيون، ووضعوا في فئة "مرضى بالانفصام مع ميول للمثلية الجنسية"، أو فئة "شخصية انفصامية ذات ميول اكتئابية". المثير حقا أنه عندما طلب من المحكمين إعادة الاختبارات بعد ذلك بأسابيع، كان تشخيصهم لنفس الأفراد وبنفس الاختبارات مختلفا بشدة عن الحكم الأول. فمن الواضح إذن أن المعايير الوصفية البسيطة في علم الأمراض لا يمكن تطبيقها بثبات، فإذا كان الإكلينكيون يخطئون في تمييز ما هو بطعام عما هو ليس بطعام، فقد تسببوا في تسميم أنفسهم وأن يجوعوا حتى الموت. بالتأكيد معاييرهم الوصفية ليست لها قيمة إيضاحية.

(٩)

في أثناء دراستي كطالبة دراسات عليا بجامعة هارفارد منذ سنوات مضت، كنت عضوة في حلقة نقاش، سئلت أن أحدد أيا من مجموعتي أحد الاختبارات الإكلينكية كتبها ذكور وأيها كتبتها إناث. وقد تمكن أربعة طلاب فقط من بين عشرين طالبا من

التحديد الصحيح بعد شهر ونصف من الدراسة المتعمقة للفروق بين الرجال والنساء. وحيث إن هذه النتيجة أقل من المتوقع حدوثه بالصدفة – لأن هذه النتيجة قد تحدث بالصدفة أربع مرات لكل ألف مرة – فقد نستنتج أن هناك ثباتًا هنا، فالطلاب يحكمون إستنادًا إلى الدراسة النفسية للفروق بين الرجال والنساء، والدراسة نفسها خطأ. وقد نجادل بأن النظرية قد تكون "غير لامعة" علميا ولكنها تعالج الناس، لكن لا يوجد ثمة دليل على أنها تفعل ذلك.

فى عام ١٩٥٢ أفاد "إيزنك"بنتائج ما سمى "نتيجة العلاج" فى دراسة المصابين بالعصاب، والتى أظهرت أن من بين المرضى الذين عولجوا بجلسات التحليل النفسى، كان معدل التحسن ٤٤٪ ومن بين المرضى الذين تلقوا علاجاً كانت نسبة التحسن ٦٤٪ ومن بين المرضى الذين لم يتلقوا أى علاج على الإطلاق كانت نسبة التحسن ٧٢٪. هذه النتائج لم تدحض أبداً، وبالتالى أظهرت الدراسات انتائج السلبية للباحث "إيزنك". كيف يمكن إذن للإكلينكيين والأطباء النفسيين أن يستمروا فى المهنة بضمير؟ بالتأكيد: بإهمال هذه النتائج ومراعاة عدم إجراء دراسات عن نتائج العلاج. هذا السلوك لخصه "روتر" فى التالى :

"الدراسات البحثية فى العلاج النفسى تميل إلى أن تهتم أكثر بالإجراءات العلاجية النفسية واهتمامها أقل بنتائجها.. وإلى حد ما، فإن ذلك يعكس اهتمامًا بالعلاج النفسى بوصفه وسيلة علاجية معملية للشخصية".

(١٠)

الجانب الاجتماعى

حيث إننا أقررنا بأن الخبرة الإكلينكية ووسائلها تكاد تكون عديمة القيمة عندما تختبر بالنسبة إلى نظرياتها وتماسكها وكفاءتها ومدى توافق نتائجها والاعتماد عليها، يمكننا أن نستنتج أيضا أن النظريات الإكلينكية الخاصة بطبيعة المرأة تكاد تكون عديمة القيمة هى الأخرى.

أريد أن أعود الآن إلى النقطة الرئيسية الثانية فى هذا الموضوع، وهى أنه عندما تشكلت النظرية النفسية لكى يتم اختبارها وتم استخدام معايير قوية لذلك، اتضح بجلاء أنه لكى نفهم لماذا يفعل الناس ما يفعلون؛ وبالتأكيد لكى تغير ما يفعلونه يجب على علماء النفس الابتعاد عن النظرية الخاصة بالطبيعة السببية للدوافع الداخلية للأفعال، وأن ينظروا إلى الجانب الاجتماعى الذى يعيش فيه الأفراد. وقبل اختبار سلامة هذا التوجه فيما يختص بالنساء، دعونى أولا أرسم أرضية هذا الفرض.

فى المقام الأول، من الواضح أن اختبارات الشخصية لا تؤدى مطلقا إلى توقعات متماسكة للسلوك، فالأسس المرجعية لقياس ما، لا تكون هى الأسس نفسها لمقياس آخر. ولكن السبب لهذا الاختلاف أصبح واضحًا الآن فقط، ويبدو أن له علاقة كبيرة بالوضع الاجتماعى الذى يجد الخاضع نفسه فيه، ولا علاقة له بالخاضع للدراسة.

فى سلسلة من التجارب العبقرية، أوضح "روزنثال" ومعاونوه أنه إذا كانت مجموعة من الباحثين لديها نظرية عن ما هو متوقع أن يجدوه، ومجموعة أخرى من باحثين آخرين لديهم نظرية مضادة، فإن كلا المجموعتين سوف تحصل على نتائج تتوافق مع نظريتها، والنتائج المتحصل عليها ليست راجعة إلى أى تلاعب بواسطة الباحثين المتحيزين، ولكن تحيز من يجرى التجربة يخلق بيئة متغيرة يسلك فيها الخاضع للدراسة سلوكًا مختلفًا. على سبيل المثال، فى إحدى التجارب كان على الخاضعين أن يضعوا أرقامًا على صور لوجوه رجال، بحيث يضع الخاضعُ الأرقامَ الكبيرة على الصور التى يرى فيها أن الرجل فى الصورة شخص ناجح، والأرقام الصغيرة على الصور التى يرى فيها أن الرجل فى الصورة شخص غير ناجح. قبل بدء الاختبار قيل لإحدى المجموعات من الباحثين، أن الخاضعين للتجربة يميلون إلى إعطاء درجات عالية للوجوه. كل مجموعة من الباحثين كانت تتبع بدقة الإجراءات نفسها، فقد كان يطلب منهم أن يقرءوا للخاضعين مجموعة من التعليمات ولا يقولوا أى شىء آخر.

بالنسبة إلى مجموعة قوامها ٣٧٥ من الخاضعين للتجربة أوضحت النتائج أن الخاضعين الذين قاموا بالأداء مع الباحثين الذين قيل لهم أن يتوقعوا درجات عالية،

أعطوا بالفعل درجات عالية للوجوه، بينما الخاضعون الذين قاموا بالأداء مع الباحثين الذين قيل لهم أن يتوقعوا درجات منخفضة، كيف حدث ذلك؟ لقد استخدم الباحثون الكلمات نفسها، إذن لا بد من أن شيئًا ما فى سلوكهم جعل إحدى المجموعات من الخاضعين تفعل شيئًا ومجموعة أخرى تفعل شيئًا مغايراً.

(١١)

إن الصلابة التى يتمسك بها الباحثون بالنسبة إلى عدم تغيير الظروف المحيطة، والنتائج عن توقعاتهم أمر حقيقى حتى مع الحيوانات التجريبية، ففى دراستين منفصلتين، وجد أن الباحثين الذين قيل لهم إن الفئران التى تعلمت السير فى المتاهة قد تم تربيتها خصيصا لتكون على درجة من الذكاء، حصلوا على نتائج أفضل من فئرانهم عن الباحثين الذين اعتقدوا أن فئرانهم تم تربيتها على سلوك الغباء.

وفى دراسة أجريت عام (١٩٦٨)، قام روزنتال وچاكسون بتوسيع نطاق تحليلهم ليشمل الفصل المدرسى الفعلى، حيث قاما باختبار مجموعة من الطلاب، فأخبروا المدرسين أن بعض الطلاب الذين تم اختبارهم أظهروا أنهم واعدون للغاية بالطبع، الطلاب الذين اختبروا تم اختيارهم عشوائيا. بعد فترة من الوقت، أعاد الباحثان اختبار مجموعة الطلاب نفسها، فالذين قيل لمدرسيهم إنهم "واعدون" أظهروا تفوقا حقيقيا فى اختبار الذكاء .I. Q بالمقارنة بباقى الطلاب. إن شيئًا ما فى سلوك المدرسين تجاه الطلاب الذين اعتقدوا المدرسون أنهم أذكياء قد جعل الطلاب أذكياء بالفعل.

(١٢)

وهكذا، وحتى فى التجارب المصممة بدقة كبيرة، وبدون وجود أية فروق خارجية أو معلومات مسبقة عن السلوك، فإن الافتراضات والنظريات التى نبدأ بها غالبًا ما تؤثر بدرجة كبيرة فى سلوك كائن آخر. هذه الدراسات مهمة جدا عند تقدير سلامة الدراسات النفسية للنساء. وحيث إنه من غير المشكوك فيه أن معظمنا يبدأ بفكرة تتعلق بطبيعة

الرجال والنساء، فإن صحة وسلامة الملاحظات الخاصة بالفروق الجنسية يعد موضع تساؤل، حتى عندما تكون هذه المشاهدات قد أخذت تحت ظروف روعى فيها الدقة الكاملة. ثانيا، وهو الأكثر أهمية، تشير تجارب "روزنثال" بوضوح إلى أثر التوقعات الاجتماعية. فالغالب الأعم هو أن الناس يكونون على ما تتوقع أن تجدهم عليه، أو على الأقل يسلكون كما تتوقع أن يسلكوا، وبالتالي، فإذا كانت النساء وفقا لرينجولد يرغبن أولا وأخيرا فى أن يكن زوجات طيبات وأمهات ناجحات، فمن المرجح جدا أن هذا ما أراد برنو. ب. ل. وباقى المجتمع منهن أن يكن عليه ويسعين من أجله.

هناك سلسلة أخرى من التجارب النفسية الاجتماعية الرائعة التى تشير إلى الأثر الكبير للجانب الاجتماعى. فهناك تجارب الطاعة "لستانلى ملجرام" وفيها يطلب من الخاضعين للدراسة أن يطيعوا أوامر باحث غير معلوم لهم، وهى أوامر تحمل فى طياتها احتمالا وارداً بأن الخاضع لها قد يقتل أحداً.

فى تجارب "ملجرام" قيل للخاضع إنه يقوم بتجربة التعليم، وإنه سوف يقوم بإحداث صدمات فى كل مرة يكون الخاضع الآخر يجيب إجابة خطأ. الجهاز كان يوفر درجات متصاعدة من الصدمات تتراوح بين ١٥ ڤولت حتى ٤٥٠ ڤولت، ولكل درجة من قوة الصدمة كان هناك وصف كلام مثل "صدمة خفيفة"، "صدمة متوسطة"، "صدمة قوية" وأخيراً لصدمتى ٤٣٥ ڤولت و ٤٥٠ ڤولت تظهر علامة XXX على الشاشة فى كل مرة يجيب فيها الخاضع بطريقة خاطئة، ويتم فيها زيادة الڤولت. وعندما يزيد الڤولت يبدأ الخاضع الآخر فى التألم والصراخ، ويطلب من الباحث أن يوقف ذلك. وأخيراً، يرفض الإجابة على الإطلاق، وعندما تتوقف استجابته يأمر الباحث أن يستمر الخاضع فى رفع الڤولت ولكل صدمة يصرخ الخاضع الآخر بألم شديد. تحت هذه الظروف، وجد حوالى ٦٢,٥٪ من الخاضعين قاموا بتوجيه الصدمات التى اعتقدوا أنها قد تكون قاتلة.

(١٣)

لم تتوقع أى اختبارات الاختلاف والفروق الفردية بين الخاضعين، وكم منهم سوف يواصل الاستمرار في التجربة، وكم سوف يوقف التجربة. عندما قام أربعون محللاً نفسيا بتوقع كم عدد الذين سيواصلون التجربة من بين مائة خاضع كانت توقعاتهم أقل كثيراً عن النسبة المئوية الفعلية، فمعظمهم توقع أن واحداً من عشرة فى المائة (٠,١ ٪) من الخاضعين سيستمرون حتى النهاية.

ولكن حتى إذا لم يكن الباحثون النفسيون يعرفون كيف يسلك الناس في مثل هذا الموقف، وحتى إذا لم تكن الفروق فى الشخصية بين نماذج الخاضعين يمكنها أن تتوقع أيا منهم سوف يطيع وأيهم لن يفعل، فمن السهل أن نتوقع متى سيكون الخاضع مطيعًا ومتى سيكون رافضًا، كل ما على الباحث أن يفعله هو أن يأتى بخاضع له طبيعة اجتماعية مختلفة فى كل مرة. ففى تجربة مغايرة لتجربة "ملجرام" كان يوجد اثنان من الخاضعين بالإضافة إلى "الضحية"، وكانوا يعملون مع الخاضع الذى يقوم بتوجيه الصدمة الكهربائية، وعندما رفض الاثنان الاستمرار في التجربة، كان ١٠٪ فقط من الخاضعين هم الذين استمروا فى رفع ال؟ولت. يعد هذا نقداً لنظرية الشخصية، إذ يدلل على أن السلوك يمكن توقعه من اختلاف الطبيعة الاجتماعية، لا من التاريخ الشخصى.

أخيراً، وفى تجربة عبقرية أجراها "شاشترو سنجر" أظهرت أن الخاضعين الذين حقنوا بالأدرينالين الذى يؤدى إلى حالة من التنشيط الحيوى الفسيولوچى فى كل المجالات، والذى يماثل ما يحدث عندما يكون الخاضع شديد الخوف، أصبحوا شديدى الابتهاج في غرفة بها آخر يبدى ابتهاجًا، وأن الخاضع أصبح شديد الغضب عندما وضع فى غرفة بها آخر يبدى غضباً شديداً.

ملخص ما سبق أنه إذا كان الخاضعون تحت ظروف اجتماعية أخرى مختلفة يرفضون فعل ذلك؛ كان يكون الخاضعون باستطاعتهم التفاعل مع حالة من الخوف الفسيولوچى ويصبحون مبتهجين، لأن هناك شخصًا آخر معهم يبدى ابتهاجًا،

أو يصبحون غاضبين لأن شخصًا معهم يبدى غضبا. وإذا كان الطلاب يصبحون أذكياء لأن المدرسين يتوقعون منهم أن يكونوا أذكياء، والفئران فى المتاهة تجرى بصورة أفضل لأن الباحثين قيل لهم إن الفئران تتميز بالذكاء، إذن فمن الواضح أن دراسة السلوك الإنسانى تتطلب أولا وأخيرًا دراسة الأوضاع الاجتماعية التى يتحرك خلالها الناس، والتوقعات الخاصة بالطريقة التى سيسلكون عليها، والسلطة التى تقول لهم من يكونون وما هو المفروض أن يفعلوه.

(١٤)

النظريات القائمة على الأساس البيولوجى

افترض البيولوچيون فى أوقات معينة أن باستطاعتهم وصف حدود الإمكانيات الإنسانية من مشاهدتهم ليس لسلوك الإنسان، ولكن لسلوك الحيوان. هنا، كما فى علم النفس، لا توجد نهاية لوضع نظريات عن سلوك الجنسين، بمعيار التأكد المطلق. وتنقسم هذه النظريات إلى قسمين رئيسيين :

أحد القسمين يقرر أنه بما أن الذكور والإناث يختلفون فى هرموناتهم الجنسية، وبما أن هرمونات الجنس تدخل إلى المخ، فلا بد من أن يوجد فرق فطرى بينهم فى السلوك. ولكن الشيء الوحيد الذى يقرره لنا الجدل، هو أنه توجد فروق فى الحالة النفسية. المشكلة التى يجب أن تثار هنا هى : هل هذه الفروق لها صلة بالسلوك على الإطلاق؟

فلنأخذ على سبيل المثال، الفروق فى مستوى الهرمون الجنسى "تستوستيرون". هناك رجل يطلق على نفسه اسم "تيجر" قال حديثا " إن الكميات الأكبر من التستوستيرون التى وجدت فى ذكور الإنسان بالمقارنة بالإناث (فى فئة عمرية معينة) تحدد الفروق الفطرية فى الدوافع العدوانية والتنافسية والرغبة فى السيادة، وكذلك القدرة على النزال والقدرة على احتلال المناصب العامة..إلخ". وأظهر "تيجر" فى هذا

الجـدل نفس الرفض الرجـولى الشـجـاع فى أن يثنيـه الدليل الذى رأيناه الآن عن استعراضنا للظروف الخاصة بأوضاع التحليل النفسى الإكلينيكى - الدليل لا يؤكد الجدل الخاص بـ"تيجر"، وفى معظم الحالات يتناقض معه. مستوى التستوستيرون لا يبدو أن له علاقة بالقدرة على النزال أو الرغبة فى السيادة أو الدوافع العدوانية والتنافسية. فكما أشار "تورش" إن كل ذكور الثدييات عند الفئة العمرية التناسلية نفسها، ينتجون كميات أكبر كثيرا من التستوستيرون عن الإناث، ولكن الكثيرين من هؤلاء الذكور ليسوا أقوياء أو عدوانيين (على سبيل المثال، الأرانب). وبين بعض الثدييات التى تمارس الصيد مثل القطط البرية، اتضح أن الكثير من أعمال الصيد تقوم بها الإناث وليس الذكور. ويوجد نوع من الرئيسات تكون فيه الإناث أكثر عدوانية وأشد تنافسية وأكثر قدرة على السيادة من الذكر. وعلى ذلك، فبالنسبة إلى بعض الأنواع، فإن الأنثى التى يوجد بها مستوى تستوستيرون أقل من الذكر هى التى تصيد أكثر وتكون أشد عدوانية وأكثر رغبة فى المشاكسة. إن وجود مستوى تستوستيرون أكثر قد ينتج سلوكًا ينظر إليه عادة على أنه أنثوى، حيث توجد أنواع من الرئيسات لا تقوم فيها الإناث بلمس الصغار إلا لمجرد إطعامها، بينما الذكور هى التى ترعى الصغار باستمرار. وبالتالى فمن الواضح ما يعنيه الفرق فى مستوى التستوستيرون أو أى هرمون آخر بالنسبة إلى الفروق فى طبيعة السلوك أو فى الدور الجنسى.

(١٥)

بمعنى آخر، يمكن للمرء أن يلاحظ أنماطًا سلوكية متماثلة ولها علاقة بالجنس (مثل الأمومة) فى الذكور والإناث، على الرغم من الفروق الواضحة فى الحالة الفسيولوچية، أى فى هرمونات الجنس، والأعضاء الجنسية.. إلخ. لكن ماذا عن عكس ذلك؟ أى هل يمكن للمرء أن يحصل على فروق فى السلوك لنفس الحالة الفسيولوچية؟ الإجابة هى نعم بالتأكيد، ليس فقط بالنسبة إلى الهرمونات غير الجنسية بصفة خاصة (كما فى حالة تجربة شاستر وسنجر المذكورة آنفا)، وإنما أيضا بالنسبة إلى الدور

الجنسي نفسه. الدراسات على الخناث نوى التشخيص المتماثل فى (الوراثة، الغدد، الهرمونات الجنسية، الأعضاء التناسلية الداخلية والمظهر غير المحدد للأعضاء الجنسية الخارجية)، أظهرت أن الفرد قد يعتبر نفسه ذكرًا أو أنثى وفقًا لما إذا كان قد نشأ وتربى باعتباره ذكرًا أو نشأ باعتباره أنثى. ولا يوجد دليل أكثر إقناعًا لقوة التفاعل الاجتماعى على تشكيل الطبيعة الجنسية من حالة الخناث الخلقيين الذين لهم التشخيص نفسه ودرجة الخنوثة نفسها، ولكن يتم تمييز طبيعتهم المختلفة باعتبارهم ذكورًا أو إناثًا، وتكون لهم حياة طبيعية مختلفة بعد الولادة (مونى/عام ١٩٧٠ صفحة ٧٤٣)، وبالتالى على سبيل المثال، إذا تم تشخيص حالة اثنين من المواليد على أنهما يمثلان حالة تناظر للخنثى المؤنثة، وتم تنشئة أحدهما كأنثى والآخر كولد، فكل منهما سوف يسلك ويميز نفسه تبعًا لذلك. فالفرد الذى ينشأ باعتباره أنثى سوف يعتبر نفسه بنتًا، والذى ينشأ باعتباره ولدًا سوف يعتبر نفسه ولدًا، وكل منهما سوف يسلك مسلكه بنجاح طبقًا لهذا التمييز الذاتى.

إذن، يحدث السلوك المتماثل رغم لظروف الفسيولوچية المختلفة، ويحدث السلوك المختلف رغم تماثل الظروف الفسيولوچية. فليس من الواضح إذن أن الفروق فى الهرمونات الجنسية لها علاقة بالسلوك.

(١٦)

المجموعة الثانية من النظريات ترتكز على الأساس البيولوچى، وتنص على أن سلوك الدور الجنسى فى بعض أنواع الرئيسات قد تم وصفه، وخلصت النتائج إلى أن النظريات الخاصة بتحيز المشاهد (مثلاً، هارلو من جامعة ويسكونسون، بعد ملاحظة الفروق بين الذكور والإناث لقرود الريسس، أورد ما قاله لورنس ستيرن من أن النساء سخيفات وتافهات، واستنتج أن الرجال والنساء اختلفوا فى الماضى وسوف يختلفون فى المستقبل)، فهناك عدد من المشكلات خاصة بهذا الأسلوب.

المشكلة الأكثر عمومية والأشد خطورة، هى أنه لا يوجد أساس لافتراض أن أى شىء تفعله الرئيسات يعد بالضرورة أمرًا طبيعيا أو مرغوبًا بالنسبة إلى البشر،

لسبب بسيط هو أن البشر ليسوا غير بشر وليسوا شيئًا آخر. على سبيل المثال، فقد وجد أن ذكور الشمبانزى الذين يوضعون وحدهم مع صغار رضع لن يقوموا بدور الأم لهم. وبالقفز من الحيثيات والنتائج القوية إلى التكهنات الأيديولوچية، استنتج الباحثون من هذه المعلومات أن أناث الإنسان فقط هن اللاتى يعتبرن وحدهن القادرات على تربية الصغار. من المنطقى إذن وفقا لهذا التسبيب، استنتاج عدم جدوى تعليم صغار الريسس الكلام، لأن ذلك تمت محاولته مع الشمبانزى ولم يكن له جدوى.

إحدى الإستراتيچيات المستخدمة كانت عمل تقديرات لسلوك الرئيسات الأدنى تختلف عن التفضيلات الإنسانية "الفطرية" وذلك بملاحظة اتجاهات معينة لسلوك الرئيسات الأدنى، ففرد الريسس مثلا يفترض أنه يتقدم فى تطوره ليقترب من البشر، ولكن هناك صعوبات جمة لهذا الأسلوب. فعندما توضع سلوكيات الرئيسات الأدنى مقابل تلك الخاصة بالرئيسات الأعلى أو لتلك المتوقعة من البشر، فإن ذلك مرفوض من وجهة نظر التطور، فالرئيسات الأعلى والبشر تخلصوا من تلك النزعات الطفولية خلال تطورهم. من ناحية أخرى، إذا كان سلوك الرئيسات الراقية معاكسًا للسلوك الذى يعتبر طبيعيا للبشر، بينما سلوك بعض الرئيسات الأدنى يعتبر طبيعيا للبشر، فإن سلوك الرئيسات الأرقى يمكن رفضه على أساس أنه مشتق من إطار أقدم وأكثر بدائية. وعلى ذلك، فمن أى من الطريقين يمكن للمرء أن يختار السلوكيات التى يرغب فى أن يثبت أنها فطرية فى البشر، بالإضافة إلى ذلك، لا يستطيع المرء أن يحدد ما إذا كان سلوك الدور الجنسى فى هذا الصدد يعتمد على المرتبة التطورية أم على الظروف البيئية التى تعيش تحتها الأنواع المختلفة، حيث إن كليهما طبيعى واجتماعى.

(١٧)

هل هناك أية قيمة على الإطلاق لمشاهدات الرئيسات، وما علاقة ذلك بذكور البشر وإناثهم؟ هناك قيمة، ولكنها محدودة، ووظيفتها يجب أن تقتصر على إيضاح بعض البواعث المتبقية للسلوك الخاص بالدور الجنسى، ويجب التأكيد على أن هذه الوظيفة

محدودة إلى حد بعيد. فالسلوك المتبقى للدور الجنسى لا يقترح كل الممكنات سواء للرئيسات غير البشرية أو للبشر. وإذا أخذنا فى الاعتبار، فمن المثير للاهتمام رغم ذلك أن المرء إذا اختبر مجموعة من المشاهدات عن الدور الجنسى للرئيسات غير البشرية الموجودة حاليا، سيجد فى الواقع مجالا أوسع كثيراً للسلوك الخاص بالدور الجنسى عما يفترض وجوده. "فالأساس البيولوچى" يبدو أنه يضع حدوداً قليلة جدا، وحقيقة أن الأنثى تلد لا تعنى حتى بالنسبة إلى غير البشر أنها بالضرورة تعتنى بالصغار (فى المارموزيين مثلا، الذكر هو الذى يحمل الصغير معظم الوقت ما عدا عند إرضاعه). فالسلوك "الطبيعى" للإناث والذكور يختلف بشدة من الإناث الأكثر شراسة وعدوانية وتنافسية من الذكر (مثل التامارين)، والذكور "الأمهات" (مثل قرود تيتى وقرود الليل والمارموزيين) إلى الأنثى التابعة السلبية والمضادة للذكر (مثل قرود الريسس). وحتى بالنسبة إلى الوظيفة المحدودة التى توفرها مناقشات الرئيسات، استخدم الدليل استخداما سيئًا. فدائما ما يشار إلى الرئيسات التى تظهر تماما طراز السلوك الذى يرغب مؤيدو التحديد البيولوچى لسلوك أنثى الإنسان فى إظهار صحته، وبالتالى، فقرود البابون والريسس يتم الإشارة إليها دائما، فالذكور فى هذه المجموعات تظهر سلوكا شديد الإثارة والعدوانية من بين الرئيسات، وإذا أراد أحد أن يجادل بأن الإناث بطبيعتها سلبية ومطيعة، فإن هذه المجموعة من القرود تعطى أمثلة حية لذلك. هناك العديد من الأمثلة المضادة مثل تلك التى سبق ذكرها، ففى الحقيقة، عموماً يمكن إيجاد المثل المضاد لكل سلوك خاص بالدور الجنسى سبق الإشارة إليه بما فى ذلك ما سبق ذكره فى حالة المارموزيين، الذكور "الأمهات". ولكن وجود الأمثلة المضادة لم يوقف النظريات الخاصة بالأساس البيولوچى أو الطبيعى لامتياز الذكر من التدفق. مثلا؛ كان هناك عدد من النظريات تتعامل مع عدم القدرة الفطرية لذكور الإنسان للالتزام بزوجة واحدة. هنا، كما فى معظم النظريات، قرود البابون هى المثل المفضل، ربما لقيمتها الوهمية. فوحدة الأسرة للبابون "الهامادرياس" تتكون من شكل شديد الثبات لذكر واحد وعدد من الإناث ومعها صغارها. مرة أخرى، الأمثلة المضادة، مثل قرود الجيبون أحادية الزوجة، تهمل تماماً.

(١٨)

من الأمثلة المتطرفة لتشويه الأدلة وانتقائها لخدمة توجه المحافظة على امتياز الذكر هو كتاب "الرجال فى المجموعات"بواسطة "تيجر". الادعاء الرئيسى لهذا الكتاب هو أن الإناث لسن قادرات على "الترابط" كما فى "ترابط الذكور". وما "ترابط الذكور"؟ تعريفه المباشر يعد بسيطًا، فهو "علاقة معينة بين اثنين أو أكثر من الذكور بحيث يتفاعلون بطريقة مختلفة مع بعضهم بالمقارنة بتفاعلهم مع الأفراد خارج هذه الوحدة". إذا حذفنا كلمة "ذكور"، فإن التعريف سوف يشمل كل الكائنات التى لها أى نوع من التنظيم الاجتماعى. ولكن ليس هذا ما يعنيه "تيجر". مثلا، يؤكد تيجر أن الإناث غير القادرات على الترابط، وهذه القدرة المنعدمة تمثل لتيجر ضرورة إبعاد الإناث غير القادرات على الترابط، وهذه القدرة المنعدمة تمثل لتيجر ضرورة إبعاد الإناث عن الحياة العامة. لماذا إذن يكون الترابط سلوكًا قاصراً على الذكور؟ لأنه كما يقول تيجر، يكون ملحوظًا فى ذكور الرئيسات.. كل ذكور الرئيسات باستثناء القليل جدا من ذكور الرئيسات. ويشير تيجر إلى مثالين يظهر فيهما ترابط الذكور، قرود الريسس والبابون، ولكن ليس كل البابون، فكما سبق ذكره البابون "الهامادرياس" يتكون نظامها الاجتماعى من وحدة ذكورية واحدة، وكذلك فى بابون الجلارا والقردة العليا لا يوجد ترابط بين ذكورها أيضا. فـ"ترابط الذكور" لا يعد مشاركة جدية فى البحث العلمي، حيث إن أحد مراجعى مجلة العلوم لاحظ أن الكتاب".. يظهر تشابها مع اتجاه سياسى عن أن يكون عملاً موضوعيا لعلم الاجتماع لأن ترابط الذكور "نوع من السلوك الافتراضى".

(١٩)

باختصار، إن الجدل الخاص بالرئيسات أساء استخدام الدليل، فالدراسات الخاصة بالرئيسات فى حد ذاتها يعد دورها شديد المحدودية لوصف بعض سلوك الدور الجنسي المحتمل، أما حاليا فإن المشاهدات الخاصة بالرئيسات تعد قاصرة جدا

بحيث إن مجال سلوك الدور الجنسي للرئيسات غير الإنسانية يعد غير معروف، وهو ليس معروفًا لأن المشاهدات المتصلة بما يحدث للسلوك فى البيئة الطبيعية أو الاجتماعية هى قليلة جدا. ففى إحدى الدراسات، لوحظت جماعات كبيرة من قرود "الماكاكى" اليابانية حيث كانت الفروق الثقافية واضحة، فالذكور فى ثلاثة من كل ثمانية عشر كانوا يختلفون فى درجة العدوانية وسلوك رعاية الصغار. لا توجد إمكانية لوجود فروق تطورية هنا، فالفروق يبدو أنها انتقلت بواسطة الحياة الاجتماعية للصغار. وعلى ذلك، فالدليل المحدود يشير إلى بعض المرونة فى سلوك الدور الجنسى للرئيسات غير الإنسانية، فإذا استطعنا فهم التجارب التى غيرت بشدة التنظيم الاجتماعى لمجموعات الرئيسات، فقد يكون ممكنا أن نشاهد تغيرات عظيمة فى السلوك. حاليا، لابد من أن نستنتج أنه عند توافر بيئة طبيعية ثابتة، لا تغير الرئيسات غير الإنسانية أوضاعها الاجتماعية بأنفسها، وبالتالى، فإن "فطرية" سلوكها وثباته يعدان ببساطة غير معروفين. وعليه، فحتى لو كانت هناك طريقة - وفى الحقيقة لا توجد - لتحديد سلوك نوع من الرئيسات على أنه "طبيعي" للبشر فلن نعرف ما إذا كان ذلك يعد دلالة على التنظيم الاجتماعى الحالى لهذا النوع. مرة أخرى، يجب التأكيد على أنه حتى لو اتضح أن سلوك الرئيسات غير البشرية يعد ثابتًا نسبيا، فإن ذلك يفسر إلا قليلا من سلوكنا. الدليل الأكثر تناسبا، أى الدليل من علم النفس الاجتماعى، يشير إلى المرونة العظيمة فى السلوك الإنسانى ليس فقط من ثقافة إلى ثقافة، ولكن من مجموعة تجريبية إلى أخرى. ومن أهم الخصائص بروزًا للتنظيم الاجتماعى للإنسان هو تباينها، حيث يوجد عدد من الثقافات بها على الأقل مساواة بين الرجال والنساء.

تلخيصًا لما سبق، الجدل القائم على الرئيسات قد يخبرنا بأقل القليل عن سلوكنا الفطرى للدور الجنسى، إذا كانت تخبرنا بأى شىء على الإطلاق، فإنها تخبرنا بعدم وجود سلوك طبيعى واحد للإناث أو للذكور، وأن سلوك الدور الجنسى فى الرئيسات غير البشرية هو أكثر تباينًا عما كان يعتقد قبلاً.

(٤٠)

الخلاصة

نخلص مما سبق إلى نتيجة مهمة، وهى عدم جدوى علم النفس الحالى بالنسبة إلى النساء، لأنه ببساطة حالة خاصة من الاستنتاج العام، إذ يجب أن نفهم الظروف الاجتماعية التى يعيش تحتها البشر إذا ما حاولنا تفسير سلوكهم. ويجب أيضا أن نفهم الظروف الاجتماعية التى تعيش تحتها النساء، ومنها يمكن أن نفهم التوقعات والدوافع الخاصة بسلوك النساء.

ويثور هنا تساؤل آخر هو: كيف يتم توصيف النساء فى ثقافتنا وفى علم النفس؟ الإجابة أنهن غير متماسكات وغير متزنات عاطفيا، ويفتقرن إلى الضمير القوى، ولسن منتجات ولا ذكيات، وإذا كن "طبيعيات" على الإطلاق فهن مناسبات للبيت والأسرة فقط. وعلى هذا المنوال، تستمر القائمة فى أوصاف مستمرة عن "مجموعة أقلية" تتميز بالدونية والانحطاط، مع التأكيد على أن مكانهن الطبيعى هو البيت وفيه يسكن محبوبات، وسعيدات وكائنات محببة.

فى استعراض للفروق الفكرية بين الصبية والبنات الصغار، أوضحت "إليانور ماكوبى" عدم وجود فروق فكرية حتى مرحلة المدرسة الثانوية، عندما تبدأ البنات فى الأداء بطريقة سيئة فى بعض المهام الفكرية مثل التسبيب الرياضى. وبعد المرحلة الثانوية فإن ما تحققه النساء والذى يقاس حاليا بمدلول الإنتاجية والإنجاز يتراجع بمعدل كبير.

هناك أيضا بعض الاختبارات التى لا تعتمد على العقل، والتى تظهر فروقًا بين الجنسين. ولكنى اخترت الاختبارات العقلية حيث يتضح أن النساء يبدأن فى التراجع فكريا فى مرحلة معينة. لا فائدة من الحديث عن أن النساء مختلفات، ولكن متساويات، فكل الاختبارات التى باستطاعتى التفكير فيها لها نتائج "طيبة" ونتائج "سيئة". والنساء عادة ما ينتهين إلى النتائج السيئة. وفى ضوء التوقعات الاجتماعية عن النساء،

فإن المدهش هو أن البنات الصغار لا تصلهن الرسالة التى تفترض أنهن يكنَّ غبيات حتى المرحلة الثانوية، وما هو أسوأ هو أن بعض النساء يقاومن هذه الرسالة حتى بعد المرحلة الثانوية، والجامعة والدراسات العليا.

لقد بدأت مقالى بملاحظات عن اكتشاف حدود الطاقات والإمكانيات الإنسانية. يجب على علماء النفس إدراك أنهم هم الذين يحدون من اكتشاف الإمكانيات الإنسانية. إنهم يرفضون قبول الدليل سواء أكانوا محللين نفسيين إكلينيكيين أم كانوا باحثين، فهم يفترضون أن الناس يتركون فى مجالات أثيرية حرة باستعداداتهم الفطرية وبخصائصهم الفردية وهى التى تحدد لهم ماذا سيفعلون. وإلى أن يبدأ علماء النفس فى احترام الدليل أو النظر إلى الإطار الاجتماعى الذى يتحرك فيه الناس، لن يكون لعلم النفس مادة يقدمها فى هذا المجال.

لا أعرف ما الفروق غير القابلة للتغير التى توجد بين الرجال والنساء فيما عدا الفروق فى أعضائهم التناسلية، ربما كانت توجد فروق غير متغيرة أخرى، وربما توجد فروق غير ذات أهمية، ولكن من الواضح أنه إلى أن تصبح التوقعات الاجتماعية للرجال والنساء متساوية، وإلى أن نوفر احتراماً متساوياً لكل من الرجال والنساء، فإن إجابتنا عن هذا السؤال سوف تعكس مدى تعصبنا.

المرأة باعتبارها الآخر!

سيمون دى بوڤوار

(١)

ما هى المرأة؟ إن مجرد طرح السؤال يعنى بالنسبة إلىَّ إجابة مبدئية، وهى فى حد ذاتها مهمة. فالرجل لن يخطر بباله أن يكتب كتاباً عن الوضع الغريب لذكر الإنسان. ولكن إذا أردت تعريف نفسى، فيجب أولا وقبل كل شىء أن أقول "أنا امرأة"، وعلى أساس هذه الحقيقة يجب بناء كل المناقشات التالية. الرجل لا يبدأ بتقديم نفسه بوصفه فرداً لجنس معين، فالأمر لا يحتاج لتقرير أنه رجل. ومصطلحاً الرجولة والأنوثة يستخدمان شكليا فقط كأمر ضرورى فى الأوراق القانونية، لكن فى الواقع، العلاقة بين الجنسين ليست كتلك الخاصة بالأقطاب الكهربائية، حيث يمثل الرجل القطب الموجب والمحايد، كما يلاحظ من الاستعمال العام لكلمة رجل (بالإنجليزية) لتمييز الإنسان بصفة عامة، بينما تمثل الأنثى القطب السالب فقط، وتتحدد بخصائص معينة غير متبادلة.

أحيانا وفى المناقشات المجردة، من المثير للغيظ أن تسمع رجلا يقول "أنت تعتقدين ذلك لأنك امرأة"، ويكون دفاعى الوحيد هو أن أقول له "أنا أعتقد ذلك لأنه صحيح"، وبالتالى أقوم بإخراج ذاتيتى من المناقشة، حيث لا يمكن الرد بالقول "وأنت تعتقد العكس لأنك رجل"، لأنه من المفهوم أن حقيقة كونه رجل ليست أمراً غريبا. فالرجل على حق لأنه رجل، ولكن المرأة هى التى على الخطأ. الأمر برمته يصبح كالتالى "كما كان لدى الأقدمين معيار رأسى يتحدد بالنسبة إليه ما هو مائل، فهناك معيار إنسانى مطلق وهو الرجولة".

(٢)

المرأة لها مبيضان ورحم، وهذا الأمر يسجنها فى طبيعتها، ويطوقها داخل حدود خاصة، وعادة ما يقال إنها تفكر بغددها، والرجل يتجاهل بتعالٍ حقيقة أن تركيبه التشريحى يشتمل أيضا على غدد مثل الخصيتين، وأنهما تفرزان هرمونات. إنه يفكر فى جسده باعتباره اتصالا طبيعيا ومباشراً بالعالم الذى يعتقد أنه يفهمه بموضوعية بينما يعتبر جسم المرأة معوقًا أو سجنًا يجذب كل ما يخصه إلى أسفل. "الأنثى هى أنثى بفضل ما ينقصها من خصائص" كما قال أرسطو" يجب النظر إلى طبيعة الأنثى على أنها ابتليت بنقائص طبيعية". القديس توماس من جانبه أعلن أن المرأة "رجل ناقص" وكائن "عرضى". وقد تم تمثيل ذلك فى سفر التكوين حيث خلقت حواء من ما أطلق عليه بوسيه "عظمة ثانوية" من آدم.

وهكذا، فالبشرية ذكر، والرجل يعرف المرأة ليس ذاتها ولكن منسوبة إليه، فهى لا تعتبر مخلوقًا له حرية ذاتية. لقد كتب ميشيل رينيه يقول "المرأة، كائن نسبى" وراسل كان إيجابيا جدا فى قوله "جسم الرجل له معنى فى ذاته خلافا لجسم المرأة، حيث إن الأخير تنقصه أشياء مهمة فى التكوين، فالرجل يمكن أن يفكر فى نفسه بدون امرأة، بينما المرأة لا يمكنها أن تفكر فى نفسها بدون رجل"، وهى ببساطة ما يقرره الرجل، فهو يطلق عليها "الجنس" ويقصد به أنها تبدو أساسًا للذكر ككائن جنسى. فهى بالنسبة إليه جنس مطلق، لا أقل ولا أكثر. فهى تتحدد وتتشكل نسبة إلى الرجل وليس هو بالنسبة إليها، هى "العرضية"، وغير الضرورية فى مقابل"الرجل" الضرورى، فهو الموضوع وهو المطلق.. وهى الآخر.

(٣)

على وجه العموم : الآخر" كان تقسيمًا أوليًا، ففى أكثر المجتمعات بدائية، وفى أقدم الأساطير الدينية، يجد المرء تعبيرًا ثنائيًا عن الذات والآخر، هذه الثنائية لم تكن فى الأصل مرتبطة بالتقسيم إلى جنسين، ولم تكن معتمدة على أى حقائق ظاهرية. إنها تظهر فى أعمال "جرانيت" عن التفكير الصينى، وأعمال "دوميزيل" عن الهنود

الشرقيين وروما. العنصر الأنثوى لم يكن فى البداية مشتملاً على الأزواج مثل (ڤارونا - ميترا)، (أورانوس - زيوس)، (الشمس - القمر)، (النهار - الليل)، بل على التناقض بين الطيب والخبيث، والمحظوظ وغير المحظوظ، اليمين والشمال، الإله والشيطان. فالآخر مكون أساسى من مكونات التفكير الإنسانى، وبالتالى، لم تؤسس أى مجموعة نفسها باعتبارها "الواحد" دون أن يتأسس فى اللحظة نفسها "الآخر" ضدها وفى مقابلها. إذا حدث أن احتل ثلاثة مسافرين المقصورة نفسها، فهذا كاف لجعل كل باقى الركاب فى القطار نفسه "آخرين" معادين. فى نظر المدن الصغيرة كل الأشخاص الذين لا ينتمون للبلدة نفسها هم "أغراب" ومتهمون، وبالنسبة إلى مواطنى دولة ما، كل مواطنى الدول الأخرى "أجانب"، فاليهود "مختلفون" بالنسبة إلى من يعادون السامية، والسود "منحطون" بالنسبة إلى العنصريين من الأمريكان. وأهل البلاد الأصليون هم "وطنيون" بالنسبة إلى المستعمر، والبروليتاريون هم "الطبقة الدنيا" للرأسماليين ذوى المكانة.

(٤)

عند نهاية دراسته الواسعة للأشكال المختلفة للمجتمعات البدائية، توصل ليڤى - شتراوس إلى النتيجة التالية "المرور من حالة البدائية على حالة التحضر تميز بقدرة الإنسان على النظر إلى العلاقات البيولوچية باعتبارها سلسلة من التعارضات والتحولات. التعارض والتناظر، سواء أكان فى صورة محددة أو غير محددة لا يشكل ظاهرة يمكن شرحها، كما لا يمكنها إعطاء نتائج لها قيمة اجتماعية". هذه الظاهرة كانت سوف تستعصى على الفهم لو أن المجتمع الإنسانى كان ببساطة قائمًا على الأخوة المستندة إلى التضامن والصداقة. أصبحت الأمور الآن على العكس تماما. فوفقًا لهيجل، إن الإدراك فى حد ذاته عداء لأى إدراك آخر، فالموضوع إذن يطرح أساسًا لكى يدعو لمعارضته، لأنه يقيم نفسه بوصفه ضروريا مقابل الآخر غير الضرورى.

ولكن إدراك الآخر وذاتيته يقيمان مطلبًا عكسيا. فالوطنى عندما يسافر إلى الخارج يصدم عندما يجد نفسه يعتبر بدوره "غريبًا" بواسطة مواطنى الدول الأخرى. وفى الحقيقة أن الحروب والمهرجانات وحركة التجارة والمعاهدات والاتصالات بين القبائل والدول والناس والطبقات كلها تميل إلى تجريد فكرة "الآخر" من معناها المطلق وتجعل من الواضح نسبيتها. فالأفراد والجماعات مجبرة على إقرار التبادلية فى العلاقات، فلماذا إذن لم يتم الاعتراف بهذه التبادلية بين الجنسين، وأن أحد الطرفين يقيِّم نفسه بأنه "الضرورى" الوحيد وينكر أى نسبية فيما يختص بالارتباط بالغير، ويعرِّف طرفًا بأنه الآخر بصورة مطلقة؟ لماذا لا تنازع المرأة سيادة الرجل؟ لا يوجد فاعل يقبل طوعًا أن يصبح مفعولاً به، أى يكون هو غير الضرورى. إن "الآخر" ليس هو الذى يحدد نفسه بأنه الآخر، إن "الآخر" يصبح كذلك بواسطة "الواحد" الذى يحدد نفسه بأنه الواحد. فإذا لم يحصل "الآخر" على وضع أن يكون الواحد، فيجب أن يكون مستسلمًا بدرجة كافية لقبول هذه الفكرة الغريبة. فمن أين يتأتى هذا الاستسلام فى حالة المرأة؟

بالتأكيد كانت هناك حالات أخرى تسيدت فيها مجموعة على مجموعة أخرى تمامًا لفترة من الزمن. فى الغالب الأعم، تعتمد هذه الميزة على عدم تساوى الأعضاء، فالأغلبية تفرض حكمها على الأقلية أو تضطهدها، ولكن النساء لسن أقلية مثل السود الأمريكان أو اليهود، فهناك عدد من الإناث مساوٍ للذكور فى العالم.

(٥)

مرة ثانية، المجموعتان كانتا أصلا مستقلتين عادة، ربما كانتا فيما قبل ذلك غير واعيتين بوجود بعضهما البعض، أو ربما كانتا تعترفان بحرية كل منهما، ولكن حدثا تاريخيا ما نتج عنه تبعية الضعيف للأقوى، مثل تشتت اليهود، إدخال العبيد إلى أمريكا، انتصار الإمبريالية. كلها أمثلة على ما حدث. فى هذه الحالات، احتفظ المقهورون بذكريات الأيام السابقة، فقد كانت لهم صفات مشتركة.. ماضٍ وتقاليد وأحيانا دين وحضارة.

إن التوازى الذى أوضحه "ببيل" بين النساء والبروليتاريا يعد صحيحا فى أن أيا منهما لم يشكل أبدًا أقلية أو جماعة منفصلة من البشر. وبدلا من الحدث التاريخى الواحد كان التطور التاريخى هو ما يشرح وضعهم بوصفهم طبقة، وهو المسئول عن انضمام أفراد معينين إلى هذه الطبقة. ولكن البروليتاريا لم تكن دائما موجودة، بينما كانت هناك دائمًا نساء، كُنَّ نساء بفضل تركيبهن التشريحى والفسيولوچى. وعبر التاريخ بكامله كنَّ تابعات للرجال وبالتالى فتبعيتهن لم تكن نتيجة حدث تاريخى أو تغير اجتماعى، لأن شيئا من ذلك لم يقع. السبب فى أن مفهوم "الآخر" فى هذه الحالة يبدو مطلقًا هو أنه جزئيا يفتقر إلى الطبيعة الطارئة للأحداث التاريخية. فالوضع الذى ينجم فى وقت معين يمكن أن ينتهى عند وقت آخر، كما أثبت "سود هاييتى" وآخرون، ولكن قد يبدو أن الأوضاع الطبيعية خارج إمكانية التغير، فلا شك فى أن طبيعة الأشياء ليست غير قابلة للتغيير أكثر من الحقائق التاريخية. فإذا كانت النساء هى الفئة غير الضرورية والتى لم تصبح ضرورية مطلقا، فمطلقا، فلأنها هى التى فشلت فى إحداث التغيير. البروليتايون يقولون "نحن"، والسود أيضا ينظرون لأنفسهم كفاعلين، لقد حولوا البرجوازيين والبيض إلى "الآخرين"، ولكن النساء لا يقلن "نحن" فيما عدا بعض مجتمعات النساء المتحررات ذوات الميول الواحدة. الرجال يقولون "النساء"، والنساء يستخدمن نفس الكلمة للإشارة إلى أنفسهن. إنهن لا يتخذن موقفا فاعلاً أصيلاً.

لقد أنجز البروليتاريون الثورة فى روسيا، والسود فى هاييتى، ويحارب سكان الهند الصينية من أجل الهند الصينية، ولكن جهود النساء لم تكن أبداً أكثر من مجرد الهياج الرمزى. لقد فُزن فقط بما أراد الرجال لهن أن يأخذنه منهم، فى الواقع لم يأخذن شيئًا، لقد أعطين فقط.

(٦)

السبب فى ذلك هو أن النساء يفتقرن إلى الوسائل الصلبة لتنظيم أنفسهن فى وحدة يمكنها الوقوف وجها لوجه ضد الوحدات المناوئة، فالنساء ليس لهن ماضٍ ولا تاريخ ولا دين خاص بهن، ولا يوجد لديهن التضامن فى العمل ولا الاهتمام الموجود لدى البروليتاريا، ولسن متجمعات ولو بطريقة عشوائية أو بأى شكل آخر يخلق شعورًا

تضامنيا ومجتمعيا كما فى حالة الزنوج فى أمريكا أو يهود الجيتو أو عمال سانت - ريتز أو عمال مصانع رينو. إنهن يعشن مشتتات بين الذكور، كما أنهن مرتبطات نتيجة الإقامة وعمل المنزل والظروف الاقتصادية والوضع الاجتماعى برجال معينين، آباءً كانوا أم أزواجًا، وبصورة أقوى من ارتباطهن بغيرهن من النساء. لو كن ينتمين إلى البرجوازيين فإنهن يشعرن بالتضامن مع رجال هذه الطبقة وليس مع النساء البروليتاريات؛ إذا كن بيضًا فإن تحالفهن يكون مع الرجال البيض وليس مع النساء السود. يمكن أن يقترح البروليتاريون عمل مذبحة للطبقة الحاكمة، وقد يحلم متشدد يهودى أو زنجى بحيازة قنبلة نووية ويجعل البشرية كلها يهودًا وسودًا، ولكن المرأة لا يمكن حتى أن تحلم بإبادة الرجال، فالرابطة التى تربطها بالرجل الذى يقهرها ليست مماثلة لأية رابطة أخرى. والتقسيم بين الجنسين حقيقة بيولوچية وليس حدثًا فى التاريخ الإنسانى. فالذكور والإناث يقفون متعارضين داخل قفص بدائى لم تقم النساء بكسره. الزوجان وحدة أساسية يصنعانها متلاحمين معًا، وشق المجتمع على خط الجنس أمر مستحيل. هنا تكمن الخاصية الأساسية للمرأة، إنها هى "الآخر" بشمولية يكون فيها المكونان الرئيسيان ضروريين لبعضهما البعض.

(٧)

يمكن للمرء أن يفترض أن هذه التبادلية ربما قد سهلت تحرير المرأة. عندما جلس هرقل تحت أقدام أومفالا وساعدها فى غزل الصوف، كانت رغبته فيها قد جعلته سجينا لها، ولكن لماذا فشلت فى الفوز بسلطة عليه دائمة وباقية؟ إن ميديا لكى تنتقم لنفسها من "جاسون" قد قتلت أولادهما، وهذه الأسطورة المقبضة تشير إلى أنها ربما حصلت على نفوذ قوى عليه عبر حبه لنسله. وفى مسرحية ليسستراتا صور أرسطو فانيس بمرح مجموعة من النساء جمعتهن قوتهن للوصول إلى أغراض اجتماعية عبر الاحتياجات الجنسية لرجالهن، ولكن تلك مجرد مسرحية لا أكثر. وفى أسطورة النساء السابينيات نجد أنهن نبذن سريعًا خطتهن فى البقاء عقيمات لكى يعاقبن المختطفين.

فى الحقيقة، لم يكن للنساء الخيار الاجتماعى عبر احتياجات الرجال : الرغبة الجنسية والرغبة فى النسل ، اللذان يجعلان الذكر معتمداً فى إشباعهما على الأنثى.

السيد والعبد أيضا توحدهما حاجة متبادلة، وتكون فى هذه الحالة اقتصادية، مما لا يحرر العبد. فى علاقة السيد بالعبد، لا يبدى السيد اهتماماً بحاجته إلى الآخر، فهو يطبق على العبد سلطة إشباع هذه الحاجة بعمله، بينما يكون العبد وهو وضع اعتماد سيده عليه مدركًا تماما لحاجته إلى سيده، حتى لو كانت الحاجة فى جوهرها ملحة بالتساوى لكليهما، فإنها دائما تعمل لصالح الظالم وضد المظلوم. وفى يقينى أن هذا هو السبب فى أن تحرر الطبقة العاملة على سبيل المثال كان بطيئًا.

الآن والمرأة كما كانت دائما معتمدة على الرجل، ما لم تكن عبدته، الجنسان لم يتشاركا فى العالم بالتساوى. فحتى اليوم المرأة معاقة بشدة، رغم أن وضعها بدأ فى التغير.لا يوجد مجال يكون وضعها القانونى فيه مساوياً للرجل، وعادة ما يكون فى غير صالحها. حتى عندما تكون حقوقها معترفًا بها قانونيا بصورة مجردة، فالعادات الراسخة تمنع التعبير عنها.

(٨)

فى المجال الاقتصادى يمكن القول إن الرجل والمرأة يشكلان طائفتين، فعندما تكون باقى الأشياء متساوية، فالأول يستحوذ على الوظائف الأفضل، ويحصل على أجور أعلى وله فرصة أفضل للنجاح عن المنافسات الجدد من النساء.

فى الصناعة والسياسة للرجال مواقع عديدة جدا، ويحتكرون أهم المواقع، بالإضافة لكل ذلك، يتمتعون بالوضع الأوجه الذى تميل فيه تربية الصغار وبكل الطرق لتدعيمه، ولأن الحاضر يستوعب الماضى، وفى الماضى كل التاريخ صنعه الرجل. ففى الزمن الحالى، والمرأة قد بدأت تشارك فى أمور العالم، لايزال عالمها ينتمى إلى الرجال، ولا شك فى ذلك على الإطلاق، فالمرأة ليس لديها عالم خاص بها، ولكى تنحدر وتصبح "الآخر"، وترفض أن تكون طرفًا فى الاتفاق، فإن ذلك يعنى أن النساء يرفضن

كل المميزات التى أسبغت عليهن نتيجة تحالفهن مع الطائفة المتفوقة. الرجل - السيد - سيوفر للمرأة - التابع - الحماية المادية، وسوف يتحمل التبرير الأخلاقى لوجودها مما يمكنها من الإفلات من المجازفة الاقتصادية والمجازفة الفلسفية لحرية تتحقق فيها الغايات والأهداف دون مساعدة. بالتأكيد، مع الدافع الأخلاقى لكل فرد لتأكيد وجوده الذاتى، ويوجد أيضاً الإغراء بالتخلى عن الحرية وأن يصبح شيئاً، وهذا طريق مشئوم، من يسلكه يعد سلبيا ضائعاً، ويصبح منذ تلك اللحظة مخلوقاً بإرادة الغير ومحبطاً ومحروماً من كل قيمة. ولكنه طريق سهل، فيه يتجنب المرء صعوبات ممارسة وجوده الأصيل. فعندما يجعل الرجل من المرأة "الآخر"، فهو يتوقع منها عندئذ الحفاظ على الميول العميقة فيها تجاه الشراكة، وبالتالى فقد تفشل المرأة فى ادعاء حقها فى مقام "الفاعل" لأنها لا تملك الوسائل لذلك، لأنها تشعر بالرابطة الضرورية التى تربطها بالرجل بغض النظر عن التبادلية، ولأنها عادة ما تكون شديدة السرور بدورها باعتبارها "الآخر".

العاطفة

سوزان براونميلر

(١)

الدراسة البارزة التى أجريت عام ١٩٧٠ والتى تعرف بدراسة "بروفرمان" أفادت بأن مجموعة من علماء النفس أجمعت على أن "البكاء بسهولة شديدة" خاصية أنثوية. ومن بين الخصائص الأخرة على الأنوثة، أن المرأة "عاطفية جدا"، تستثار بشدة عند أية أزمة صغيرة، وتجرح مشاعرها بسهولة، بالإضافة إلى أنها "يسهل التأثير عليها"، كما أنها مفرطة فى الذاتية، وغير قادرة على الفصل بين المشاعر والأفكار، وغير منطقية بالمرة، وشديدة الالتواء.

وكما هو متوقع، فإن الرجل يتميز بخصائص مضادة، فهو أكثر صلابة، وشديد الصراحة، ومنطقى جدا، كما يمكنه اتخاذ القرار بسهولة، ولا يبكى إلا نادراً. ولا تكمن أهمية دراسة بروفرمان فى أنها أوردت مجموعة من الافتراضات الشائعة والمعتقدات التقليدية، فمعيار الرجولة والأنوثة قد تحدد ورسخ فى أدبيات علم النفس كوسيلة لإثبات السلوكيات الطبيعية والتكيف الاجتماعى. ولكن ورد فى ملاحظاته أن الأنوثة النمطية تمثل تقديرات سلبية بدرجة كبيرة لجنس الأنثى، وأن العديد من الصفات التى تسمى أنثوية تعد مضادة للتوصيف الإكلينكى للنضج والصحة العقلية.

عاطفية الأنوثة يصعب النفاذ إليها ويستحيل قياسها، وإن كان من الصعب إهمالها. وحيث إن مهمة الانخراط فى إطار جسمانى محدد من المهام الجنسية التى لا تهتم معظم النساء بمقاومتها، فإن الانخراط فى إطار عاطفى معد سلفًا يعد من المهام الضرورية الأخرى للجنس.

ولإشباع الحاجة الاجتماعية للتمييز الجنسي، ولتبرير وضعها ككائن من الدرجة الثانية، حددت مجموعة من كبار المفكرين في العالم توصيفًا واضحًا للخصائص الداخلية وتعبيراتها لإثبات الطبيعة الأنثوية "المختلفة".

(٢)

كتب أرسطو: "المرأة أكثر حنانًا من الرجل، وأسهل انقيادًا للبكاء. في نفس الوقت، هي أكثر غيرة، وأشد مشاكسة وأكثر عرضة للزجر والضرب من الرجل. وهي بالإضافة إلى ذلك، أكثر ميلا للقنوط وأقل أملا عن الرجل، وأقل حياءً واحتراما للذات، وهي أكثر كذبًا في الحديث وأكثر خداعًا، وذات ذاكرة حافظة بدرجة أكبر من الرجل. هي أيضا أكثر يقظة وأشد انكماشًا وأصعب في حثها على الفعل، ويكفيها قدر أقل من الغذاء".

مخاطبًا مؤتمرًا انتخابيا عام ١٨٥٥، كانت لرالف والدو إمرسون كلمات أرق عن طبيعة المرأة توضح نظرة القرن التاسع عشر إليها، فقد قال "إن اختلاف المرأة نابع من فضيلتها الأعظم"، وقال أيضا : "النساء هن المسئولات عن تحضر النوع الإنساني، وإذا كنت قادراً على وضع تفسير للحضارة فأنا أقول إنها قوة النساء الفاضلات، فالتاج الوضاء للمرأة هو قوة عاطفتها وأحاسيسها والمجالات الكثيرة التي تقود إليها هذه العواطف والأحاسيس". ربما كانت وجهة نظر إمرسون هي ما كان ريجان يقصده عندما قال بسعادة غير خافية "لولا النساء لظللنا نحن الرجال نتجول في أسمال من الجلد حاملين الهراوات". أما وقد استقر التمييز، فهل يعتقد أن النساء لديهن مجالات عاطفية أوسع وأعمق، أو حساسية أعظم لروائع الطبيعة أو التعقيدات اللانهائية للشعور؟ إن أي شاعر أو فنان أو عالم للأحياء المائية أو حتى حامل أمتعة سوف يعترض بشدة. فمن المتفق عليه بصورة عامة أن النساء يتقلبن في بحار العواطف الهائجة، أما الرجال فلديهم الخصائص العقلية القوية والعضلات الفكرية اللازمة

للتحكم فى عواطفهم. بالنسبة للأثر الحضارى، فمن المؤكد أن ذلك يعنى شيئًا أكثر من التحذلق والثقافة والذوق والاستعمال الصحيح لأدوات المائدة. إن إضفاء المثالية على العاطفية الأنثوية كما تفضل المرأة هو أمر رومانسى بدرجة كبيرة، وهو مزاج مرهف فى كيان ضعيف، وطبيعة أرقى يحكمها توأم الحاجة للحب والحماية، كالذى يتذوق من دون أن يبدع، فهى محور الفن والموسيقى والأدب وغيرها من التعبيرات العامة عن الروح الفنية، وهى ملهمة حملة مشاعل القيم الروحية من رجال العالم لافتداء وإنجاز الأشياء العظيمة.

(٣)

منذ ألفى عام، بكى عيسى عندما نظر إلى القدس. "لقد توقف الرجال عن البكاء عندما أصبح غير مألوف" كما تقول سيمون دى بوفوار. الآن أصبحت مريم هى التى تبكى شفقة بالإنسان. ففى الرؤى الغامضة، وطقوس الكنائس المبهمة والمقامات المقدسة تظهر صورة العذراء مريم – أكثر نساء العالم أنوثة – وهى تذرف الدمع، ولا تزال توجد حضارات باقية، الرجال فيها بكاءون دون أن ينتقص ذلك من رجولتهم، ولكن العادات الأنجلو – سكسونية على وجه الخصوص، تتطلب أن تظل الشفة العليا للرجل جامدة. فالنساء الباكيات المتشحات بالسواد يمثلن الطقوس الجنائزية فى كثير من الأمم. فالحزن العميق المفعم هو دور أنثوى، على الأقل فى تعبيراته الصاخبة. لقد صارت صور النساء وهن يبكين من البنود الثابتة فى المجلات الإخبارية القومية عند وقوع كارثة (تفجير إرهابى أو كارثة طيران، أو اغتيال).

البكاء وذرف الدموع يتم تشجيعه فى النساء، بينما يطالب الرجل بأن يتماسك ويسيطر على نفسه. فالبكاء الذى ينتج بعده إحساس بالراحة لا يوصف عادة للرجال كوسيلة لرفع معنوياتهم، لأن الشعور بالراحة الناجم عن الدموع سوف يهدمه الإحساس غير المريح بأن فقدان التحكم فى النفس ليس رجوليا.

فى سباق الرئاسة عام ١٩٧٢ بولاية نيوهامبشير، ارتكب السناتور إدموند موسكى، مرشح الديمقراطيين، انتحاراً سياسيا عندما بكى أمام الجميع فى إحدى خطبه خلال

الحملة الانتخابية، كان موسكى يتحدث عن بعض التعليقات الصحفية الجارحة الموجهة لزوجته عندما ملأت الدموع عينيه.

لقد كانت هذه لحظة حاسمة، وفى تلك اللحظة تساءل الناخبون، هل باستطاعة رجل يبكى عندما تتأزم الأمور فى حملة انتخابية أن يواجه الروس؟ بالنسبة إلى أمة معجبة بأسلوب چون كيندى الذى لا يلبس القبعة ولا المعطف، وبالنجاح العسكرى للجنرال أيك وبفورات الغاضب لهارى ترومان وهو يقول بقوة "اصلوهم جحيمًا"، تكون الإجابة بالنفى. كانت تعليقات الصحف على دموع موسكى، الإنسانية جدا، خالية من الرحمة. فى صيف عام ١٩٨٣ كان الحزن الطاغى لرئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجن عقب وفاة زوجته هو ما أمسكت به صحافة إسرائيل وأمريكا كدليل على أن محاربًا صلبًا قديمًا قد فقد تماسكه، ولأنه ربما شاركهم نفس الإحساس استقال بيجن بعدها بقليل.

(٤)

التعبير عن الغضب والهياج ليس عاملاً لعدم الأهلية فى السياق الرجولى. فالغضب للرجال عادة ما يتم تفهمه، أو العفو عنه، كأمر منطقى أو عادل، وربما ينظر إليه باعتباره بطولة.. فالاستجابة الصحيحة لإهانة تمس الشرف تتطلب فعلا رجوليا عدوانيا. تنبع من المشاعر الغاضبة، أصبح الغضب أكثر المشاعر اللاأنثوية التى يمكن أن تظهرها المرأة.

الغضب للمرأة ليس لطيفًا، فالمرأة التى تنقاد للغضب لا تكون جذابة. فالمرأة الغاضبة تكون قاسية وخبيثة وغامضة، لأنها تكون فاقدة للتحكم بصورة غير مناسبة فى عواطفها، فوجهها يأخذ صورًا غير مستحبة مثل انطباق الفكين، وضيق العينين وانكشاف الأسنان. فالغضب إذن دمدمة عنيفة وتهديد عدوانى وإعلان للحرب. والتحمل اللانهائى المطلوب فى المرأة والذى يوصف بأنه الفضيلة الأنثوية للصبر، يحظر أية استجابة غاضبة. لو تصورنا المنظر الجميل القديم لسيدة المنزل وهى منكبة على أعمال الإبرة، تحيك وتطرز، فسندرك أن الصبر فضيلة علينا أن نمتلكها إذا استطعنا أن

نراها في الرجل إلا فيما ندر. وعندما تنغرس الإبرة في إصبعها لا تصرخ ولا تتأوه أو تلقي بالقماش في غضب، ومن هذا نعرف أن المرأة تكتم الغضب، وتعبر عنه بطرق خبيثة مثل نوبات الغيرة، أوهام الانتقام، خطط الثأر. لذا ربما كان من الأسلم لها أن تبكي، فكما تقول سيمون دى بوڤوار "قدرة المرأة على البكاء بسهولة ترجع بدرجة كبيرة إلى حقيقة أن حياتها مبنية على أساس من الثورة العاجزة"، وتستطرد قائلة "من غير المشكوك فيه أيضا حقيقة أن المرأة، فسيولوجيا، أقل قدرة على التحكم العصبي من الرجل". هل هذه حقيقة غير مشكوك فيها أم الأصح، كما تقول هي أن "تربيتها قد علمتها أن تسمح لنفسها بالبكاء بسهولة أكثر".

(٥)

يبكي الأطفال والصغار نتيجة الخوف، الإحباط، عدم الراحة، الجوع، القلق، الانفصال عن الوالدين، وعندما يغضبون. وعندما قامت إليانور ماكوبي وكارول جاكلين بمسح كامل شمل كل الدراسات المتاحة عن بكاء الصغار لم يجدا أي فروق تذكر بين الجنسين. فإذا كان من المفروض أن الفتيات والنساء الناضجات يبكين أكثر من الرجال، ولا يوجد سبب للتساؤل عن الحكمة الشائعة في هذا الخصوص - فهل تكون تغيرات الغدد الصماء خلال البلوغ هي المسئولة عن ذلك؟ وماذا عن تلك "الأيام الزرقاء" الباكية المتوترة التي تسبق الحيض والتي تصيب الكثيرات من النساء؟ وماذا عن اكتئاب منتصف العمر الذي يعرف في بعض الأوساط بـ"العلة الأنثوية"؟ هل هذه الحالات كما يعتقد بعض الرجال هي علامات على عدم اتزان هرموني يؤدي إلى تأثير مثبط للقدرات المنطقية للمخ البشري؟ أم أن الاكتئاب الأنثوي كما يفترض "ويلارد جايلين"، ينتج عندما تضيع ثقة المرأة بقدرتها على التجاوب؟

إن الاعتقاد بوجود أسس بيولوجية لعدم ثبات عواطف الأنثى له تاريخ معروف في تطور علم الطب. فهيبوقراطس (أبو قراط) الطبيب، كان مقتنعًا بأن الهيستيريا

تتسبب عن رحم متحول يظل فارغاً. وفى القرن السابع عشر أدى اكتشاف أن الغدة الدرقية هى إضفاء الجمال على رقبة المرأة، ولكن البعض اعتقد أن الغدة الدرقية تقوم بطرد الملوثات من الدم قبل أن تصل إلى المخ. فالغدة الدرقية الأكبر ضرورة لحماية جهاز الأنثى من آثار المسببات العديدة للهياج والتكدير التى يتعرض لها هذا الجنس لسوء حظه. لقد قرر أطباء القرن التاسع عشر أن الاختلالات المتعلقة بالرحم هى السبب فى الشكوى النسائية من الإنهاك العصبى. ولأولئك اللاتى لا يملكن المال لكى يحظين برعاية الطبيب، كانت أعشاب ليديا بنكهام وغيرها متاحة لهن. فى الأربعينات والخمسينات كانت عملية إزالة الفص الجبهى تجرى لعلاج العديد من الاختلالات النفسية، خاصة بين النساء، لأنها كانت تؤدى إلى تثبيط العواطف الجامحة. حاليا، يبدو أن عقار الفاليوم يعد كافيا.

(٦)

فى الستينات من القرن الماضى، بدأ اتجاه للبحوث حاول فصل توتر ما قبل الحيض كعامل يؤدى إلى الحوادث المختلفة كالانتحار والاضطرابات النفسية والعقلية وارتكاب الجرائم العنيفة وتقلبات المزاج والهياج وعدم الاتزان العاطفى، والتى كانت تقوم بها الإناث فى فترات دورية من الشهر، ولكن ما الذى يثبته ذلك بخلاف الحقيقة المتفق عليها فى أن نظام الغدد الصماء له أثر واضح فى مجال العواطف الإنسانية؟

إن الانتحار والجرائم العنيفة والاختلالات النفسية الخطيرة تعد أعلى فى الرجال بنسبة أربعة إلى تسعة عن النساء. فهل توضع نظرية تثبت أن عدم التوازن الهرمونى، هى حالة مزمنة توجد على مدار السنة فى الرجال؟ وبالتالى يكونون عديمى الأهلية؟ وبأى طريقة للحساب ولأى سبب من الأسباب، تكون الآثار الهرمونية والمثبطات والضغوط الاجتماعية، أو كل هذه العوامل جميعاً مبرراً لجعل جنس الأنثى أقل عرضة للسلوك غير المنضبط المضاد للمجتمع؟ إن ثمن الغضب المكبوت والمزاج غير العنيف قد يكون أحيانا وعاءً من الدموع.

ومثل عاطفة الغضب، فإن الابتهاج فى الانتصارات الشخصية يعد استجابة لا أنثوية بدرجة كبيرة. فالفائز بالطبع فى أى منافسة من أى من الجنسين من المفترض أن يظهر درجة من التواضع، ولكن الإشارات البسيطة للابتهاج عندما تقول الأنثى "أنا الفائزة، لقد فعلتها" تكون مناقضة تماما للتواضع ومراعاة مشاعر الخصم المتوقعين من البنات والنساء.. فرفع الذراع عند تحية الفائز، والطقوس التى تعقب الصراع على جائزة مباريات المصارعة وبطولات التنس لا تناسب السيدات على أى نحو، فالإحساس القوى الذى يولده الانتصار، كالفرحة الطاغية عند تسلق قمة جبل أو عند الفوز بصفقة، تظل عواطف غير مناسبة للأنثى، فالأكثر توافقا للأنوثة هى الدموع التى تنساب برقة من عيون ملكة جمال أمريكا عند تسلمها التاج والصولجان، فالشفاه المرتعشة والأعين المترعة تذكرنا بسندريلا التى صادفت الثروة والحب فى لحظة ابتسم لها فيها الحظ. ومع ذلك، فإن ملكة الجمال التى ترفع صولجانها عاليا كالجائزة لا تحافظ بذلك على مثاليات الأنوثة.

(٧)

احمرار وجه الفتاة الذى شكل قوام روايات وأدبيات القرن التاسع عشر، كان مؤشراً ممتازاً لحياء العذارى، على نقيض خبرة الرجال الواسعة بالعالم. ففى العهد الذى كانت فيه العديد من التلميحات الجنسية تعد غير مهذبة ولا يجب أن تصل إلى أسماع النساء الفاضلات، كان احمرار الوجه هو الاستجابة الأنثوية المتوقعة. على الجانب الآخر من غرفة الاستقبال، لم يكن الرجال يعرفون حمرة الخجل، على الأقل فى الروايات الرومانسية، لأنهم لا تنقصهم المعرفة ومتمرسون جنسيا. الأعين المسدلة، احتقان اللون، صعوبة التنفس، الغياب اللحظى عن الوعى - كانت إثباتات إضافية للطبيعة الأنثوية الرقيقة والبريئة والتى تتطلب الحماية فى العالم الذكورى الخشن والفظ (من الكتب الأكثر مبيعا تلك الكتب الرومانسية الحالمة التى يتلقفها مدمنو الرومانسية مما يشير إلى أن خجل العذارى لا يزال حيا ومرغوبا فيه). وفى العصر الحديث الذى

يتميز نسبيا بالحرية الجنسية أو يجيزها على أقل تقدير، حل الصراخ والتأوه محل حمرة الخجل والرموش المسدلة. فالفتيات المغرمات بموسيقى البوب اللاتى أغمى عليهن فى مسرح بارامونت عندما غنى فرانك سيناترا ألحان الحب فى الأربعينات (كانت أول موجة من الفتيات اللاتى أغمى عليهن مدبرة) كن نبوءة بالنشوة الجارفة التى تشهدها حفلات موسيقى الروك حاليا. وعلى النقيض فشباب الرجال من الجمهور يقفون ويتصايحون ويصخبون عندما تبدأ الفرقة الموسيقية فى العزف ولا يبدون التأثر الذى يسبق الشجن.

ومن اللافت للنظر بشدة أن العاطفة الأنثوية أصبحت أعلى صوتًا. التأوه الفاحش المميز لداعرات الزمن الإليزابيثى والذى كان دلالة على الفجور والانحلال، يبدو أنه لم يعد قاصرًا على الطبقة الدنيا من المجتمع. فإحدى نواتج مجتمعنا المهووس بالإعلام والذى تعد فيه الخصوصية من الاحتياجات الإنسانية عتيقة الطراز، فتسجيل الأصوات التى تطلقها الأنثى عند الإحساس بلذة الجماع كما فى أغنية دونا سمرز "أحب أن أحبك يا صغيرى"، وغيرها من الأغنيات يعد أكثر من مجرد الاتجار بالجنس. لكن هل تكفى أصوات الرجال عند الإحساس بلذة الجماع للتسجيل؟ وهل ستكون مميزة؟

على الرغم من عدم وجود دراسات عن مثل هذا الفريق بين الجنسين من قبل، فإنه من المعتقد أن معظم النساء يصدرن أصواتًا أعلى وبصورة لا يمكن التحكم فيها عند الارتواء الجنسى. فهل هذه الاستجابة تعد فسيولوجية تلقائية؟ أم مجرد عرض من أعراض المهمة الأنثوية للتعبير عن الإحساس الطبيعى (المهمة الذكورية المقابلة هى الحفاظ على المشاعر تحت التحكم).

(٨)

العاطفة الأنثوية تختص برقة المشاعر والتعاطف وسرعة البكاء عندما تجرح، وهى الخصائص الثلاث التى يحاول الرجال تجنبها. وربط هذه الخصائص بالصفات التشريحية للأنثى أصبح يقينا فى المدرسة الفرويدية. وقد تحدث إريك إريكسون عن وجود فراغ داخلى (يقصد الرحم) يشتاق لإتمام دوره عبر الحب الأمومى، وتتحدث

هيلين دويتش المختصة بعلم النفس الأنثوى الفرويدى، عن القبول النفسى للجرح والألم. فتوترات الحيض وفض غشاء البكارة وعذاب الولادة، كلها تشير إلى الطبيعة المازوكية (اللذة عند الألم) الفطرية للمرأة.

فحب الأطفال – أى طفل وكل الأطفال – ولو كانوا ليس أطفالها، هو فقط من العواطف الأنثوية الجياشة والمتوقعة. المرأة التى لا تبدى انفعالاً وتأثراً عند رؤية صورة طفل صغير أو حين تحمل مولوداً بين ذراعيها، يتم الشك فيها فى التو. فالطبيعة الفطرية للأمومة وردود الأفعال الفطرية عند التعامل مع الأطفال أو على الأقل بعض العلامات الدالة على الرغبة فى الحمل والإنجاب، هى من الخصائص المميزة للأنثى الطبيعية. فالنساء اللاتى لا توجد لديهن أى أحاسيس خاصة تجاه الأطفال يكن شديدات الرفض للاعتراف بحقيقتهن الأنثوية، لأن القيمة الحقيقية لمكانة المرأة هى فى القيام بدورها البيولوچى. دعنا من تعظيم الأمومة على أنها الدور الأكبر والأكثر إشباعًا للمرأة، ومن الاعتقاد بأن كل النساء يشتقن لإتمام دورهن البيولوچى نتيجة لاحتياج عاطفى عميق، ولكن من ناحية أخرى نجد أن عددا لا يستهان به من الأمهات لا تتوافر لديهن الرغبة الحقيقة فى أداء هذه الوظيفة، وهذا يمكن استخلاصه من سجلات المستشفيات ومحاكم الأسرة والهيئات الاجتماعية، حيث حالات الضرب والإهمال للأطفال التى تدخل هذه الدوائر، وربما أيضا من خصائص وعادات الطبقة العليا ترك صغارهم لرعاية المربية. ولكن على الرغم من هذا الدليل على أن الأمومة اليومية لم تعد مهنة مناسبة أو مثيرة للجميع، فلا تزال الأسطورة التى تقول إن المرأة التى تفضل عدم الإنجاب لابد أنها بلا قلب وأنانية وناقصة التكوين – قائمة بقوة.

كثير من الكتب تناول ذنوب الأمومة وتفسيراتها بطريقة لا تخلو من الإدانة، واتهمتها بأنها مهما فعلت فإن رعايتها وحبها قد لا يكونان كافيين، أو قد يمثلان خطأ تكون نتائجه مدمرة للطفل طوال حياته. فالأساليب الخاطئة لرعاية الطفل مثل إرضاعه بالزجاجة، إرضاعه عند الحاجة، عدم حمل الطفل عند بكائه، التأخر فى تدريبه على الإخراج، أو التخلى عن وظيفتها لتعطى كل وقتها للأسرة، تفتح المجال للتخوف من عدم الكفاءة الأمومية، وأيضا لاختلاف الآراء الخبيرة فى كل جيل. وتلعب الإعلانات

على هذا الخوف الأنثوى عند ترويج السلع للعملاء. فنوع معين من الحبوب، أو ماركة معينة عن الخبز الأبيض المعبأ، لابد من شرائها لتغذية الطفل، وإلا تكون الأم قد فشلت فى أن تحب طفلها بدرجة كافية وحرمته من فرصة "بناء جسم قوى". وإلى أن تمكنت حركة تحرير الشواذ جنسيا من الحديث عن نفسها، كان من الشائع أن الأم بمقدورها تدمير التكيف الجنسى لولدها بفشلها فى قص شعره الطفولى أو فى إبعاده عن دروس الرقص أو بتقاعسها عن تشجيع اهتمامه بالرياضة.

(٩)

من متطلبات الأنوثة أن تهب المرأة حياتها للحب،الحب الأمومى، الحب الرومانسى، الحب الدينى، وللرعاية غير المحدودة للطفولة والأسرة، وإذا كانت حدود القلب مفتوحة للجميع، فمن المنتظر من النساء فقط أن يمارسن مهنة ذات طبيعة استحوانية من استغلاله، وذلك بأن يوجدن أية مغـــامرة أو إشبـاع أو مأساة قد تقـــدمها الحياة داخل حدوده. فلا جدال فى أن المرأة تشعر بأنها أكثر أنوثة وأكثر ثقة بطبيعتها العضوية الداخلية عندما تكون فى مرحلة من مراحل الحب حتى ولو كان مجرد الافتتان والإعجاب التى تسبق الوقوع فى الحب، أو فى مرحلة الحب غير المتبادل أو كانت تعانى من مرارة تجربة فاشلة.

لقد عانى رجال نتيجة الحب وأنجز آخرون أعمالاً باهرة باسم الحب، ولكن ما الذى يحس به الرجل وهو فى قمة كيانه الرجولى عندما يكون مريضاً بالحب أو يعانى من ألم فى المشاعر؟

لاحظت جلوريا ستاينم أن القلب يعد رمزا غريزيا جنسيا للضعف الأنثوى عند تسويق الأزياء، فالعقد الذى على شكل قلب، والقلادة التى تأخذ شكل القلب، والنظارات الشمسية البلاستيكية بشكل القلب، تشير جميعها إلى إدمان أنثوى للحب يتجاوز الأشياء الخاصة بزينة الرجال. وتنطبق نفس الملاحظة بدرجة أقل على الزهور.

النســاء يتـعلمن منذ الطفـولة المبكرة أن يحـافظن على قلوبهن، وأن يحـتـفظن بذكريات عـاطفـيـة. ففى أوراق اليوميـات، وحـزم خطابات الحب القديمة والألبـومـات العائلية، وكتب الشـعر التى توجد بين أوراقها زهرة جافة مضغوطة، يتم حفظ التاريخ العـاطفى للمرأة. وتذكُّر الأشيـاء التى مضت مثل أعيـاد الميلاد، المناسبات السنوية، الأشخاص الذين رحلوا عن الحياة، هى خاصية أنثوية. وفى التقسيم الاجتماعى للعمل، من وظائف الزوجة أن تحـافظ على العلاقات العاطفية حتى مع الجانب العائلى للزوج. فمن مـهامـها إجراء المكالمـات التليفونية مع الأقارب، اختـيار الهدايا وكتابة بطاقات الدعـوة، وهى المهام التى يطلب من السكيرتيـرات القيـام بها من رؤسـائهن. فـالرجـال مشغولون ويتحركون للأمام، أما المرأة فتنظر للخلف.

لقد كان من المثير فى القصص الواردة بالإنجيل أن زوجة لوط هى التى نظرت خلفها لتحصل على لمحة أخيرة لمدينتهم، ولبيتهم ولمـاضيهم، فتحولت إلى تمثال من الملح.

(١٠)

الحب يؤكد الطبيـعة النفسـية للمرأة. فـمن الفروق الواضـحـة بين الرجـال والنسـاء إحجامها العنيد وعدم قدرتـها على فصل الحب عن الجنس. فمن المفهوم أن الحب يجعل العالم يدور، ومن المفترض أن تشعر المرأة بالدوار وأن تنهض وتسقط وأن تشعر بنشوة الحياة تنساب فى دمـائها، أن تشـعر بأنها تذوب فى عـلاقـة مناسبة، قد تكون بالنسبة إليها أفضل من علاقة غير مرجحة ولا تبشر باسـتجابة مؤكدة. ولكن الأكثر أهمية أن الجنس للمـرأة حتى فى عصـر توافر موانع الحـمل، له توابع تـجـعل الفعل نفسـه أمـراً جديا. الجنس العـارض قد يؤدى إلى قرارات غيـر عـارضـة. فإذا كـانت الفتـاة تفكر فى الحب والزواج بينمـا يفكر الرجل فى الممارسـة، فـإن التزامـها العـاطفى يضـرب بجذوره ليس فقط فى نشـأتها فحسب، ولكن فى طبيعتها البيولوچية التكاثرية أيضا. فالحب، فى هذه الحـالة يمكن أن يكون دليل نفي للسلوك غـيـر المنضـبط، أو قـد يكون نـابعًـا من إحباطات حياة كاملة، مثل مدام بوفارى أو آنا كارنينا.

دور العبادة المسيحية، خاصة فى الأحياء الفقيرة، تمتلئ بصورة لا تتناسب مع حجمها بالنساء. هذه الظاهرة قد لا ترجع بكاملها إلى الدور التاريخى للديانة البروتستانتينية أو الكاثوليكية الذى يشجع على العبادة الجماعية للنساء (والتى لا تشجعها اليهودية أو الإسلام)، أو من الممكن تفسيرها بأن النساء لديهن وقت أكثر للصلاة، أو كما يعتقد فى العالم الغربى أن النساء أشد تدينا بطبيعتهن. فهناك عامل آخر هو أن القانون المركزى فى العقيدة المسيحية "المسيح يحبكم" له جانبية خاصة للجنس الذى يميز نفسه بعاطفة الحب.

إن اهتمام النساء الخاص بمجال التعاطف تتم تغذيته وتقويته، فبكائيات سينما هوليوود والتى تعرف بأفلام "المناديل الأربعة" كانت من أفلام الإنتاج الضخم المصممة خصيصاً لجذب المشاهدات إلى شباك التذاكر، ناهيك عن الأعمدة المخصصة فى الصحف اليومية للمشكلات الغرامية، والتغطية الصحفية للمواليد والوفيات، فى الوقت الذى يندر فيه وجود النساء فى مهنة الصحافة ندرة وجودهن فى مناجم الفحم.

فى زمن صحافة التابلويد المتنافسة، فإن صحافة "الأخت الباكية" وهو مصطلح "غرفة الأخبار" للقصص الإنسانية التى تكتب بطريقة تمزق القلوب والتى يكتبها عادة محررون من الرجال، ينظر إليها باحتقار من الذين يغطون الأخبار السياسية الجادة والمراسلون ومحررو صفحة الجريمة. ومن الطريف أن الصحفى الشهير ناثانيا وست كان يكتب تحت اسم مستعار هو "آنسة القلوب الوحيدة". وبالرغم من جاذبيتها الواضحة للقراء، فإن المواد العاطفية كان ينظر إليها ولايزال، على أنها فى المقام الأدنى من الصحافة، وأنها تافهة وضعيفة وغير رجولية.

(١١)

فى الدوائر الحكومية خلال حرب ڤيتنام، كان يعد علامة من علامات الضعف العاطفى من الأحرار اعتبار أن حرق الأطفال بالنابالم وقصف القرى بالقنابل وتدمير البيوت والمزارع تعد أسباباً كافية لإخراج القوات الأمريكية من هناك، واتهمت دعاة السلام بأنهم مجموعة من الجبناء والمفكرين الكسالى. وكان التشكيك فى شجاعتهم

ومنطقهم اللارجولى وهو ما كان يعصف بأولئك الرجال الذين تبنوا السلام ونبذ العنف، فى حين سمح للنساء، وهن الجنس الأضعف بقدر أكبر من التعبير، لأن المنطق الأنثوى، تحكمه أوتار القلب، فالتعاطف والأحاسيس الجياشة هى القاعدة الثابتة والشهيرة للكتابة النسائية بالمقارنة بموضوعية الرجال الذين يلزمون أنفسهم بمعيار الموضوعية.

وطالما ظل التقسيم الاجتماعى للعمل مصرا على أن المرأة عليها أن تحمل العبء العاطفى لرعاية الحياة الإنسانية من المهد إلى اللحد، بينما يظهر الرجال قدرتهم عبر القوة والأعمال التناسلية العدوانية، فإن التعاطف والخوف من العنف يعدان أسبابا قوية لدعوة النساء لتجنب الحروب وغيرها من الكوارث التى يصنعها الرجال.

(١٢)

عندما ينكر القانون والمجتمع على المرأة حق التعبير العام الكامل وتكافؤ الفرص الاقتصادية التى يخص بها الرجال أنفسهم، فإن المرأة عليها أن تضع معظم آمالها وأحلامها وذاتيتها الأنثوية وأهميتها الاجتماعية فى الإطار الخاص بالعلاقات الشخصية، فى النسيج الرابط للزواج، الأسرة، الصداقة والحب. ففى عالم غير متوازن، حيث يتم تلقين الرجال النظر بإعجاب للقوة والصلابة، وللنظرة المستقيمة على أنها خصائص رجولية تمكنهم من التفكير إستراتيجيا وتحقيق الانتصارات من انتصار إلى آخر، ومن حملة إلى حملة دون حاجة للنظر إلى الخلف، ودون انحراف عن الهدف ودون استسلام لمشاعر الضعف التى تنتاب الرجال أحيانا، فإنه يوجد وسوف يوجد دائما فارق عاطفى بين الجنسين، وهوة تفصل بينهما ربما تظهر فى استفتاء يجريه معهد جالوب.

لو أن شكلاً حقيقيا لأى فرق يمكن أن ينبثق من ظلمات الاضطهاد التاريخى، فهل كانت الخبرة الأنثوية الخاصة بكينونة المرأة ستظل تشير إلى مجال من المدركات والقيم

التى تختلف جذريا عن تلك الخاصة بالرجال؟ إنه لمن المبكر إعطاء إجابة عن هذا السؤال، وهل تقاوم أى عاطفة أن يتم عزلها وأن تمنع عن أداء وظيفتها التاريخية فى إطار التمييز بين قوى الجنسين؟

وفقًا للمشاهدات، يمكن قول الآتى: إن الربط بين التشريح والتاريخ والثقافة يمثل ترجيحًا عاطفيا مقنعًا لوجود "طبيعة مختلفة" بين الجنسين لدرجة أن أفضل مزايا الأنوثة تتضافر لاستمرار وجود هذا الاختلاف.

التضامن بين النساء

جلوريا ستاينم

(١)

منذ حوالى ثلاث أو أربع سنوات، حصلت على المتعة الآمنة والمستحقة في أن أقول الأشياء التى من المفترض أن تقولها المرأة. وأتذكر بألم ما كتبته فى تلك الفترة :

"عملي لن يتعارض مع الزواج، فعلى الرغم من كل شيء، أستطيع الاحتفاظ بالتى الكاتبة بالمنزل، أنا لا أريد الكتابة عن شئون المرأة. أريد الكتابة عن السياسة الخارجية، عائلات السود أجبرت من قديم على قبول سلطة الأم، وأنا أفهم الآن لماذا كان على النساء السود أن يتراجعن ويتركن الرجال يتقدمون.

أنا أعرف أننا نساعد جماعات الشيكانو القاسين على النساء، ولكن تلك هى ثقافتهم، من التى ترغب فى الانضمام إلى الجماعات النسائية؟ أنا لم أكن يومًا أرغب فى الانضمام، وكنت أحيانا أشعر بالفخر عندما يقولون عني : إنني أكتب كالرجل".

أعتقد أنه واضح من طراز الجمل التى اخترتها أننى كنت فى السر غير متوافقة مع المجتمع، لم أكن متزوجة، وكنت أكسب عيشي بمهنة أحبها. كنت فى الأساس قد خرجت وبهدوء عن الدور "الأنثوى"، ولكن ذلك أدى إلى ضرورة أكبر وهى أن أعيد الحكمة الشائعة، وحتى أبدو عادية فى مظهرى ما استطعت، لكى أتجنب بعض العقوبات التى يوقعها المجتمع بالنساء اللاتي لا يفعلن كما يرسم لهن. وبالتالي تعلمت من قصة العم توم الدهاء والمنطق والمرح، وأحيانا ما صدقتها.

لو لم تكن هناك حركة لتحرير المرأة، لكنت قد ابتعدت كثيراً. ولكن أفكار هذا التغيير العظيم في نظرة النساء لأنفسهن معدية ولا يمكن مقاومتها. إنها تضرب النساء كما لو كانت وحيا أو كما لو كنا نغادر حجرة مظلمة إلى نور الشمس.

(٢)

في البداية بدت اكتشافاتي شخصية، في الواقع كانت هي نفسها التي قامت بها ملايين النساء ولازلن يقمن بها، وبتبسيط شديد، تسير على النحو الآتي، في البداية إن النساء بشر، لكن باختلافات بسيطة عن الرجال ترجع بدرجة كبيرة إلى الفعل الوحيد الخاص بالتناسل. نحن نشترك في الأحلام وفي القدرات وفي أوجه الضعف مثل كل البشر، ولكن قدرتنا على الحمل والإرضاع وغيرها من الفروق الظاهرة، استخدمت وبصورة ملتوية - وإن كان أقل وحشية من الفروق العرقية - في إضفاء مجموعة من الصفات "المنحطة" على النساء وفي تقسيم غير عادل وغير واضح للعمل. والتقسيم مستمر لسبب واضح وهو أنه يعود بالفائدة الاقتصادية والاجتماعية على الذكور.

ما إن ومض هذا الإدراك الأنثوي في وجداني حتى تغير سلوكي وأصبح متفقا مع ما هو متوقع. في البداية تعجبت من بساطة ووضوح الإدراك الذي كان له معنى خاصا عندي، ولكن في النهاية ومن واقع تجربتي في الحياة، أدركت كم تبعد هذه النظرة الجديدة للحياة عن النظام الذي يوجد حولنا وكيف أنه من الصعب شرح هذا الإدراك الأنثوي على الإطلاق، أو جعل الناس يقبلون مثل هذا التغير الجذري. ولكني حاولت أن أشرح، ويعلم الله أن النساء قد حاولن. لقد عقدنا مقارنات مع المجموعات الأخرى التي تميزت أدوارها بالخضوع لكي نساعدهم على فتح خيالاتهم الموصدة، قدمنا حقائق لا نهائية لها وإحصاءات كثيرة عن الظلم وظللنا نكررها.

وحتى المنطق استخدمناه، إذا أنفقت امرأة عاما في حمل وإرضاع طفل، مثلا، فمن المفترض أن تكون لديها المسئولية الأساسية في تربية هذا الطفل حتى مرحلة البلوغ. هذا هو المنطق وفقا لتعريف الذكر، ولكنه يجعل النساء عادة يعتقدن أن تربية الأطفال

هى وظيفتهن الوحيدة ويمنعهن من القيام بأى عمل آخر أو يثبطهن عن أن يكن أمهات بالمرة. ألا يكون عدلا ومنطقيا أن يقال إن الطفل له والدان وبالتالى فكلاهما مسئول عن تربية الطفل، وأن الأب يجب أن يعوض الأم عن هذه السنة بأن ينفق أكثر من نصف الوقت فى رعاية الطفل؟ المنطق هو فى أعين المنطقيين.

(٣)

أحيانا، تنجح هذه الجهود فى الشرح، ولكن عادة ما ينتابنى الإحساس بأن معظم النساء يتحدثن بلغة "الأردو" والرجال بلغة "بالى" وسواء أكانت تجلب الفرح أم التعاسة، فإن كلا الشعورين من الانفعال باكتشافنا، كانت لهما مكافأة عظيمة. لقد أديا إلى ولادة ما يعرف بـ "التضامن".

فى البداية تقاسمنا فرصة النمو واكتشاف الذات والإحساس بأن أعيننا قد تفتحت، وسواء كنا نمنح النساء الأخريات هذه المعرفة الجديدة أو نستقبلها منهن، فإن السرور فى كلا الحالين كان عظيماً وشديد التأثير.

فى المرحلة الثانية، عندما كنا منهكات من إثارة الحقائق والجدل مع الرجال الذين اعتقدنا سابقا أنهم أذكياء وتقدميون، اكتشفنا أمرا جديداً، وهو أن النساء يفهمن. قد نشترك فى الخبرات ونقول نكات ونرسم الصور ونصف المهانة التى لا تعنى سوى القليل للرجال ولكن النساء يفهمن.

الشيء الغريب عن هذه العلاقات العميقة الشخصية بين النساء هى أنها عادة تتجاوز حاجز العمر والاقتصاد والخبرة بالعالم والعرف والثقافة، وكل الحواجز التى توجد فى مجتمع الرجال أو المجتمع المختلط وتبدو من المستحيل اختراقها.

أتذكر مقابلتى لمجموعة من النساء فى ميسورى اللاتى لأنهن جئن بأعداد متساوية من المدينة الصغيرة والجوار القريب منها، بدا انقسامهن بين زوجات بقفازات بيضاء تغطى سواعدهن، وطالبات يرتدين أحذية برقبة، ويستخدمن كلمات ذات معان

كبيرة مثل الإمبريالية، والقهر، وغيرهما. كان التخطيط إنشاء مركز لرعاية الطفولة هو ما جمعهن معا، ولكن اللقاء بدا ميئوسا منه إلى أن بدأت ثلاث نساء صغيرات ممن يرتدين الأحذية ذات الرقبة فى الجدال فيما بينهن عن أستاذ صغير السن. ولأنه كان قائدا للأصوليين بالجامعة، اتهم كل النساء، أبدين تحفظًا نحو الانضمام لحركة تحرير المرأة، بأنهن غير مكرسات للهدف بدرجــة كافيــة. وبالنسبة لمركز رعــاية الطفولة، شــعر بأن أثر السمــاح للنســاء بالتنافس مع الرجال على الوظائف جزء من الحركة المخيفة لتأنيث الرجل الأمريكى والثقافة الأمريكية.

(٤)

"إنه يشبه زوجى فيما يقول"، قالت إحدى مرتديات القفاز الأبيض، "يريدنى أن أقوم ببيع الكعك والبسكويت وجمع المال من بيت لبيت فى سبيل حزبه الجمهورى".

كان لدى النساء الصغيرات إدراك كاف ليلتقطن الخيط. ما الفرق إذن الذى يمكن أن تحدثه القفازات البيضاء أو الأحذية عالية الرقبة إذا كن جميعا يعاملن كخادمات وكأطفال؟ قبل أن ينفرط الجمع، كن يتناقشن فى بعض الموضوعات التى تؤثر فيهن جميعا (مثل الإحساس بالنشوة الجنسية)، ويخططن للقاء كل أسبوع.

"الرجال يعتقدون أننا مجرد أداة للأفعال التى يقوم بها الرجال". وقد شرحت إحدى الزوجات الحاضرات الهدف من اللقاء قائلة : "اجتماعنا معا ومع النساء الأخريات هو الطريق الوحيد لاكتشاف من نكون". حتى الحاجز العرقى أصبح أقل منعة عندما اكتشفنا هذه التبادلية لخبرات حياتنا كنساء.

فى اجتماع عقدته جماعة النساء السود اللاتى شكلن مؤسسة تعاونية للتوظيف فى ألاباما، سألتنى ربة منزل بيضاء عن حلقة إيقاظ الإدراك أو "مجموعات الثرثرة"

والتي عادة ما كانت طريقًا تقليديا لتحرير المرأة. شرحت لها أنه بينما الرجال، حتى الأقلية منهم، لديهم عادة التجمع في مكان ما، مثل حانة أو نادٍ أو ناصية شارع، أو أي مكان آخر يمكنهم التجمع فيه معًا لكي يصبحوا على طبيعتهم، فإن النساء يفضلن المكوث في بيوتهن مع عائلاتهن، ومنعزلات عن غيرهن من النساء. ليس بإمكاننا التجمع في ركن في الشارع، ولا في بار ولا في المكاتب، وليس لدينا أمكنة خاصة بنا. ومجموعات الثرثرة هي محاولة لخلق شيء ما ينتمي لنا، مكانًا حرًا وفرصة نادرة للصراحة المطلقة والتأييد من أخواتنا.

وما إن تحدثت عن العزلة وعن الإحساس بأن شيئا ما لابد أنه خطأ فينا إذا كنا لا نقنع بأن نكون ربات منزل وأمهات فقط، حتى بدأت الدموع تنهمر على خدي هذه المرأة الوقور، فقد تجاوزن مسافة ما كانت تفصلهن عن النساء البيض برؤية هذه المرأة البيضاء تبكي.

(٥)

"إن الرجل يفعل ذلك لكل منا يا حبيبتي"، قالت المرأة السوداء التي تجلس بجوارها، واضعة ذراعا حول كتف المرأة البيضاء، "لو كنت في مطبخك الخاص أو في مطبخ امرأة أخرى، فأنت لا تعاملين كإنسانة. عمل النساء لا قيمة له".

وقد انتهى الاجتماع بأن تقوم ربات البيوت بتنظيم مجموعة دعم للنساء البيض اللاتي يمكنهن الحصول من أزواجهن على أجر للشغالات لكي يساعدنهن على محاربة السلطات المحلية التي تعارض أي زيادة في الأجور، وبدون مجموعات الدعم هذه كانت الشغالات تشعر بأن تعاونيتهن الصغيرة والشجاعة لا يمكنها البقاء.

بالنسبة إلى الجدل الخاص "بالأم المتسلطة" الذي تغاضيت عنه في الأيام السابقة لحركة تحرير المرأة، أعرف الآن لماذا رفضته الكثيرات من النساء السود وشعرن بأنه أسلوب الرجال البيض في تشجيع مجتمع السود على تقليد طريقة حياة البيض المتحضرة.

"إذا انتهى بى الأمر إلى الطهو للثوريين"، قالت إحدى النسوة السود من شيكاغو، واستطردت قائلة "إنها لن تكون ثورتى، النساء والرجال السود يحتاجون للعمل معًا، حيث لا يمكن تحرير نصف الأمة فقط". فى الحقيقة تتعجب بعض النسوة السود من النقد الذى يوجه لأسلوب القوة التى يمارسنها وبأنها ليست الأسلوب الأمثل للإبقاء على نصف العشيرة السوداء تعمل فى وظائف متدنية وبأجور رخيصة، وأيضا لإرجاع معاناة بعض الرجال السود إلى تسلط النساء السود، بدلا من توجيه النقد إلى المصدر الحقيقى لذلك وهو عنصرية البيض. وأنا أتعجب معهم، فعندما أنظر إلى الوراء وللأشياء التى اعتدت أن أقولها ويؤيدها الذكور، تبدو لى البقايا الرئيسية التى لاتزال قائمة مثل الحاجة إلى تقدير جنس النساء مهما كان عرقهن، وإلى تقدير نفسى أيضا، فالتعامل معنا على أننا "درجة ثانية" هى أقسى عقوبة يوقعها المجتمع على أية مجموعة من البشر أيا كان جنسها أو لونها وعلى المدى البعيد.

إن غسيل المخ يقوم بإنجاز المهمة، ونرى أنفسنا نقترب من تصديق أن مجموعتنا "منحطة"، حتى ولو حققنا نجاحات صغيرة فى العالم واعتقدنا أننا "مختلفات"، فنحن لا نريد أن نكون على علاقة قوية بمجموعتنا أو ببعضنا. نريد أن تتميز كل منا وتصعد لأعلى ولا تهبط لأسفل. نريد أن تكون كل منا المرأة الوحيدة التى ينظر إليها بإعجاب بالمكتب، ونكون الأسرة الوحيدة المتميزة بالمربع السكنى أو الفتاة المثيرة الوحيدة بالنادى.

(٦)

الألم الذى يسببه النظر إلى السنوات التى ضاعت فى التقليد، يعد هائلا. فمحاولة الكتابة كالرجال وتقييم نفسى والأخريات من النساء بدرجة قبول الرجال لنا فى المجتمع وفى السياسة وفى مهنتنا كل هذه الأعمال كانت سببًا للشقاء. إنه من المؤلم وهو الحادث الآن أن أسمع اثنتين من النساء الناضجات يتنافسن فيما بينهن وفقا لوضع

أزواجهن الوظيفي، مثل الخادمات اللاتي يتباهين بمستوى ثراء مخدومهن. هذا الافتقار إلى الاحترام والتقدير الذي يجعلنا نحقر بعضنا البعض لايزال العدو الرئيسي "للتضامن". فالنساء اللاتي يمتثلن لتوقعات المجتمع ينظرن إلى من لا ينصعن بحذر وباستخفاف. "إهانة النسوة الثرثارات غير الأنثويات" هذا ما يقلنه لأنفسهن، سوف يخلق المشاكل لنا جميعا. أما النسوة اللاتي لا يمتثلن في السر، على الأقل ألا يلاحظهن أحد، لكن هذا الحرص الزائد لا يفعل لهن شيئًا لأنهن سيخسرن الكثير، وهذا أيضا أمر منطقي.

الوضع القائم يحمي نفسه بمعاقبة من يتحداه، خاصة النسوة اللاتي يضرب تمردهن في التنظيم الاجتماعي الأساسي، والدور الجنسي الذي يقنع نصف المجتمع بأن هويته تتحدد بأن يكون النصف الأول في العمل وفي الحرب، والنصف الثاني يجب أن يكون سهل الانقياد، وأن يعمل بنصف أجر أو بأجر أقل مما يستحق، هو وضع غير مقبول وغير عادل.

في الحقيقة يبدو أنه لا يوجد عقاب داخل فئة الرجال البيض يساوي السخرية والشر الشخصي الذي يضمر للنسوة اللاتي يتمردن. النسوة الجذابات أو الصغيرات في السن، واللاتي يؤدين أداء قويا ينظر إليهن عادة على أنهن إما غير طبيعيات أو محكومات ذكوريا، وإذا نجحن، فقد يكون ذلك جنسيا فقط، وعبر الرجال. أما النسوة المتقدمات في السن أو غير الجذابات بمقاييس الذكور، يتهمن بالفشل ويشعرن بالمرارة، لعدم استطاعتهن الحصول على رجل. إن أي امرأة تختار أن تسلك مسلك الإنسان الكامل يجب تحذيرها بأن حماة الوضع القائم سوف يعاملونها بقسوة شديدة، فهذا هو سلاحهم الطبيعي والأول، لأنها حتما ستلجأ إلى "التضامن" مع الأخريات. كل ذلك كان يقصد به التحذير وليس التثبيط. فهناك مكاسب أكثر من العقوبات.

بالنسبة إليّ ، باستطاعتي الإقرار بالغضب واستخدامه بطريقة بناءة لأنني إذا كتمته وتركته يستحوذ على سيتحول إلى انفجار مدمر.

(٧)

لقد قالت نسوة يتميزن بالشجاعة ويستكشفن جوانب مهمة من الإمكانيات الإنسانية، وبلا تاريخ يرشدهن، وبشجاعة جعلتهن عرضة للهجوم بصورة حادة لا يمكن للكلمات أن تعبر عنها.

لم إذن أعتقد أننى غير موجودة، فذلك كان اعتقادى لأننى كنت أفتقد التقدير الذاتى الذى يصيب الكثيرات من النساء. فإذا كنت لا أعترف بمعايير الذكور بالنسبة لطبيعة المرأة، وبالأحرى بالنسبة لى، وكانت هى المعايير الوحيدة، فكيف أكون موجودة إذن؟ هذا يعنى أننى من غير المرجح أن أحتاج إلى قيم الذكور وتأييدهم، وأننى أقل عرضة للهجوم بالجدل التقليدى. "إذا لم أعجبك، فأنت لست امرأة طبيعية" قالها لى رجل متعجرف، واستطرد قائلا "إذا لم أعجبك، فأنت لست على دراية بالناس الآخرين، وأنت لست شخصاً حقيقيا". وهذه الكلمات عادة ما يقولها أى فرد يفهم فن الابتزاز.

أنا أحيانًا أتعامل مع الرجال على قدر المساواة، وبالتالى لدى القدرة على حبهم من الوهلة الأولى.

لقد اكتشفت سياسة عضوية وليست فكرية ولا قهرية، فأخيراً فهمت لماذا اعتبرت لسنوات طويلة مع المجموعات "المتمردة" فأنا أنتمى لواحدة منها أيضا. وأعرف أن الأمر يحتاج إلى تحالف تلك المجموعات للوصول إلى مجتمع لا يولد فيه فرد ليكون من الدرجة الثانية نتيجة فروق واضحة فى العرق أو الجنس.

أنا لم أعد أشعر بأننى غريبة فى ذاتى أو بين مجموعة من النسوة فى الحياة العامة، وأحس بأننى سعيدة. ومشاعرى طيبة باستمرار، لأننى اكتشفت أن لى أخوات. لقد بدأت أعرف من أنا.

الفصل الرابع

أصوات من الماضي

دور النساء فى المجتمع المثالى

أفلاطون

(١)

قال أفلاطون لجلوكون :

– قد يكون من الصواب بعد أن قام الرجال بأداء دورهم أن يأتى دور النساء خاصة أنك طلبت أن يكون الأمر على هذا النحو. فبالنسبة إلى الرجال، هم وفقا لطبيعتهم وتعليمهم الذى قمنا بوصفه، ليس لهم فى رأيى، حق الاستحواذ على الأطفال والنساء أو استعمالهم إلا فى الإطار الذى وضعناه لهم. لقد حاولنا فى محاورتنا، لو تتذكر، أن نجعل رجالنا الأوصياء على الرعية.

رد جلوكون :

– نعم.

– إذن فلنتابع ذلك، ونضع قواعد مناظرة للولادة والرعاية، ونرى ما إذا كنا سنؤيد النتيجة أم لا.

– كيف؟

– بهذه الطريقة. هل تعتقد أن إناث كلاب الحراسة يجب أن تحرس مثل الذكور، وأن تصيد معهم وتشارك بصفة عامة فى وظائفهم، أم أنها يجب أن تظل بالداخل فى بيت الكلاب على أساس أن إنجاب الجراء وتربيتها تعوقها عن أى شىء آخر، ويكون العمل الشاق ورعاية القطيع مقصور على الذكور.

قال جلوكون :

– يجب أن يتشاركوا في كل شيء، فقط نعامل الإناث بوصفهن الأضعف، والذكور بوصفهم الأقوى.

– هل تستطيع أن تستخدم أى كائن حى لأداء العمل نفسه الذى يؤديه آخر إلا إذا أنشأته ودربته بالطريقة نفسها.

– لا.

إذن إذا وظفنا النساء فى الوظائف نفسها كالرجال، يجب أن نعطيهم التعليمات نفسها؟

– نعم.

– لقد أعطينا الرجال الموسيقى والألعاب الرياضية.

– نعم.

– إذن يجب أن نوكل للنساء أيضا هذين الفنين وفن الحرب بالإضافة إليهما، ونعاملهن بالطريقة نفسها.

– هذا يستتبع ما قلته.

– ولكن ألا يجب أولا أن نصل إلى اتفاق حول ما إذا كانت هذه الاقتراحات عملية أم لا، ونسمح لأى فرد سواء أكان ساخراً أم جادا أن يطرح السؤال عما إذا كانت الطبيعة الإنسانية للأنثى بمقدورها الاشتراك مع الذكر فى كل هذه الوظائف أم لا تسمح بأى منها، وما إذا كانت تقدر على بعضها ولا تقدر على بعضها الآخر، وأن يسأل فى الحالة الأخيرة إلى أى هذه الوظائف تنتمى الحرب؟ ألن يكون ذلك بالطبع أفضل استهلال ويقود إلى أفضل نتيجة؟

– أفضل كثيراً.

– إذن، هل نقوم نيابة عن هؤلاء الآخرين بطرح السؤال على أنفسنا، حتى لا يحاصر الطرف الآخر دون أن يتوافر له من يدافع عنه؟

- لا يوجد شيء يمنعنا من ذلك.

- فهل نقول نيابة عن سقراط وجلوكون، لا حاجة للآخرين أن يرفعوا اعتراضا ضدكما، لأنكما منذ البدء فى إنشاء مدينتكما، أقررتما أن كل فرد كما تسمح طبيعته يعمل عمله الخاص، وأن كل فرد وله عمل.

- أعتقد أننا فعلنا ذلك، كيف كان يمكننا أن نفعل شيئا آخر؟

- ولكن ألا تختلف المرأة بطبيعتها عن الرجل؟

- بالتأكيد هى تختلف.

- وأنه يجب أن توكل مهام مختلفة لأفراد مختلفة، وأن توكل المهام وفقا لطبيعة كل فرد؟

- نعم.

- إذن، ألست مخطئًا وغير منطقى فى إصرارك، كما تفعل، على أن الرجل والمرأة يجب أن يقوما بالأعمال نفسها، على الرغم من أن طبيعتهما شديدة الاختلاف؟ هل بمقدورك الدفاع عن ذلك يا صديقى؟

- بالتأكيد، ليس ذلك سهلاً فى هذه اللحظة، ولكننى لابد من أن أسألك كما أفعل الآن لتفسير مجادلتنا أيضا مهما تكن..

قال أفلاطون :

- هذه يا جلوكون وغيرها من الصعوبات المماثلة، هى ما توقعته طوال الوقت. لهذا كنت خائفًا ومترددا من الاقتراب من القانون الخاص بتملك ورعاية الأطفال والنساء.

- أنا لا أستغرب ذلك، بحق زيوس، لا، إنها مهمة ليست سهلة.

- إنها ليست سهلة، ولكن الحقيقة أن الرجل سواء سقط فى بحيرة أو فى وسط المحيط الجبار فعليه أن يسبح فى كلتا الحالتين.

- بالتأكيد.

- حسن إذن، يجب أن نخرج سـالمين من هذه المجادلة، آملين أن يبتلعنا حوت، أو نفكر فى أى وسيلة أخرى للخلاص.

- يبدو أنه كذلك.

- تعال الآن، ولنر هل بمقدورنا إيجاد مخرج. لقد أقررنا أن الطبائع المختلفة يجب أن تؤدى مهاما مختلفة، وأن طبائع الرجال والنساء مختلفة، ولكننا الآن نقول إن هذه الطبائع المختلفة يجب أن تؤدى الأعمال نفسها. هل هذا هو الاتهام الموجه ضدنا؟

- نعم.

- شئ نبيل يا جلوكون، قوة من التناقض.

رد جلوكون متعجبًا :

- لماذا تقول ذلك؟

استطرد أفلاطون :

- لأن الكثيرين من الناس يبدو أنهم يقعون فيه ضد إرادتهم، ويعتقدون أن المناقشات والجدال تقود إلى قناعات فى الواقع، لأنهم لا يستطيعون اختيار موضوع الجدال بتحليل صوره المختلفة، بل يبدون معارضتهم لما يقال معتمدين على مجرد صوت الكلمة، ويتعاملون مع بعضهم على أساس من الاستنتاجات وليس بالحوار العلمى.

- نعم، يحدث ذلك مع الكثيرين من الناس، ولكن هل يؤثر ذلك فينا هذه اللحظة؟

- بالتأكيد، حيث يبدو أننا، ضد إرادتنا أصبحنا نتعامل مع حوارات متناقضة.

- بأية طريقة؟

– عندما نصر على أن ما ليس لهما الطبيعة نفسها لا يجب أن يكون لهما المسعى نفسه، فنحن نتعلق بالمعنى اللفظى بشجاعة فائقة ورضا تام، ولكننا لم نختبر على الإطلاق نماذج التماثل والاختلاف وبأية مرجعية نفرق بينهما، عندما نقترح بعض المساعى المختلفة لطبائع مختلفة وأن نعطى نفس المساعى لنفس الطبائع.

– لا، لم نختبر ذلك.

– بالطريقة نفسها، يمكن أن نسأل أنفسنا ما إذا كان الرجال الصلع وذوو الشعر لهم طبائع متناقضة، وإذا وافقنا على أن لهم طبائع متناقضة فهل نحرم على الرجال ذوى الشعر أن يصبحوا صانعي أحذية، إذا كان الرجال الصلع يمتهنونها أو نمنع الرجال الصلع إذا كان الرجال ذوى الشعر يمتهنونها؟

ابتسم جلوكون وأبدى دهشته وقال :

– ذلك سوف يكون أمرًا غير معقول.

قال أفلاطون مستطردًا :

– ولكن ألا يكون معقولاً لأننا فى هذا الافتراض ببساطة لم نعنِ التماثل أو الاختلاف على وجه العموم؟ كان الحكم منصبا فقط على هذا الشكل الخاص من التماثل والاختلاف اللذين يخصان تلك المساعى الخاصة. لقد قصدنا مثلاً، أن الروح تخصها القدرة العلاجية وللأطباء نفس الطبيعة. فهل توافقنى على ذلك؛

هز رأسه موافقًا وقال :

– نعم.

– ولكن الطبيب والنجار لهما طبيعة مختلفة.

– بالطبع.

– على ذلك، إذا وجدنا أن جنس الذكر أو جنس الأنثى يبز أحدهما الآخر فى أى فن أو مسعى، فيجب القول إن هذا المسعى المعين لا بد من أن يوكل إلى أحدهما وليس للآخر، ولكن إذا وجدنا أن الفرق ببساطة هو أن الأنثى تحمل والذكر يقوم بالتلقيح، فلا يجب أن نسمح بأن يؤدى ذلك إلى إثبات أن المرأة تختلف عن الرجل بالنسبة إلى الموضوع الذى نتكلم عنه، وأن نظل نعتبر أن أوصياءنا وزوجاتهم يجب أن يتبعوا المساعى نفسها.

– بكل الحق.

– أليست الخطوة التالية هى أن ندعو مؤيدى الرأى المعاكس لأن يوضحوا لنا بمرجعية، فى أى فن أو مسعى بين كل ما هو مطلوب لخدمة المدينة، لا تتماثل فيه طبيعة الرجال والنساء وإنما تختلف؟

– هذا بالتأكيد أمر عادل.

– ربما أجاب آخرون بالإجابة نفسها التى قررتها أنت منذ هنيهة، إنه ليس سهلاً إعطاء إجابة مقنعة فى هذه اللحظة، ولكن ذلك لن يكون صعباً بعد تمحيصه.

– قد يقولون ذلك.

– فهل لنا أن نطلب من الذى يعارضنا أن يتتبعنا على أمل أن نثبت له أنه لا توجد وظيفة فى تنظيم المدينة تخص النساء فقط؟

– بالتأكيد.

– سنقول له تعال إذن وأجب عن هذا. عندما نقول أن رجلاً ما لديه موهبة طبيعية لأداء شىء ما وآخر ليس بطبيعته صالحا له، هل تعنى أن الأول يتعلمه بسهولة بينما الثانى يتعلمه بصعوبة؟ إن الأول بعد دراسة بسيطة سوف يكتشف الكثير لنفسه فى الموضوع الذى يدرسه بينما الثانى مهما درس كثيراً وصبر كثيراً لن يحتفظ حتى بما تعلمه؟ وبالنسبة إلى الفرد الأول فإن قوى الجسم تخدم العقل جيدا بينما للآخر سوف تكون معطلة؟ أليست هذه هى العلامات الوحيدة التى بها تريد أن تحدد فى أى حالة تكون الموهبة الطبيعية أو تنعدم؟

– لا يستطيع أحد أن يحدد غير ذلك.

– إذن، هل تعرف أي وظيفة إنسانية لا يتفوق فيها الجنس الذكرى على الأنثوى؟ هل أحتاج إلى أن أضجرك بالإشارة إلى أن صناعة النسيج وصناعة الحلوى وحفظ الأطعمة هى التى يتفوق فيها الجنس الأنثوى بالتأكيد، وإن فشلهن فى ذلك يعد مدعاة للسخرية.

– ما تقوله صحيحاً، وبصفة عامة، يتفوق أحد الجنسين على الآخر بسهولة فى العديد من الأمور، فهناك بالتأكيد الكثير من الحالات التى تكون النساء فيها أفضل من الرجال فى العديد من الوظائف، ولكن كقاعدة عامة، الأمر هو كما تقول.

– إذن يا صديقى، لا يوجد مسعى واحد من المساعى التى تنتظم بها المدينة ينتمى إلى النساء كنساء أو للرجال كرجال، ولكن القابلية الطبيعية موزعة بالتساوى على كلا النوعين من المخلوقات، النساء يشاركن طبيعيا فى كل الوظائف، وكذلك يفعل الرجال ولكن فى كل هذه الوظائف تكون النساء أضعف من الرجال.

– بالتأكيد.

– هل إذن توكل كل الوظائف إلى الرجال ولا توكل أى وظيفة إلى النساء؟

– بالطبع لا.

– ولكننا سنقول، كما أتوقع، أن امرأة هى بطبيعتها صالحة للطب وأخرى ليست كذلك، وواحدة تصلح للموسيقى وأخرى لا تصلح.

– بالتأكيد.

– أليست إحدى النساء تحب الألعاب الرياضية والحرب وأخرى لا تحب ذلك؟

– أعتقد ذلك.

– وأن واحدة تحب الحكمة وأخرى تكرهها، وأن واحدة لديها العزيمة والأخرى تنقصها؟

– نعم.

– إذن، فقد يكون بمقدور امرأة أن تصبح من الحراس وأخرى لا تستطيع ذلك. ألم نختبر هذا الاستعداد لانتخاب حراسنا من الرجال؟

– نعم، فعلنا ذلك.

– إذن فلغرض حراسة المدينة، طبيعة الرجال والنساء متماثلة فيما عدا أن النساء من أضعف طبيعيا والرجال أقوى طبيعيا.

– كما يبدو ذلك.

– إذن يجب اختيار النساء وفقا للخاصية الضرورية للمشاركة فى حياة الرجال ذوى الخاصية المماثلة ويحرسن المدينة إلى جانبهم، طالما كان بمقدورهن ذلك وطبيعتهن مماثلة؟

أومأ جلوكون برأسه قائلاً :

– بالتأكيد.

رد أفلاطون متعجبًا:

– ألا يجب علينا إذن أن نوكل نفس الوظائف لنفس الطبائع؟

– نعم.

– إذن لقد رجعنا إلى ما سبق أن قلناه من قبل وقررنا أنه ليس من غير الطبيعى أن نوكل الموسيقى والألعاب الرياضية إلى زوجات الحراس.

– بالتأكيد.

– إذن فمشرعونا لم يحلموا حلما غير واقعى لانهم وضعوا قانون مدينتنا متوافقًا مع الطبيعة؟ فتقييد شروط تبتعد عن ذلك، هو فى الواقع يعد اختلافا أكبر عن الطبيعة.

– ذلك واضح.

– ألم نكن الآن نبحث فيما إذا كانت مقترحاتنا عملية ومرغوبة؟

– نعم، لقد فعلنا.

– ووافقنا على أنها عملية.

– نعم.

– إذن علينا بالتالى أن نوافق على أنها مرغوبة؟

– هذا واضح.

– إذن من المؤكد إذا كانت النساء سوف يصلحن لأن يكن حراسًا، فلا يجب أن نسمح لنظام التعليم أن يصنع حراسًا من الرجال، ونجعل نظامًا آخر يصنع حراسًا من النساء، خاصة أن التعليم سيكون على الطبيعة نفسها.

– لا.

– ما رأيك فى سؤال كهذا؟

– مثل ماذا؟

– كيف تتصور أن رجلاً يعد أفضل ورجلاً آخر يعد أسوأ؟ أم أنك تعتقد أن كل الرجال على شاكلة واحدة؟

– لا بالتأكيد.

– إذن فى هذه المدينة التى نؤسسها، هل تعتقد أن حراسنا الذين تلقوا التعليم الذى وضعناه سيكونون أفضل من صانعى الأحذية الذين تدربوا على صنع الأحذية؟

– السؤال غير معقول.

– أفهم ذلك، ولكن أليس هؤلاء هم الأفضل من بين كل النساء؟

– نعم الأفضل كثيرًا.

– إذن هل هناك ما هو أفضل لمدينة من أن تضم أفضل الرجال وأفضل النساء؟

– من المؤكد أنه لا شىء أفضل.

أشـكـرك ربى.. لأنك لم تـخـلـقـنـى امرأة

ماري دالي

(١)

اكتنف الالتباس دائما وضع المرأة فى المجتمع الغربى. العديد من المفكرين فى مجالات مختلفة تشهد كتاباتهم بوجود المشكلة رغم عدم الاتفاق على طبيعتها. المؤيدون لفكرة "الأنثى الخالدة" يتقبلون التصنيف المجتمعى للأنوثة باعتباره طبيعيا، فوفقا لهذا التصور فإن "المرأة الحقيقية" لا تصل إلى إثبات ذاتها عبر الإبداع الفكرى والمشاركة فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمستوى الرجال نفسه، ولكن يكمن مصيرها فى أداء دورها عبر الأمومة الجسدية والروحية، وفى أن تكون عونًا لزوجها. ولهذا الرأى معارضون أقوياء.

الاعتراض على فكرة أن النمط الأنثوى يعد "طبيعيا" تثبته نتائج الدراسات الأنثروبيولوچية" التى تشير إلى أن "العديد إن لم تكن كل الخصائص التى يطلق عليها رجولية أو أنثوية ضعيفة الارتباط بالجنس، كحال الثياب والسلوكيات وشكل غطاء الرأس الذى يلزم المجتمع به جنساً معينا فى فترة معينة".

تميل الدراسات الحديثة فى علم النفس التجريبى إلى نفس فكرة أن تكون مجموعة الخصائص التى يعبر عنها نمط "الأنثى الخالدة" هى خصائص فطرية مقتصرة فقط على النساء. فقد أوضح الباحثون أن خصائص "الأنثى الخالدة" تتناقض مع خصائص الفرد الأصيل، المتطور الذى يجب أن يكون متميزاً وناقداً لذاته، وفعالاً وباحثا.

ناشطات الحركة النسائية يرين أن العبء البيولوچى المرتبط بالأمومة والدور المحدود المفروض عليهن بواسطة عملية التكيف الاجتماعى، قد أعاقا المرأة عن السعى إلى المدى الذى تسمح به إمكانياتها الطبيعية. ويلاحظن بسخرية مريرة أن التعويض الذى يعطيه المجتمع للنساء لقاء قبولهن هذا الدور المحدود الذى يفرض عليهن فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية، هو سجنهن فى قاعدة تمثال.

(٢)

الوضع الاضطهادى للنساء فى الأزمنة القديمة يتضح فى الكتاب المقدس، واضعو كل من العهد القديم والعهد الجديد كانوا رجال زمانهم، ومن السذاجة أن يعتقد أنهم كانوا أحراراً من تعصبات سادت زمنهم. فالكتاب المقدس يحتوى بالتأكيد على ما يهز كيان المرأة الحديثة التى اعتادت أن تفكر فى نفسها إلى حد ما، وعلى أنها إنسان مستقل ذاته.

فى كتابات العهد القديم، تظهر النساء مخلوقات ذليلة ومهملة. فعلى الرغم من أن زوجة الرجل من بنى إسرائيل لم تكن على مستوى الأَمَة، وكان وضعها أفضل من الزوجات فى الأمم الأخرى بالشرق الأدنى، فإن دلائل وضعها المتدنى، أن الزوجة كانت تنادى زوجها كما ينادى العبد سيده أو كما يكلم أحد الرعايا الملك. فى الوصايا العشر، توضع زوجة الرجل ضمن مقتنياته إلى جانب باقى الأشياء الأخرى، مثل الثور والحمار (سفر الخروج ٢٠:١٧). وبينما كان من الممكن للزوج أن يتبرأ منها، كانت الزوجة لا تستطيع طلب الطلاق، وكان سوء السلوك من جانب الزوجة تعاقب عليه بعنف عند العبرانيين القدماء، بينما عدم الإخلاص من جانب الرجل يعاقب عليه فقط إذا تعدى على حقوق رجل آخر، كأن يتخذ من امرأة رجل آخر خليلة له. كان باستطاعة الرجل أن يبيع ابنته كما يبيع عبيده، وإذا لم يرزق زوج بذرية كان يفترض أن ذلك

يرجع إلى عيب بالزوجة. وبإيجاز، فرغم أن النساء العبرانيات كن يتمتعن بالاحترام كوالدات، ويعاملن عادة بعطف، فإن وضعهن الاجتماعي والقانوني كان وضع التابع. لقد كان الرجال العبرانيون يصلون قائلين: "أشكرك يا رب لأنك لم تخلقني امرأة".

(٣)

عبر قرون التاريخ، أضفى الكتاب المسيحيون أهمية كبيرة على واقعة خلق حواء التى جاءت فى الفصل الثانى من سفر التكوين. فبربطها بقصة الخطيئة، كانت هذه الواقعة تمثل دليلاً حاسماً لا يقبل النقض على الطبيعة المتدنية للمرأة فكريا وخلقيا.

إن عصورا من العادات المضادة للأنوثة فى الثقافة المسيحية قد بررت نفسها بدرجة كبيرة على أساس منشأ وسلوك "الأم الأولى"، الأمر الذى لم يكن معروفًا وحتى وقت قريب بأنه أسطورة ذكورية، بل كان يؤخذ على أنه حقيقة تاريخية ثابتة. وقد لخص الموقف برمته محلل نفسي درس أدبيات الكتاب المقدس بأن قال: "إن قصةَ الكتاب المقدس عن مولد حواء خدعةُ القرون".

(٤)

الميول الذكورية فى الثقافة الغربية والتى تضرب بجذورها فى التاريخ أيضًا، وتتمثل فى كراهية الإغريق للنساء، تتبدى كذلك فى العهد القديم مما شكل الأساس لانتقالها عبر أجيال المسيحية. أشد الصفحات الصارخة المضادة للأنوثة هى فى كتابات بولس الرسول. كان بولس مهتما بدرجة كبيرة بالنظام فى المجتمع وفى المجالس المسيحية، على وجه الخصوص. كان يبدو له مهما ألا يكون للنساء دور بارز فى المجالس المسيحية وأنهن لا يجب أن يتكلمن علنًا أو يكشفن الحجاب عن رءوسهن. كان يمكن لذلك أن يؤدى إلى فضائح أو إلى السخرية من الدين الجديد الذى كان يواجه بالفعل اتهامات باللاأخلاقية والتخنث. وعلى ذلك، أصر دائما على السلوك

الجنسي "الصحيح" الذي يشمل خضوع المرأة في الاجتماعات. وقد ذهب بولس إلى أبعد من ذلك باحثا عن تبرير لاهوتي للعادات الشائعة. على سبيل المثال "لا يجب" يغطي الرجل رأسه لأنه صورة لله وعظمته، ولكن المرأة هي "عظمة" من الرجل. لأن الرجل لم يخلق من المرأة ولكن المرأة خلقت من الرجل. كما أن الرجل لم يخلق للمرأة، ولكن المرأة خلقت للرجل" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١١:٧). فبولس يؤسس مبرراته اللاهوتية هنا على التفسير المتفق عليه بوجه عام لسفر التكوين. كان مدى الأثر الذي أحدثه ذلك يفوق القدرة على القياس. فعلى مدى ألفي سنة، كانت المواعظ وأدبيات الصلوات تعتمد على نغمة "عظمة الرجل" الذي هو كلمة الله الملهمة.

من النصوص التي يشار إليها باستمرار والخاصة بالقديس بولس (ربما لم يكتبها بنفسه ولكنها تنسب إليه) تلك المقولة التي تأسست على التفسير الشائع لسفر التكوين في ذلك الوقت ولا تزال تستخدم حتى الآن أداة لإخضاع المرأة، والنص هو: "لتتعلم المرأة في صمت وبكل خضوع، أنا لا أسمح لامرأة أن تعلم أو أن تكون لها سلطة على الرجل؛ إن عليها أن تتحصن بالصمت لأن آدم خلق أولاً، ثم خلقت حواء، وآدم لم ينخدع ولكن حواء انخدعت وأصبحت متعدية. ولكن المرأة ستنجو عبر حمل الأطفال، إذا استمرت على الإيمان والحب والتقديس، مع التواضع (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ٢: ١١- ١٥).

بالنسبة إلى وضع المرأة في المجتمع المدني كانت تعاليم بولس أكثر تحديداً "فلأن الكنيسة تابعة للمسيح، فلتكن الزوجات تابعات في كل شيء لأزواجهن" (رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس٥: ٢٤).

(٥)

مثل هذه النصوص التي فُهِم أنها أوحي بها من السماء ولم يُشَر إلى الإطار الثقافي التي كتبت فيه، استغلت بوصفها أدوات قوية لتعزيز خضوع النساء في المجتمعات الغربية. لقد استغلت بواسطة السلطات الدينية عبر القرون ضماناً للرضا

الإلهي على تحويل تبعية المرأة من وضع طارئ إلى صورة لا تقبل التغيير لوضعية الأنثى. لقد كانت أدوات لرفض حق النساء في التعليم المتكافئ وفي المساواة القانونية والاقتصادية وكذلك حقهن في أن تكون لهن مهنة.

إن الوضع المتدني للنساء في المجتمعات الغربية إبان القرون الأولى للمسيحية ينعكس في كتابات آباء الكنيسة. فالصفات التي يعتبرونها أنثوية خالصة تشمل أنها ضحلة الفكر وسطحية، وأنها ثرثارة، وضعيفة، كما أنها بطيئة الفهم وغير ثابتة العقل. ولقد كانت هناك بعض الحملات العنيفة مثل تلك الخاصة بترتوليان والتي يقول فيها: "ألا تعرفين أنك حواء؟.. إنك بوابة الشيطان.. ما أسهل أن تحطمي الرجل، صورة الله. فلأنك جلبت علينا الموت، فحتى ابن الله كان لابد من أن يموت". فالسلوك بكامله كان محيرا بالنسبة إلى الحقيقة غير المناسبة لوجود المرأة. وقد لخص القديس أوغسطين الفكرة العامة بقوله إنه لا يستطيع إدراك كيف يمكن القول إن المرأة خلقت عونًا للرجل، إذا ما استبعدت عملية حمل الأطفال.

(٦)

لقد وجد آباء الكنيسة في سفر التكوين "تفسيرًا" لانحطاط المرأة والذي استخدم لتأمين الرضا الإلهي على استمرارية تدني وضع المرأة، والذي يجعلها في انحطاط على الدوام. لقد كانت هناك عملية قبول واسعة دون تمحيص للأسطورة الذكورية لخلق حواء، ولرفض أن تكون المرأة هي أيضا صورة لله. وهذا السلوك مستلهم بدرجة كبيرة من كتابات القديس بولس الأولى.لقد كتب القديس أوغسطين يقول: "إن الرجل وحده هو صورة الله وعظمته، ووفقا له، فلأن المرأة المؤمنة لا يمكنها التخلي عن جنسها، فإنها تستعاد إلى صورة الله فقط عندما لا يكون هناك جنس، أي بالروح".

بالإضافة إلى ما يوجد بالكتاب المقدس وتعاليم آباء الكنيسة فإن النساء اللاتي عشن في القرون الأولى للمسيحية واجهن صورة بغيضة للمرأة، ناتجة عن ظروف القهر

التى كانت قائمة على مستوى العالم. ففترة البلوغ للبنات كانت تتميز بالعزل التام لهن وإعطائهن أقل القليل من التعليم، وكانت تهيئهن لحياة خضوع بلا عقل. وكان يتبع ذلك الزواج المبكر الذى يقطعهن تماما عن أى فعل مستقل على مدى العمر الباقى.

كان انحطاطهن حقيقة، ويبدو طبيعيا، ومع ذلك فالخبرة كانت تؤيد قصة خلق حواء من الضلع، إلا أن الأسطورة نفسها ساعدت على شرح حقيقة أن النساء مخلوقات ناقصات وأقل فى الإنسانية، وبذلك اكتملت الدائرة الخبيثة.

عن الزواج المسيحى

البابا بيوس الحادى عشر

(١)

مدى عظمة مقام الرابطة الزوجية العفيفة أيها الإخوان المبجلون يمكن الحكم عليه جيدا من أن المسيح، سيدنا وابن الآب الخالد، لمعرفته بالطبيعة الخاطئة للإنسان ولرغبته المحبة في اقتداء جنسنا، سن الرابطة الزوجية بطريقة خاصة لتكون الأساس والبناء لمجتمع عائلي، وبالتالي لكل العلاقات الإنسانية، ورفعها أيضا إلى مصاف "السر المقدس الأعظم" للعهد الجديد، معيدا إياها إلى النقاء الأصلي لدورها الإلهى، وبالتالى عهد بمواثيقها ورعايتها إلى كنيسته. ولكى يستطيع كل الناس من كل أمة ومن كل عمر، أن يحصلوا على الثمار المرجوة للزوجية فمن الضرورى قبل كل شيء تنوير عقول الناس بالرسالة الحقيقية للمسيح فيما يخص هذه العلاقة، وثانيا، إن التابعين المسيحيين الذين قويت إرادتهم الضعيفة بنعمة الله، يصوغون طرائق تفكيرهم وسلوكهم بالتوافق مع القانون الخالص للمسيح لكى يصلوا إلى السلام الحقيقى والسعادة لأنفسهم وعائلاتهم.

ولكننا لا ننظر فقط بعين الأبوة على العالم الكونى من هذا المنظور الرسولى لو كنا ننظر من برج مراقبة، وإنما أنتم أيضا أيها الإخوة المبجلون ترون، وترون بعمق وتتألمون معنا لأن الكثيرين من الناس قد نسوا الفعل الإلهى للتجدد والتناسل، إما يهملون تماما أو ينكرون بلا حياء القداسة العظمى للرابطة الزوجية المسيحية التى كثيرا ما يدوسونها تحت أقدامهم، ويعتمدون على الأخلاقيات الجديدة الزائفة والمنحلة.

وحيث إن هذه الأخطاء شديدة الخبث، ولأن الأخلاقيات المنحطة قد بدأت فى الانتشار حتى بين المخلصين، وتنتشر تدريجيا بين الناس، فبالنسبة إلينا، كنائب للمسيح فى الأرض والراعى الأعلى والمعلم، نعتقد أنه من واجبنا أن نعلو بصوتنا ليظل القطيع تحت رعايتنا بعيدا عن المراعى السامة وللحفاظ عليه من الأذى ما وسعنا.

(٢)

لقد قررنا بالتالى أن نتحدث إليكم، أيها الإخوة المبجلون، وعن طريقكم، إلى كل كنيسة المسيح، وبالتأكيد لكل السلالة الإنسانية، عن طبيعة وكرامة الزواج المسيحى، عن المزايا والفوائد التى تنجم عنه للعائلة والمجتمع الإنسانى نفسه، وإلى الأخطاء المضادة لتلك النقطة المهمة جدا لتعاليم الإنجيل، وإلى الشرور المضادة للاتحاد الاقترانى، وأخيراً إلى العلاجات الرئيسية التى يمكن إجراؤها، بعمل ذلك نكون قد تبعنا خطوات من سبقنا قداسة البابا "ليو الثالث عشر"، وبذكراه السعيدة، الذى بكتابه "العلاج السرى" المنشور منذ خمسين سنة، نقر هنا ونصنع كتابنا، وبينما نرغب فى الإيضاح الوافى لبعض النقاط التى دعت إليها أوضاع زماننا واحتياجاته، فنحن نعلن أن ذلك الكتاب لم يستنفد قيمته بعد، ولايزال محتفظاً بكل قوته إلى يومنا هذا.

فى البداية، إن ذلك الكتاب كان مهتماً كليا بالدفاع عن المؤسسة الإلهية للزواج، وكرامتها المقدسة وثباتها المستمر. فلنكرر العقيدة الأساسية التى لا تتغير أو تتبدل فى أن الزوجية لم ينشئها أو يقيمها الإنسان، ولكن أنشأها الله، ولم يكن الإنسان هو الذى وضع القوانين لتقويتها وإقرارها والارتقاء بها، بل هو الله، منشئ الكون، وبواسطة المسيح سيدنا، الذى بواسطته استعاد الكون بهاءه، وبالتالى فهذه القوانين لا يمكن أن تكون موضوعاً لأية أحكام إنسانية، أو أى أمور معاكسة حتى من التابعين أنفسهم. تلك هى أحكام الكتاب المقدس والتقاليد الراسخة للكنيسة الكونية، وهذا هو التحديد الصارم لمجلس "ترنت" المقدس الذى أعلن وأقام من كلمات الكتاب المقدس نفسه أن الله هو المنشئ للرابطة الثابتة للزواج وجعلها مباركة للإنسان.

(٣)

إن الرباط الداخلى المتبادل بين الزوج والزوجة، ذلك الرباط المقصود ليكمل كل منهما الآخر، يمكن بكلمات شديدة الواقعية..ووفقا لما تعلمه لنا الأصولية الرومانية أن يقال إنه الهدف الرئيسى للزوجية. علينا أن ننظر إليها ليس بالمفهوم الضيق بأن قيامها كان من أجل حمل الطفل وتعليمه، وإنما بمفهوم أكثر اتساعًا ورحابة وعلى أنها رباط كامل للحياة بكاملها.. وتبادل ومشاركة. وبنفس هذا الحب من الضرورى أن تنظم كل الحقوق الأخرى والواجبات فى الحالة الزوجية كما تقول كلمات الرسول : "فليدفع الزوج الدين للزوجة، والزوجة تفعل مثل ذلك للزوج، ليس فقط كقانون عادل، ولكن كقانون خيرى".

المجتمع المدنى وقد أصبح بالتالى مؤيدًا لرابطة الحب هذه، يجب أن يترعرع فيه هذا "الأمر بالحب" كما سماه القديس أوغسطين. هذا الأمر يشمل أسبقية الزوج بالنسبة للزوجة والأطفال، وتبعية الزوجة وطاعتها والتى أمر بها الرسول بهذه الكلمات "فلتكن النساء تابعات لأزواجهن تبعيتهن لله لأن الزوج هو رئيس الزوجة كما أن المسيح هو رئيس الكنيسة".

هذه التبعية لا تنكر الحرية على المرأة أو تسلبها هذه الحرية، فالمرأة تولد حرة مثلنا جميعًا، وعلينا الاعتراف بحريتها وعزتها كإنسانة، ووضعها شديد النبل كزوجة وأم ورفيقة، أو حين تؤمر بتلبية كل طلبات الزوج، عندما تكون متوافقة مع كل اعتبارات الحق، وعزة الزوجة. فالتبعية لا تعنى أبدًا أن الزوجة يجب أن توضع على نفس مستوى الأشخاص الذين يطلق عليهم بلغة القانون قاصرين، والذين هم غير معتادين على أن يسمح لهم بممارسة الحرية فى استخدام حقوقهم على أساس افتقارهم إلى الحكمة والرؤية الصحيحة، أو لجهلهم بالشئون الإنسانية. ولكنها تحرم من تلك الحرية المبالغ فيها التى تهتم بالشئون الأخرى وبما هو ليس للعائلة، وتحرم من أن ينفصل القلب فى هذا الجسد – الذى هو العائلة أن المسيح هو رئيس الكنيس – عن الرأس لما فى ذلك

من ضرر شديد على الجسد كله ويهدده بمخاطر كبيرة إلى درجة الدمار، فلو كان الرجل هو الرأس، فالمرأة هى القلب وحيث القلب هو المكان الرئيسى للعاطفة، فإنها يجب أن تطلب لنفسها المكان الرئيسى فى الحب.

(٤)

مرة ثانية، هذه التبعية للزوجة لزوجها تختلف فى الدرجة والكيفية وفقا للأوضاع المختلفة للأشخاص والمكان والزمان. فى الحقيقة، إذا أهمل الزوج واجباته، يقع على الزوجة أن تأخذ مكانه فى إدارة شئون الأسرة، ولكن تركيب الأسرة وبناءها وقانونها الأساسى الذى وضعه وأقره الله لابد دائما من المحافظة عليه كاملا فى كل مكان.

بحكمة عظيمة تكلم سلفنا "ليو الثالث عشر" فى كتابه عن الزواج المسيحى الذى ذكرناه سلفا، عن هذا الأمر الذى يجب الحفاظ عليه بين الرجل وزوجته فقال: "الرجل هو حاكم الأسرة ورئيس المرأة، لأنها لحم من لحمه وعظم من عظمه، فلتكن تابعة ومطيعة للرجل، ليس بصفتها خادمة، ولكن بصفتها رفيقة، بحيث لا ينتقص شيئًا من شرفها وعزتها بإطاعتها لزوجها. فلتكن الخيرية الإلهية هى المرشد الدائم لعلاقتها المتبادلة للرجل الذى يحكم، وللمرأة التى تطيع، فكلاهما يحمل فى قلبه صورة للمسيح وصورة للكنيسة".

المعلمون الزائفون أنفسهم الذين حاولوا طمس بهاء الإيمان والطهر فى الاقتران والزواج، حاولوا أيضا التشكيك فى الطاعة الواثقة الشريفة التى تدين بها المرأة للرجل. الكثيرون منهم تمادوا وادعوا أن تبعية طرف لطرف آخر لا يتفق مع الكرامة الإنسانية، وإن حقوق الزوج والزوجة متساوية وبالتالى نادوا بوقاحة بضرورة السماح للمرأة بالتحرر. هذا التحرر فى نظرهم يجب أن يكون ثلاثيا، أولا فى حكم المجتمع المدنى، وثانيا فى إدارة شئون الأسرة، وثالثا فى تربية الأطفال. يجب أيضا أن يكون اجتماعيا، واقتصاديا وفسيولوجيا. والمقصود بـ "فسيولوجيا" هو أن تتحرر المرأة فى سبيل سعادتها ومتعتها، من الواجبات الثقيلة التى تقوم بها الزوجة كرفيقة وأم.

ولقد سبق وقد قلنا إن هذا ليس تحريراً وإنما جريمة. والتحرر الاجتماعى هو أن تتحرر الزوجة من واجباتها فى رعاية الأطفال والأسرة، فعندما تهمل الزوجة هذه المهام فقد يمكنها اتباع طريقها الخاص وتكريس نفسها لأعمال أخرى، وحتى للأمور العامة. وأخيرا يكون التحرر الاقتصادى، حيث المرأة حتى وبلا معرفة مكتسبة أو خبرة عملية، وضد إرادة الزوج، تكون حرة فى إدارة شئونها المالية والإشراف على أعمالها الخاصة معطية اهتمامها أساسا لتلك الأعمال بدلا من الأطفال والزوج والأسرة.

(٥)

ليس هذا هو التحرير الحقيقى للمرأة، ولا هو بالحرية الراشدة التى تخص الكيان النبيل للمرأة المسيحية والزوجة المخلصة، وإنما يعد حطا من قيمة المرأة وكرامة الأمومة والأسرة بكاملها، وتكون نتيجته هو أن يعانى الزوج من فقدان زوجته ويعانى الأطفال من حرمانهم من أمهاتهم، ويحرم البيت والأسرة بكاملها من حارس يقظ . أكثر من ذلك، فإن هذه الحرية الزائفة والمساواة غير الطبيعية بالزوج تكون ضارة بالمرأة نفسها، لأن المرأة إذا تنازلت عن عرشها الحقيقى الذى تم رفعها إليه داخل جدران البيت كما أمرها بذلك الإنجيل فإنها سوف تنحدر إلى الوضع القديم للعبودية (إن لم يكن فى المظهر، فبالتأكيد فى الواقع) وتصبح كما هو حالها بين الوثنيين، مجرد أداة للرجل.

هذه المساواة فى الحقوق، والتى هى مبالغ فيها كثيرا، وحرفت وشوهت كثيرا، لابد من الاعتراف بها فى تلك الحقوق التى تنتمى لكرامة النفس الإنسانية والتى هى أكثر ملاءمة لعقد الزواج، وتتصل اتصالا لا ينفصم برابطة الزواج. وتأسيسا على ذلك يصبح الطرفان يتمتعان بلا شك بالحقوق نفسها ويلتزمان بالواجبات نفسها، مع الاعتراف بحقيقة أنه فى أمور أخرى لابد من وجود قدر من عدم المساواة بدرجة مناسبة يتطلبها خير العائلة ووحدة الحياة الأسرية وثباتها.

وحيث إن الظروف الاجتماعية والاقتصادية للمرأة المتزوجة يجب وبطريقة ما أن تتغير وفقًا لتغير العلاقات الاجتماعية، فإن جزءًا من مسئولية السلطة العامة أن توائم بين الحقوق المدنية للزوجة واحتياجاتها الحديثة التى تتغير باستمرار، واضعة نصب عينيها الاستعداد الطبيعى للأنثى والمزاج الخاص بالجنس الأنثوى ككل، وأن تعمل دائما على أن يظل الترتيب الضرورى للمجتمع المدنى قائمًا بتماسك، ومؤسس على أمور أكبر من السلطة العامة أو الأحكام الإنسانية ألا وهى سلطة الله وحكمته وبالتالى فهى غير قابلة للتغيير بالقوانين العامة.

أن تكونى امرأة

دوروثى ماك كيجان

(١)

فى صبيحة يوم من أيام شهر يونيو منذ ثلاثمائة سنة مضت، اعتلت أول امرأة فى التاريخ تحصل على درجة الدكتوراه، المنصة بكاتدرائية بادوا لكى يتم امتحانها فى التحليل المنطقى لأرسطو.

كان اسمها إلينا لوكريزيا كورونارو بسكوبيا، وكان عمرها حينئذ اثنتين وثلاثين سنة وكانت غير متزوجة وابنة لواحدة من أكثر العائلات ثراءً فى فينيسيا فى ذلك الوقت، ولذكائها المبكر بدأت في دراسة أرسطو عند عمر السابعة. كان والدها يؤيد دراستها ويوفر لها أفضل المدرسين حتى إنها عندما التحقت بجامعة بادوا لم تكن تعرف اللاتينية والإغريقية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية فحسب، بل العبرية والعربية والكلدانية أيضا، كانت موهوبة بحق!

كانت أخبار الظاهرة الفريدة لأول امرأة تحصل على الدكتوراه قد اجتذبت زحاما شديداً لمشاهدة اختبار الدكتوراه، ونظرا لضيق المكان، كان لابد من تغييره من قاعة جامعة بادوا إلى قاعة الكاتدرائية الأكثر اتساعا، كانت "إلينا" قد تقدمت فى البداية بطلب لدراسة الدكتوراه فى اللاهوت، ولكن مدير الكلية اللاهوتية بالجامعة، الكاردينال جريجوريو بارباريجو، أسقف بادوا، رفض بشدة قائلاً: "لا يمكن، لقد خلقت المرأة للأمومة وليس للتعلم". كتب بعد ذلك عن تلك الواقعة، لقد تحدثت مع أحد الكرادلة الفرنسيين عن ذلك فانفجر ضاحكا، وبغير حماس وافق بارباريجو على السماح لها

بأن يكون امتحانها للدكتوراه فى الفلسفة. كانت الفتاة الصغيرة المتواضعة "إلينا كورونارو" عميقة التدين، لكنها كانت خائفة ومتهيبة من واقعة الامتحان العلنى، ولكن أباها الفخور بها هو الذى شجعها.

قبل أن يبدأ البرنامج الصارم بنصف ساعة، عبرت "إلينا" عن ضيقها وإحجامها لدرجة جعلت أباها يتحدث إليها بجفاء شديد لإقناعها بأن تنجز المهمة. كان ممتحنوها غير متساهلين بسبب جنسها، ولأن هيبة الجامعة كانت موضع اختبار، ولكن ردود "إلينا" باللاتينية كانت شديدة التألق لدرجة أن القضاة أعلنوا أن دكتوراه الفلسفة كانت بالكاد شرفًا لعقلية بهذا السمو. خاتم الدكتوراه وضع فى إصبع "إلينا" ووضع روب الفرو الخاص بالمدرسين حول كتفيها، وكذلك تاج اللوريل الخاص بالشعراء على رأسها، ووقف المجتمعون كلهم لتحيتها وهتفوا لها مهنئين.

(٢)

ماذا كان يعنى أن تكون هناك امرأة موهوبة، أى إلينا كورنارو منذ ثلاثمائة عام؟ أو بالأحرى، ماذا حدث لامرأة لامعة فى الماضى أرادت أن تدرس ثقافة أخرى وتتعمق فى جذور الفلسفة وتتفوق فى الرياضيات العليا وتكتب كتابا أو تعالج مرضًا مخيفًا؟

فى البداية، لكى تكتسب أى امرأة أى شىء يعادل التعلم الحقيقى، كانت تحتاج إلى أربعة أمور أساسية. كانت تحتاج إلى أن تعيش طويلاً. ففى القرن السابع عشر كانت توقعات طول الحياة بالنسبة إلى النساء قد ارتفعت إلى الثانية والثلاثين حيث كانت النساء تمتن صغيرات وهن لم يتعدين الثلاثين، ولم تتحسن بصورة ملموسة حتى عام ١٧٥٠، حيث ارتفعت فى منتصف القرن التاسع عشر إلى الثانية والأربعين. كانت المرأة الطموح للتعلم يحسن بها أن تختار حياة العزوبة ليس فقط لتتجنب أخطار الولادة، ولكن لأنه لم تكن هناك فرصة للتعلم والدراسة داخل حدود الزواج والحمل. أخذت "إلينا كورونارو" عهدًا على نفسها بالعزوبة عندما كانت فى الحادية عشرة من عمرها ورفضت عروضا كثيرة للزواج لكى تصبح متطوعة فى نظام الرهبنة.

ثانيا، لكى تطمح إلى العلم تحتاج المرأة إلى محو أميتها، حيث يجب أن تكون واحدة من القلائل المحظوظات اللاتى تعلمن القراءة والكتابة. وعلى الرغم من أن الدراسات عن التعلم فى القرون الغابرة لاتزال غير مكتملة بدرجة كبيرة والبيانات المتاحة عن تعلم الرجال والنساء قليلة، بل نادرة، حيث يبدو أنه قبل عام ١٦٥٠ كان ١٠٪ فقط من النساء بمدينة لندن بمقدورهن التوقيع بأسمائهن. والأكثر غرابة عن هذه الدراسة أن الرجال عند تقسيمهم وفقا للوظيفة - مع وضع رجال الكهنوت وأصحاب المهن فى المقدمة بنسبة تعلم مئة فى المائة، كان العمال الذكور يأتون فى القاع من المقياس بنسبة تعلم ١٠٪، وكانت النساء أقل كفاءة من العمال غير المهرة فى نسبة التعلم. وبحلول عام ١٧٠٠ كان نصف نساء لندن يمكنهن كتابة أسمائهن بينما فى الأقاليم ظلت نسبة التعلم بين النساء أقل كثيراً.

(٣)

الأمر الأساسى الثالث الذى كانت تحتاج إليه المرأة الراغبة فى التعلم كان بالطبع الأساس الاقتصادى، حيث كان من الأفضل أن تولد مثل "إلينا كورنارو"، لأسرة موسرة تملك مكتبة مكتظة ويمكنها توفير مدرسين خصوصيين. بالنسبة إلى فتيات الأسر الفقيرة كانت فرصة تعلم الحد الأدنى للقراءة والكتابة محدودة للغاية، حتى المدارس الخيرية كانت تختصر برامج التعليم لهن لصالح تعلم أصول الدين وأشغال الإبرة وأعمال الدانتيلا لتأهيلهن لحياة الخدمة المنزلية.

الأمر الأساسى الرابع الذى كانت تحتاج إليه المرأة الدارسة هو الجلد والصبر وشدة التحمل؛ لأنها كانت تعد شاذة فى مجتمع كانت فيه المرأة المتعلمة بدلا من تقديرها، تسمع بنفسها العظات المضادة لها من منصات الكنائس، ناهيك عن السخرية والتهكم التى كانت تكال لها فى المسارح العامة.

كانت "إلينا كورنارو" محظوظة لأنها ولدت فى إيطاليا حيث تألقت مجموعة من النساء المتعلمات خلال مرحلة النهضة، وحيث وجدت النساء الدارسات ترحيبا أكثر عما هو موجود فى الدول الشمالية.

فى إنجلترا إبان القرن الثامن عشر وبالتحديد عام ١٧٥٣، كانت الكاتبة الموهوبة ليدى مارى وورتلى مونتاجو تكتب عن الخطط المقترحة لتعليم حفيدتها الصغيرة، ومعاتبة ابنتها بمرارة، لكى تخفى ما تتعلمه الطفلة، وبجزع يعادل إخفاءها لسوء الخلق أو الفعل الشائن!

فى أوروبا فيما بعد عصر النهضة، ساد نوعان من المخاوف، أولهما الخوف من أن التعليم لن يجعل المرأة صالحة للقيام بدورها الاجتماعى الذى تحدد بخدمة الزوج والأطفال وطاعة الكنيسة، وثانيهما يتلازم مع الأول فى أن إتاحة التعلم سوف يهدد نقاء المرأة الجنسى، وبينما الفلسفة الإنسانية تعلمنا أن التعليم يقود إلى الفضيلة، فالذين كانوا يكتبون عن التعليم فى ذلك الوقت كانوا متناقضين عندما يطبقون ذلك على النساء.. فالجميع تقريبًا بدءًا من صاحب النفوذ فى القرن السادس عشر "جوان لويس فيفز"، كانوا يؤيدون الحد من تعليم المرأة. فقط القليل من المفكرين الراديكاليين وبعض الرجال أمثال ريتشارد ملكاستر فى إنجلترا التيودورية، وبولين دى لابار فى القرن السابع عشر بفرنسا، وبعض النساء الأخريات مثل باتسوا ماكين، والثورية مارى ولستون كرافت كلهم تكلموا مؤيدين لتعليم المرأة وللتطوير الكامل لقدراتها الفكرية.

(٤)

وعلى أية حال، فإن مؤسسات التعليم العالى قد أجازت لصغار السن فقط من الرجال أن يمتهنوا المهن المختلفة لخدمة الكنيسة، القانون، الحكومة، واستبعدت منها النساء، فقد استبعدن أيضا من الجامعات التى كانت مخصصة للرجال. وبالكيفية نفسها، استبعدن من مدارس اللغات والمدارس الإعدادية التى كانت مناهجها باللاتينية وهى اللغة التى تخص صفوة المفكرين من الذكور. وحيث إن معظم النصوص المدرسية كانت مكتوبة باللاتينية، فإن الجهل بهذه اللغة منع النساء من القراءة للأدبيات الدراسية فى معظم المجالات، والتى تدريجيا ومؤخرا أصبحت متاحة فى صورة ترجمات.

(٥)

ريتشار هيرد، المدرس الخاص لعائلة السير توماس مور الذى كان مدافعا عن تعليم المرأة، كان رأيه الشائع كما يلى :

".. الطراز الواهن من النساء الأميل بشجاعة إلى الفجور، والمتقلبات عند كل بدعة، إذا ما منحن مهارات كثيرٍ من الأمور التى تكتب باللاتينية واليونانية، فمن الأرجح أن يؤجج ذلك شهيتهن بدرجة أكبر للفجور، لأن الرجال يقولون إن منحهن ذلك يفوق بكثير طبيعتهن ويعلمهن الدهاء للانطلاق وإنجاز أغراضهم وأهدافهم".

ولكن رغم كل تلك الحواجز، تمكنت بعض النسوة اللامعات من ترك علامة كدارسات وكاتبات. أحيانا تستمع الفتيات إلى الدروس التى يتلقاها إخوتهن الذكور من المعلم. المحظوظات القليلات منهن مثل "إلينا كورونارو" كان لديهن والدان يرغبان ويقدران على تعليم بناتهم مثل أبنائهم. بنات السير توماس مور، وبنات الإيرل أورندل، وبنات السير أنتونى كوك فى إنجلترا التيودورية تلقين تعليما ممتازًا. ليدى چوانا لوملى ابنة أورندل أنتجت أول ترجمة إنجليزية للدراما الإغريقية.

ولعل العدد الأكبر من الدارسات النساء فى الماضى كن ذاتيات التعلم بدرجة كبيرة. فعبر الفضول الفكرى والبحث، والتنظيم الذاتى والقيام بالعمل الدءوب علّمن أنفسهن ما يرغبن تعلمه. مثل هذا التعلم الذاتى ربما كان السبيل الممتع الوحيد للتعلم. ورغم ذلك، فله سلبياته، فقد يكون سطحيا واعتباطيا. فبدون توافر المعامل والمراجع وقاعة المحاضرة وفصل المناقشات، كان من المستحيل أن تدرب النساء أنفسهن على الرياضيات العليا مثلا أو العلوم والتشريح.

(٦)

كتبت مارى ولستون كرافت عام ١٧٩٢ : "إن معظم النسوة اللاتى سلكن مسلك المخلوقات الرشيدة أو أظهرن أى قوة فكرية كان قد سمح لهن بالصدفة بأن ينطلقن بلا قيود، والانطلاق بلا قيود فى مكتبة الأسرة كان هو الطريق المعتاد للنسوة الطامحات

فكريا لتعليم أنفسهن. من بين هاته الدارسات ذاتيات التعلم كانت إليزابيث تانفيد التى كانت كفتاة فى إنجلترا الإليزابيثية قد علمت نفسها الفرنسية والإسبانية والإيطالية واللاتينية، وأضافت العبرية "بقليل جدا من الدرس". وقد رفضت أمها غير المتعاطفة معها أن تسمح لها بالشموع لتقرأ فى الليل، فقامت إليزابيث برشوة الخدم، وفى يوم زواجها - تزوجت فى عمر الخامسة عشرة - كانت ديونها الخاصة بالشموع مائة جنيه. وقد كتبت العديد من الترجمات والشعر - معظمه قامت بتدميره - وأخيراً مسرحية واحدة، هى "مريم، ملكة اليهود الشقراء".

عادة ما تقع المرحلة الحساسة من لتطور المرأة الفكرى عند مراحل من حياتها تختلف عن المراحل الطبيعية لتطور الرجال، والموهوبات من النساء عادة ما يصلن إلى فترة يعانين فيها من الأزمات الفكرية فى أثناء فترة التعلم الذاتى المكثف خلال مرحلة النضج.

عندما وجدت كريستين دى بيزان، ابنة عالم النجوم والطبيب الإيطالى فى بلاط تشارلز الخامس بفرنسا نفسها قد ترملت وهيا فى الخامسة والعشرين من عمرها مع ثلاثة أطفال تعولهم، اتجهت إلى الكتابة كواحدة من أوائل النساء - إن لم تكن الأولى - فى أوروبا اللاتى قمن بإعالة أنفسهن بمهنة أدبية. ولكن كريستين وجدت أن تعليمها كان غير كافٍ بالمرة، وعند عمر الرابعة والثلاثين صممت لنفسها منهجاً دراسيا كاملاً، فعلمت نفسها اللاتينية والتاريخ والفلسفة والأدب، واستخدمت قلمها بعد ذلك للمطالبة بتعليم أفضل للمرأة وللدفاع عن جنسها من اتهامات الكتاب الكارهين للنساء أمثال چان دى ميونج. وفى كتابها "مدينة السيدات" تخيلت كريستين قيام نسوة موهوبات ببناء مدينة لهن يمكنهن فيها العيش بسلام وبأسلوب خلاق - الوجود المستحيل كما رأته فى فرنسا القرن الخامس عشر.

ومثل كريستين دى بيزان، وجدت الدارسة الهولندية آنا ڤان شيرمان من أوتريخت والتى كانت معاصرة لإلينا كورونارو، أن التعليم المبكر كان سطحيا وغير مشبع. وككثيرات من فتيات الطبقة الوسطى والعليا للقرن السابع عشر، كانت آنا قد تعلمت كيف توقع بطريقة لطيفة وأن تعزف على الآلات الموسيقية وأن تصنع الوجوه على خشب الصناديق ومن الشمع وأن تقوم بأشغال الإبرة ولصق الأشرطة وأعمال الورق.

وعند عمر الثامنة والعشرين، وقد أحبطها الافتقار إلى التنبيه الفكرى فى حياتها، وجهت آنا عقلها اللامع للدراسات الجادة وأصبحت واحدة من أفضل نساء عصرها فى اللغة اللاتينية، وتعلمت أيضا العبرية والسريانية والكلدانية وكتبت أجروميات اللغة الأثيوبية والتى كانت محط دراسة الهولنديين وقامت بمراسلات دولية - باللاتينية طبعا - مع كل الدارسين المشهورين فى أوروبا. وعندما كتب أستاذ فى اللاهوت فى ليدن أن النساء محرومات من المساواة بالرجال "بالقوانين المقدسة للطبيعة" كتبت آنا باللاتينية ترد عليه عام ١٦٤١ مدافعة عن القدرات العقلية للنساء ومطالبة كما فعلت كريستين دى بيزان، بتوفير فرص أكبر لتعليم النساء. وقد ترجمت أعمالها إلى لغات كثيرة مما جعل آنا ڤان شيرمان نموذجًا للمرأة الدارسة عبر أوروبا بكاملها.

(٧)

فى فرنسا، وخلال فترة حياة آنا ڤان شيرمان، طورت مجموعة من النساء اللامعات الفقيرات فكريا - ومعظمهن تعلمن بالأديرة - واحداً من التصميمات العبقرية لتعلم المرأة مدى الحياة. فضجراً من القحط فى الحوار الذكى بالبلاط الفرنسى، فتحت المركيزة دى رامبولييه، ومدموازيل دى سكودرى ومدام دى لافاييت ومجموعة من الآخريات بيوتهن فى باريس لدعوة الرجال والنساء ذوات المواهب والذوق الرفيع لإظهار براعتهن، وللتحدث فى العلوم والفلسفة والأدب واللغات والحب والصداقة. وقد وصف الصالون بأنه "جامعة غير رسمية للنساء". ولم يشارك هذا الصالون فى تعليم النساء فحسب، بل شكل المعايير الخاصة بالتحدث والكتابة لأجيال لاحقة فى فرنسا وأثر بدرجة كبيرة فى الثقافة الفرنسية بكاملها.

ونتاجا جانبيا للصالون كانت المحاضرات الخاصة التى قدمها الدارسون البارزون فى الكيمياء وعلم الاشتقاق وغيرها من الموضوعات، وهى المحاضرات التى كانت تؤمها النساء بالدرجة الأولى.

كتب فونتنيللى كتابه الشهير عن علم الفلك "تعددية العوالم"؛ لكى تقرأه النساء أساسا، كما أعلن ديكارت أنه كتب "محاضرة عن الطريقة" بالفرنسية بدلا من اللاتينية كي تتمكن النساء من قراءته.

وقد حدثت الانتكاسة بسرعة. فسخرية موليير من النسوة المتعلمات فعلت الكثير للانتقاص من أهلية مرتادات الصالونات، واللاتى أحيانا ما كن يسرفن فى التحذلق فى الحديث والسلوك.

عندما كتب آبى فنيلون كتابه المؤثر عن "تعليم البنات" عام ١٦٨٦ - أى بعد ست سنوات من فوز إلينا كورونارو بالدكتوراه - لم يذكر اسمها ولا آنا فان شيرمان ولا كريستين دى بيزان، وإنما ندد بالأثر الخبيث للصالونات معلنا أن "عقل المرأة طبيعيا أكثر ضعفا، وفضولها أكبر من الرجل ومن غير المستحب أن توجه إلى دراسات تدير رأسها، فالبنت يجب أن تتعلم الطاعة دون معارضة، وأن تتمسك بالسلام، وتسمح للآخرين بالقيام بالحديث. كل شىء سيضيع إذا أصرت بعناد على أن تكون ذكية وترفض المهام المنزلية الواجبة. المرأة الفاضلة تغزل، وتحبس نفسها فى بيتها وتظل هادئة تؤمن وتطيع". هذا ما حذر منه الكاهن الفرنسى المحترم.

(٨)

الكثير من التشجيع للدارسات من النساء فى أخريات القرن السابع عشر بفرنسا انتقل عبر القنال الإنجليزى إلى إنجلترا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، حيث كانت النساء اللامعات الطموحات يدرسن ليس الكلاسيكيات واللغات فحسب، بل كن يستعملن التلسكوبات الحديثة والميكروسكوبات والكتابة فى الموضوعات العلمية. مارجريت كافندش، دوقة نيوكاسل المرأة العظيمة ذات العقل المتسع والخيال الفسيح، كتبت ليس فقط الملاحم والسير الذاتية والغراميات، ولكن أيضا فى العلوم الشائعة، والتى أطلقت عليها "الفلسفة الطبيعية"، والموجهة بصفة خاصة للنساء. أما الكاتبة

المبدعة والموهوبة آفرا بن – أول امرأة فى إنجلترا تكسب عيشها بقلمها – فقد ترجمت كتاب فونتنيللى "تعددية العوالم" إلى الإنجليزية عام ١٦٨٨ . فى المقدمة أعلنت أنها كانت تفضل أن تكتب عملا أصليا عن علم النجوم ولكن لم يكن لديها لا الصحة ولا الوقت، لمثل هذا المشروع. فقد كانت فى الحقيقة فى السنة السابقة على موتها وكانت منهكة الصحة، ولكنها دافعت عن النظام الكوبرنيكى بضراوة ضد الهجوم الذى شنه القس الجزويتى ولم تتردد فى انتقاد مؤلف فونتنيللى، وأن تصحح خطأ فى النص عن ارتفاع مجال الغلاف الجوى المحيط بالأرض. ولكن السيدة الدارسة فى إنجلترا كما فى فرنسا، وجدت نفسها تتعرض للنقد الشديد من الكنيسة، ومحط سخرية من العوام على خشبات المسارح. أطلق على مارجريت كافندش "المرأة المجنونة فى نيو كاسل"، وسخر جوناثان سويفت من مارى آستيل لاقتراحها إنشاء كلية للنساء، كما قام توماس رايت فى كتابه "فضائل النساء" وكذلك المؤلف المجهول لكتاب "فكاهات أكسفورد ونباهات النساء" وهو "شادويل" وغيرهم، قاموا بهجاء النابهات والداعيات إلى التعلم من بين النساء. أما الشاعرة الخجولة آن، كونتيسة ونشلسى، والتى عرّفت نفسها بأنها مؤلفة لكتاب من النثر، فقد هوجمت بقسوة من بوب وجاى فى مسرحيتهما "ثلاث ساعات بعد الزواج"، وآفرا بن مؤلفة مجموعة المسرحيات العديدة وقصائد الشعر والروايات والترجمات، كان بإمكانها أن تقرأ هذه الكلمات عنها وعن أعمالها فى الوقت الذى كانت تترجم فيه فونتنيللى :

"الكاتبات العاهرات عندما تفشل قصائدهن فى توفير البراندى والخبز والجبن وماء الشعير، يوفرن احتياجاتهن بالدعارة، فالعاهرة والشاعرة شىء واحد، ولا يمكن أن تفرق بين هذه وتلك". لذلك إذا سأل أحد ماذا كان عليه حال المرأة الموهوبة التى ترغب فى التعلم فى زمن "إلينا كورونارو"، فقد تكون الإجابة أنه كان اختيارا صعبا ومكلفًا، لا يتطلب الموهبة الفكرية فحسب، بل القدرة الجسمانية والعقلية غير العادية أيضا. وندرة من قليلات النساء نجحن فى أن يصبحن دارسات وكاتبات.

(٩)

كانت كل المهن الدراسية مغلقة تماما أمام النساء، لدرجة أنه بالنسبة إلى النسوة اللاتى نجحن فى تعليم أنفسهن إلى مستوى زملائهن الذكور، كانت فرصتهن فى إعالة أنفسهن ضئيلة.

فى اليوم الذى لم يكن مسموحا فيه للنساء بالكلام العلنى، كان يعتبر أيضا من غير الملائم وغير الأنثوى لفت الانتباه إليهن بنشر عمل تحت اسمها الخاص.

الكثيرات من النساء الدارسات والكاتبات – وربما معظمهن – بدءًا من آن كونتيسة ونشلسى وليدى مارى وورتلى مونتاجو إلى مانى بيرنى وچين أوستن، نشرت أعمالهن فى البداية إما مجهلة أو تحت أسماء مستعارة. لم تكن إليزابيث تانفيلد المرأة الوحيدة الدارسة التى دمرت كتاباتها قبل أن يتم نشرها.

وماذا عن حياة "إلينا كورونارو" بعد أن فازت بالدكتوراه عام ١٦٧٨ ؟ خلال السنوات الست التى عاشتها بعد ذلك الحدث، قامت بتقسيم وقتها بين المساعى الدراسية وخدمة الفقراء والمرضى والمحتاجين. لقد منحت إيطاليا الشرف لامرأتها الدارسة الفذة.

بالتأكيد لم تثر "إلينا كورونارو" أية مشاكل أو حزازات مع أية فئة، ولكن بدلا من ذلك قامت فى سرية بالدور الذى يشبه دور الراهبة والمخصص للمرأة فى الدور الكاثوليكية التى تختار ألا تتزوج. قام العديد من العلماء ورجال الدولة من دول كثيرة بزيارة "إلينا كورونارو" فى بادوا، كما دعيت إلى الالتحاق مع زملائها من العلماء بأكاديمية ريكوفرانى ببادوا. وعندما ماتت بالسل عام ١٦٨٤ وهى فى عمر الثامنة والثلاثين – بمرض كان مسئولا عن نبوغها لأنها كانت قد أرسلت إلى بادوا جزئيا للهرب من الهواء الرطب بفينيسيا – جذبت جنازتها زحاما أكبر من الزحام الذى شهده امتحانها للدكتوراه. وقد رافق وفد من أساتذة الجامعة جنازتها عبر شوارع بادوا، ووضعت فى كفنها أكوام من الكتب باللغات التى أتقنتها والعلوم التى درستها. وقد دفنت فى كنيسة سان ليوك بين الرهبان العظام، وكانت قد أمرت وصيفتها بأن تحيك رداءها الجامعى من الأطراف وتضعه معها حتى تحتفظ به حتى بعد الموت.

من كتاباتها لم يبق إلا القليل جدا، فقد أوصت بأن يتم تدمير رسائلها والكثير من كتاباتها قبل موتها والباقي من كتبها ورسائلها يوزع تذكارات على أسرتها وأصدقائها.

(١٠)

بعد موت "إلينا كورونارو"، مر نصف قرن قبل أن تمنح امرأة أخرى وهى إيطالية أيضا وتدعى لورا ماريا كاثرينا باسى درجة الدكتوراه من جامعة بولونيا. وحتى مائة وخمسين عاما بعد ذلك، لم تكن الجامعات الأمريكية تقبل النساء للدراسة أو للحصول على الدرجات العلمية. ومر قرنان من الزمان قبل أن تمنح جامعتا أكسفورد وكامبريدج درجات علمية لنساء. فقط فى الستينات من هذا القرن، منحت الكنيسة الكاثوليكية أخيرا درجة الدكتوراه فى اللاهوت التى أنكرتها على "إلينا كورونارو" لاثنتين من النساء، واحدة للقديسة الإسبانية تريزا أفيلا التى عاشت فى القرن السادس عشر والأخرى للقديسة سانت كاترين التى عاشت فى القرن الرابع عشر والتى لم تتعلم القراءة والكتابة قط.

إننى أشك فى أن هاتين القديستين كانتا ستتباهيان بتلك الشهادات الدراسية إذا كانتا على قيد الحياة.

الفصل الخامس

المرأة والمساواة

دفاع عن حقوق المرأة

ماري ولستونكرافت

(١)

لقد قلبت مختلف الكتب التي كتبت في موضوع التعليم، ولاحظت بصبر سلوك الآباء والإدارة بالمدارس وماذا كانت النتيجة؟ اقتناع عميق بأن إهمال تعليم النساء هو المصدر الأعظم للبؤس الذي أرثي له، وأن النساء على وجه الخصوص أصبحن أضعف وأتعس نتيجة أسباب متلازمة تنبع من حقائق ناقصة واستنتاجات متسرعة.

إن سلوك النساء وطباعهن في الحقيقة يبرهنان على أن عقولهن ليست في حالة صحية طيبة، فالزهور المزروعة في تربة شديدة الخصوبة، تضحي بالقوة والفائدة في سبيل الجمال؛ فالأوراق الزاهية بعد أن تسر عين الناظرين، تذبل على عودها قبل أوانها بكثير وقبل أن تصل إلى النضج الكامل.

من أسباب هذا التفتح العقيم ما أرجعه إلى النظام الزائف للتعليم، الذي تم جمعه من الكتب التي كتبت عن هذا الموضوع بواسطة رجال يعتبرون الإناث نساء، لا مخلوقات إنسانية، وكانوا أكثر اهتماما بجعلهن عشيقات مغريات عن زوجات محبات راشدات، وإن أفهام هذا الجنس قد انخدعت بهذا الإكرام المزخرف، حتى إن النساء المتحضرات في قرننا الحالي، مع بعض الاستثناءات القليلة، حريصات على استلهام الحب في الوقت الذي يجب عليهن الاعتزاز بالطموح النبيل وبقدراتهن وفضائلهن ليكتسبن الاحترام.

(٢)

فى أى مقال عن حقوق الإناث وأخلاقهن، فإن الأعمال التى كتبت خصيصًا لتحسين أحوالهن لا يجب إهمالها، خاصة عندما يقال بمدلولات مباشرة إن عقول النساء تضعفها التربية الزائفة، وإن الكتب الخاصة بالتعليمات التى كتبها عباقرة الرجال كان لها الميول المستخفة نفسها، وإنه بالأسلوب الحقيقى للمحمدية تعامل النساء ككائن تابع وليس جزءًا من النوع الإنسانى، حيث يكون السبب الذى لا يمكن إثباته هو التميز الذى يرفع الرجال فوق سائر الخليقة وينزع الصولجان من يد المرأة العاجزة.

ولكن لأننى امرأة، لن أدع القراء يفترضون أننى أقصد إثارة السؤال المطروح الخاص بتفوق الجنس الأنثوى أو انحطاطه، ولكن الموضوع ماثل أمامى ولا أستطيع تجاهله قبل أن أتعرض للأسباب التى أدت إلى الانهيار. سوف أتوقف للحظة لأقول كلمات قليلة ما أراه. فبحكم العالم المادى يلاحظ أن الأنثى بصفة عامة أدنى من الذكر. هو قانون الطبيعة، ولا يبدو أنه توقف تنفيذه أو ألغى لصالح الأنثى.

إن وجود درجة من التفوق البدنى أمر لا يمكن إنكاره، وهو امتياز نبيل! ولكن الرجال لم يقنعوا بهذا التفوق الطبيعى، فحاولوا إغراقنا لأسفل أكثر وأكثر ليجعلوا منا أشياء مغرية. والنساء، وقد تسممن بالحب الذى يمنحه لهن الرجال عبر تأثير حواسهن، ولا يطمحن فى أن يحصلن على اهتمام باق فى قلوبهم أو أن يصبحن صديقات لرفاقهم من المخلوقات الذين يجدون متعة فى صحبتهن.

(٣)

إنى آمل أن يصفح عنى بنات جنسى، إذا كنت سأتعامل معهن على أنهن مخلوقات راشدة بدلا من امتداح رشاقتهن الفاتنة والنظر إليهن كما لو كن فى حالة طفولة مستمرة ولا يستطعن الوقوف بمفردهن. أود بقوة أن أشير إلى مكونات العزة الحقيقية والسعادة الإنسانية، أود أن أقنع النساء بمحاولة اكتساب القوة، فى العقل والجسم،

وإقناعهن بأن الجمل الرقيقة، وحساسية القلب، ورقة المشاعر ورقى المذاق كلها مرتبطة بالضعف، وأن المخلوقات التى تتصف بها هى التى تكون محل شفقة، وهذا الطراز من الحب الذى يوصف بأنه قرينها، سوف يجعلهن محلا للاحتقار.

بالانصراف إذن عن هذه التعبيرات النسائية التى يستخدمها الرجال تلطفا للتخفيف من اعتمادنا الذليل عليهم، وينبذ تلك الأناقة الضعيفة للعقل، والكياسة الشائقة والسلوكيات الحلوة المنقادة، والتى من المفترض أنها الخصائص الجنسية للوعاء الأضعف، أود أن أوضح أن الأناقة أقل قيمة من الفضيلة، وأن الهدف الرئيسى للطموح هو الحصول على شخصية تتصف بالإنسانية، دون اعتبار للتميز بين الجنسين، وأن الآراء الثانوية يجب أن تتجه إلى هذه القبلة.

(٤)

تعليم النساء أصبح مؤخرا يلقى الاهتمام عن ذى قبل رغم النظر إليهن كجنس طائش، ويكنّ مدعاة للسخرية منهن أو للشفقة عليهن من الكتاب الذين يحاولون بالسخرية والنقد اللازع تحسين صورتهن. إذ إنه من المعروف أن النساء ينفقن العديد من السنوات الأولى من أعمارهن فى اكتساب خليط من الخبرات، وفى الوقت نفسه يضحين بقوة العقل والجسد فى مقابل مفهوم الجمال والرغبة فى تحقيق نواتهن، ويعتقدن أن الطريق الوحيد للنساء لكى يرتفعن فى العالم هو الزواج. وهذه الرغبة تجعل منهن مجرد حيوانات، فعندما يتزوجن يسلكن كما هو متوقع من الأطفال أن يسلكوا، فيلبسن ويتجملن ويسمين بمخلوقات الله. بالتأكيد هاته المخلوقات الضعيفة لا تصلح إلا لبيت الحريم، فهل من المتوقع أن يحكمن أسرة أو يرعين أطفالا يأتين بهم إلى العالم؟

النساء فى الواقع تحط من قدرهن الأفكار الخاطئة عن امتياز الأنثى، ولا أريد أن أضيف معضلة عندما أقرر أن هذا الضعف المصطنع يؤدى إلى النزوع إلى الطغيان وينتج الدهاء الذى هو الخصم الطبيعى للقوة، مما يؤدى بهن إلى اصطناع السلوك الطفولى المحتقر الذى يدمر الوقار وإن كان يثير الرغبة.

فليكن الرجال أكثر عفة وتواضعا، فإذا لم تصبح النساء أكثر حكمة بالدرجة نفسها، فسيكون الأمر أنهن أضعف من الفهم. ويبدو من غير الضرورى القول إننى الآن أتحدث عن البشر عامة، إناثًا وذكورًا، فالعديد من النساء لديهن إدراك أكبر من أقاربهن من الرجال، وحيث إنه لا يوجد شيء يرجح كفة جنس على الآخر عندما يكون هناك صراع من أجل تحقيق التوازن فى علاقة الطرفين، والذى بدونه يكون هناك بالطبع رجحان لطرف على الآخر، نجد أن بعض النساء يحكمن أزواجهن دون أن يخل ذلك بالتوازن المفترض، لأن العقل دائما هو الذى يحكم.

(٥)

مناقشة الرأى الشائع عن الشخصية الجنسية

لتحديد مسببات طغيان الرجل والتماس العذر له، وضعت العديد من المجادلات حرية لإثبات أن الجنسين، فى اكتسابهما للفضيلة، يجب أن يهدفا إلى الوصول إلى شخصيتين مختلفتين، أو بالتحديد، أن النساء لا تتاح لهن القوة العقلية الكافية لاكتساب ما يستحق تسميته بالفضيلة. ولكن لا بد وقد ملكن أرواحًا من أن يكون هناك طريق واحد قد حددته العناية الإلهية ليقود النوع الإنسانى للفضيلة أو السعادة.

فإذا لم تكن النساء مجرد سرب من التافهات قصيرات العمر، لماذا يجب الإبقاء عليهن جاهلات باسم البراءة؟ الرجال يشتكون ولهم الحق، من تفاهة ونزوات جنسنا، بينما هم لا يطعنون فى قوة عواطفنا وميلنا الذليل لطلب حمايتهم، الإجابة كما يجب أن أقول هى أن ذلك هو أثر الجهل. فسوف يظل العقل دائما يفتقر إلى الثبات طالما قام على التحيز فقط، وسوف ينهمر التيار بقوة مدمرة عندما لا توجد حواجز تكسر قوته.

فالنساء قيل لهن منذ الطفولة وتعلمن من أمهاتهن، أن معرفة متواضعة عن الضعف الإنسانى، وما يسمى بالدهاء ولين المزاج والطاعة الظاهرية والانتباه الأخلاقى للحشمة التى هى من الطراز الصبيانى - سوف تجلب لهن حماية الرجل، وأنهن إذا أصبحن جميلات، فكل شيء آخر لا يهم لعشرين سنة على الأقل من عمرهن.

ما أقصده بالتعليم الفردى، وفقا لمعنى الكلمة حيث إنها ليست محددة بدقة، هو الاهتمام بالطفل لشحذ حواسه وتشكيل مزاجه وتنظيم عواطفه وميوله عندما تبدأ في التكون، وتحفيز فهمه لكى يعمل قبل الوصول إلى مرحلة النضج، بحيث لا يصبح على المرء ألا يستمر فحسب، بل أن يبدأ المهمة الحساسة للتعلم والفهم بعد فوات الأوان.

ولمنع أى التباس أو فهم خاطئ، لا بد من أن أضيف، إننى أعتقد أن التعليم الخاص يمكن أن يصنع العجائب، وكما يدعى بعض الكتاب أن الرجال والنساء يجب أن يتفهموا بدرجة كبيرة آراء وأخلاق المجتمع الذى يعيشون فيه. ففى كل عصر كان هناك سيل من الأفكار الشائعة الذى اكتسح كل ما قابله، وأعطى أهمية للأسرة كما تكونت واستقرت، وربما كان من العدل استنتاج أنه إلى أن يعاد تشكيل المجتمع بطريقة مختلفة، لا يمكن توقع الكثير من التعليم. ولكن يكفى لغرضى الحالى التأكيد على أنه مهما كان أثر الظروف على القدرات، فكل كائن قد يصبح فاضلا بتوظيف عقله الخاص، فلو أن الإنسان قد خلق بميول شريرة وهذا أمر سيئ، فما الذى ينقذنا من الإلحاد؟ أو إذا كنا نعبد إلها، أفلا يكونِ هذا الإله شيطانًا؟

وبالتبعية، فإن التعليم المتقن، هو تدريب الفهم بأفضل أسلوب يصمم لتقوية الجسم وتشكيل القلب. أو بكلمات أخرى، لتمكين الفرد للوصول إلى خصائص الفضيلة لكى يصبح مستقلا.

(٦)

فى الواقع، إنه لمن الهزل أن يقال عن أى فرد فاضلا إذا لم تنبع فضيلته من تفعيل عقله الخاص. كان هذا هو رأى روسو فيما يختص بالرجال. وأنا أجعله يمتد لكى يشمل النساء أيضا، وأؤكد بثقة أن كلماته أخرجت من سياقها بالتمحيص الزائف، وليس محاولةً لاكتساب خصائص رجولية. فلا يزال الإعزاز الصادق الذى تستقبله النساء يعد ساماً لأنه إلى أن يتغير السلوك ويتشكل على أسس أكثر عقلانية، فقد يكون من المستحيل إقناعهن بأن السلطة غير الشرعية التى يحصلن عليها بالإقلال

من كرامتهن هى لعنة، وإنهن يجب أن يعدن للطبيعة والمساواة إذا أردن تأمين الإشباع الذى تمنحه ألعواطف غير المبالغ فيها.

المسببات عديدة، تلك التى فى الحالة الفاسدة الراهنة للمجتمع حيث تؤدى إلى استبعاد النساء بتقليص فهمهن وشحذ حواسهن. والتى تؤدى بدرجة أكبر وفى سكون إلى شرور أكبر عن كل ما عداه وهو عدم احترام النظام. فعمل كل شىء بنظام مرتب يعد أهم قاعدة ولكنه نادراً ما تعتنى به النساء اللاتى يتلقين تعليما غير مرتب، بنفس الدرجة من الدقة التى يوليها له الرجال الذين من طفولتهم يتفتحون على التجربة والمشاهدة. هذا الأسلوب المهمل من العمل الأنثوى، وبأية كلمات أخرى يمكن استخدامها للإشارة إلى الجهد العشوائى الذى لم يختبر إطلاقا من الناحية العقلية؟ والذى لا يمنع تعميم الأمور الواقعة، فهن يعملن اليوم ما كن يعملنه بالأمس لمجرد أنهن عملنه بالأمس.

(٧)

هذا الاحتقار للفهم فى باكورة الحياة له توابع مؤلمة عما يفترض، لأن المعرفة القليلة التى تصل إليها النساء ذوات العقول القوية، هى نتيجة ظروف مختلفة ذات طبيعة غير مرتبة عن المعرفة الخاصة بالرجال، وهى تكتسب نتيجة مجرد الملاحظة وليس نتيجة الممارسة فى الحياة الفعلية، كما أنها لا تكون نتيجة المقارنة بين ما لوحظ فرديا بنتائج الخبرة العامة التى اكتسبتها النساء، ولأنهن منقادات بوضعهن الاعتمادى ووظائفهن المنزلية فى المجتمع، فما يتعلمنه يكون فتاتًا، ولأن التعلم يعد بالنسبة إليهن أمرًا ثانويا، لا يسعين إلى الاستزادة من أى فرع منه بالحماس اللازم لاكتساب القدرات والقوة وللحكم على الأمور بالوضوح الكافى.

فى الوضع الحالى للمجتمع، فالمطلوب قدر من التعلم لتعضيد شخصية الرجل، ويجبر الصبية على الخضوع لعدة سنوات من التهذيب. ولكن فى تعليم النساء تنمية الفهم دائما ما يكون ثانويا بالنسبة إلى اكتساب بعض المهارات المحدودة، فحتى الجسم، وقد أوهنه الحبس فى محيط الأسرة الضيق، يحرم من الوصول إلى الرشاقة والجمال

المطلوبين والتى لا يمكن للمرأة التى لم يكتمل تشكلها بعد أن تنالهما بسهولة، إلى جانب أنه فى فترة الشباب لا تتقدم قدرات النساء العقلية بالمباهاة، لغياب أى دراسة علمية جادة، فإذا كن يتمتعن بنباهة طبيعية قوية فإنها توظف مبكرا جدا وسطحيا فى الحياة. فقد يثيرهن التمعن فى الآثار والقطع الفنية ذات التحويرات، دون أن يتتبعن أصل هذه الآثار وتاريخها أو الأعمال ومبدعيها.

وللتدليل على أن التعليم يعطى هذا المظهر من الضعف للإناث يمكن استعراض الرجال العسكريين كمثال، فهم يماثلونهن فى أنهم يرسلون إلى العالم قبل أن تكون عقولهم قد اختزنت المعرفة الضرورية أو تسلحت بالمهارات الكافية. والنتائج هى نفسها، فالعساكر يكتسبون القليل من المعرفة السطحية التى يحصلون عليها من الحوار والمناقشة، ونتيجة اختلاطهم المستمر بالمجتمع يحصلون على ما يطلق عليه معرفة بأحوال العالم، وتلك المعرفة بالطباع والعادات عادة ما يتم الخلط بينها وبين معرفة القلب الإنسانى. ولكن هل يمكن للمعرفة البسيطة المكتسبة بالملاحظة العابرة والتى لم تختبر مطلقا، وتشكلت بالمقارنات والخبرة، أن تستحق كل هذا التميز؟ الجنود كالنساء، يتعاملون بأقل الفضائل وبحرص شديد. أين إذن الفرق فى الجنس عندما يكون التعليم هو نفسه للاثنين؟ كل الفروق التى أستطيع ملاحظتها تنبع من الميزة الفائقة للحرية التى تمكن الجنود من رؤية الكثير من جوانب الحياة.

(٨)

الجيوش المستعدة لا يمكن أن تتكون من رجال شديدى العزم وأقوياء فقط، فقد يكونون ماكينات مدربة جيدا، ولكن نادرا ما تضم رجالا ذوى عواطف قوية أو ذوى عقول فائقة. وبالنسبة إلى عمق التفكير، سوف أجازف بتقرير أنه أندر فى الجيش من ندرته فى النساء، والسبب هو نفسه فى الحالتين. قد يلاحظ أن الضباط على وجه الخصوص ينحازون إلى أنفسهم، فهم مغرمون بالرقص والغرف المزدحمة والمغامرات والسخرية، مثلهم مثل الجنس اللطيف، شغلهم الشاغل فى الحياة هو الشهامة. لقد اعتادوا المتعة،

وهم يعيشون فقط لإمتاع أنفسهم، ولكنهم لا يخسرون رتبهم فى التمييز بين الجنسين لأنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم متفوقون على النساء، وأما الذى يتشكل منه هذا التفوق ممن الصعب اكتشاف ذلك.

المصيبة العظمى هى أن كلا من الجنود والنساء يكتسبون الطباع قبل الأخلاق، والخبرة بالحياة قبل أية معرفة بالمثل العليا للطبيعة الإنسانية. والنتيجة طبيعية، فالقناعة بالطبيعة العامة تجعلهم عرضة للتحيزات والاقتناع بسداد أرائهم والتسليم الأعمى للسلطة. وبالتالى فإذا كان لديهم أى إدراك فهو مجرد لمحة غريزية تنصب على التناسب وتتقرر وفقا للطباع، ولكنها تفشل فى الجدل وفى تحليل الآراء.

ألا تنطبق الملحوظة نفسها على النساء؟ لا، فالجدل يمكن أن يستمر لأكثر من ذلك، لأن الجنود والنساء تم القذف بهم بعيداً عن وضعهم المقيد بالتمييزات غير الطبيعية التى تقررت فى الحياة المدنية.

الثروات والوجاهات الموروثة جعلت النساء أرقاما عددية، والبطالة خلقت خليطا من الشهامة والاستبداد فى المجتمع بما أدى بالرجال الذين هم عبيد لعشيقاتهم إلى أن يصبحوا مستبدين بالنسبة إلى أخواتهم وزوجاتهم وبناتهم. هذا فقط للحفاظ عليهن فى المقام والدرجة.

فلو تمت تقوية عقل الأنثى بتوسيع مداركها فسوف تكون هناك نهاية للطاعة العمياء، ولكن لأن الطاعة العمياء دائما ما تكون هدفا للسلطة، فالمستبدون والشهوانيون على حق فى محاولتهم الإبقاء على النساء فى الظلام؛ لأن المستبدين يريدون عبيدا والشهوانيين يريدون امرأة لعوبا.

الشهوانى هو الأشد خطرا من المستبد، فالنساء يسمين بالأميرات بواسطة عشاقهن المخادعين، بينما هن يحلمن بأن يمارس الرجال أقسى درجات القوة عليهن...، بالتالى يعتبرن إما مخلوقات أخلاقية أو شديدات الضعف لدرجة أنهن يجب أن يخضعن كلية للقدرات الأقوى للرجال.

(٩)

لنختبر هذه المقولة.. أعلن روسو "إن المرأة لا يجب أبدا ولو للحظة أن تشعر بأنها مستقلة، وأنها يجب أن يحكمها الخوف من ممارسة دهائها الطبيعي وأن تصبح أمَةً مدللة لكي تجعل من نفسها شيئا مغريا مثيرا للرغبة، ورفيقا طائعا للرجل، متى رغب في إسعاد نفسه". وقد استمر روسو في الجدل الذي ظن أنه ينبع من واقع الطبيعة، مدعيا أن الحقيقة والعزيمة وهما حجر الزاوية لكل الفضائل الإنسانية، يجب تلقينهما للأنثى تحت قيود معينة، لأنه وفقا لشخصية الأنثى، تعد الطاعة هي الدرس الأعظم الذي يجب تلقينه لها لكي ينطبع في وجدانها بقوة لا تفتر.

أعتقد أن هذا هراء! فرجل عظيم مثل روسو، له قوة عقلية عظيمة قادر على أن يزيح الزبد الذي نشره الكبرياء والشهوانية على الموضوع. إذا كانت النساء أدنى طبيعيا من الرجال، فإن فضائلهن يجب أن تكون أعلى نسبيا عند تحديد الخصائص وإن لم تكن على درجة تميز الرجل نفسها، وإذا اعتبرنا أن الفضيلة هي فكرة نسبية، فسلوكهن يجب أن يرتكز على الأسس نفسها ويكون له الأهداف نفسها.

الشباب هو موسم الحب لكلا الجنسين، ولكن في تلك الأيام الخاصة بالمتعة بدون تفكير، يجب الاحتياط للسنوات المتقدمة من العمر عندما يحل التعقل محل الشهوة. ولكن روسو ومعظم الكتاب من الرجال الذين ساروا على نهجه قرروا أن الهدف الأساسي من تعليم الأنثى يجب أن يتجه إلى نقطة واحدة هي جعلها ممتعة.

دعوني أفكر مع مؤيدي هذا الرأي الذين لديهم معرفة بالطبيعة الإنسانية، هل يتصورون أن الزواج باستطاعته استئصال عادات الحياة، المرأة التي تم تعليمها فقط على أن تكون ممتعة سوف تجد نفسها بسرعة وقد فقدت سحرها وفتنتها التي يراها الرجل كل يوم، عندما ينتهي وقت ربيعها، فهل ستبقى لديها طاقة لتنظر إلى نفسها طلبا للراحة ولتحفز قدراتها الأخرى بدرجة كافية؟. أليس من الأرشد توقع أنها سوف تحاول إمتاع رجال آخرين، وأنها بالدوافع الناجمة عن العواطف التي تؤججها الانتصارات الجديدة ستحاول أن تنسى الذبول الذي حدث لجمالها وكبريائها؟

فعندما يتوقف الزوج عن أن يصبح عاشقا، فلا بد من أن يأتى الوقت الذى تفتر فيه رغبتها فى أن تكون ممتعة له أو ستصبح شلالا من المرارة، فتذهب المتعة ويحل محلها الغيرة أو الغرور.

(١٠)

أنا أتكلم هنا عن النساء اللاتى تكبحهن المبادئ أو التعصبات، مثل هاته النساء رغم أنهن يرهبن أية علاقة غرامية سرية بخوف حقيقى، فرغم ذلك يرغبن فى الحميمية والشهامة اللتين يهملهما أزواجهن بقسوة، وتمر الأيام والأسابيع وهن يحلمن بالسعادة المفتقدة إلى أن تنهار صحتهن وتتكسر أرواحهن بعدم الرضا. كيف إذن يصبح فن الإمتاع دراسة ضرورية؟ إنه مفيد فقط للعشيقة أما الزوجة العفيفة والأم الجادة فتنظران إلى قدراتهما على الإمتاع بوصفهما صقلاً لفضيلتهما، وإلى عواطف الزوج بوصفها أحد أسباب الراحة التى تجعل من مهمتهما أمرًا أقل صعوبة وحياتهما أكثر سعادة. ولكن إذا كانت ستصبح غير محبوبة ومهملة، فإن مهمتها الأساسية هى أن تعمل لكى تجعل نفسها محترمة، وألا تعتمد فى سعادتها على كونها خاضعة لتساهلات الزوج أو للتساهلات مع نفسها.

يجب على النساء محاولة تنقية قلوبهن ولكن هل يستطعن ذلك وعقولهن غير المهذبة تجعلهن معتمدات اعتمادًا تامًا على حواسهن فى أعمالهن ومتعتهن، وعندما لا تمكنهن من كسر العواطف الهائجة التى تعتورهن عند محاولة كسب مودة رجل فاضل. وهل تكون العواطف ضرورية؟ لقد أعطت الطبيعة للمرأة هيكلا أضعف من الرجل، ولتأمين عواطف زوجها نحوها، يجب على الزوجة أن تقوم بتدريب عقلها وجسمها وهى تقوم بواجبات الابنة والزوجة والأم، وأن تسمح لتكوينها بالاحتفاظ بقوته الطبيعية وأن تحتفظ بأعصابها بحالة سليمة، يجب عليها أيضا أن تتنازل وأن تلجأ إلى التظاهر بالرقة إذا اقتضى الأمر لكى تؤمن عواطف زوجها. فالضعف قد يثير رقة الرجل ويشبع كبرياءه المغرور، ولكن التدليل الزائد للرجل لن يكون مشبعا، والأفضل للزوجة أن تكبح جماح مشاعرها الزائدة وألا تبدى ولعًا بزوجها، فالولع بديل سيئ للصداقة.

(١١)

فى الحرملك، أستطيع أن أؤكد أن كل هذه الفنون ضرورية، فالأبيقورى يجب عليه دغدغة سقف حلقه وإلا غرق فى البلادة، ولكن هل طموح النساء بهذه الضحالة بحيث يقنعن بسلوك الأبيقوريين؟ هل يحلمن وهن مستلقيات بالحياة فى حجر المتعة ويكتفين باسترخاء الملل، بدلا من تأكيد حقهن فى السعى وراء المتع المعقولة، بأن يجعلن أنفسهن قادرات على ممارسة الفضائل التى تعزز مكانة الإنسان. بالتأكيد إن تلك المرأة التى تنفق حياتها فى الاختيار بين الرياء وتجميل نفسها للتغلب على ملل الساعات الفاترة واستجلاب استحسان رفيقها المستعد للانتعاش بابتسامتها وحيلها عندما ينتهى العمل الجاد للحياة، لا تملك روحًا خلاقة.

إلى جانب ذلك، فإن المرأة التى تقوى جسمها وتدرب عقلها سوف تصبح جديرة بإدارة أسرتها، وبالمثابرة على الفضائل لن تصبح مجرد تابع ذليل لزوجها. وإذا حازت احترامه بامتلاكها تلك الخصائص عالية القيمة، فلن تجد ضرورة لإخفاء عواطفها أو ادعاء برودة غير طبيعية فى استثارة عواطف زوجها. فى الحقيقة، وإذا عدنا للتاريخ، فسوف نجد أن النساء اللاتى وصفن بالتميز لم يكن الأجمل أو الأرق من بين بنات جنسهن.. وهذه حقيقة!.

(١٢)

النساء موجودات فى كل مكان فى هذا الوضع المزرى، ولكى يحافظن على البراءة، كما يدعى الجهلة، يتم إخفاء الحقائق عنهن ويجبرن على اتخاذ خصائص زائفة قبل أن تكتسب عقولهن أية قوة. فهن يتعلمن منذ الطفولة أن الجمال هو صولجان المرأة، وأن العقل يشكل نفسه وفقا للجسم، وأنها وهى تحوم حول القفص الذهبى تسعى لزخرفة سجنها.

للرجال وظائف ومساعى عديدة تجذب انتباههم وتعطى شخصية للعقل المتفتح، ولكن النساء لأنهن محصورات فى وظيفة واحدة، وأفكارهن موجهة باستمرار

إلى الجزء غير المهم من كيانهن، نادرا ما يمددن أنظارهن إلى أبعد من انتظار اللحظة، ولكن عقولهن ما إن تتحرر من العبودية لكبرياء الرجل وشهواته ومن رغباتهن قصيرة النظر، ومن سيطرة الرجل المستبد ونفوذه الطاغى فلربما دهشنا عندما نقرأ عن ضعفهن.

لا تجعلوا الرجال الذين هم فى موقع السلطة يستخدمون الجدل نفسه الذى استخدمه الملوك الطغاة ووزراؤهم المستبدون الذين قرروا زيفا أن النساء يجب أن يكن تابعات، لأنهن كن دائما كذلك. ولكن عندما يكون الرجل محكومًا بالقوانين العقلانية، ويستمتع بحريته الطبيعية، فإنه يحتقر المرأة إذا لم تشاركه فى ذلك، وإلى أن تصل إلى تلك المرحلة العظيمة من الحرية فإن على الرجل عندما يسهب في الحديث عن حماقات المرأة، لا يجب عليه أن ينسى النظر إلى حماقاته هو الآخر.

(١٣)

إن النساء – وهذا حق – اللاتى يحصلن على السلطة بوسائل غير مشروعة سواء بممارسة الرذيلة أو المساعدة عليها، يخسرن المقام الذى يوليه لهن العقل، ويصبحن إما إماء خسيسات أو مستبدات متقلبات المزاج. إنهن يفقدن البساطة وعزة العقل عندما يكتسبن السلطة ويفعلن ما يفعل الرجال عندما يرتفعون بالوسائل نفسها.

حان الوقت إذن لإحداث ثورة فى طباع الأنثى، ولإعادة العزة المفقودة إليهن، وجعلهن – وهن جزء من السلالة الإنسانية – ينشغلن بإعادة صياغة أنفسهن لكى يساهمن فى تشكيل العالم.

لقد حان الوقت لفصل الأخلاق التى لا تتغير عن الطباع المحلية. وإذا كان الرجال أنصاف آلهة فلماذا يجعلوننا خدما لهم!، ولماذا كانت عزة روح الأنثى محل جدل ويصرون على أنها كروح الحيوان. إن النساء إذا لم يتوفر لعقولهن ضوءٌ كافٍ لتوجيه سلوكهن، ولتحديد الغريزة التى تقود سلوكهن أحيانا، فهن يعتبرن بالتأكيد الأتعس من

بين كل المخلوقات. ولأنهن قد انحنين تحت وطأة اليد الحديدية للقدر، فيجب أن نسلم بأنهن "النقيصة الفاتنة" للخليقة، ولكن هل يمكن تبرير وسائل العناية الإلهية فيما يتعلق بهن، أو الإشارة إلى سبب مسلم به لصنع نسبة كبيرة من البشر على هذا النحو؟ إنه أمر يثير حيرة أكثر العقلاء حكمة.

(١٤)

لماذا يتوقف الرجال حائرين بين رأيين ويتوقعون المستحيل؟ لماذا يتوقعون الفضيلة من كائن جعله المجتمع المدنى ضعيفا؟ أعرف أن الأمر سيستغرق وقتا طويلا لاستئصال التحيزات الضاربة بجذورها فى عقول الرجال، والتى زرعها الشهوانيون، وسوف يتطلب الأمر بعض الوقت لإقناع النساء بأنهن يقمن بعمل كل ما هو ضد مصالحهن الحقيقية وعلى مستوى كبير، عندما يتدللن بالضعف تحت مسمى الرقة، ولإقناع العالم بأن المصدر السام لرذائل النساء وأهوائهن هو الاعتزاز الرجولى والشهوانى بالجمال.

إلى جانب أنه إذا كانت النساء يتربين على الاعتماد، أى على العمل وفقا لإرادة كائن آخر عرضة للخطأ، وعلى الانقياد صوابا أو خطأ للسلطة، فأين يمكننا أن نتوقف؟ هل يمكن اعتبارهن وكلاء مفوضين لحكم مناطق صغيرة ومسئولات عن أفعالهن أمام محكمة عليا عرضة للخطأ؟

ليس من الصعب إثبات أن هاته الوكيلات سوف يتصرفن كالرجال المذعنين تحت قهر الخوف، وسوف يجعلن أطفالهن وخدمهن يتحملون قهرهن الاستبدادى، فبخضوعهن بدون مبرر، ولعدم وجود قواعد ثابتة تحكم سلوكهن، سوف يكن رحيمات أو قاسيات كما يمليها الحادث اللحظى، ولا يجب أن نعجب إذا حصل الرجال على متعة خبيثة بوضع هذه المسئوليات الثقيلة على أكتاف كائنات ضعيفة.

فيما يختص بالدين، على المرأة ألا تحاول قط أن تحكم بنفسها على الأمور كما يجب على الشخص المستقل أن يفعل، فمن مواعظ الكنيسة التى تربت عليها هى أن

تعتقد بتقي أن هناك عقولاً أرجح من عقلها هى التى تحكم هذه الأمور، ولا يجب أن تشك في كمالها. وعليها أن تصلى وتشكر ربها لأنها ليست كغيرها من الناس. هذه هى إذن الآثار المباركة للتعليم الجيد وفضائل الرفيقة التى من المفروض أن تكون عونًا للرجل!!

(١٥)

أود أن ألخص ما قلته فى كلمات قليلة، لأننى قد ألقيت بالقفاز فى وجه من يحطون من قدر المرأة، ومنكرة وجود الفضائل الجنسية. الحقيقة بالنسبة إلى الرجل والمرأة إذا كنت أدعى أننى أفهم معنى الكلمة، يجب أن تكون هى نفسها، ولكن بالنسبة إلى الشخصية الزائفة للمرأة، والتى خدعها الشعراء والروائيون، والتى عليها أن تضحى فى سبيل سعادة الرجل ولو على حساب كرامتها، تصبح الفضيلة فكرة نسبية ليس لها أى أساس آخر بخلاف المتعة. وبالنسبة إلى هذه المنفعة يتظاهر الرجال بقدرتهم على التخلى عنها ويصوغونها بصورة تلائم راحتهم.

النساء قد تكون لديهن واجبات مختلفة تتطلب القيام بها ولكنها واجبات إنسانية، والقواعد التى يجب أن تنظم القيام بها، كما أقرر بحزم، يجب أن تكون هى نفسها التى للرجال.

فلكى يصبحن محترمات، فإن تدريب عقولهن يعد أمرًا ضروريا، فليس هناك أى أساس آخر للاستقلال فى الشخصية غير ذلك، وأعنى بوضوح أن أقول أنهن يجب عليهن الانحناء فقط لسلطة العقل بدلا من أن يكن إماء متواضعات لآراء الرجال.

فى المستويات العليا من الحياة، ما ندرة أن نقابل رجلاً بقدرات فائقة أو حتى مكتسبات فذة. السبب فى ذلك يبدو لى واضحًا، فالوضع الذى ولدوا فيه كان غير طبيعى. فالشخصية الإنسانية تشكلت دائما وفقا للوظائف التى يقوم بها الفرد أو الطبقة، وإذا لم تشحذ القدرات بأداء ما هو مناسب لها من أعمال فلا بد من أن تظل عاجزة،

ويمكن أن يمتد الجدل ليشمل النساء أيضا، فلأنهن نادرا ما ينشغلن بأعمال جادة، فمسعاهن إلى المتعة يضفي التفاهة على شخصياتهن مما يجعل مجتمعهن ماسخًا ويفتقر إلى الجدية والصلابة. والافتقار إلى الصلابة نفسه ينتج من أسباب مشابهة للرجال والنساء، مما يجبر كليهما على الفرار من أنفسهم إلى المتع الصاخبة والعواطف المصطنعة، إلى أن يحل الزهو محل كل عاطفة اجتماعية ويصبح من الصعب تمييز الخصائص الإنسانية لكل منهما. وهذه هي بركات الحكومات المدنية، على النحو الذى هى منظمة به حاليا، غير أن القوانين التى تمنح السيدة للرجل وتضعف إرادة الأنثى تجعل من السهل الحط من شأن النساء، وتنتج عن نفس المسببات. ولكن لجعل النساء مخلوقات راشدة، يجب تعليمهن اكتساب الفضيلة والتى يمكن تسميتها "فضيلتهن الخاصة"، حيث لا يمكن لكائن راشد أن ينسب إليه النبل فى أى أمر ما لم يحصل عليه بممارسته هو.

(١٦)

عن الآثار السيئة التى تنجم عن التفرقة غير الطبيعية القائمة فى المجتمع

على الرغم من أننى أعتقد أن النساء فى المسارات العادية للحياة مطلوب منهن القيام بواجبات الزوجات والأمهات وفقا للدين والعقل، فإننى لا أستطيع مقاومة التعويل على أن النساء من المستويات الراقية ليس أمامهن أى طريق مفتوح لممارسة خطط أكثر إيجابية ليكن نافعات ومستقلات.

قد أكون مضحكة إذا ألمحت إلى أننى أعتقد أن النساء يجب أن تكون لهن وكيلات لتمثيلهن فى الحكومة، بدلا من أن يتم حكمهن دون أن يكون لهن أى مشاركة فى أى محفل.

ولكن حيث إن نظام التمثيل البرلمانى حاليا فى هذه الدولة ما هو إلا أداة للاستبداد السياسى، فلا حاجة للنساء إلى الشكوى، فهن ممثلات بنفس درجة تمثيل طبقات عديدة من الحرفيين وأصحاب المهن الدنيا الذين يكدون ويدفعون المال لتعضيد

الملكية، بينما لا يستطيعون إلا بالكاد الطعام أولادهم بالخبز. كيف يكونون ممثلين أولئك الذين يساهم عرقهم فى لمعان سرج ولى العهد، أو يلعقون بألسنتهم مركبة محظية لا يعنيها العار كضريبة علي ضروريات الحياة، وتعين قبيلة من الأمراء والأميرات العاطلين على المرور بانتفاخ غبى أمام الجموع التى تعبد ذلك الاستعراض الذى يكلفها غاليا. هذه العظمة البربرية عديمة الجدوى لديدبانات على ظهور الخيل لا أنظر إليها إلا بمزيج من الازدراء والاحتقار.

قد يوجه إليَّ هذا السؤال : ولكن ما الذى يجب أن تفعله النساء فى المجتمع؟ إذا كانت الإجابة هى أن يتسكعن برشاقة، فلن تدمغهن كلهن على أنهن غبيات تافهات. فالنساء يمكنهن بالتأكيد دراسة فن التمريض وأن يصبحن طبيبات كما هن ممرضات، كما أن مهنة التوليد هى مهنتهن. وبالنسبة إلى التوليد، فإن الكياسة من نصيبهن، حيث إن كلمة "مولدة" فى قواميسنا سوف تستبدل بها قريباً كلمة "مولد" حيث يمارسها الآن الأطباء من الذكور، وبالتالى سو ف تنزع صفة الرقة عن جنسنا بواسطة اللغة!.

(١٧)

النساء يستطعن أيضا دراسة السياسة ويرتكزن بأفعالهن الخيرة على قواعد واسعة، ولكن دراسة التاريخ لن تكون أكثر فائدة من قراءة أى شىء آخر، إذا ما تمت قراءته باعتباره سيرة ذاتية. فقراءة تاريخ الشخصيات وما أنجزته فى المجالات السياسية أو الفنون تصبح غير ذات قيمة إذا لم يتم تأملها. باختصار، إن كل ما يعد تاريخا لشخص معين وليس تأصيلا لتاريخ الإنسان ينجرف مع التيار الدافق للزمن الذى يكتسح كل ما يقابله إلى الخواء عديم الشكل الذى يسمى خلوداً.

الأعمال بطرزها المختلفة، قد تكون من مساعى النساء إذا ما تم تعليمهن بأسلوب أكثر نظاما مما قد ينقذ الكثيرات من الاستغلال الشائع والشرعى. وقد تتزوج النساء بحثا عن من يعولهن أو فى سبيل ضمان معيشتهن، وهو الأمر المرفوض؛ لأن ذلك يؤدى إلى إغراقهن فى مستنقع المخلوقات البائسة التى تعيش بممارسة الرذيلة.

فالوظائف القليلة المتاحة للنساء، ليست متحررة على الإطلاق، وإنما تعد متدنية، وعندما يؤدى التعليم الفائق لهن إلى أن يصبحن معلمات مسئولات عن تعليم الأطفال، فإنهن لا يعاملن معاملة معلمى الأولاد، رغم أنه حتى المعلمين الدينيين لا يعاملون دائما بطريقة تدعو لاحترامهم فى أعين تلاميذهم. ولكن نظم تعليم النساء ليصبحن مهذبات لا يتم وضعها بالضرورة لتضعهن فى مواقف عدم الاحترام التى أحيانا ما يجبرن عليها، فهذه المواقف تحط من قدرهن وتؤدى إلى إحباطهن ويتولد عنها شعور قهرى بالفشل وعدم النجاح وهو الأمر الذى يحتاج إلى أن يقال عنه إنه لا يوجد ما يثبط العزيمة بطريقة مؤلمة مثل السقوط فى الحياة.

بعض هاته النسوة قد يحجمن عن الزواج نتيجة الروح الرقيقة التى يمتلكنها، وبعضهن ليس بمقدورهن الهروب من هذا الطريق للاستعباد، أليست الحكومة إذن مخطئة ولا تراعى سعادة نصف أعضائها، ولا توفر للنساء الشريفات المستقلات ظروفا أفضل بتشجيعهن على أخذ مواقع محترمة؟

إن النساء لكى تصبح لفضائلهن الخاصة فائدة عامة، يجب أن يكون لهن وجود حقيقى فى الحكومة، سواء كن متزوجات أو غير متزوجات، وإلا سوف نرى باستمرار بعضا من النساء المحترمات وقد صارت حواسهن حادة نتيجة الاحتقار الذى من غير المفروض أن يواجهنه، ويسقطن كما يسقط زهر الليمون بنفخة هواء.

(١٨)

إنها حقيقة مزعجة، ولكن تلك هى الآثار المباركة للمدنية! فأكثر النساء احتراما هن الأشد قهراً، وما لم يكن لديهن تفهم أعظم وأعمق من التفهم العام لوضعهن بالنسبة إلى الجنسين، فلا بد من أن يؤدى التعامل معهن باعتبارهن كائنات حقيرات إلى أن يصبحن حقيرات بالفعل!

كم من النساء أضعن حياتهن هباءً نتيجة عدم رضائهن وسخطهن، واللاتى ربما كن سيصبحن طبيبات أو رئيسات لمؤسسات كبيرة أو مديرات لمحال، يقفن مرفوعات

الهامات بعضدهن قدراتهن ومواهبهن بدلا من أن يقفن وهن منكسات الرءوس تحت وطأة الحساسية التى تستهلك إمكانياتهن قبل أن تترعرع، أنا أشك فى ما إذا كانت الشفقة والحب لصيقين ببعضهما كما يقول الشعراء، لأننى نادرا ما رأيت مقارنات تمت مع إناث عاجزات وكانت منصفة لهن، ربما كانت الشفقة أحيانا المنصفة لهن فى أية مقارنات.

أود إذن إقناع الرجال العقلانيين بأهمية بعض ملاحظاتى، وأطلب منهم أن يتأملوا وبدون تعصب نحوى هذه الملاحظات، وأتوسل إلى فهمهم وأدعى باسم جنسى وجود بعض الاهتمام فى قلوبهم. أدعوهم للمساعدة فى تحرير رفيقاتهم وجعلهن مساعدات لهم.

إذا كسر الرجال سلاسل قيودنا وقنعوا بالزمالة الراشدة بدلا من الطاعة الناجمة عن العبودية فسيجدوننا بنات مطيعات، وشقيقات محبات وزوجات أمينات وأمهات راشدات، وفى كلمة واحدة، مواطنات أفضل. سوف نحبهم عندئذ بعواطف حقيقية، لأننا سوف نتعلم أن نحترم أنفسنا، ولن يؤرق سلام عقول الرجال المحترمين ذلك الزهو الأجوف لزوجاتهم أو الأطفال الذين يرسلون لكى يترعرعوا فى أحضان غريبة لعدم عثورهم على بيت فى أحضان أمهاتهم.

(١٩)

عن التعليم الوطنى

التذوق الطبيعى هو عمل العقل الذى يوظف فى ملاحظة الحياة الطبيعية، وإلى أن يصبح للنساء تفهم أكثر. فمن العبث أن نتوقع منهن أن يملكن ذوقًا رفيعًا، سوف تكون حواسهن الحية فاعلة باستمرار لتقسية قلوبهن، سوف تمتلئ بمشاعر السخط والكراهية ما لم يملأ التعليم المناسب عقولهن بالمعرفة.

إن الحاجة إلى الشعور بتقدير المجتمع الذى ينتمين له وليس اكتساب المعرفة فقط هى ما تنتزع النساء من عائلاتهن، كما ينزع الطفل من الصدر الذى يغذيه. لقد سمح للنساء أن يبقين جاهلات وتابعات مستعبدات سنوات طويلة وطويلة جدا، ولا نزال نسمع عن تعلقهن بالمتعة والنفوذ وتفضيلهن اللهو عن العمل النافع والجاد، وارتباطهن الطفولى باللعب والزهو الذى يجعلهن مزهوات بالإثارة لا الفضائل. فلندع أمة متنورة تحاول بأية وسيلة إعادتهن إلى دورهن المقدس وإلى الواجب، وأن تسمح لهن بالمشاركة فى مزايا التعليم وبرامج الحكومة جنبًا إلى جنب مع الرجل، ولننظر هل سيتحولن إلى الأفضل عندما يصبحن متحررات وأكثر حكمة. محال أن يصيبهن ضرر من المحاولة، لأنه ليس فى قدرة الرجل جعلهن أكثر تفهما عما هن عليه حاليا.

ولجعل ذلك ممكنا عمليا، يجب أن تحدد الحكومة أياما للدراسة لكل فئة عمرية معينة، يتم فيها تعليم الأولاد والبنات معًا، ومدارس الأطفال الأصغر عمرًا من سن الخامسة إلى التاسعة، يجب أن تكون حرة تمامًا ومفتوحة لكل الدراسات. ويجب اختيار عدد كاف من الأساتذة بواسطة لجنة اختيار فى كل منطقة، يوجه إليها شكاوى بالإهمال إذا كانت موقعة من ستة من آباء الأطفال.

(٢٠)

ولمنع أى تمييز بين البنات والأولاد، يجب أن يلبس الجميع زيا موحداً وأن يجبر الجميع على طاعة النظام نفسه أو عليهم أن يتركوا المدرسة. ويجب أن تحاط الفصول الدراسية بمنطقة واسعة من الأرض يمكن للأطفال أن يمرحوا فيها، لأنه فى هذا العمر لا يجب إبقاؤهم جلوسًا فى أماكنهم لأية أعمال تتطلب الجلوس لأكثر من ساعة من الزمن ولكن هذه الاسترخاءات يجب أن تكون جزءًا من التعليم الأولى، لأن الكثير من الأمور تحفز الحواس وتثير الانتباه عندما يتم تقديمها فى شكل تجارب علمية، بينما وهم جالسون لا يعيرونها اهتماما. وعلى سبيل المثال، علم النبات والميكانيكا والفلك، أما القراءة والكتابة والحساب والتاريخ الطبيعى وبعض التجارب البسيطة فى الفلسفة

الطبييعية قد تملأ بقية اليوم، ولكن هذه المساعى لا يجب أن تمنع الألعاب الرياضية فى الهواء الطلق. بالنسبة إلى الدين والتاريخ والسياسة يمكن تدريسها بالحوار والأسلوب السقراطى.

بعد عمر التاسعة، فإن البنات والأولاد يجب توجيههم إلى مدارس أخرى حيث توضع برامج التعليم لهم وفقا لمزايا كل فرد، وكلا الجنسين لا يزالان معًا فى الصباح، أما فى المساء، فالبنات يجب أن يذهبن إلى مدرسة للأعمال اليدوية مثل صنع البرانس والقبعات.. إلخ، والصغار ذوو القدرات المميزة أو الذين يبدون تفوقًا ظاهرًا يمكن تحويلهم إلى مدارس اللغات القديمة والحديثة أو يدرسون أساسيات العلوم ويستمرون في دراسة التاريخ والسياسة على نطاق أوسع، ولا يستبعد الأدب قديمه وحديثه.

أيظل الأولاد والبنات معًا؟ أسمع بعض القراء يتساءلون : نعم، ولا أخشى أى توابع لذلك ما عدا بعض التجاذب المبكر والذى له أثر حميد على الشخصية الأخلاقية للصغار، ويمكن أن يتم الموافقة التامة من الأبوين حيث سيمر وقت طويل حتى يتم تنوير العالم بأن الوالدين الذى ينحصر اهتمامهما فى جعل أولادهما يحرصون على الفضيلة سوف يسمحان لهم باختيار الرفاق فى الحياة بأنفسهم.

(٢١)

بهذه الخطة للتعليم لن يتم تدمير أساسيات الأولاد بالتدليل المبكر، الذى يجعل الرجال شديدى الأنانية أو يجعل البنات ضعيفات ومغرورات بالسعى وراء المظهرية والإثارة. افترض أن هذه الدرجة من المساواة التى سوف تتم بين الجنسين سوف تغلق الباب أمام تميز جنس على آخر وشعور الأولاد بالاستعلاء وتسمح بالصداقة والحب، لتجعل القلب يقوم بأداء واجباته الأسمى.

سوف تكون هذه مدارس الأخلاق، والسعادة لكل الناس سوف تنساب عندئذ من الينابيع الصافية للواجب والعاطفة. فلماذا لن يحقق البشر التقدم عندئذ؟ المجتمع سوف يصبح سعيدًا وحرًا بنفس درجة فضيلته، ولكن التميز الحالى الحادث فى المجتمع يؤدى إلى تآكل الفضائل الخاصة ودمار الفضائل العامة.

لقد اعترضت على عادة حصر البنات فى أعمال الإبرة، وحبسهن بعيداً عن الوظائف السياسية والمدنية، لأن ذلك يضيق عقولهن ويصبحن غير صالحات لأداء المهام الخاصة التى توكلها إليهن الطبيعة. أما إذا انشغلن بالأحداث اليومية فسوف تتسع مداركهن وسوف يصبحن بالضرورة أكثر خبرة ودهاءً. لقد مرضت روحى من مشاهدة الخدع الحقيرة التى تقوم بها النساء للحصول على أشياء غبية ترغب فيها قلوبهن، فلأنهن محرومات من إنفاق المال حتى إذا ما أزعجهن الزوج استطعن تدبير نفقات البقاء خارج المنزل، وإذا ما أظهر الزوج مشاعر الغيرة، فشراء ثوب جديد سوف يخفض من أثر ذلك. ولكن هذه الأشياء الصغيرة لن تحط من شخصيتهن إذا ما احترمت النساء أنفسهن، وكانت الموضوعات السياسية والأخلاقية متاحة لهن، وسوف أجازف بتقرير أن هذا هو الطريق الوحيد لجعلهن مثابرات على أعمالهن المنزلية، فالعقل النشط قادر على احتواء كل مجال واجباته وأن يجد الوقت لأدائها جميعا.

إنها ليست محاولة جريئة لتقليد الفضائل الرجولية أو لادعاء أن الاكتشافات العلمية هى ما تقود النساء بعيداً عن أداء واجباتهن.. بالقطع لا، إنه الكسل والزهو وحب المتعة وعشق الإثارة، هذه الأشياء هى ما تملأ العقل الخاوى، وأقول خاوٍ لأن نوع التعليم الذى تتعلمه المرأة حاليا لا يستحق مجرد تسميته تعليما. فالمعرفة القليلة التي يكتسبنها خلال السنوات المهمة للشباب محدودة للغاية ونسبية فيما يخص الإنجازات، وهى إنجازات يومية وبلا نهاية، وما لم يتم توسيع مداركهن وتعميق أفهامهن فسوف تكون كل أنوثة أو رشاقة سطحية ومملة، إنها مثل فتنة الوجه المتزين التى تثير الحواس فى الزحام ولكنها فى البيت، حيث العقل مطلوب تتسم بالجمود.

والنتائج واضحة، فعندما تزول الفتنة نواجه العقل المحدود والوجه المصبوغ بالمساحيق، واللاتى يهربن من الوحدة، ومن الواجبات المنزلية، يشعرن بعدم أهميتهن وعدم وجود ما يثيرهن أو يبعث بهجتهن.

(٢٢)

أعرف أن هناك من يقولون إن المرأة سوف تفقد جاذبيتها الجنسية إذا اكتسبت قوة الجسم والعقل، وأعني الجمال الساحر الرقيق، لن يكون من نصيب البنات. إن رأيي مختلف تماما لأنني أعتقد أن العكس هو الصحيح، إننا سوف نرى جمالا معتزاً بنفسه ورشاقة حقيقية، والذى لكي يحظى بالإعجاب لابد من أن تتكاتف له أسباب قوية وطبيعية وأخلاقية، ولن يكون بالطبع الجمال الوادع – وهذه حقيقة – ولن تكون الرشاقة هي رشاقة العجز ولكن سيكون الجمال المزين بالعقل والذى يجعلنا نحترم الجسم الذى يحتويه كالقصر الملكى المجهز لاستقبال ساكن نبيل، هذا إلى جانب أن الفهم ضرورى لتوفير الجاذبية والشغف اللازمين للاستمتاع الحسى. إن العقل الذى بمقدوره أن يستمر في العشق عندما لا توفر الفضيلة مظهرا إنسانيا لرغبة حيوانية، يكون أدنى على مقاييس الفكر بكل تأكيد. ولكن الإحساس بالعفة سوف يتغلب دائما وإذا لم ترق النساء لنفس مستوى الرجال فى إظهار العفة، فسيكن مثل العاهرات الإغريقيات اللاتى كن يجمعن الرجال ذوى المقدرة حولهن ويسحبونهم بعيدا عن عائلاتهم، فى الوقت الذى كان عليهم البقاء فى البيت. ولو كان لنساء هؤلاء الرجال بعض العقل أو الرشاقة لأبقين رجالهن بجانبهن في البيت، فالمرأة ذات الموهبة، إذا لم تكن قبيحة تمامًا، سوف تحصل دائما على سلطة كبيرة توفرها لها جاذبيتها ولطفها، وبالطريقة نفسها التى يكتسب بها الرجال الفضيلة واللطف.

أعرف أن سلوك القليلات من النساء اللاتى اكتسبن نسبة من الفهم أعلى من رفيقاتهن من الجنس نفسه، قد أصبحن متغطرسات، ولكن توجد حالات لنساء حصلن على المعرفة الواسعة ولم يتخلين عن التواضع أو أنكرن الجهل الذى تخلصن منه فى عقولهن. التحفظات فى وجه أى نصيحة خاصة بتعليم النساء والتى توجه عادة من النساء الجميلات، تنتج عادة من الحسد. فعندما تتاح لهن فرصة إدراك أن بهاء عيونهن والثرثرة التافهة لن يوفرا لهن دائما الاهتمام الكافى خلال أمسية بكاملها، إذا ما أمكن لامرأة ذات عقل مستنير أن تدير دفة الحوار في وجودهن. وهاته النسوة

المستنيرات نادراً ما يجدن أزواجًا، فالنساء السخيفات يستخدمن فنونا لمقاطعتهن فى الحديث، بالمداعبات الفجة والضحكات المثيرة والموضوعات الهزلية، ورغم هذه المحاولات فإن الحوار الراشد يجعل الرجال ينسون ولو مؤقتا أنهم مع نساء جميلات.

ولكن بالسماح بما هو طبيعى للرجال فإن امتلاكهم قدرات نادرة يسمح لهم بالفخر الزائد، الذى يعد مثيراً للاشمئزاز فى الرجال والنساء على السواء.

(٢٣)

إن الوضع المتدنى الذى آلت إليه النساء عندما أدى القدر الضئيل من التعلم الذى حصلن عليه ولقبن بأنهن نساء متعلمات قد يكون فرديا، ولكنه وبالقطع سيكون كافيا لانتفاخ أوداج من يمتلكن المعرفة وإثارة حسد المعاصرات لهن وبعضا من الجنس الآخر.

ألم تتعرض العديدات من النساء نتيجة القليل من الرشد والعقلانية إلى اللوم الشديد؟ إننى أشير إلى حقائق معروفة جيدا لأننى كثيرا ما سمعت السخرية واللوم من النساء حين كنت أنصحهن باتباع طريقة المدرسة القديمة فى تربية الأطفال لكنهن لم يستمعن لنصائحى، واتبعن نصيحة بعض رجال الطب وابتعدن عن ضرب الأطفال حين يخطئون.

لقد سمعت بالفعل عن ذلك التجنب للتجديد وقد أخذ مسارات أبعد، بأن يطلق على أم راشدة بأنها غير طبيعية عندما تراقب بعناية صحة أطفالها، ولكنها مع ذلك تفقد واحداً نتيجة الحوادث العارضة والتى لا يمكن لشىء أن يوقفها. لقد لاحظ معارفها أن ذلك كان نتيجة للأفكار الحديثة التى يوصى بها خبراء التربية باتباعها، والذين يدعون الخبرة، رغم التصاقهم بالتحيزات التى أدت إلى تقليص السلالة الإنسانية، وهم يفرحون للكارثة لأنها تؤدى إلى تقديس وصفاتهم.

بالتأكيد، لو كان ذلك هو السبب فحسب، فإن تعليم الإناث على مستوى الوطن له أهمية عظمى، فكم من التضحيات البشرية تمت على مذبح التحيز الأعمى وبكم طريقة هلك الأطفال نتيجة حمق الإنسان؟ فالحاجة للعواطف الطبيعية لكثير من النساء اللاتى جردن من واجباتهن نتيجة إعجابهن بالرجال وجهل الباقين بها، تجعل طفولة الذكور فى حالة مزرية أكثر من تلك الخاصة بالحيوانات، لكن الرجال لا يريدون أن يضعوا النساء في أوضاع مناسبة تهيئهن لاكتساب المعرفة الكافية للعناية بأطفالهم.

لقد كان أثر هذه الحقيقة على نفسى قويا لدرجة أننى سوف أجعل كل أسبابى مرتكزًا عليها، لأن الميل لإضعاف شخصية الأم يخرج المرأة من مجالها الذى رسمته الطبيعة لها.

(٢٤)

فى المدارس العامة، ولكى نجعل النساء يتجنبن أخطاء الجهل، يجب تعليمهن أساسيات التشريح والطب ليس فقط لجعلهن أقدر على رعاية صحتهن، ولكن لجعلهن ممرضات راشدات لأطفالهن وآبائهن وأزواجهن، لأن تكلفة الوفيات تتضخم نتيجة وصفات النسوة العجائز اللاتى يبدين النصائح الخاصة بهن دون أى معرفة تذكر بالجسم الإنسانى. ومن المناسب أيضا فى المجال المنزلى جعل النساء مدركات لطبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى بالسماح للبنات والأولاد بالاختلاط معًا في كل مسعى، وكذلك جعلهن شغوفات بالتقدم الإنسانى فى العلم والفن وشتى المجالات الأخرى، ولا ينسين علم الأخلاق أو دراسة التاريخ السياسى للبشرية.

الاستنتاج الذى أرغب فى الوصول إليه شديد الوضوح، اجعلوا النساء مخلوقات راشدة؛ مواطنات تتمتع بالحرية وسوف يصبحن زوجات وأمهات طيبات عند مناقشة مزايا التعليم العام والخاص معًا، وما يرجى أن ينتج عنهما. لقد ركزت أساسًا على ما هو متعلق بعالم المرأة؛ لأننى أعتقد أن عالم المرأة مقهور ولكن البؤس الذى ينتجه القهر لا يقتصر على المرأة فقط، ولكنه يصيب المجتمع ككل بحيث إننى عندما أرغب فى رؤية بنات جنسى وقد أصبح لهن كيان أخلاقى محترم سيدق قلبى فرحًا بتوقعات شيوع الرضا العام والقناعة اللذين يتوفران فقط بالتعليم الجيد.

تبعية المرأة

جون ستيوارت ميل

(١)

الغرض من هذا المقال هو أن أشرح ما وسعتني المقدرة، مبررات رأى اعتقدته منذ الفترة الباكرة جدا التى كونت فيها رأياً على الإطلاق فى أمور اجتماعية أو سياسية، والذى بدلا من أن يضعف ويتبدل، ظل يقوى باستمرار مع اضطراد التأمل وخبرة الحياة، وهذا الرأى هو أن القاعدة التى تنظم العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين، أى التبعية القانونية لأحد الجنسين للآخر، خطأ فى ذاتها، وتعد من المعوقات الرئيسية للتقدم الإنسانى وأنها يجب أن يُستبدل بها قاعدة المساواة التامة، التى لا تسمح بسلطة أو ميزة لجانب أو بالعجز لجانب آخر.

إن عمومية ممارسة ما هى فى بعض الأحيان، افتراض قوى على أنها تؤدى إلى غايات حميدة. هذا هو الوضع عندما تبنى الممارسة فى البداية، أو استمرارها بعد ذلك كوسائل لتلك الغايات، مبنية على الخبرة التى يمكن بها الوصول إلى تلك الغايات بكفاءة وسهولة. إذا كانت سلطة الرجال على النساء عندما تقررت فى البداية، ناتجة عن مقارنة عادلة بين الاتجاهات المختلفة المكونة لحكم المجتمع، أو كانت نتيجة تجربة نماذج مختلفة من النظم الافتراضية، مثل حكم النساء للرجال، المساواة بين الاثنين، أو أية نظم أخرى للاشتراك فى الحكم أو تقسيمه يمكن اختراعها، لكان قد تقرر - وفقًا لما تشهد به الخبرة - أن الإطار الذى تكون فيه النساء بكليتهن تحت حكم الرجال، وألا يكون لهن أى دور خاص بالأمور العامة، وأن يكن ملزمات قانونا بطاعة الرجل الذى ارتبط به قدرهن، هو الترتيب المنتج للسعادة والحياة الطيبة لكليهما.

ويكون التبنى العام لهذا الترتيب ناتجًا عن تفكير عادل فى قيام بعض الدلائل وقت تنبيه على أنه هو الأفضل، رغم أنه حتى الاعتبارات التى أدت إلى تزكيته، مثلها مثل العدد من الحقائق الاجتماعية الأولية ذات الأهمية الكبيرة، أصبحت بفعل تواتر الأجيال غير موجودة. ولكن وضع هذه القضية فى كل الاعتبارات، عكس ذلك. ففى المقام الأول نجد الرأى المؤيد للنظام الحالى والذى يجعل الجنس الأضعف تابعًا للجنس الأقوى يقوم على النظرية فقط، حيث لم تتم أبدًا تجربة أى نظام آخر بحيث يمكن للخبرة بمنطق معارضتها النظرية، التظاهر بأنها قد أصدرت حكمًا. وفى المقام الثانى، فإن تبنى نظام عدم المساواة لم يكن نتيجة المداولة أو التفكير المسبق أو أية أفكار اجتماعية صالحة، أو أى نظريات تؤدى إلى خير الإنسانية أو لنظام أكثر صلاحية للمجتمع. لقد نشأ ببساطة من حقيقة أنه منذ بزوغ الفجر الأول للمجتمع الإنسانى كانت كل امرأة (نتيجة القيمة التى ألصقت بها بواسطة الرجال مقترنة بوضعها الأدنى فيما يختص بالقوة العضلية) توضع فى وضع ارتباط مع رجل ما. ودائما ما تبدأ قوانين ونظم الحكومات بالاعتراف بالعلاقات التى وجدت قائمة واستقرت بين الأفراد، فهى تحوِّل ما كان مجرد حقائق مادية إلى حقوق قانونية وتضفى عليها المجتمع وحمايتها، وتهدف أساسًا إلى أن تحل الوسائل العامة والمنظمة لإعلاء وحماية هذه الحقوق، محل التصادم غير القانونى وغير المنظم مع القوة العضلية.

(٢)

نحن نعيش الآن – هناك دولة أو دولتان فقط يمكن اعتبارهما من الأمم المتقدمة جدا فى العالم الآن – فى وضع تم فيه التخلى تماما عن قانون الأقوى هو الذى يحكم كعامل منظم لشئون العالم، ولا أحد يعمل به الآن. أما فيما يتعلق بمعظم العلاقات بين البشر، فلا يسمح لأحد بأن يمارسه. وعندما ينجح أى فرد فى أن يفعل ذلك، فإنه يفعل ذلك تحت غطاء من التظاهر بوجود بعض الاهتمامات الاجتماعية العامة التى تؤيده. وحيث إن هذا هو الوضع الظاهر للأمور، يمتدح الناس أنفسهم لأن حكم القوة المجردة قد انتهى، وإن قانون الأقوى هو الذى يحكم لا يمكن أن يكون سببا لوجود أى شىء

لا يزال فاعلا بقوة إلى وقتنا هذا. ومهما كانت الطريقة التى بدأت بها أية مؤسسة من مؤسساتنا، فإنها استطاعت البقاء، كما يعتقد حتى فترة التحضر الراقى نتيجة الشعور بملاءمتها للطبيعة الإنسانية وقدرتها على تحقيق الخير العام.

إنهم لا يستطيعون إدراك الحيوية العظيمة والقدرة على البقاء للمؤسسات التى وضعت الحق مكان القوة ومدى شدة التعلق بها، وكيف أن النزعات والعواطف الطيبة والسيئة للذين يمسكون بالسلطة فى أيديهم قد أصبحت مميزة باستبقائهم لها، وكيف أن المؤسسات السيئة تنهار ببطء، واحدة تلو الأخرى، الأضعف أولا ثم يليها الباقى بدءًا بالمؤسسات الأقل ارتباطًا بالعادات اليومية للحياة، وكيف أن الذين حصلوا على السلطة نتيجة أنهم كانوا يملكون القوة المادية فى البداية، نادرا جدا ما فقدوا هذه السلطة إلا عندما انتقلت القوة المادية إلى الجانب الآخر. هذا الانتقال للقوة المادية لم يحدث فى حالة النساء، وهذه الحقيقة مقترنة بكل الخصائص والصفات المتعلقة بهذه الحالة، قد جعلت من المؤكد منذ البداية أن هذا الفرع من النظام، والمعتمد على أن الحق يقوم على القوة، على الرغم من أن بعض ملامحه الجامدة قد لانت فى مرحلة مبكرة عن العديد من الفروع الأخرى، سوف يكون آخر ما يختفي. فقد كان من المحتم أن تبقى النظم الاجتماعية المبنية على القوة مع النظم القائمة على العدالة المتساوية، وسوف يكون ذلك استثناءً وحيداً للخاصية العامة لقانونهم وعادتهم، ولكن ما دامت لا تعترف بأصلها، ومادامت لم يكشف النقاش عن طبيعتها الحقيقية، فلا يبدو أنها ستبتعد عن الحضارة الحديثة بأى درجة أكثر من ابتعاد العبودية عن الإغريق، نتيجة اعتقادهم فقط بأنهم أناس أحرار.

(٣)

مهما يكن الاستحواذ على السلطة مرضيًا للغرور، ومهما تكن الأساليب الشخصية في ممارستها، فإنها ليست قاصرة على فئة محدودة، ولكنها عامة لكل الجنس الذكرى. فبدلا من أن تكون، لمعظم طالبيها شيئا مرغوبا بصورة مجردة، كما فى الغايات السياسية،

فإنها تعد قليلة الأهمية لأى فرد فيما عدا القادة، لكنها مع ذلك توجد فى قلب كل ذكر فى الأسرة، وإن كل فرد يطمح إلى أن يصير كذلك.

فالرعاع يُسمح لهم بممارسة نصيبهم من السلطة بالتساوى مع أرقى النبلاء، فالرغبة فى السلطة هى الأقوى، وكل من يرغب فى السلطة يرغب فيها على الأقربين له، الذين يقضى معهم حياته، والذين يشاركهم اهتماماتهم، والذين يمثل استقلالهم عن سلطته تداخلا مع تفضيلاته الشخصية. فإذا كانت السلطة فى غير الحالات التى تم تحديدها، تقوم فقط على القوة، وليس هناك سوى القليل من مؤيديها، يتم التخلص منها ببطء شديد وبدون صعوبات كبيرة، لأنها اعتمدت أساسًا على القوة وإلى درجة كبيرة، فالناس تكره السلطة حتى ولو ارتكزت على أسس ليست أفضل من تلك.

لا بد من أن نضع فى الاعتبار أيضًا أن المستحوذين على السلطة يسمحون ببعض التساهل فى هذه الحالة أكثر من أى حالة أخرى، لمنع أى تمرد ضدها. ففى نظام الرق القديم كانت واحدة فقط من النساء تعيش تحت نظر سيدها وبين يديه، وفى اتصال وثيق معه أكبر من أى اتصال بغيرها من رفيقاتها، ولكن كانت لا تتوافر لديهن الوسيلة للاتحاد ضده ولا قوة للتغلب عليه. وعلى الجانب الآخر هناك حافز قوى لإرضائه وتجنب غضبه.

(٤)

فى معارك التحرر السياسى، يعرف كل إنسان كيف أنه من المعتاد شراء أبطالها بالرشاوى أو تخويفهم بالإرهاب. فى حالة النساء، كل واحدة من طبقة الرعايا هى فى حالة مزمنة من الرشوة والخوف معًا. فعند وضع معايير المقاومة، فإن عددًا كبيرًا من القادة والعديدات من المؤيدات لابد من أن يقوموا بتضحية كاملة بمسراتهم الشخصية. فإذا كان أى نظام للتميز والتبعية القهرية قد أحكم نيره حول رقاب من أذلهم، فإن هذا النظام قد فعل ذلك..

قد يعترض البعض بعدم عدالة المقارنة بين حكومة الجنس الذكرى، وصور السلط الظالمة التى سبق أن شرحتها بوصفها عرفية وناتجة عن تصور السلوك القهرى للسلطة: بينما هى على العكس، طبيعية. ولكن هل كانت هناك أية سيادة ظالمة لم تبد لأصحابها طبيعية؟ فى زمان ما، عندما كان البشر ينقسمون إلى قسمين، قسم صغير من السادة والقسم الآخر الكبير من العبيد، بدا فيه ذلك حتى لأكثر العقول استنارة وضعًا طبيعيا، أو الوضع الطبيعى الوحيد للجنس البشرى. ولأن تبعية النساء للرجال هى عادة عالمية، فإن أى انحراف عنها سوف يبدو غير طبيعى. ولكن فى هذه الحالة يعتمد الشعور على العادة تماما، كما تظهره الخبرة الواسعة بالتاريخ. حيث لم يدهش سكان المناطق المتطرفة من العالم عندما عرفوا لأول مرة شيئًا عن إنجلترا، أكثر مما قيل لهم من أنها تحكمها ملكة. فقد بدا ذلك غير طبيعى لدرجة أنهم لم يصدقوه. بالنسبة إلى الإنجليز لا يبدو ذلك غير طبيعى بأية درجة، لأنهم اعتادوا عليه، ولكنهم يشعرون بأنه من غير الطبيعى أن تصبح النساء جنودًا أو أعضاءً فى البرلمان. فى عصور الإقطاع كان الوضع على النقيض، لم يكن ينظر إلى الحرب والسياسة باعتبارهما غير طبيعيين للمرأة، لأنهما غير معتادين، فقد بدا طبيعيا لنساء الطبقة الحاكمة أن يكن بشخصيات رجولية. ولكن سوف يقال إن حكم الرجال للنساء يختلف عن كل ذلك فى أنه ليس حكم القوة، لأن النساء يقبلنه طواعية. فالنساء لا يتذمرن وهن الأطراف الموافقات عليه، لكن لا نستطيع إنكار أن عددًا كبيرًا من النساء لا يقبلن به. فمنذ أن كانت هناك نساء قادرات على جعل آرائهن معروفة من كتاباتهن (الوسيلة الوحيدة لنشر آراء النساء التى يسمح بها المجتمع لهن)، فقد سجلت العديدات منهن اعتراضهن على وضعهن الاجتماعى الحالى، وحديثا نجد أن الآلاف العديدة منهن تقودهن أشهر النساء المعروفات للعامة، قد التمسن من البرلمان الإنجليزى قبولهن للتصويت البرلمانى.

إن طلب النساء أن يتعلمن بالجودة نفسها وفى فروع المعرفة نفسها كالرجال، مطلب شديد الإلحاح وتتوافر له مقومات النجاح. بينما طلبهن الانضمام إلى المهن والوظائف المغلقة أمامهن يصبح عامًا بعد عام أشد إلحاحا، ورغم أنه ليس فى هذا البلد كما فى الولايات المتحدة قضايا تثير المؤتمرات الدورية والأحزاب المنظمة من وقت

لآخر قضايا حقوق المرأة فإنه توجد العديد من التنظيمات التى تديرها النساء لغرض أكثر محدودية وهو الحصول على الحقوق السياسية، وليس فقط فى إنجلترا وأمريكا بدأت جماعات النساء في الاعتراض على المعوقات التي يعملن تحت وطأتها.

(٥)

إنه لقانون سياسى طبيعى أن أولئك الخاضعين لسلطة قديمة المنشأ لا يبدون تذمراً من السلطة نفسها، ولكن حين تبدأ السلطة ممارستها المتعسفة ضدهم. فى حين لم نسمع أبداً بأية شكوى جماعية للنساء اللاتى يخضعن لمعاملة قاسية من أزواجهن.

ولعله كان من الممكن أن تكون هناك مطالب عديدة لهن لو لم تكن الشكوى هى أعظم استفزاز لتكرار وزيادة سوء المعاملة من الأزواج. وهذا كان ما أحبط كل محاولات استمرارية السلطة الذكورية مع حماية المرأة من سوء استخدامها. فلا توجد حالة أخرى (فيما عدا حالة الطفل) يوضع فيها الشخص الذى ثبت قانونيا أنه عانى من الإصابة، تحت السلطة المادية للجانى الذى أوقع به الإصابة. وبالتبعية فالزوجات حتى فى الحالات المتطرفة لسوء المعاملة الجسدية، لا يجدن مناصا من أن يضعن أنفسهن تحت رحمة قوانين وضعت لحمايتهن، فإذا قمن فى لحظة من الغضب المحتدم أو بتدخل من جيرانهم بالثورة والتمرد، فإن كل جهودهن تذهب هباءً حيث لا تؤدى إلا إلى الكشف عن أقل القليل، وتبدو وكأنهم يرجون من الطاغية إعفاءهن من العقاب.

كل الأسباب سواء أكانت اجتماعية أم ترجع إلى الطبيعة الأنثوية تتضافر لتجعل من غير المرجح أن تصبح النساء متمردات على سلطة الرجال. فهن حتى الآن فى وضع يختلف عن كل أقسام الرعايا فى أن سادتهم يطلبون منهن أموراً أكثر من الخدمة الفعلية. فالرجال لا يريدون الطاعة من النساء فقط، بل يريدون عواطفهن. كل الرجال فيما عدا الأشد توحشاً، يرغبون فى أن يحصلوا من النساء القريبات منهم

ليس على عبد يقبل عبـوديته، أى ليس مجـرد عبد ولكن عبداً خانعًا ذليلاً، وبالتالى فقد استخدموا كل شيء فى مقدورهم لاستعباد عقولهن. وكل سادة العبيد الآخرين يعتمدون فى الإبقاء على طاعتهم على الخوف، سواء الخوف منهم أو الخوف الدينى، لكن سادة النساء يريدون شيئًا أكثر من الطاعة، لذلك وجهوا قوة التعليم بكاملها لتحقيق هذا الغرض. فكل النساء تتم تنشئتهم منذ سنوات عمرهن الأولى على اعتقاد أن المثل الأعلى لهن هو عكس ذلك الخاص بالرجال، ليس فى الإرادة الذاتية، أو فى الحكم بأنفسهن لأنفسهن، ولكن فى الاستسلام والاستجابة لحكم الآخرين. القيم الأخلاقية جميعها وكل العواطف الحالية التى هى من طبيعتهن تخبرهم بأن واجب النساء أن يعشن من أجل الآخرين، وأن ينكرن ذواتهن تماما وألا تكون لهن حياة فيما عدا فى عواطفهن. والمقصود بعواطفهن تلك المسموح لهن بها وهى تلك المتعلقة بالرجال الذين هن مرتبطات بهم، أو بالأطفال الذين يشكلون رابطة إضافية لا يمكن فصمها بينهن وبين الرجل. عندما نضع معا هذه الأمور الثلاثة، أولا: الانجذاب الطبيعى بين الجنسين المتضادين، ثانيا : اعتماد الزوجة المطلقة على الزوج بحيث إن كل ميزة أو سعادة تحصل عليها إما أن تكون هبة منه أو تعتمد كلية على إرادته، وأخيراً: أن الهدف الرئيسى للسعى الإنسانى والاعتبارات الإنسانية، وكل أغراض الطموح الاجتماعى لا تحصل عليها المرأة بصورة عامة إلا عن طريق الرجل - فسوف تكون معجزة لو لم يصبح الهدف الأسمى للتعليم الأنثوى وتكوين الشخصية هو أن تصبح جذابة للرجل. فإن إحساسًا غريزيا بالأنانية يجعل الرجال يتمسكون بها للنهاية كوسائل للاحتفاظ بالنساء تابعات لهم، وذلك بأن يظهروا لهن أن الوداعة والرضوخ. والتخلى عن كل إرادة شخصية ووضعها بين يدى الرجل، هى الخصائص الضرورية للجاذبية الجنسية. فهل يمكن الشك إذن فى أن كل الأغلال الأخرى التى نجح الجنس الإنسانى فى تحطيمها كانت ستظل موجودة حتى الآن، ولو توافرت الوسائل نفسها واستخدمت بدأب لقهر العقول عليها؟

(٦)

الاعتبارات السابقة تكفى لإيضاح أن العادة مهما كانت عالمية، لا توفر فى هذه الحالة أى احتمال ولا يجب أن تخلق أى تعصب فى صالح الترتيبات التى تضع النساء فى تبعية اجتماعية وسياسية للرجال. ويمكننى أن أستطرد وأقرر أن مسار التاريخ وميول المجتمع الإنسانى التقدمى يوفران ليس فقط انعدام وجود احتمال لعدم المساواة فى الحقوق لصالح هذا النظام، ولكن يوفران افتراضًا ضده، وإنه إلى المدى الذى وصل إليه التقدم الإنسانى حتى الآن، فإن التيار العام للميول الحديثة يجيز استنتاج أن هذه البقايا من الماضى لا تتوافق مع المستقبل ويجب أن تختفى بالضرورة.

أنا بعيد كل البعد عن ادعاء أن الزوجات لا يعاملن بصفة عامة أفضل من العبيد، ولكن ليس كل عبد عبداً بنفس أبعاد ومعنى الكلمة كالزوجة. فليس أى عبد، فيما عدا المرتبط بشخص سيده بصورة خاصة، يكون عبداً طوال كل الساعات والدقائق، فهو مثل الجندى لديه مهمة محددة عندما ينجزها أو عندما لا يكون فى وقت الخدمة، من حقه التصرف فى أوقاته ولديه حياة أسرية لا يتدخل فيها سيده إلا نادراً. "فالعم توم" مع أول سادته كانت له حياته الخاصة فى "كوخه" مثله مثل أى رجل يأخذه العمل بعيداً عن بيته، وبمقدوره أن يعيشها مع عائلته، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون عليه الحال بالنسبة إلى الزوجة. ففوق كل اعتبار، المرأة الأَمَة لها (فى الدول المسيحية) حق معترف به، فيما يعتبر التزاما أدبيا، أن ترفض إقامة علاقة مع سيدها، ولكن الزوجة ليست كذلك، فمهما كانت وحشية الطاغية الذى تقيدها به السلاسل، وعلى الرغم من علمها بأنه ربما كان يكرهها، وأن متعته اليومية هى تعذيبها، وعلى الرغم من أنها قد تحس بأنها لا تملك إلا أن تشمئز منه، فباستطاعته أن يطلبها وقتما يشاء ويمارس رغما عنها أسوأ صور الإذلال للإنسان بأن يجعلها أداة لوظيفة حيوانية ضد رغبتها. وبينما هى فى أسر أسوأ صور العبودية فما هو وضعها بالنسبة إلى الأولاد الذين تتقاسم هى والسيد الاهتمام بهم؟ هم وفقًا للقانون أولاده هو، وهو وحده يتمتع بالحقوق الشرعية عليهم، ولا يوجد فعل واحد يمكنها فعله لهم إلا بتفويض منه، حتى بعد أن يموت،

فليست هي الوصي الشرعي عليهم ما لم يكن بإرادته قد جعلها كذلك. فقد كان يمكنه أن يبعدهم عنها ويحرمها من رؤيتهم أو الاتصال بهم إلى أن تم الحد من هذه السلطة بقانون "سرجنت تالفورد".

(٧)

هذا هو وضعها القانوني ومن هذا الوضع لا تمل أن تسحب نفسها، فإذا تركت زوجها لا يمكنها أن تأخذ شيئًا معها، لا أولادها ولا أي شيء آخر تمتلكه قانونا. فإذا أراد، يمكنه إرغامها على العودة بالقانون أو بالقوة العضلية، أو ربما قنع بأن يستولي لنفسه على أي شيء تكسبه أو يعطيه لها أقرباؤها. فقط يمكنها عن طريق الانفصال الشرعي الصادر بحكم محكمة أن تعيش بعيدًا عنه دون أن تجبر على العودة إلى زنزانة سجان هائج، أو تتمكن من استخدام أي مكاسب تحققها لنفعها الخاص دون خوف من أن يظهر في يوم ما رجل لم تره منذ عشرين سنة مثلا ليأخذ كل شيء ويرحل. هذا الانفصال الشرعي حتى عهد قريب، كانت المحكمة تمنحه بمقابل لا يتوافر لأي فرد إلا من المستويات الراقية. وحتى هذه اللحظة لا يمنح إلا في حالات الهجر، أو القسوة المفرطة، ولكن تقوم الشكاوى يوميا في أنه يمنح بسهولة بالتأكيد، إذا حرمت المرأة من أي شيء في الحياة سوى أن تكون الخادمة الشخصية لمستبد، وأن تكون معتمدة في كل شيء على فرصة أن تجد واحدًا لديه الاستعداد لأن يجعلها المفضلة لديه بدلا من أن يجعلها كادحة، فإنه من قدرها الظالم حقا أن يسمح لها بهذه المحاولة مرة واحدة. النتائج المترتبة على هذا الوضع هي أنه حيث يعتمد كل شيء في حياتها على الحصول على سيد طيب، فيجب أن يسمح لها بمحاولة ومحاولة أخرى إلى أن تجد واحدًا، أنا لا أقول إنها يجب أن تحظى بهذه الميزة، فهذه اعتبارات مختلفة تماما، ولكن مسألة الطلاق بمعنى منحها حرية الزواج مرة أخرى هي مسألة بعيدة كل البعد عن غرضي. كل ما أقوله الآن هو التخفيف الوحيد، رغم أنه غير كاف. إن رفضه يكمل

تشبيه الزوجة بالعبد، ليس فى الصورة المعتدلة من العبودية حيث إنه فى بعض قوانين العبودية يمكن للعبد تحت ظروف معينة من المعاملة السيئة أن يجبر سيده على بيعه. ولكن فى إنجلترا، لا يمكن لأى قدر من سوء المعاملة أن يحرر زوجة من معذبها فيما عدا الزنا.

(٨)

أنا لا أرغب فى المبالغة، والقضية لا تحتاج إلى مبالغات. لقد وصفت وضع المرأة القانونى وأساليب معاملتها فعليا، حيث قوانين معظم البلاد أسوأ كثيراً من الذين يقومون بتنفيذها، فالكثير منها ظلت قوانين لأنها نادراً ما طبقت أو لم تطبق على الإطلاق، فإذا كانت الحياة الزوجية على ما هو متوقع أن تكون، فإن النظر إلى القوانين وحدها يجعل المجتمع جحيما على الأرض، ولكن ولحسن الحظ توجد المشاعر والاهتمامات التى تجعل العديد من الرجال يستبعدون الدوافع والنزعات التى تقود إلى الطغيان، ومن هذه المشاعر الروابط التى تربط بين الرجل وزوجته والتى فى الحالة الطبيعية للأمور توفر أقوى الأمثلة. والرابطة الوحيدة التى تقترب منها هى التى تقوم بينه وبين أطفاله التى تؤدى، فيما عدا حالات استثنائية، إلى تقوية الرابطة الأولى لا أن تتعارض معها.

ولأن هذا صحيح ولأن الرجال فى أغلب الأحوال لا يوقعون البؤس الذى يمكنهم إيقاعه إذا ما مارسوا سلطة الطاغية التى يتمتعون بها قانونًا على أسرهم، ولا تعانى النساء من إيقاعه، فإن المدافعين عن الشكل القائم من العلاقة يعتقدون أن الظلم أحيانا له ما يبرره، وأن أى شكوى هى مجرد شجار مع الشر وهو الثمن الذى يدفع فى سبيل أى خير عظيم. ولكن التخفيف فى الممارسة، الذى يتوافق مع الإبقاء على هذا الطغيان أو غيره فاعلا بقوة القانون، بدلا من أن يكون اعتذاراً عن الاستبداد، يدلل فقط على ما للطبيعة الإنسانية من قوة على الحرب ضد العلاقات السيئة وعلى الحيوية التى تملكها بذور الخير والشر فى الطبيعة الإنسانية لإكثار نفسها. ولا توجد كلمة واحدة يمكن أن تقال عن الاستبداد فى الأسرة لا يمكن قولها عن الاستبداد السياسى.

(٩)

النقطة الأخرى هى الخاصة بعدالة المساواة بين النساء عند قبولهن فى الوظائف والمهام التى لا يشغلنها حتى الآن، والتى يحتكرها الجنس الأقوى. لا أتوقع أى صعوبة فى إقناع أى فرد وافقنى على المساواة بين النساء فى محيط الأسرة بذلك، وأعتقد أن التذرع بعجزهن فى أمور أخرى حجةٌ غير مقبولة، ووسيلة للحفاظ على تبعيتهن فى الحياة المدنية. لأن أغلبية الجنس الذكرى لا تستطيع تحمل فكرة الحياة مع أنداد مساوين لهم فى الحقوق والواجبات. ولو لم يكن الأمر كذلك، فأنا أعتقد أن كل فرد تقريباً، فى الحالة الراهنة، سوف يوافق على عدم عدالة استبعاد نصف الجنس البشرى من معظم الوظائف المفيدة، ومن كل الوظائف الاجتماعية العليا، بتكريس فكرة أنهن ومنذ ولادتهن، إما لسن ولا يمكن أن يصبحن صالحات لوظائف هى متاحة لأحط وأغبى أفراد الجنس الآخر من الرجال، أو أنهن مهما كن صالحات فإن الوظائف محرمة عليهن لكى تتاح للفائدة المطلقة للذكور.

فى القرنين الماضيين، عندما كان أى سبب بخلاف الحقيقة يعتقد أنه مطلوب لتبرير عجز النساء، نادراً ما أرجع الناس السبب إلى قدراتهن العقلية والمدنية، والتى عندما كانت هناك اختبارات حقيقية للقدرات الشخصية (التى لم تستبعد منها كل النساء) فى معركة الحياة العامة، لم يصدقها أحد. كان السبب المطروح فى تلك الأيام ليس عدم صلاحية النساء ولكن بسبب صالح المجتمع، والذى كان يقصد به صالح الرجال، مثلما كانت الملاءمة الحكومية وتأييد السلطة القائمة تبريراً كافياً وعذراً لأقبح الجرائم.

(١٠)

فى أيامنا هذه، تستخدم السلطة لغة أنعم، وتدعى لمن تضطهده أنها إنما تفعل ذلك لصالحه، وبالتالى إذا حُرِّم شىء على النساء فقد كان من الضرورى أن يقال وأن يعتقد إنهن غير قادرات على فعله، وإنهن يبتعدن عن مسار نجاحهن وسعادتهن عندما يفعلنه. ولجعل هذا السبب مقنعاً (ولا أقول صحيحاً) فإن من يقررون ذلك يجب أن يمارسوه

إلى مدى أكبر من أى شخص يغامر بعمله فى وجه الخبرة الراهنة. ليس كافيًا الإصرار على أن النساء هن فى المتوسط أقل مواهب من الرجال فى القدرات العقلية العليا، أو أن عددًا من النساء أقل من الرجال يصلح لوظائف ومهام تتطلب قدرات فكرية عالية. من الضرورى الإصرارعلى أنه لا توجد نساء على الإطلاق صالحات لهذه الأمور وأن أعظم النساء سموًا متدنيات فى القدرات العقلية بالمقارنة بمعظم الرجال الذين توكل إليهم هذه الوظائف حاليا.. وهذا ليس بعدل!

إذا كان أداء الوظيفة يتحدد بالتنافس أو أى أسلوب للاختيار يوفر اعتبارًا للصالح العام، فلا يجب أن يكون هناك خوف من أن تصبح أى وظيفة مهمة من نصيب النساء الأدنى فى المتوسط من الرجال المنافسين. النتيجة الوحيدة سوف تكون وجود عدد أقل من النساء عن الرجال فى مثل هذه الوظائف، وهذه النتيجة من المؤكد حدوثها فى كل الحالات ولو من مجرد التفضيل الذى من الأرجح أن تشعر به معظم النساء للمهنة التى يتنافس عليها أحد معهن.

الآن لا يمكن لأشد المحتقرين للنساء أن ينكر أنه عندما نضيف خبرة الأزمان القريبة إلى خبرة العصور الماضية، نجد أن النساء، الكثيرات من النساء، قد أثبتن أنهن قادرات على فعل كل شيء – ربما دون استثناء واحد – يفعله الرجال وأنهن قادرات على فعله بنجاح واقتدار.

(١١)

أقصى ما يمكن قوله هو أن هناك الكثير من الأشياء التى لم تنجح واحدة منهن فى عملها بنفس إتقان بعض الرجال، والكثير من هذه الأعمال لم يصلن فيها إلى أعلى مستوى من الأداء. ولكن القليل جدا من الأعمال، التى تعتمد فقط على القدرات العقلية لم يصلن فيها إلى المستوى التالى للأفضل، أليس هذا كافيا وأكثر من أن يكون كافيا لأن يعتبر طغيانًا وضررًا بالمجتمع ألا يسمح لهن بالتنافس مع الرجال لممارسة هذه الوظائف؟ أليست حقيقة أن معظم هذه الوظائف عادة ما يشغلها رجال أقل صلاحية

لهذه الوظائف عن عدد من النساء، وتتفوق عليهن النساء فى أى ميدان للتنافس؟ ما الفرق فى أن يكون هناك رجال فى مكان ما موظفون فى أشياء أخرى، وهم أفضل تأهيلاً لأداء الأشياء محل التساؤل عن النساء؟ ألا يحدث ذلك فى كل المنافسات؟ هل هناك أغلبية كاسحة من الرجال الصالحين لأداء المهام الصعبة بحيث يمكن للمجتمع رفض خدمات أى فرد قادر عليها؟ هل نحن متأكدون من أننا نجد دائما الرجل المناسب لأى مهمة أو وظيفة ذات أهمية اجتماعية تصبح شاغرة، بحيث إننا لا نخسر شيئًا بأن نمنع نصف الجنس البشرى من شغلها، ونرفض منذ البداية أن نعترف بقدراتهن المتاحة مهما كن متميزات؟ وحتى إذا استطعنا الاستغناء عنهن، هل يتفق مع العدالة أن نرفض أن يكون لهن نصيبًا عادلاً من الشرف والتميز، أو أن ننكر عليهن الحقوق الأدبية المتساوية والمتوافرة لكل البشر فى اختيار وظيفتهن وفقا لتفضيلهن ووفقا لاستعدادهن؟

إن الظلم قاصر عليهن فقط، ويشترك فيه أولئك الذين يمكنهم الاستفادة من خدماتهن. الذين يقررون أن طرازًا معينًا من الأشخاص لا يجب أن يصبح طبيبًا أو لا يجب أن يكون محاميًا أو عضواً بالبرلمان. إنه جرح ليس لهن فقط بل لكل من يوظفون أطباء أو محامين أو ينتخبون أعضاء فى البرلمان، الذين حرموا من الأثر المنشط للتنافس الأعظم بين المتنافسين، كما أنه يحد إلى حد كبير من الاجتهادات الفردية.

(١٢)

إذا فكرنا فى حال الصبى الذى ينشأ حتى الرجولة معتقداً أنه حتى بدون أى ميزة أو أية مبادرات منه تؤيد قدراته، وحتى إذا كان الأشد طيشاً وخواءً أو الأعظم جهلاً وغباءً بين كل البشر، فلمجرد أنه وُلد ذكراً فإن من حقه أن يكون متفوقًا على كل أفراد النصف الآخر من الجنس البشري، بما فى ذلك البعض الذى أحس هو بتفوقه عليه فى كل يوم وكل لحظة، وحتى إذا كان فى محل أفعاله يتبع إرشادات امرأة - إذا كان أحمق - وكانت هذه المرأة تعتقد بالطبع أنها ليست كذلك، ولكنها لا يمكن أن تكون

مساوية له فى قدرتها وحكمها على الأمور، وتؤمن بأنها بالرغم من تفوقها عليه، فإن من حقه أن يأمرها وعليها أن تطيع. ماذا سيكون أثر هذا الدرس على شخصيته؟ رجال التطبيقات المستنيرة عادة لا يدركون مدى عمق ما تصل إليه هذه الأمور فى عقلية معظم الذكور، فبين الأشخاص صادقى الإحساس وجيدى التربية يتم الحفاظ على عدم المساواة بقدر الإمكان. بعيداً عن الأنظار، وفوق كل شىء بعيداً عن أنظار الأطفال.

فالطاعة المطلوبة من الأولاد لأمهاتهم تعادل تلك المطلوبة منهم لآبائهم ولا يسمح لهم بالسيادة على أخواتهم، أو يعتادون أن ذلك أمر مؤجل لهم بل على النقيض، التعويض بالأحاسيس النبيلة يكون واضحا، بينما تحجب الخدمة المطلوبة لهم من أخواتهم فى الظل، وبالتالى، فالشباب جيد التربية فى الطبقات الراقية يهربون عادة من الآثار السيئة لأوضاع السنوات الباكرة من حياتهم ولا يواجهونها إلا عند الوصول إلى مرحلة الرجولة حيث يقعون تحت أسر الحقائق كما هى موجودة. هؤلاء الناس لا يدركون إدراكًا كافيا عندما ينشأ الصبى بطريقة مختلفة كيف تطرأ على عقله مبكرا فكرة التفوق على البنات بقوته، وكيف تنتقل هذه الفكرة من صبى إلى آخر وكيف تنمو بنموه وتقوى بقوته، وكيف يدرك الصبى مبكرًا تفوقه على أمه ويدين لها فقط بالتحمل وليس بالاحترام الحقيقى، وكيف يشعر بأنه كالسلطان على المرأة التى تكون أقصى درجات تقديره لها هى أن يسمح لها بمشاركته حياته. هل من المتصور أن كل ذلك لا يؤدى إلى فساد كل أخلاقياته باعتباره فرداً وكائنًا اجتماعيا؟

لو لم يسمح بأن يكون لفرد سلطة على فرد آخر، لم يكن المجتمع لينشغل بأن يصنع قواعد بيد ويحدها باليد الأخرى. سيتعلم الطفل للمرة الأولى منذ مولده ومن وجوده على الأرض الطريقة التى يجب أن يعيش بها، وعندما يكبر سوف تكون هناك فرصة ألا يتملص منها. ولكن ما دام حق الأقوى فى أن يحكم الضعيف لا يزال فاعلاً فى قلب المجتمع، فإن محاولة جعل المساواة فى الحقوق للضعيف هى القاعدة ستكون دائما صراعًا لصعود الجبل، لأن قانون العدل الذى هو أيضًا قانون المسيحية لن يستحوذ على مشاعر البشر أبداً؛ لأنهم سيعملون ضده حتى ولو خضعوا له.

(١٣)

الفائدة الثانية من إعطاء النساء حق استعمال إمكانياتهن هى أن تترك لهن حرية اختيار وظائفهن، وأن تفتح لهن نفس مجالات الوظائف ونفس المكافآت والتشجيع المتاحة لغيرهم من البشر، فهى مضاعفة أكيدة لكم القدرات العقلية المتاحة لخدمة الإنسانية. فإذا وجد الآن شخص واحد مؤهل لأن يفيد البشر ويزيد من التقدم العام، كالمدرس أو المدير لمؤسسة تقدم الخدمات الجماهيرية أو الاجتماعية، فسوف تتوافر فرصة وجود اثنين.

إن ارتباط الرجال مع النساء فى الحياة اليومية هو أشد قربا وأكثر اكتمالا الآن عما كان قبلا بكثير، وحياة الرجال أصبحت أكثر استئناسا. قبلاً كانت مسراتهم ووظائفهم المختارة بين الرجال وفى صحبة الرجال، وكانت لزوجاتهم شظايا قليلة من حياتهم. حاليا فإن تقدم المدنية وتحول الآراء ضد اللهو الخشن والإفراط فى المسرات التى كانت فيما سبق تشغل معظم الرجال خلال ساعات استرخائهم، بالإضافة إلى تحسن نمط الشعور الحديث فيما يختص بتبادلية الحب الذى يربط الزوج بزوجته، قد أعاد الرجل مرة أخرى إلى بيته ورفاق حياته، وإلى مسراته الشخصية والاجتماعية، بينما طراز ودرجة التحسن اللذان طرآ على تعليم النساء جعلهن قادرات بدرجة ما على أن يشاركن رفاقهن من الرجال فى الأفكار والمناقشات العقلية، ولكن ظلت النساء فى معظم الحالات أدنى منهم بصورة كبيرة.

إن رغبة الرجل فى الصحبة العقلية لا تكون هكذا قد أشبعت بصحبة لم يتعلم منها شيئًا. لقد حل محل الصحبة غير المتطورة وغير المحفزة صحبة أندادٍ فى السلطة ورفاق فى السعى. ونرى بالتالى أن شباب الرجال الواعدين يقفون عن التطور بمجرد زواجهم، ولأنهم لا يتحسنون، فلا بد أن يتدهوروا. فإذا لم تدفع الزوجة زوجها للأمام فإنها دائما ما تجرجره للخلف، فهو يفقد الاهتمام بالأمور التى لا تهتم هى بها، ولا تصبح له أهداف ذات قيمة، وينتهى به الأمر بأن يكره صحبة من كانوا موالين لآرائه وميوله والذين يجعلونه يحس بالزهو معهم ويضعف الشأن إذا ابتعد عنهم.

إن قدرته العقلية والنفسية يبطل استعمالها، ويتوافق هذا التغير مع الاهتمامات الذاتية الجديدة التي تخلقها الأسرة، فبعد سنوات قليلة لن يختلف بأى درجة عن أولئك الذين لم يرغبوا إلا في الزهو الرخيص والأغراض المالية المعتادة.

(١٤)

كيف يكون الزواج بين اثنين بقدرات عقلية عالية ومتوافقين في الآراء والأهداف ويوجد بينهما أفضل نماذج المساواة والسلطة المتماثلة والقدرات المتماثلة بتفوق متبادل بينهما، بحيث يتمتع كل منهما بلذة التطلع إلى الآخر وفي أن يكون له بالتبادل سعادة أن يقود وأن يقاد في طريق التقدم؟ لن أحاول وصف ذلك.

بالنسبة إلى من يستطيعون إدراك ذلك بعمق، لا حاجة لي بذلك، أما بالنسبة إلى من لا يستطيعون، فيبدو لهم كحلم المتحمس. ولكنى ما زلت أصر وباقتناع كامل، أن ذلك، وذلك فقط، هو الزواج المثالي وأن كل الآراء والعادات والمؤسسات التي تفضل أى صورة أخرى، أو تحول أى تصورات أو أفكار مرتبطة به إلى أى اتجاه آخر، تحت أى ادعاءات يمكن إلصاقها بها، هي بقايا البربرية البدائية.

إن التجدد الخلقي للبشرية سوف يبدأ بالفعل عندما توضع العلاقات الاجتماعية الأساسية تحت حكم العدالة المتساوية، وعندما يبدأ البشر في تعلم أن ينمُّوا أقوى عواطفهم مع من هو مساوٍ لهم في الحقوق والرعاية.

إلى هنا، فإن الفوائد التي سيحصل عليها العالم بمنع جعل الجنس عامل عدم تأهل لمزايا معينة وعلامة للتبعية هي جد كثيرة، وهي فوائد جماعية وليست فردية، مكونة من زيادة الحصة العامة من الفكر والسلطة الفاعلة، وتحسن في الأوضاع العامة لارتباط الرجال والنساء. ولكن سيكون من غير المنصف إغفال الفائدة المباشرة والأشمل، وهي السعادة الخاصة للنصف المحرر من النوع الإنساني، والتي تتمثل بالنسبة إليهم في الفرق بين حياة التبعية لإرادة الغير، وحياة الحرية الرشيدة. فبعد الضرورات الأساسية من الأكل والملبس وخلافه، فالحرية هي المطلب الأول والأقوى للطبيعة الإنسانية.

فعند النظر إلى الضرر الذى يصيب النصف غير المؤهل من السلالة الإنسانية نتيجة حرمانهم فى البداية من أكثر حقوق الاستمتاع الشخصى إلهامًا وسموا، وما يترتب عليه من إنهاك وإحباط وعدم رضا عن الحياة، والتى كثيرًا ما تكون البديل للحياة نفسها، فإن المرء يشعر بأن من بين كل الدروس التى يحتاجها البشر لاستمرار خوض المعركة ضد النقائص المحتومة لنصيبهم على الأرض، فلا شىء يحتاجونه أكثر من عدم الإضافة إلى الشر الذى توقعه الطبيعة بهم، مثل كراهيتهم وغيرتهم وتحاملهم ضد بعضهم البعض. إن مخاوفهم الباطلة تجعل شرورًا أخرى أسوأ تحل محل شرور يخافون منها، فى حين أن كل حجر على حرية أخواتهم من البشر يجعلهم مسئولين عن الشر، يجفف النبع الرئيسى للسعادة الإنسانية، ويجعل النوع الإنسانى ذكورًا وإناثًا أقل ثراءً بدرجة غير مناسبة وفى كل مجال يجعل الحياة ذات قيمة للإنسان.

النساء والاقتصاد

شارلوت بيركنز جيلمان

(١)

الوضع الاقتصادى للجنس البشرى فى أية دولة وفى أى وقت تحكمه أنشطة الذكور، وتحصل الأنثى على نصيبها من التقدم من خلاله فقط.

دراسة الحقائق واحدة تلو الأخرى يجعلها أكثر وضوحًا وأكثر انفتاحًا وإدراكا. فمن عامل اليومية إلى المليونير، ومن ثوب الزوجة المهلهل إلى الجواهر اللامعة، ومن المنزل المتواضع إلى القصر الفخم، ومن القدم الخشنة المنهكة إلى القدم التى لها ملمس الحرير.. كلها دلائل على القدرة الاقتصادية للزوج. وسائل الراحة والترف وضروريات الحياة نفسها التى تصل إلى المرأة، كلها تأتى عن طريق الزوج الذى يمنحها لها، وعندما تحاول المرأة توفير ضرورياتها الاقتصادية، كما فى حالة عدم وجود رجل ليعولها، فإن الصعوبات التى تواجهها تبرهن على دقة الوضع الاقتصادى العام للمرأة، ولكننا نواجه فى التو بالرأى الشائع الذى يقول بأنه على الرغم من ضرورة قبول حقيقة أن الرجال يصنعون ويوزعون ثروات العالم، فالنساء يكتسبن نصيبهن منها بصفتهن زوجات. وهذا يفترض إما أن الزوج هو فى وضع صاحب العمل والزوجة فى وضع الموظف، أو أن الزواج هو "شراكة" والزوجة عامل مساوٍ للزوج فى إنتاج الثروة.

إن النساء يستهلكن سلعًا اقتصادية، فما المنتجات الاقتصادية التى تعطيها مقابل ما تستهلكه؟ إن ادعاء أن الزواج شراكة ينتج فيها المتزوجان ثروة لا يستطيع أى منهما منفردًا أن ينتجها أمر لا يحتمل النقاش. فالرجل السعيد والمستريح يمكنه

أن ينتج أكثر من الرجل غير السعيد وغير المستريح، ولكن هذا يصدق على الأب والابن كما يصدق على الزوج. إذا سلب الرجل أيا من الظروف التى تجعله سعيداً وقويا فإن هذا يعوق قدرته بصفة عامة. ولكن أولئك الأقرباء الذين يجعلونه سعيداً ليسوا شركاء فى العمل، ولكن لهم الحق فى مشاركته دخله.

(٢)

العائد المتمثل فى الاعتراف بالجميل للسعادة المتوفرة ليس أسلوب التبادل فى الشراكة. فالراحة التى يحصل عليها الرجل مع زوجته ليست فى طبيعة الشراكة فى الأعمال ولا فى تدبيرها واجتهادها. فربة المنزل فى موقعها قد تكون مدبرة ومجتهدة ولكنها لن تكون شريكة. فالرجل وزوجته شريكان حقا فى واجباتهما المتبادلة تجاه أطفالهما فى حبهما المشترك وواجبهما تجاههم وخدمتهم. ولكن الصانع الذى يتزوج أو الطبيب أو المحامى لا يتخذ بذلك شريكًا فى الأبوة، ما لم تكن زوجته صانعة أو طبيبة أو محامية.

فإذا لم تكن المرأة بحق شريكًا فى العمل، فبأية صورة تكسب من زوجها الطعام والملابس والمأوى التى تحصل عليها من يديه؟ ستكون الإجابة فى التو: فى مقابل الخدمة المنزلية! هذه هى الفكرة الضبابية عن الموضوع. إن النساء يكسبن كل ما يحصلن عليه وأكثر عن طريق الخدمة المنزلية. هنا نأتى إلى أرضية عملية جدا واقتصادية جدا، فعلى الرغم من أنهن لسن منتجات للثروة، فالمرأة تخدم فى المرحلة النهائية للتجهيز والتوزيع، فخدماتهن فى محيط الأسرة لها قيمة حقيقية.

عندما تخدم نسبة معينة من الناس أناساً غيرهم لكى ينتج الذين يخدمونهم أكثر، فإن ذلك يعد مشاركة لا يجب التغاضى عنها. وعمل المرأة فى المنزل، يجعل الرجال ينتجون ثروة أكبر عما كان بمقدورهم إنتاجه. ولكن الجياد أيضًا كذلك. فعمل الجياد يجعل الرجال ينتجون ثروة أكبر عما كان بمقدورهم إنتاجه. فالحصان هو عامل اقتصادى أيضًا فى المجتمع، ولكن الحصان ليس مستقلاً اقتصاديا ولا المرأة.

العمل الذى تؤديه الزوجة فى محيط الأسرة جزء من واجبها العملى وليس وظيفة. فزوجة الرجل الفقير التى تكد فى منزل صغير مؤدية كل الأعمال للأسرة، أو زوجة الرجل الغنى التى تدير بحكمة ورشاقة منزلاً كبيراً وتشرف على أعماله، كلتاهما من حقها الحصول على مقابل للخدمات التى تقدمها.

فالزوجات كمكتسبات عن طريق الخدمة المنزلية، من حقهن الحصول على أجور الطباخين والخادمات المنزليات والممرضات ومدبرات المنزل ولا أكثر من ذلك. هذا بالطبع سوف يخفض المال المنفق لزوجات الأغنياء ويجعل من الصعب على الرجل الفقير الموقف بكليته، ويدفع لزوجته أجرها كخادمة منزل ثم يقوم هو وزوجته بجمع مالهم معًا لإعالة أطفالهم، فهو سوف يحتفظ بخادمة وهى سوف تساعد فى الحفاظ على الأسرة. ولكن أين على وجه الأرض توجد "المرأة الغنية" نتيجة هذه الوسائل؟ حتى أعلى طبقات مدبرات المنزل مهما كن مفيدات بنفس درجة خدماتهن فإنهن لا يجمعن من ذلك ثروة.

(٣)

إن الحقيقة البارزة فى هذا النقاش أنه مهما تكن القيمة الاقتصادية للعمل المنزلى، فالنساء لا يجمعن من ورائها ثروة. فالنساء اللاتى يقمن بمعظم العمل يحصلن على أقل المال، والنساء اللاتى لديهن معظم المال يقمن بأقل عمل، فعملهن لا يعطى أو يؤخذ كعامل فى التبادل الاقتصادى، إنه يؤخذ على أنه من واجبهن كنساء أن يقمن بهذا العمل ووضعهن الاقتصادى ليس له علاقة بعملهن المنزلى ما لم تكن العلاقة عكسية، وأكثر من ذلك، فإنهن إذا حصلن على أجورهن بعدالة - أى أن يمنحن ما اكتسبنه لا أكثر منه - فكل النساء اللاتى يعملن بهذه الطريقة سوف يهبطن إلى المستوى الاقتصادى لخادمة المنزل.

القليل من النساء - والرجال أيضًا - يهتمون بمواجهة هذا الوضع. فالنساء حين يكسبن معيشتهن بالعمل المنزلى يتم التغاضى عنه فى التو، ويقال إنهن يحصلن

على معيشتهن كأمهات، هذا وضع شاذ، نحن نتحدث عنه كثيراً وبمشاعر عميقة ولكن دون أن نخضعه للتحليل.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الأمومة تصبح سلعة للتبادل، تعطيها النساء مقابل أجر الكساء والغذاء، وعلى ذلك يصبح من الضرورى أن توجد بعض العلاقة بين كمية الأمومة أو نوعيتها وكمية الأجر المقابل أو نوعيته، ولأن هذا ليس بصحيح، فالنساء اللاتى لسن بأمهات لن يكون لديهن وضع اقتصادى على الإطلاق، والوضع الاقتصادى للاتى هن كذلك لابد من أن يتناسب مع أمومتهن، وهذا بالطبع غير معقول. فالزوجة التى ليس لها أولاد لديها من المال ما لدى التى لها العديد من الأولاد وأكثر، لأن أولاد الأخيرة سيستهلكون ما كان سيؤول إليها والأمهات الأقل كفاءة يقل ما يحصلن عليه عن الأكثر كفاءة، ويصبح من الواضح وفقًا لذلك أن النساء لا يتناسب تمتعهن بالرفاهية الاقتصادية مع أمومتهن، وادعاء أن الأمومة عامل للتبادل الاقتصادى هو ادعاء زائف هذه الأيام، ولكن بفرض أنه صحيح، فهل لدينا الإرادة على الإصرار على ذلك ولو نظريا؟ هـل لدينا الإرادة على أن نعتبر أن الأمــومة عمل وشكل من أشكال التبادل التجارى؟ هل رعاية الأم وواجباتها وكدها وحبها لأبنائها سلع يمكن مبادلتها بالخبز؟

إنه لمن المثير للاشمئزاز اعتبارها كذلك، وإذا ما جرؤنا على مواجهة أفكارنا الخاصة، وخرجنا منها بالاستنتاجات المنطقية، فسوف نرى أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر امتهاناً للمشاعر الإنسانية أو مهينًا اجتماعيا وفرديا من جعل الأمومة سلعة وتجارة.

وبالابتعاد عن تلك الادعاءات الخاصة باستقلال النساء الاقتصادى، وباتضاح أن النساء باعتبارهن طبقة لا ينتجن ولا يوزعن الثروة، وأن النساء بصفتهن أفراداً يعملن بالأساس خادمات فى البيوت دون أن يدفع لهن أجر على ذلك، وإنهن لن يرتضين بهذا الوضع الاقتصادى حتى إذا ما دفع لهن أجر، وأن الزوجات لسن شريكات عمل أو منتجات مشاركات للثروة مع أزواجهن ما لم يكن يمارسن المهنة نفسها، وأنهن لا تدفع لهن رواتب كأمهات لأن ذلك سيكون مهينًا بدرجة عظيمة. فما الذى يبقى لأولئك الذين ينكرون أن النساء يعولهن الرجال؟! لا سبيل إذن إلى إنكار أن وظيفة الأمومة تجعل المرأة مناسبة لكى تنتج اقتصاديا، وبالتالي فمن الضرورى أن يعولها زوجها.

(٤)

بسببي واجبات الأمومة، فأنثى الإنسان يقال إنها غير قادرة على ما يوفر لها ضرورات حياتها. وحيث إن واجبات الأمهات كغيرهن من الإناث لا تمنعهن من الحصول على معيشتهن الخاصة ومعيشة صغارهن أيضاً، فالمرجح أن واجبات الأمومة الإنسانية تتطلب تخصيص كل طاقات الأم لخدمة الطفل عبر حياتها الناضجة بكاملها، أو نسبة كبيرة منها، بحيث لا يبقى ما يكفي للاهتمامات الشخصية للأم.

هل هذا إذن حال الأمومة الإنسانية؟ وهل الأم الإنسانية ونتيجةً لأمومتها، تفقد التحكم فى المخ والجسم، وتفقد السلطة والقدرة والرغبة فى أى عمل آخر؟ هل نرى أمامنا الجنس البشرى وقد عزلت الإناث فيه تماما لاستخدامات الأمومة، مكرسات طاقاتهن ومفصولات عن أى واجبات أخرى ومهيآت فقط لإنفاق كل قوى طبيعتهن لخدمة أطفالهن؟

نحن لا نرى ذلك، نحن نرى الأم الإنسانية تعمل بكد أكثر كثيراً من قدرة احتمالها، وتبذل الجهد طوال حياتها فى الخدمة ليس لأطفالها فقط، ولكن للرجال أيضاً، فهم الأزواج والإخوة والأشقاء والآباء وأى قريب لها من الذكور. وحتى للأم والأخوات الإناث، وللكنيسة أيضاً، إذا سمح لها، وكذلك للمجتمع إذا كانت تستطيع، وللأعمال الخيرية والتربية والتقويم، إنها تعمل بكثير من الطرق التى لا تدخل فى نطاق الأمومة.

ليست الأمومة هى ما تجعل ربة المنزل واقفة على قدميها من الفجر إلى الليل، إنها الخدمة فى المنزل وليست خدمة الطفل. النساء يعملن أطول وبكد أكبر من معظم الرجال، وليس للأمومة فقط. الكثيرات من الأمهات، حتى حالياً، يحسبن أجوراً للأسرة، بالإضافة لعملهن مربيات وحافظات لها. والنساء اللاتى لا ينشغلن بذلك، أى اللاتى ينتمين لرجال أغنياء، ربما يوجد لديهن التكريس المطلق للأمومة، والذى من المفترض أن يبرر اعتمادهن الاقتصادى. ولكننا لا نجد ذلك حتى فى هذه الحالات. فالنساء المستريحات الثريات يوفرن لأطفالهن رعاية أفضل من النساء الفقيرات، ولكنهن لا ينفقن وقتا أطول على ذلك أو يبذلن رعاية وجهداً أكبر، فلديهن مشاغل أخرى.

فعلى الرغم من انعزالها المفترض لواجبات الأمومة، فأنثى الإنسان في العالم بكامله تعمل بواجبات غير متعلقة بواجباتها بصفتها أمًا لساعات تكفي لتمنحها حياة مستقلة، ولكنها لا تحصل على الاستقلال الاقتصادي على أساس أن الأمومة تعوقها عن العمل.

(٥)

مع تقدم المدنية، تبلورت تدريجيا في صورة قانون، الحاجة الواضحة لإعالة النساء العاجزات، وحتى المسنات من النساء يرعاهن أقاربهن من الذكور. ولكن حتى يومنا هذا، باستثناء الجيش المتزايد من النساء اللاتي يكتسبن أجرًا واللاتي يغيرن وجه العالم بتقدمهن المثابر نحو الاستقلال الاقتصادي، فإن الفوائد الشخصية للنساء على علاقة قوية بقدرتهن على الفوز والإمساك بالجنس الآخر. فمن الجارية ذات الأساور إلى الممثلة ذات الماس المتلألئ، لاتزال هذه العلاقة التقليدية قائمة "الفائدة الاقتصادية للنساء تأتي عبر قوة الانجذاب الجنسي للرجال".

عندما نقرر هذه الحقيقة بشجاعة ووضوح في سوق الرذيلة المفتوح فإننا نصاب بالذعر. وعندما نرى العلاقات الاقتصادية نفسها قد أصبحت دائمة، ومقررة قانونًا، ومحصنة دينيا، وتعلوها الزهور والبخور وكل العواطف المتراكمة، نعتقد أنها بريئة ومحببة وصحيحة. ولكننا نعتقد أن العلاقة المؤقتة شر، وأن الصفقة التي تستمر طوال الحياة خير، ولكن الأثر البيولوجي يبقى كما هو. في كلتا الحالتين تحصل الأنثى على طعامها من الذكر بفضل علاقتها الجنسية به. في كلتا الحالتين وربما أكثر في حالة الزواج، نتيجة القبول المطلق للوضع. أنثى الإنسان لاتزال تعيش تحت القانون الطبيعي الذي تحول بتصلب إلى الجنس في صورة متزايدة.

حالة أخرى من الظلم البين شديد الوضوح وشديد الشر وشديد العمومية، والتي أدت أحيانا إلى أن تثور بعض الاعتراضات حتى من ضمائرنا المظلمة وهي إجبار المرأة على الزواج. فبالنسبة إلى الفتاة الصغيرة، كما سبق القول، الزواج هو إحدى

الطرق للثروة وللحياة. لقد ولدت أنثى وتربت بعناية وتدربت على إدراك مميزاتها الجنسية ونقائصها الجنسية أيضا، وعندما كانت تكسب شيئًا حتى وهى طفلة، كانت تكسبه بالخدع الأنثوية وبأساليب وطرق أنثوية تعتمد على الفتنة. قراءتها فى التاريخ والروايات، زادها ثقة بوضعها كأنثى، وبوضع النساء عامة الذى يعطيه الشعر والرومانسية السيادة المطلقة. فالفنون المختلفة كالتصوير والموسيقى والدراما، والمجتمع حولها وكل شىء، يخبرها بأنها "هى" وأن كل شىء يعتمد على من ستتزوجه. بينما يخطط الأولاد الصغار لما سوف ينجزونه ويصلون إليه، بينما تخطط البنات الصغار لمن سوف يصلن إليه ويحصلن عليه من الرجال.

بمثل تلك الآمال أمامها، وبتنظيم صمم خصيصًا لهذه النهاية، بتعليم يضيف كل المُثُل والمُدَركات، وكل الحكمة والفضيلة إلى الغريزة الطبيعية، مع بيئة اجتماعية كل مكوناتها مخططة لتعطى الفتاة فرصة أن تُرى وأن يراها الآخرون، ولتوفر لها "الفرص". ومع كل الضغوط الخاصة بالمزايا الشخصية والاهتمام بالذات مضافة إلى الغريزة الجنسية، فما الذى يمكن أن يتوقعه المرء منطقيا سوى مجتمع ملىء بصائدات الأزواج المستقتلات اللاتى ينظر إليهن بالرضا والثقة.

(٦)

أنا أقول "لا" على الإطلاق! فالزواج هو مجال المرأة المناسب، وهو موقعها الذى رسمته لها السماء، هو نهايتها الطبيعية. إنه الشىء الذى ولدت من أجله، وتربت من أجله والذى تُعرض من أجله. إنه وسيلتها لحياة كريمة وللتقدم، ولكن، لا يجب عليها أن تبدو وكأنها تريده. لا يجب عليها أن تقلب يدها كى تحصل عليه. يجب أن تجلس فى سلبية والفصول تمر "وفرصها" تضمحل كل عام. فكر فى الإجهاد لكائن شديد الحساسية والعصبية عندما يتعلق الكثير جدا بأمر واحد، فى رؤية أن إمكانية الوصول إليه تضعف وتضعف بعد عام ويمنع من أخذ أى خطوة لتأمين الحصول عليه. يجب عليها تحمل ذلك بعزة وكبرياء حتى النهاية.

الظلم القاسى واللامعقول فى لوم الفتاة لعدم حصولها على ما هو متاح لها دون جهد يبدو واهيًا، ولكنه يتضح عندما ينظر إليه بمنظور العلاقة (الجنس – اقتصادية). فرغم أن الزواج وسيلة للحياة، فإنه ليس بوظيفة شريفة عندما يقدم الفرد جهده دون خجل. لكنه علاقة يتم فيها إعطاء الإعالة مباشرة وبقوة القانون فى مقابل الخدمات الوظيفية للمرأة، "واجبات الزوجة والأم"، وبالتالى فلا توجد امرأة شريفة يمكن أن تطلب.

(٧)

نصف الجنس البشرى ممنوع من التعبير الإنتاجى الحر، ومجبر على قصر طاقته الإنسانية المنتجة على نفس القنوات للطاقة الجنسية التكاثرية. قدراتهن الخلاقة قاصرة على الخدمات الجسدية الشخصية والآنية، مثل عمل الملابس وتجهيز الطعام، ولو لم تتوافر لهن الرعاية الاجتماعية. وبينما تكون قدراتهن على الإنتاج محل تساؤل، فإن قدراتهن على الاستهلاك تزيد بانهمار "العلاوات غير المكتسبة" من المنح الذكورية. المرأة غير مسموح لها بالإنتاج الحر، ولا توجد أى علاقة بين ما تنتجه وما تستهلكه. إنها ممنوعة من أن تنتج أى شىء، ولكنها يتم تشجيعها على أن تأخذ ما يقدم لها. وعملها ليس هو الناتج الطبيعى لطاقتها الخلاقة، وهو ليس العمل الذى تقوم به لأن لديها الطاقة والقوة الداخلية تمكنانها من عمله، ولا لأن عملها هو مقياس مكسبها، إنه بالطبع لإشباع الرغبة الطبيعية للاستهلاك، ولا مانع من ذلك، إلا إذا كان مع الإرادة الخاصة بالزوج.

ومع ذلك فنحن قد نشأنا بطريقة مؤلمة ومتعبة، واحتفظنا بعناية فيما بيننا على طبقة كبيرة من المستهلكين غير المنتجين، وهى طبقة تمثل نصف العالم. لقد تأصلت فى تكوين الجنس البشرى عادة ورغبة الأخذ منفصلة عن صنوها الطبيعى فى الصنع. فعلى الأنثى أن تستهلك الغذاء وتستهلك الملابس والبيوت والأثاث وأدوات الزينة وأدوات اللهو، أن تأخذ وتأخذ وتأخذ للأبد، من واحد من الرجال إذا كانت فاضلة أو من الكثيرين إذا كانت خبيثة، ولكن دائما تأخذ ولا تفكر أبدا فى أن تعطى شيئًا فى المقابل

فيما عدا أنوثتها، هذا هو الوضع المفروض على أمهات الجنس البشرى. فما هو وجه العجب فى أن العالم ملىء بالرغبة فى الحصول على كل ما هو ممكن وإعطاء أقل القليل ما أمكن.

(٨)

الأنثى المستهلكة، محرومة من أى إنتاج حر، ولا يمكنها تقدير الجهد المبذول فى صنع ما تدمره هى بكل سهولة. واستهلاكها يقتصر بالدرجة الأولى على تلك الأشياء الموجهة للسعادة الجسدية، وهى بذلك تخلق سوقًا للتزين الحسى والبهرجة الشخصية، ولكل ما يعد زائفًا وتافهًا من هذه الأشياء، بما يمثل اختبارًا مميتًا للصنع الحقيقى والفن الحقيقى. ولأنهن مستهلكات مفرطات، ويطلبن بلا نهاية لأشياء يستعملنها، فإن الآثار الاقتصادية التى تترتب على ذلك تعد ضارة ورجعية. الكثير والكثير جدا من الإنتاج عديم القيمة حاليا، والذى يضيع بلا فائدة ويهدر طاقتنا الاقتصادية، والذى يبعثر قوة الإنسان كالماء على الرمال، يعتمد فى ابتكاره والإبقاء عليه بعناية على هذا السوق الزائف، هذه البالوعة التى يختفى فيها العمل الإنسانى دون رجعة. فالمرأة فى وضعها الاقتصادى الزائف تتعامل بعبث مع الصناعة والفن والعلم والاختراع والتقدم. والعلاقات (الجنس - اقتصادية) بالنسبة إلى آثارها على تكوين الأفراد تبقى الغرائز الفردية البدائية حية فى داخلنا والتى كان من الممكن لنا أن ننمو بعيدًا عنها. إنها تصبغ علاقتنا الاقتصادية بالجنس وتحول علاقتنا الجنسية إلى تجارة. وبالنسبة إلى آثارها الخارجية على السوق، فإن المرأة الفائقة جنسيا، بمتطلباتها غير الذكية والتى لا تنتهى تعوق نمو النشاط الاقتصادى فى العالم.

الاستقلال الاقتصادى للنساء يشتمل بالضرورة على تغير فى علاقات المنزل والأسرة. ولكن إذا كان هذا التغير لصالح الفرد والسلالة البشرية، فلا يجب أن نخشاه، إنه لا يشتمل على تغير فى علاقات الزواج إلا فى تراجع عامل التبعية الاقتصادية، ولا فى علاقات الأم والطفل فيما عدا تحسينها، ولكنه يشتمل على توظيف

القدرة الإنسانية فى النساء فى الخدمة الاجتماعية والتبادل بدلا من الخدمة المنزلية وحدها. هذا بالطبع سيتطلب إدخال بعض نظم الحياة المغايرة للنظم القائمة حاليا. إنها ستجعل من طريقة إطعام العالم بواسطة الملايين من الخدم الخصوصيين مستحيلة!.

ربما من المفيد اختبار طبيعة مشاعرنا تجاه المؤسسة الاجتماعية التى تسمى "العائلة"، والأثر المحتمل عليها من تغير الوضع الاقتصادى للمرأة.

الزواج والأسرة مؤسستان لا مؤسسة واحدة كما يفترض عادة. فنحن نخلط بين النتيجة الطبيعية للزواج وهى الأطفال - الصورة المعتادة - بكل صور الاتحاد الجنسى مع الأسرة، وهى الظاهرة الاجتماعية الخالصة.

الزواج هو صورة للاتحاد الجنسى الذى يعترف به ويحميه المجتمع، فهو علاقة بين اثنين من الأفراد وفقًا لعادات البلد، ويشتمل على مسئوليات متبادلة. وعلى الرغم من أننا صنعنا منه علاقة اقتصادية، فهو ليس بالضرورة كذلك، وسوف يستمر مطلبًا كبيرًا بعد تخطى المرحلة الاقتصادية.

(٩)

الأسرة هى بقاء مستمر لأول شكل من أشكال التجمع التى عرفها الإنسان. والزواج هو النمو المتزايد لحياة اجتماعية عالية، لم تتطور تطورًا كاملاً، ولأنه بعيد عن أن يكون مطابقًا للأسرة، فإن الزواج يتحسن ويقوى بتناسب عكسى مع الأسرة خلال المرحلة الأبوية. لم يكن هناك تصور للزواج على أنه ارتباط شخصى للحياة بطولها لاثنين من الأفراد المتناسبين، فالزوجات كانت قيمتهن تتمثل فى حمل الأطفال، والأسرة كانت تحتاج إلى أعداد من الدم نفسه خاصة الذكور، وكان الطفل الذى سيغدو رجلا هو الجائزة المفضلة للنساء آنذاك.

كانت الروابط بين الذكر والأنثى هى الأضعف، مجرد الأبوة الشائعة، مع أمومة ذات اهتمامات محدودة، مثل هذه القواعد كانت تمنع أى استقلالية اقتصادية للإناث،

فالاستقلال الاقتصادى كان يتطلب أن يتوقفن عن الإنجاب فى مرحلة معينة، ويحرم الأسرة من أية زيادة عددية. والزواج هو السبيل الوحيد لزيادة أفراد الأسرة، وتكمن قيمته الاجتماعية فى ذلك وإلا غاصت الأسرة وتقلص عددها.

(١٠)

إذا كان من الممكن فى أى من مدننا الكبيرة بناء منزل مريح وجيد الخدمة للنساء العاملات ذوات الأسر، لكان قد امتلأ فى التو. سوف تكون الشقق بدون مطابخ ولكن سوف يوجد مطبخ للمنزل تقدم فيه الوجبات للأسر فى غرفها أو فى غرفة طعام عامة كما يفضلون.

سوف يكون منزلاً تتم فيه عملية التنظيف بواسطة عمال محترفين وليس عن طريق أن تستأجرهم الأسر وإنما بواسطة مدير المنزل، وسوف توجد حديقة سطح، وحضانة للرضع وأخرى للأطفال تحت إشراف ممرضات متدربات جيدا، ومدرسين لتوفير الرعاية المناسبة للأطفال.

إن الطلب على مثل هذه التسهيلات يزداد يوميا ويجب توفيره قريبا، ليس عن طريق منازل الإقامة أو منازل المبيت أو الفنادق أو المطاعم، أو عن طريق الجمع بين بعض هذه الأشكال. وللتوفير الدائم لاحتياجات النساء والأطفال ولخصوصية الأسرة يجب أن يقدم ذلك على أساس من الاحتراف ليضمن نجاحه كعمل تجارى وسوف يثبت أنه كذلك لأنه حاجة اجتماعية ملحة.

قد يرغب الكثيرون فى الاحتفاظ بغرفهم الخاصة، أى غرفهم الداخلية الشخصية، لتجنب الحرج والمعاناة من وجود الآخرين، باستثناء الأقرب والأعز لهم. ومن التناقضات الشائعة لا يوجد ما هو أكثر لا معقولية من أن نسمع أنفسنا نثرثر عن الخصوصية فى مكان نتقبل فيه ببشاشة غرباء عنا تماما إلى مائدة الحوار، وعند قدومهم إلينا لتوصيل الطلبات للمنزل وكذلك لترتيب أسرتنا والتعامل مع ملابسنا.

هؤلاء الغرباء يطلبهم إلى المنزل من يقدر علي ذلك منا، وبهذا الجيش من الملاحظين بمجيئهم وذهابهم فى قلب الأسرة، ألا نبتسم قليلا بمرارة لمثلنا الأعلى المغرمين به وهو خصوصية البيت؟". إن التقدم السريع لمن يعملون فى مهنة النظافة وإزالة الأتربة والتلميع فى الوقت الذى يتطلب وجودهم، سوف يكون جارحًا للخصوصية أكثر من الطريقة الحالية. وبالتأكيد، إن استبعاد الخادمة المنزلية سوف يجلب إلى العالم تصورًا جديدًا عن قدسية الخصوصية، وهو إحساس بحقوق الفرد لا يزال غير معروف.

فى إعادة بناء وضع المرأة فى عقولنا تحت ظروف الاستقلالية الاقتصادية من الصعب جدا التفكير فيها كأم.

(١١)

نحن معتادون جدا على الطرق القديمة للأمومة، ومقتنعون بشدة أن كل عملياتها متبادلة ولا يمكن الاستغناء عنها، وأن تغييــر أى منها يهدد بالخطر كل العلاقة بحيث لا يمكننا تصور أى تغيير فيها. وعندما يتم اقتراح خطط محددة لهــذه التغييرات، مثل أساليب يكون الأطفال عن طريقها أفضــل فى الرعاية عن الوضع الحالى، فنحن إما ننكر مزايا التغيير المقترح أو نصر على أن هذه المزايا يمكن الوصول إليها تحت نظامنا الحالي. وكمثال على ذلك، أننا فى عملية الطهو نسعى لتدريب الطاهية الخاصة ونمتدح المذاق الخاص بها، فكذلك فى رعاية الطفل نسعى لتدريب الأمهات، وننادى بظروف أفضل فى المنزل الخاص، وفى كلتا الحالتين نهمل العلاقة بين نظامنا العام وظاهرته الخاصة. وعلى الرغم من أنه قد يمكن إيضاح أن الوضع المادى للمنزل الخاص باعتباره مكانًا لتربية الصغار يمكن تحسينه، فإن اعتراضنا الشديد هو اعتبار أن المنزل باعتباره مكانًا للحياة العقلية والحياة العاطفية هو أفضل بيئة ممكنة للصغار.

فى وقت ما من التاريخ الإنسانى كان ذلك صحيحا. ورغم أن التقــدم يستمد قوته أساسا من العاطفية الجنسية، وأن أقوى العواطف هى تلك التى تضمنا معًا بقوة فى علاقة الأسرة، فإن هذه التربية وما يحيط بالأسرة ويؤدى إلى تقوية العواطف تكون

هى بطبيعتها الأفضل. ولكن فى المرحلة التى وصلنا إليها عندما أصبحت العلاقات الأسرية هى مجرد جزء من روتين الحياة، وأن الفتور فى العاطفة بدأ يسود بين الأفراد فى علاقاتهم داخل الأسرة، فإن الطفل تصبح له احتياجات عاطفية جديدة.

(١٢)

لقد وصلنا إلى المرحلة التى فيها يكون التقدم الفردى والجمعى أفضل بالتخصص العالىَ للأفراد وبإحساس أوسع كثيرا للحب والواجب. هذا التغير يجعل الوضع النفسى للحياة المنزلية معيبا بدرجة كبيرة. فنحن نسمع كثيراً عن السلوكيات الهابطة لأطفال هذه الأيام تململ الصغار والأسباب الواهية للفرار من الآباء. من الواضح أنه ليس من السهل المعيشة فى المنزل كما كان معتاداً، فأطفالنا ليسوا أكثر ضلالاً عن أطفال العصور السابقة ولكن الظروف التى ينشأون فيها ليست مناسبة لتنمية خصائص مطلوبة الآن فى البشر.

الاحتكاك المتزايد بين أعضاء الأسرة لا يجب النظر إليه بالإدانة من وجهة النظر الأخلاقية، ولكن يجب دراسته باهتمام علمى. إذا كانت أسرنا غير مرتاحة نسبيا تحت الظروف الحالية، فهل لا توجد ظروف يمكن أن نكون فيها أكثر ارتباطاً؟ يكمن ذلك فى تدريب الأطفال عليها منذ الصغر. إن المنزل الخاص لم يعد كافيا، وليست المرأة المعزولة المعالة والبدائية هى القادرة، كما أن الأم لا تملك حسا شديداً وقويا لتقوية هذا الارتباط بالولاء والواجب، ولكنه يتطلب جهداً من الأفراد. هذا الجهد يرتكز على المعرفة بأساليب وطرق تنشئة الأطفال فى المقام الأول، وهو ما لا تستطيع الأم وحدها معرفته فى إطار المحدودية المفروضة على عملها، والتخصص الشديد فى العمل، وفى ظل المسئوليات والارتباكات التى تواجهها فى حياتها اليومية.

هى لا تستطيع تعليم الأطفال ما لا تعرفه، لا تستطيع بأى درجة من الإخلاص أن تؤمن بأنه واجب، ما لم تمارسه. الطفل يتعلم أكثر عن الفضائل المطلوبة فى الحياة الحديثة، عن العدالة، والحياد، والصداقة، والاهتمامات والأعمال الجماعية فى المدارس العامة عما يمكّن أن يتم تعليمه له داخل الأسرة مهما كانت كاملة.

يمكننا أن نعظ أطفالنا كما نشاء من الواجب الأسمى لحب وخدمة الجار، ولكن ما يولد الطفل فيه، وما يراه ويحسه وهو يكبر وينمو هو أن حياة مفردة بكاملها (حياة أمه) - مكرسه للاهتمام الجماعي والفردي بأشخاص أسرة واحدة للخدمة الإنسانية، لحياة كاملة لشخص آخر (حياة أبيه) المجهدة والمغلفة بواجب رئيسي هو "إعالة أسرته"، بحيث يكون التقاعس عن أداء الواجب هو خيانة للأسرة وخيانة للمجتمع أيضا.

هذا هو المناخ الذي يكبر فيه الطفل الذي تربى منزليا وتعلم على يدي الأم. لماذا إذن لا يكون المأكل والملبس ووسائل راحة أهله هي ما يقف أمام عقله الصغير: ألا يرى أمه التي يحبها ويراها كاملة، تنفق أيامها في ترتيب الأشياء التي ينتجها الجهد المتواصل لأبيه، لماذا لا يكبر إذن ليرعى أهله هو تاركًا بإرادته لها ما عدا ذلك، طالما أن أعمق انطباعاته قد تكونت تحت أثر هذا الإخلاص النادر؟

(١٣)

ليس المنزل بصفته مكانًا للحياة الأسرية هو ما يؤذي مشاعر الطفل، وإنما باعتباره مركزًا لكومة متداخلة من الأعمال السيئة في وضعها غير المرتب و وم به أمه وحدها، وهي أكثر سوءًا لأنها شخصية جدا، وتهدف إلى مجرد خدمة الأسرة مهما كان هذا العمل متدنيًا. عمل هدفه خدمة أناس أكثر وأكثر في مجال يتسع باستمرار وتزداد فيه درجة التدني، فهل الخدمة الاجتماعية بمعناها الكامل وصورتها الشاملة هي الخدمة التي نرغب في الوصول إليها، والتي على الأم أن تقوم بها وحدها؟!

نحن نعاني أيضا طوال حياتنا من إحساس شديد بالذات، ومن حساسية زائدة تفوق الاحتياج، فنحن نريد اهتماما وإخلاصا غير محدودين تجاهنا، لأننا ولدنا وتربينا على فراش دافئ بهذه الخصائص.. فالطفل الذي ينفق عدة ساعات كل يوم بين أقرانه من الأطفال، وتتم رعايته لأنه طفل وليس لأنه "طفلي" سوف يكبر ولديه رأي عن نفسه مختلف تماما عن ذلك الذي يفرض على كل نفس جديدة بالأسرة ويأتيها من العشق الذي لا ينتهي من أسرتها. ما يحتاج الطفل أن يتعلمه مرة ومرة وللأبد، أن يعرف برقة

وبسهولة وليس بتصلب، أنه واحد من كثيرين. فنحن جميعًا نعرف ذلك عن مديحنا للأسرة الكبيرة، وفي قولنا إن "الطفل الوحيد أكثر عرضة لأن يكون أنانيا". وهذا هو الحال أيضا في الأسر الوحيدة. وكلما تعلم الطفل مبكرا وبسهولة أكبر أن الحياة الإنسانية تعني الكثيرين من الناس وسلوكهم تجاه بعضهم البعض، كان أكثر سعادة وقوة، وحياته أكثر فائدة له وللآخرين.

(١٤)

يمكن تعليم الطفل ذلك دون أية صعوبة تحت ظروف معينة، كما يتم تعليمه الاعتزاز بالذات. إنها ليست فقط درجة حرارته وغذاؤه وراحته وتدريباته هي ما يؤثر فيه كطفل، إنه يجب أن يتعلم كما نقول "إنه لن يكون سعيدا على الإطلاق عندما تكون هناك دستة من العابدين حوله". ولكن ما الذي تتعلمه النفس الصغيرة في نفس الوقت؟ ما الذي يدركه عندما يرى ويسمع ويتشرب ببطء تلك الانطباعات؟ من الاستنتاجات غير المرنة للمخ الصغير الذي في طور النمو، الذي لا تتوافر له أدلة عكسية حتى عمر لاحق، يتعلم أن النساء لابد أن يخدمن الآخرين، أن يجهزن الغذاء ويقمن بالأعمال المنزلية ويلتقطن الأشياء، وأن الرجال خلقوا ليأتوا بالأشياء إلى البيت، وأن يتم التوسل إليهم وفقا للأحوال، وأن الأطفال هم محط الإعجاب والثناء والحب، وأن شعرهم وأيديهم وأرجلهم جذابة بصورة خاصة، وأنهم البؤرة الدافئة للاهتمام، وأنهم ينتقلون بحنان من يد إلى يد، وأنهم يتمرجحون ويرقصون ويتسلون بعنف، وأنهم أيضا يتركون جانبا بلا أي شيء يصنع لهم دون أي اعتبار لتفضيلاتهم ورغباتهم في حالات أخرى.

وبينما نمتدح أنفسنا في أن الأمور تظل على ما هي عليه، فهم يتغيرون تحت أعيننا من سنة لأخرى، ومن يوم لآخر. فالتربية التي تخفي نفسها وراء جدار من الكتب، نجد أنها تتكون أكثر وأكثر في تجميع الأطفال وتدريب القدرات التي لم تذكر أبدًا في المناهج، هذه التربية هي أمومتنا الإنسانية التي تزحف مقتربة أكثر وأكثر من مكانها الصحيح وعملها الأفضل ألا وهو رعاية الطفل الصغير وتدريبه. بعض النساء

وبعض الرجال، تعد أسمى خدماتهم للإنسانية هى رعاية الأطفال. هؤلاء يجب أن يوجدوا فى المكان الذى تفيد فيه مواهبهم وقدراتهم ومعرفتهم وخبرتهم أكبر عدد ممكن من الأطفال.

(١٥)

حيث إننا الآن نرتب الحياة، يجب أن نضع مواهب أطفالنا وهم صغار تحت الاختبارات المختلفة، فهم يتحسنون أو يتدهورون وفقا لمعرفة الأم التى يولدون لها. الأم غير الكفء لا تمنع الطفل من أن يحصل على تعليم جامعى جيد، ولكن التعليم فى مرحلة الطفولة هو الأهم، لأنه سوف يكون بين يديها بكليته. ومن العبث القول إن الأمهات يجب أن يتعلمن كيف يقمن بواجباتهن. لا يمكنك تعليم كل أم أن تكون مربية مدرسية جيدة أو مربية جامعية جيدة. فلماذا يجب إذن أن نتوقع من كل أم أن تكون معلمة حضانة جيدة؟

النمو والتغير فى الحياة المنزلية والأسرية يتقدمان باضطراد عبر تحيزاتنا ومعتقداتنا، وتربية الطفل قد تغيرت وأصبحت وظيفة اجتماعية، بينما نحن لانزال نتصور أن الأم وحدها تقوم بها.

نحن لا نرى ضرراً فى الأمومة لأن أعزاءنا الأطفال يذهبون كل يوم لقضاء ساعات طوال بالمدرسة. ولا تتهم الأم بالإهمال ولا يتهم الطفل بالتواكل، ولا يسمى ذلك "انفصال الأم عن الطفل"، ولن يكون هناك ضرر أكبر أو مجازفة أو خسارة فى طفولة تنقضى بين وسط متغير وخدمة ماهرة توفر الاحتياجات للطفل بطريقة مثالية عما هو ممكن للأم أن توفرها بمفردها بالمنزل.

الوسط الأفضل والرعاية الأفضل للأطفال والتربية الأفضل، لا تعنى كما قد تتصور بعض الأمهات، أن الصغير سوف يتعلم أن يقرأ أو أن يتم تعريضه لترتيبات طقوسية من الألوان والأشكال والأصوات، تجبر بطريقة غامضة الذكاء الصغير على التفتح،

ولكنه سيعني أساسًا حياة أهدأ كثيراً وأكثر سلاما عما هو ممكن للطفل المحبوب بشدة والذى يحظى بعناية كبيرة فى محيط الأسرة، وأن الانطباعات التى ستقابلها الأم سوف تكون مخططة وفقا لقدراتها العقلية. بالطبع لن يتم استبعاد الأم ولكن سيتم الإضافة إليها بما يتعلمه الطفل خارج المنزل بواسطة المعلم والمدرسة.

والمرأة باعتبارها راعية اجتماعية لن تفتقر إلى واجبات الأم الحقيقية، سوف تحب طفلها أيضًا، وربما أفضل عندما لا تكون فى اتصال دائم معه، عندما تذهب من حياته إلى حياتها هي وتعود من حياتها إلى حياته، بسرور جديد وقوة تمكنها من الاحتفاظ بالفرحة العميقة المثيرة للأمومة بصورة أكثر تجدداً فى قلبها، وأكثر حياة وحيوية فى الصوت والنظرات والأيدى الرقيقة، عندما يتوافر لها بعد ساعات العمل ساعات أخرى تتيح لها أن تمارس الأمومة في جزء من يومها بعيداً عن عملها الذى تحبه وتقدسه، عندئذ سوف تعود إلى حياة المنزل وحياة الطفل بسعادة غامرة لا تنتهى، نقية من الشوائب والإنهاك اللذين يتلفانها حاليا.

الصحوة والثورة

مارجريت سانجر

(١)

مبكرًا في عام ١٨١٢ أدركت فجأة أن عملي ممرضة وأنشطتي في الخدمة الاجتماعية مجرد مسكنات، وبالتالي عديمة الجدوى والقيمة في تخفيف البؤس الذى أراه من حولي.

لو كان من الممكن لى أن أصف الأوضاع المقززة الموجودة ببيوت بعض النساء التى زرتها فى ذلك العام لوجدها البعض صعبة التصديق. كان يوجد فى ذلك الوقت، وبدون شك لايزال حتى اليوم، طبقة من الرجال والنساء لم تمسسها إطلاقا المؤسسات الاجتماعية.

الطريقة التى يعيشون بها لا يمكن تصديقها، إنهم يكرهون ويخافون أى تجسس على بيوتهم أو معيشتهم. هم يستاءون من التحدث إليهم. تنسل النساء من وإلى بيوتهن فى الطريق إلى السوق كالجرذان من جحورها. الرجال يضربون زوجاتهم أحيانا ضربا مبرحًا ولا يتدخل أحد. الأطفال يقيدون، ويركلون ويطاردون، ولكن الويل للطفل الذى يجرؤ على أن يحكى ما يحدث له خارج البيت. الجريمة وشرب الخمر عادة ما يشكلان مصدرا لذلك التباعد السرى، فعادة ما يوجد شىء لإخفائه، هيكل عظمى بالدولاب فى مكان ما. الرجال كئيبون، عمال غير مهرة، يلتقطون المهام الغريب بين الحين والحين، عادة فى بطالة، يتلكأون داخل البيت وخارجه معظم ساعات النهار والليل.

(٢)

النساء يتجنبن غيرهن من النســاء بالجـوار. من المعتـاد أن يتهـمن بالفشــل أو الاسـتيـلاء على شيء إذا ما سـمـحت الظروف. الحـمل هو حـالة مزمنة بينهن. عـرفت إحدى النسـاء التي ولدت ثمـانية من الأطفـال بدون أي مسـاعـدة أو رعاية طبيـة. آخر الأطفال ولدته في المطبخ. يراقبها ابنها الذي كان في العاشرة من عمره والذي وفقا لتعليمات أمـه قـام بتنظيف الفراش وقام بوضع الخلاص في كيس، والأشيـاء المتسخة في ورق ثم قام بإلقائها من النافذة إلى الفناء الخلفي.

في هذا المناخ تصبح الولادة والإجهاض مادة الحديث الرئيسية. في ليلة من ليالي السبت رأيت مجموعات من خمسين إلى مائة امرأة وهن ذاهبات إلى عيادات مشبوهة معروفة جيدا بإجراء الإجهاض بتكلفة زهيدة. سألت العديد من النسوة عما يحدث داخل تلك العيادات، وأجبن جـميعًا بنفس الإجابة، فحص سريع، ومجس يغرس في الرحم مع لفه عدة مرات لتحريك البويضة المخصبة ثم ترسل المرأة إلى البيت. عادة ما يبدأ النزيف في اليوم التالي ويستمر لأربعة أو خمسة أسابيع. أحيانا ما تحمل عربة الإسعاف الصحية إلى المستشفى لإجراء عملية كحت، وإذا ما عادت إلى البيت كان ينظر إليها باعتبارها امرأة محظوظة.

(٣)

هذا الحـال أصبح كـابوسًا بالنسبـة إليّ. لا معنى لذلك على الإطـلاق، ولا سـبب يدعو لإضـاعة عمـر أم أو إنهاك حيـوية امرأة وإلقائـها على كومـة المهمـلات قبل سن الخامسة والثلاثين.

في كل مكان شاهدته، كان البؤس والخوف ظاهرين للعيان، الرجال خائفون من فقدان وظائفهم، والنساء خائفات من ظروف أسوأ تأتي عليهن، الخوف من حمل آخر

كان مسلطًا كالسيف على رأس كل امرأة قابلتها ذلك العام. كان السؤال الذى يواجهنى دائما هو ذلك السؤال : ما الذى أستطيع عمله للابتعاد عن ذلك؟ ما الذى أستطيع عمله للتخلص من ذلك؟ أحيانًا ما كن يتكلمن بمرارة فيما بينهن قائلات :

"إن الثريات هن اللاتى يعرفن الحيلة، بينما نحصل نحن على الأطفال". كانت النسوة من الروم الكاثوليك يتكلمن عن "حيل الأمريكان الشماليين" وسألننى إذا ما كنت أعرف ماذا يفعل البروتستانت للحفاظ على أسرهم صغيرة العدد. عندما قلت إننى لا أعتقد أن الثريات يعرفن أكثر منهن، سخرن منى وشككن فى أننى أحجب عنهن المعلومات للحصول على المال. كن يلكزن بعضهن بالكوع ويتهامسن بعبارات عن الدفع لى قبل رحيلى إذا ما قمت بالكشف عن "السر". أخيرًا، بدأ الأمر يتشكل معناه أمامى، ويتراكم خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتها فى بيت امرأة شديدة المرض تعيش فى شارع جراند بالجانب الشرقى لمدينة نيويورك.

كانت السيدة ساكس فى الثامنة والعشرين فقط من العمر، وزوجها فى الثانية والثلاثين، عامل غير ماهر، ولديها منه ثلاثة من الأطفال أعمارهن خمس، وثلاث، وسنة واحدة. لم يكونوا أقوياء ولا أغنياء، وكل مكاسب الرجل وبراعة المرأة يكفيان بالكاد للمحافظة عليهم فى حالة نظيفة، ولإمدادهم بالغذاء المناسب ومنحهم فرصة النمو إلى رجال ونساء فى ظروف مناسبة.

كلا الوالدين كان يكرس كل جهده لهؤلاء الأطفال ولبعضهما البعض، ثم أصبحت المرأة حاملا، وأخذت العديد من الأدوية والوصفات كما أوصى بها جيرانها. ثم فى حالة يأس استخدمت بعض الأدوات التى أعارتها إياها واحدة من صديقاتها، وعندما عاد الزوج وجدها طريحةعلى الأرض وسط بكاء الأطفال، وقد نصحه الجيران بعدم استقدام الإسعاف، وتم استدعاء طبيب من الأصدقاء. لم يكن الزوج على استعداد لسماع أنها يجب أن تنقل إلى المستشفى، وبقليل من المال المدخر تم استدعاء ممرضة وبدأت معركة إنقاذ حياتها الغالية.

(٤)

كان ذلك فى منتصف يوليو، تحولت الشقة ذات الغرف الثلاثة إلى مستشفى للمريضة التى تموت. لم أعمل بهذه السرعة فى حياتى، ولا بهذا التركيز للحفاظ على هذه الأم الصغيرة حية. الجيران من النساء كن يجئن ويرحن عدة مرات خلال اليوم يؤدين الأعمال الضرورية لراحتنا. الأطفال أرسلوا إلى الأقارب، وبدأنا أنا والطبيب محاولة التغلب على قوة الطبيعة الثائرة وعنفوانها.

لم أكن أعرف أن مثل هذه الأوضاع موجودة. لقد ذابت أيام شهر يوليو الخانقة ولياليه فى مشقات وعذابات هائلة.

كنت أنام هنيهات قصيرة وأنا شديدة القلق على حالة ذلك القلب الواهى الذى لا يزال مثابرا على النبض بشجاعة، ولا أغيب عن جانب فراش المريضة.

بعد انتهاء أسبوعين كان الشفاء قد بدأت بوادره، وبعد ثلاثة أسابيع كنت أتهيأ لمغادرة منزل المريضة الضعيفة لكى تتسلم الواجبات العادية لحياتها، بما فى ذلك واجباتها الزوجية وواجباتها كأم. كان الجميع يهنئونها على الشفاء، انهالت عليها فى صورة أطباق مليئة بالفاكهة وأطباق الحساء والكسترد والمشروبات. كانت تبدو غارقة فى أفكارها، كما لو أن رسائل التهنئة والاستقبالات الطيبة ليست موجهة لها. اعتقدت فى البداية أنها لا تزال فى مرحلة الذكريات اللاواعية التى عكفت عليها فى صمتها. ولكن كانت كلما اقتربت ساعة رحيلي زاد قلقها، وأخيراً وبصوت مرتعش قالت "طفل آخر سيقضى على كما أعتقد"، رددت قائلة :

- "الوقت مبكر جدا للحديث عن ذلك".

قلت لها ذلك لطمأنتها وقد قررت أن أوجه السؤال إلى الطبيب ليدلى بنصيحته. وعندما جاء قلت له "السيدة ساكس منزعجة من أن تحمل بطفل آخر". أجاب الطبيب "لا يجب أن يحدث"، ثم وقف وزم شفتيه قائلا : "إذا حدث أى شىء من ذلك أيتها المرأة الصغيرة سوف لا تحتاجين لاستدعائى مرة أخرى".

أجابت المريضة بصوت مرتعش "نعم، نعم، أعرف ذلك" ولكن ترددت قليلا كما لو أن الأمر يتطلب كل شجاعتها لكى تقول "ماذا يمكننى أن أفعل لكى لا أصل لهذه الحالة مرة أخرى".

ضحك الطبيب قائلاً "أتريدين الكعكة بينما أنت تأكلينها فعلاً، لا يمكن لذلك أن يحدث"، ثم ربت على كتفها ملتقطًا قبعته وحقيبته للمغادرة قائلاً : "سوف أقول لك على الشىء المؤكد لتفعليه، قولى لزوجك چاك إن عليه النوم على سقف البيت".

بهذه الكلمات أغلق الباب ونزل على السلم تاركًا كلا منا مشدوها.

طفرت الدموع إلى عينى وانسد حلقى عندما نظرت إلى وجهها وهى جالسة قبالتى. كان وجهها مطبوعًا بالهلع. اعتقدت للحظة أنها قد جنت ولكنها قهرت مشاعرها بشدة داخلها والتفتت إلىّ بيأس قائلة عن چاك: "إنه لا يفهم، فهو رجل رغم كل شىء، ولكن أنت تفهمين، أنت امرأة وسوف تقولين لى السر ولن أقوله لمخلوق أبدًا".

أطبقت كفيها كما لو كانت تصلى ومالت إلى الأمام، ونظرت مباشرة إلى عينى مستعطفة أن أقول لها شيئًا، لم أكن أعرف حقيقة ماذا أقول، كان الأمر كأننى أقفز فوق جمرات النار وأتعذب لجريمة لم أقترفها. الاعتراف بأننى مذنبة قد يوقف التعذيب، وإلا سوف أستمر فى القفز على جمرات النار.

(٥)

كان لا بد من الابتعاد عن ذلك الوجه المتضرع، لم يكن باستطاعتى إجابتها، قمت بتهدئتها بالقدر الذى أستطيع. أدركت أن مشاعرى قد شحنت بالقدر الكافى وأصبحت على الحافة من الدموع التى ملأت عينى. وعدتها أن أعود إليها بعد أيام قليلة وأن أخبرها بما تريد أن تعرف.

الوسائل القليلة والبسيطة التى تحد من النسل مثل العزل أو الواقى الذكرى تسخر منها النسوة بالجوار عندما يقال لهن إنها الوسائل التى يستخدمها الرجال فى الأسر الغنية،

لم يصدقن ذلك، وكنت أعرف أن مثل هذه الإجابة سوف تطرح جانبا كوسائل عديمة القيمة إذا قلت لها ذلك في هذا الوقت.

بعد ذلك بقليل، وعندما خلدت للنوم، غادرت المنزل مصممة على أن أبقى بعيدة عن مثل هذه الحالات في المستقبل. أحسست بالعجز عن عمل أى شيء على الإطلاق. كنت مغلولة اليدين والقدمين وتمنيت أن يقع زلزال أو أن يهز العالم بركان ليفيق من سباته ويواجه تلك الفظائع الوحشية.

كان لابد من أن أسوق أسبابًا للأم الصغيرة لكى تمنع حدوث ذلك مرة أخرى، وكان لا بد من أن أكون شديدة الكياسة بالنسبة إلى حالتها التى كانت عليها.. نعم، وقد وعدت نفسى بالعودة إليها والتحدث إليها بإسهاب، وأن أقول لها المزيد، فربما لا تسخر وتصدق أن هذه الوسائل هى كل ما هو معروف الآن.

(٦)

مر الوقت ومضت الأسابيع والشهور ولازمنى وجهها المتضرع بالنهار والليل. لم أستطع أن أصرف عن ذهنى ذكريات ذلك الصوت المرتعش والذى كان يسأل بمسكنة عن معرفة لها الحق فيها. كنت على وشك النوم فى ليلة مرت منذ ثلاثة أشهر، عندما رن الهاتف وسألنى صوت متهدج لرجل يطلب منى الحضور فى التو لمساعدة زوجته التى عادت مريضة ثانية. كان هو زوج السيدة ساكس، وأحسست قبل أن أترك الهاتف أنه من غير المجدى أن أذهب، كنت أخشى مواجهة تلك المرأة، وكنت على وشك أن أرسل أخرى مكانى. وددت لو أن حادثًا وقع فى مترو الأنفاق أو فى الشارع، أو أى شيء يمنعنى من الذهاب إلى ذلك البيت مرة أخرى، ولكننى ذهبت رغم ذلك. وصلت بعد الطبيب بدقائق قليلة، كان نفس الطبيب الذى أعطاها تلك النصيحة النبيلة. كانت المرأة تموت. كانت غير واعية، ماتت بعد عشر دقائق من وصولى. كانت النتيجة نفسها، القصة نفسها التى قيلت ألف مرة من قبل، موت نتيجة الإجهاض. كانت قد أصبحت حاملاً واستخدمت الأدوية، واستشارت مجهضًا محترفًا يتقاضى خمسة دولارات، وتبع ذلك موتها.

هز الطبيب رأسه بعد أن قام بفحص نبض القلب. كنت أعرف أنها قد ماتت، دون شهقة أو همسة أو معرفة بوجودنا المتأخر، لقد ذهبت إلى العالم الآخر كما تذهب الآلاف من الأمهات كل عام.

نظرت إلى ذلك الوجه الساكن في جلال الموت، جعلت يديها الرفيعتين متقاطعتين على صدرها واسترجعت كيف كان رجاؤهما حارا معى فى المناسبة الأخيرة التى أتذكرها وهما منفرجتان.

المرأة الرقيقة، الأم المخلصة، الزوجة المحبة، ماتت تاركة وراءها زوجها مفطورًا، عاجزًا فى وحدته، مرعوبا فى عجزه وهو يروح ويغدو عبر الغرفة، ويداه تمسكان برأسه ويتمتم فى جزع : "يا إلهى، يا إلهى، يا إلهى".

(٧)

وجاءت الثورة، ولكن ليس كما تم تصورها أو كما يقرر التاريخ كيف تجىء الثورات. جاءت فى حياتى أنا، بدأت فى كيانى عند عودتى إلى البيت فى تلك الليلة بعد أن قمت بتسبيل عينى تلك الأم العاجزة، وغطيت بملاءة جسد تلك المرأة التى تم التضحية بحياتها نتيجة الجهل.

بعد أن غادرت ذلك البيت الموحش، مشيت ومشيت ومشيت لساعات وساعات وحقيبتى فى يدى، أفكر وأتحسر وأخاف من التوقف، أخاف من ضميرى، أخاف من مواجهة روحى اللائمة. فى الثالثة صباحا وقبل الفجر، وصلت إلى البيت وأنا لا أزال أحمل عبئًا ثقيلاً لا أدرك مدى ثقله.

دخلت البيت بهدوء كعادتى ونظرت من النافذة إلى المدينة النائمة الخافتة الإضاءة، وبينما أنا واقفة عند النافذة أنظر متأملة السكون حولى، تراءت لى مشكلات وآلام المدينة النائمة فى رؤيا واضحة، بيوت مزدحمة، أطفال كثيرون، أطفال يموتون فى المهد،

أمهات يعملن لأكثر من طاقتهن، حضانات مزدحمة بالأطفال، والأطفال مهملون وجائعون، أمهات مشغولات بعصبية لا تجعلهن قادرات على العطاء، ولا حتى لعمل الأشياء الصغيرة التى تريح، أو قادرات على العناية بمن يحتاجونهن، فهن نصف مريضات طوال حياتهن، وهن دائما متعبات ولكن لا يخذلن أحداً أبدا. نساء تحولن إلى كادحات، وأطفال يعملون فى الأقبية، أطفال فى عمر ست وسبع سنوات يدفع بهم إلى سوق العمل ليساعدوا فى كسب المال للعيش، وأطفال آخرون فى الطريق، وأطفال آخرون يولدون. الأم ماتت والأب يائس ومخمور ويتسلل بعيداً ليصبح منبوذاً فى المجتمع الذى أوقع به.

(٨)

لساعات وقفت بلا حراك وفى توتر، متوقعة شيئًا سيحدث، راقبت الأنوار وهى تطفأ وشاهدت الظلمة تنحسر تدريجيا لتفسح الطريق لنور الفجر، وعندها بدأت السماء الملونة تنبئ بشروق الشمس، كنت أعرف أنه يوم جديد قد جاء، وعالم جديد بالنسبة إلىّ أيضًا.

كان كأنه كالوحى الذى ملأ كيانى، أستطيع الآن أن أرى بوضوح الطبقات الاجتماعية المختلفة، وكل مشاكلها المتراكمة التى تنبع من التناسل غير المنضبط. هناك شىء واحد يمكن عمله وهو التنبيه، لقد بدأ التحذير ويجب إضرام النار فى العشب، يجب إيقاظ نساء أمريكا ليحررن الأمومة في العالم! تركت من يدى المثلوجتين حقيبة التمريض التى كنت أحتضنها بلا وعى وقذفت بها عبر الغرفة، ومزقت زى المرضة من على جسدى وقذفت به إلى أحد الأركان وقد قررت ترك كل عمل متعلق بالتمريض وإلى الأبد.

لن أعود أبداً مرة أخرى لتمريض أجساد منهكة لنساء كان بؤسهن عظيما كعظمة النجوم. لقد انتهى عملى مع العلاج السطحى والأطباء والممرضات والاجتماعيين الذين

شاهدوا وجها لوجه الحقيقة الصارخة لواقع النساء، ورغم ذلك أداروا وجوههم للجانب الآخر. لابد من إجبارهم على رؤية هذه الحقائق. لقد قررت أن النساء يجب أن يعرفن موانع الحمل. إن لهن كل الحق فى معرفة كل شىء بخصوص أجسادهن. سوف أضرب بكل قوة، سوف أصرخ من فوق كل مكان عالٍ، وسف أقول للعالم ماذا يحدث فى حياة هاته النسوة البائسات.. وسوف يستمع لى.. مهما كلفنى الأمر.. سوف يستمع لى.

تنظيم النسل.. مشكلة الرجل أم المرأة؟

مارجريت سانجر

(١)

نجمت مشكلة تنظيم الأسرة مباشرة من كفاح روح الأنثى لتحرير نفسها من ربقة الأسر. لقد صاغت المرأة بنفسها هذا الأسر من قدرتها التناسلية وفى الوقت الذى استعبدت فيه نفسها استعبدت العالم كله معها. الإعفاء من المعاناة الجسمانية هو بالدرجة الأولى أمر يخصها كما يخصها أيضا حياة الحب التى تموت أولا تحت وطأة التناسل المتكرر. ففى داخل المرأة يوجد مستقبل السلالة البشرية بكاملها مغلقًا، فهى التى تصنع أو تمنع. تشير كل هذه الاعتبارات إلى حقيقة واحدة هى أن من واجب المرأة ومن حقها أيضا أن تمسك فى يدها بأسباب الحرية. فمهما يصنع الرجال، لا يمكنها التنصل من المسئولية، فقد حرمت لأجيال عديدة من فرصة تحمل معاناة الأم المثقلة بالمتاعب، لا يمكن لأحد أيضا أن يقوم بذلك العمل بدلا منها. قد يمكن للآخرين أن يساعدوا، ولكنها هى وهى فقط التى تسطيع تحرير نفسها.

الحرية الأساسية للعالم هى حرية المرأة، فالأحرار لا يولدون لأمهات مستعبَدات، والأم المقيدة بالسلاسل لا تستطيع الاختيار ولكن تعطى بعدًا لتلك العبودية لأولادها وبناتها. لا يمكن لامرأة أن تعتبر نفسها حرة إلى أن تستطيع الاختيار بوعى ما إذا كانت تريد أو لا تريد أن تصبح أما.

(٢)

لا يغير من الوضع كثيراً أن بعض النساء يعتبرن أنفسهن أحراراً لأنهن يكسبن معيشتهن الخاصة بأنفسهن بينما تدعى أخريات الحرية لأنهن يتحدين الأعراف الخاصة بالعلاقة الجنسية. فالتى تكسب معيشتها تفوز بنوع من الحرية لا يمكن التقليل من أهميته، ولكنه بمعيار الكمية والنوعية لا يعد مهما بجانب الاختيار غير المقيد بالزواج أو عدم الزواج، أو بأن تكون أما أو لا تكون. إنها تكسب القوت والملبس والمسكن على الأقل، دون الإذعان لمزاجية شريكها. ولكن كسبها للعيش لا يوفر الإشباع لبواعثها الجنسية الداخلية وهى الأعمق والأقوى فى آثارها عن كل تلك الأمور الخارجية. فلكى تحصل على هذا الإشباع يجب أن تواجه وتحل مشكلة الأمومة.

بالنسبة إلى من تسمى امرأة "حرة"، والتى تختار شريكها خلافًا للتقاليد، تكون قضية الحرية بدرجة كبيرة هى قضية خاصة بشخصيتها وجرأتها، فإذا حصلت على فرصة اختيار غير مقيدة، فهى لاتزال فى وضع ستُستعبد فيه عبر قدرتها التناسلية. بالتأكيد، ضغوط القانون والعادة على المرأة غير المتزوجة بطريقة شرعية، من المرجح أن يجعلاها مستعبدة أكثر من المرأة الأسعد حظًا التى تتزوج الرجل الذى تختاره.

انظر إلى الأمر من أى زاوية تختارها، واقترح أى حلول تقليدية، سواء أكانت يحميها القانون أم كانت مجافية للقانون، تجد أن المرأة فى الأساس ستظل فى الوضع نفسه إلى أن تستطيع أن تحدد بنفسها ما إذا كانت ستصبح أمًا وأن تحدد عدد نسلها. هذا الوضع الذى لا يمكن تجنبه هو وحده يكفى لجعل تنظيم النسل بالدرجة الأولى مشكلة للمرأة، لأن الأمومة الطوعية هى أمر يخص المرأة أساسًا وفى المقام الأول.

(٣)

دائما ما يثار، رغم ذلك، أنه حيث إن التعبير عن العلاقة الجنسية عمل يتطلب اثنين، فإن مسئولية الضبط والتحكم فى النتائج المترتبة عليها لا يجب أن تتحملها المرأة وحدها. فهل من العدل كما يثار، أن تعطى بدلا من الرجل، مهمة حماية نفسها وهى أقل خشونة فى الجسم من عشيرها، ولديها المنغصات الدورية الطبيعية الخاصة بجنسها؟

يجب اختيار هذه المرحلة من مشكلتها من منظور الأمثل، ومن منظور آخر وهو الظروف التى تؤدى إلى ذلك الأمثل. فى المجتمع المثالى بلا شك، يصبح تنظيم النسل أمرًا يخص الرجل كما يخص المرأة. الحقيقة المرة التى تواجهنا اليوم هى أن الرجل لم يرفض أية مسئولية فى هذا الخصوص فحسب، بل حاول منع المرأة من الحصول على معرفة تمكنها من القيام بهذه المسئولية وحدها بنفسها، بينما هى لاتزال فى وضع الاعتماد حاليا لأن قرينها يرفض اعتبارها فردًا رغم احتياجه إليها فهى لاتزال مستعبدة لأنها تركت فى الماضى حل هذه المشكلة للرجل وبذلك وجدت أنه بخلاف الحقوق الأساسية، لا تتوافر لها من المزايا سوى ما حصلت عليه بالاستعطاف والتنازل والاستجداء، فبتركها المسئولية له، استغلها وقادها واستعبدها لرغباته.

وبينما هو يعانى فى الحقيقة العديد من المآسى نتيجة لهذا الوضع، فهى تعانى أكثر كثيرًا. وبينما إيقاظه لإدراك أسباب هذه المآسى نجد أنها تأتى إليها بقوة ضاغطة كل يوم. إنها هى التى تتحمل العبء الطويل للحمل والتربية لأطفال غير مرغوبين. إنه قلبها الذى يبتلى فى البداية بمنظر الطفل المشوه أو ناقص النمو أو غير الطبيعى بصورة قاسية. إنها حياة الحب الخاصة بها والتى تموت ببطء عند رفض الحمل أو خوفًا من حمل غير مرغوب فيه. إن فرصتها للتعبير عن الذات هى التى تبدد أولا وبصورة يائسة بسبب ذلك.

(٤)

الظروف، لا النظـريات ولا الحقـائق ولا الأحلام، هى ما يحكم هذه المشكلة. لقد وضعوها بكليتها على عاتق المرأة. لقد عرفت أنه مهما تكن المسئولية المعنوية للرجل فى هذا الخصوص فإنه لا يقوم بها، كذلك عرفت أنه مهما كان الزوج محبوبا ومراعياً لها فلا يوجد ما تتوقعه من جموع الأزواج عندما يضعون القوانين ويقررون العادات. إنها تعرف أنه بدون اعتبار لما يجب أن يكون، فالحقيقة القاسية التى لا يمكن تجنبها هى أنها لن تحصل أبداً على حريتها إلى أن تناضل من أجلها وتحصل عليها بنفسها.

ولأنها تعرف كل ذلك، يجب أن تعرف شيئًا إضافيا، هو أن النساء يملن بشدة إلى اتباع خطوات الرجال، ويحاولن التفكير كما يفكر الرجال، ويحاولن حل المشكلات العامة للحياة كما يحلها الرجال.

فإذا قبلت النساء، بعد حصولهن على حريتهن أوضاعًا مقررة، سواء فى الحكومة أو الصناعة أو الفن أو الأخلاق والدين على النحو الذى توجد عليه، فهن بذلك يأخذن ورقة من كتاب الرجال. لا يوجد احتياج للمرأة لتؤدى أعمال الرجال، ولا يوجد أيضا حاجة لتفكر فى نفس أفكار الرجال، ولا يجب أن تخشى ألا يعتنى العقل الرجولى الذى يتسيد العالم بنفسه جيدا. مهمتها ليست مؤازرة الروح الرجولية وإنما التعبير عن الروح الأنثوية، دورها ليس الحفاظ على العالم الذى بناه الرجل وإنما خلق عالم إنسانى بإدخال العنصر النسائى فى كل أنشطته.

لا يجب، على المرأة أن تقبل بإذعان ما هو موجود، يجب أن تتحدى، لا يجب أن تخاف مما تم بناؤه من حولها، يجب أن تحترم ما بداخلها الذى يصارع لكى يعبر عن نفسه. لا يجب أن تركز عينها على ما هو قائم، وإنما على ما يجب أن يكون. يجب أن تنصت فقط متسائلة بندية للآراء العقائدية للمجتمع الذى صنعه الرجل. عندما تختار طريقها الجديد والحر، يجب أن يكون ذلك الاختيار فى ضوء رأيها الخاص، وإحساسها الخاص. بهذا فقط يمكنها أن تسمح للروح الأنثوية بأن تؤدى دورها المأمول،

كذلك يمكنها أن تحرر قرينها من شعور العبودية المؤرق، والذى جلبه لنفسه عندما استعبدها. بهذا فقط يمكنها أن تعيد إليه ما سلبه من نفسه بتحديده لدورها، بهذا فقط يمكنها أن تعيد بناء العالم.

(٥)

يجب أن تنال المرأة حريتها، الحرية الأساسية فى اختيار أن تكون أما أو لا تكون، وكم عدد الأطفال الذين ستنجبهم. وبغض النظر عن ما سيكون عليه سلوك الرجل، فهذه المشكلة تخصها هى، وقبل أن تكون مشكلته، هى مشكلتها وحدها. فهى تسير وحيدة فى طريق الآلام والموت فى كل مرة تحمل فيها، ويولد لها طفل. وحيث إنه لا حق للرجل أو للدولة فى دفعها إلى هذه المعاناة، فإنه من حقها أن تقرر ما إذا كانت ستستطيع أن تتحملها أم لا. حق التقرير هذا يفرض عليها واجب التمهيد للطريق إلى المعرفة التى تمكنها من اتخاذ القرار وتنفيذه.

تنظيم النسل هو مشكلة المرأة، وكلما تقبلت ذلك بصورة أسرع باعتباره مشكلتها، ومشكلتها وحدها، كان المجتمع أسرع فى احترامه للأمومة، وكان العالم أيضا أسرع فى أن يصبح مكانا صالحا لأطفالها لتعيش فيه.

وظائف للنساء

فرچينيا وولف

"ألقت فرچينيا وولف هذا المقال فى لقاء جمعية الخدمة النسائية عام ١٩٣١"

(١)

عندما دعيت للقدوم هنا، أخبرتنى من وجهت إلىّ الدعوة أن جمعيتكم مهتمة بتوظيف النساء، واقترحت أن أقول لكم شيئًا عن خبراتى المهنية الخاصة. صحيح أننى امرأة، وصحيح أن لى مهنة، ولكن ما خبراتى المهنية الخاصة؟ من الصعب تحديد ذلك، فمهنتى هى الأدب، وفى هذه المهنة توجد خبرات أقل للنساء عن أى مهنة أخرى باستثناء المسرح. ولأن الطريق قد تم قطعه منذ سنوات طويلة مضت بواسطة "فانى برنى" و"آفرا بن" و"هارييت مارتينو" و"چين أوستن" و"چورچ إليوت"، والعديدات من النساء الأخريات الشهيرات وأكثرهن غير معروفات ومنسيات، هؤلاء جئن قبلى وجعلن الطريق ممهداً ونظمن خطواتى، وبالتالى عندما بدأت الكتابة، كان هناك القليل من العقبات المادية فى طريقى، فى هذا الوقت كانت الكتابة وظيفة مرموقة وتتسم بالسلام والحكمة، لم يكن سلام الأسرة قد تعكر بأعباء الكتابة، ولم تكن هناك طلبات خاصة من ميزانية الأسرة، فبستة عشر بنسًا كان يمكن شراء ورق يكفى لكتابة كل مسرحيات شكسبير. وإذا كان للمرء عقل يعمل بهذا الأسلوب، فالعطور والأزياء والملابس التى تأتى من باريس وڤيينا وبرلين لا يحتاجها الكاتب، ولا أجد حرجًا إذا قلت إن رخص ورق الكاتبة كان بالطبع السبب فى نجاح النساء ككاتبات قبل أن ينجحن فى المهن الأخرى.

(٢)

ولكى أحكى لكنَّ عن قصتى.. أقول إنها شديدة البساطة، كل ما عليكن عمله هو أن تتصورن فتاة فى حجرة نومها والقلم فى يدها وكل ما عليها عمله هو أن تحرك هذا القلم من اليسار إلى اليمين، ومن الساعة العاشرة صباحًا حتى الواحدة ظهرًا، ثم خطر لها أن تفعل هذا بطريقة أبسط وأرخص وهى أن تضع بعض هذه الصفحات فى غلاف خطاب وتلصق طابعًا بقيمة بنس فى الزاوية العليا، وتسقط هذا الغلاف فى صندوق البريد الأحمر على ناصية الطريق. بهذه الكيفية أصبحت كاتبة صحفية، وقد كوفئ مجهودى فى اليوم الأول من الشهر التالى، وكان يومًا مجيدًا جدا بالنسبة إلىّ عن طريق خطاب من مدير التحرير يحتوى على شيك بمبلغ جنيه واحد وعشرة شلنات وستة بنسات. ولكن لكى أوضح لكن مدى ما أستحقه من أن يطلق علىَّ امرأة مهنية، يجب أن أعترف أنه بدلا من إنفاق ذلك المبلغ على الخبز والزبد والإيجار والأحذية والجوارب أو فاتورة الجزار، خرجت واشتريت قطة إيرانية جميلة أدخلتنى فى التو فى مشكلات مع جيرانى.

ما الذى يمكن أن يكون أبسط من كتابة مقال وشراء قطط إيرانية من ثمنه؟! ولكن انتظرن لحظة.. فالمقالات يجب أن تكون عن موضوع ما، ومقالتى كما أتذكر كانت عن رواية لرجل شهير، وحين كنت أكتب هذا المقال اكتشفت أننى لو كنت سأستعرض الكتب فيجب أن أخوض معركة مع شبح معين وكان الشبح امرأة، وعندما عرفتها بصورة أفضل أسميتها على اسم بطلة القصيدة الشهيرة "الملاك فى البيت". لقد كانت هى التى اعتادت أن تتداخل بينى وبين ورقى عندما كنت أكتب استعراضا لكتاب. لقد كانت هى التى أزعجتنى وأضاعت وقتى، وبالتالى عذبتنى إلى أن قتلتها فى النهاية. أنتن من جيل أصغر وأسعد، وبالتالى لم تسمعن عنها، قد لا تعرفن بما أعنيه بالملاك فى البيت، لكن سوف أصفها باختصار ما استطعت. لقد كانت عاطفية لدرجة كبيرة، وعلى درجة عالية من الجمال، وغير أنانية على الإطلاق. لقد تفوقت فى الفنون الأصعب للحياة العائلية. كانت تضحى بنفسها يوميا. إذا كان هناك دجاج على الغداء، أكلت الأرجل،

وإذا كان هناك تيار من الهواء جلست فيه. باختصار كانت منظمة لدرجة أنها لم يكن لها رأى أو رغبة خاصة بها، ولكنها كانت تفضل التعاطف دائما مع آراء الآخرين ورغباتهم. وفوق كل شيء كانت نقية، ونقاؤها كان من المفروض أن يكون هو جمالها الأساسى، وكذلك خجلها وسموها العظيم.

(٣)

فى الأيام الأخيرة للملكة ڤيكتوريا، كان لكل بيته ملاكه الخاص. وعندما بدأت الكتابة، قابلتها مع أول كلماتى، كان ظل أجنحتها يسقط على صفحتى، وكنت أسمع هفهفات ثوبها الملائكى فى الغرفة. عندما أمسكت بالقلم فى يدى لاستعراض تلك الرواية التى كتبها رجل مشهور تسللت خلفى وهمست "عزيزتى، أنت امرأة صغيرة وتكتبين عن كتاب كتبه رجل، إذن كونى متعاطفة ورقيقة، وامتدحى واخدعى واستعملى كل الفنون والخدع الخاصة بجنسنا، لا تدعى أى فرد يخمن أن لك عقلاً خاصاً بك. وفوق كل شيء، كونى نقية". وشرعت فى الكتابة كما لو كانت هى التى تمسك بقلمى. الآن أسجل العمل الوحيد الذى أستحق عليه الثناء، رغم أن الثناء يعود بحق لبعض أسلافى السابقين الممتازين.

التفتُّ إليها وأمسكتها من رقبتها، حاولت ما وسعتنى القدرة أن أقتلها، لو لم أقتلها كانت ستقتلنى. كانت ستنتزع القلب من كتاباتى، فكلما جلست للكتابة وجدت وجهها أمامى على الورق، تملى على ما أكتب حتى كدت أجن، لم يكن بإمكانى استعراض رواية دون أن يكون لها رأى خاص بها، ودون التعبير عما تراه فيها بالنسبة إلى العلاقات بين البشر والأخلاق والجنس، وكل هذه الأشياء الدقيقة. كان من رأيها أن هذه الموضوعات شائكة، ولا يمكن التعامل معها بصراحة وحرية بواسطة النساء. كان من رأيها أن هذه الموضوعات تسبب الفتنة، إذ يجب أن أكذب وأن ألفق كلما كتبت فيها، كانت تريدنى أن أكذب لكى أنجح حتى ضقت ذرعًا بها. كنت كلما أحسست بظلال جناحيها أو بوهج هالتها على صفحتى، أمسكت بالمحبرة وقذفتها بها. لقد ماتت بصعوبة. كانت طبيعتها التلفيقية تساعدها بشدة. لقد كان من السهل علىَّ أن أقتل شبحًا عن أن

أقتل حقيقة. كانت دائما ما تعود زاحفة عندما كنت أعتقد أننى تخلصت منها. ولكنى أمتدح نفسى لأننى قتلتها فى النهاية، وكان الصراع شديداً، وأخذ الكثير من الوقت الذى كان من الأفضل إنفاقه فى تعلم اليونانية، أو فى التحليق فى آفاق العالم بحثا عن المغامرات. ولكنها كانت تجربة حقيقية، كانت خبرة يجب أن تحصل عليها كل النساء الكاتبات فى ذلك الوقت. قتل الملاك الموجود بالبيت كان جزءاً من وظيفة المرأة الكاتبة.

(٤)

ولأستطرد فى قصتى، كان الملاك قد مات فما الذى بقى؟ قد تقلقن إذا عرفتن أن ما بقى كان شيئًا بسيطًا وعاديا، امرأة صغيرة فى غرفة نوم مع قلمها. بكلمات أخرى، الآن وقد خلصت نفسها من الزيف، آن لهذه المرأة أن تصبح نفسها. نعم، ولكن ما هى "نفسها"؟ أعنى، ما هى المرأة؟ أؤكد لكنَّ أننى لا أعرف، ولا أعتقد أنكن تعرفن، لا أعتقد أن أى فرد يعرف إلى أن تعبر هى عن نفسها فى كل الفنون والمهن المفتوحة للبراعة الإنسانية. هذا بالتأكيد أحد الأسباب التى تشرح لماذا أتيت اليوم إلى هنا. والإجابة هى ببساطة أننى أتيت احترامًا لكن، أنتن اللاتى يجب عليكن إيضاح ما هى المرأة بتجاربكن وخبرتكن فى الحياة، عليكن أيضا إخبارنا بالنتائج، بفشلكن أو نجاحكن، والأسباب التى قادت للفشل أو النجاح، وبكل التفاصيل شديدة الأهمية من المعلومات.

ولكى أستمر فى سرد خبراتى المهنية، فقد جمعت جنيها وعشرة شلنات وستة بنسات بمقالى الأول واشتريت قطة إيرانية ثم أصبحت طموحة. قد يكون شراء قطة إيرانية أمراً طيبًا للغاية، كما قلت لنفسى، ولكن القطة الإيرانية ليست كافية. يجب أن يكون عندى سيارة، وهكذا كانت البداية لكى أصبح روائية، لأنه شىء غريب جدا أن يعطيك الناس سيارة إذا رويت لهم قصة. ولايزال أكثر غرابة ألا يوجد ما هو أشد إبهاجًا فى الدنيا من رواية القصص. إنها أكثر إمتاعًا عن كتابة نقد أو استعراض للروايات الشهيرة. ولكنى إذا أطعت من وجهت لى الدعوة وأطلعتكم على خبراتى المهنية كروائية،

فيجب أن أحكى لكن عن تجربة غريبة حدثت لى كروائية، ولكى تفهمنها يجب أن تحاولن فى البداية تخيل الحالة العقلية للروائية. أرجو ألا أكون أفشى أسرار مهنتى إذا قلت لكن أن رغبة الروائى الأساسية هى أن يكون مرهف الحواس بقدر الإمكان، يجب أن يستحث فى نفسه حالة وجد مستمر، فهو يريد للحياة أن تستمر حوله بأقصى هدوء ممكن، كما يريد رؤية نفس الوجوه وأن يقرأ نفس الكتب وأن يقوم بعمل نفس الأشياء يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، بينما هو يكتب بحيث لا يخرجه أى شىء من الوهم الذى يعيشه، بحيث لا يزعج أى شىء رؤياه الغامضة لما حوله وإحساساته واندفاعاته، وجموحه واكتشافاته المفاجئة لتلك الروح المراوغة التى تسمى "الوحى". إننى أشك فى أن هذه الحالة هى نفسها التى تعترى الرجال والنساء على السواء. فلتكن على الصورة التى عليها. أنا أريد منكن أن تتخيلننى وأنا أكتب رواية ومحلقة فى حالة من الانجذاب. أريد منكن أن تتصورن فتاة تجلس بقلم فى يدها ولدقائق وأحيانا لساعات لا تغمسه فى المحبرة، الصورة التى تأتى إلى عقلى عندما أفكر فى تلك الفتاة هى صورة صياد يجلس غارقًا فى أحلامه على حافة بحيرة عميقة ممسكًا فى يده بسنارته طافية على صفحة الماء، فهى تترك خيالها يطوف بلا قيود حول كل صخرة فى العالم تحت الماء، فى أعماق وجودنا غير المحسوس. الآن تأتى الخبرة، الخبرة التى أعتقد أنها أكثر شيوعًا بين الروائيات عنها بين الرجال. خيط السنارة يتحرك بين أصابع الفتاة، خيالها ينطلق بعيداً، لقد ذهبت إلى البرك والمستنقعات والأعماق والأماكن المظلمة التى تتقلب فيها الأسماك الضخمة بحثا عن صيد بلا جدوى، ثم فجأة يحدث الانفجار، يفور الماء بالزبد. لقد اصطدمت المخيلة بشىء صلب، صخرة ضخمة، استيقظت الفتاة من حلمها وهى فى حالة إحباط حادة وصعبة. لقد كانت تفكر فى شىء، شىء عن الجسد، عن العواطف التى لا يصح لها كامرأة أن تقولها، لأن الرجال كما قال لها عقلها، سوف يصدمون. إدراكها لما يقوله الرجال عن امرأة تقول الحقيقة عن عواطفها أيقظتها من حالة الانجذاب الفنية ولا يمكنها أن تكتب المزيد. لقد انتهى السبات، وأصبح لا يمكن لمخيلتها أن تعمل بعد ذلك.

(٥)

أعتقد أن هذا يعد أمراً شائع الحدوث للروائيات من النساء. إنهن مقيدات بالتقليدية الحادة للجنس الآخر. فرغم أن الرجال يسمحون لأنفسهم بحرية أكبر فى هذا الخصوص، فأنا أشك فى أنهم يدركون أو يمكنهم التحكم فى شدة إدانتهم لمثل هذه الحرية للنساء.

هاتان كانتا اثنتين من خبراتى الحقيقية. اثنتان من مغامراتى فى حياتى المهنية. الأولى قتل الملاك الموجود بالبيت وقد أنجزتها، لقد قتلتها.. ماتت، ولكن الثانية، وهنا أقول الحقيقة عن خبرتى الخاصة كأنثى، لا أعتقد أننى قد قمت بحلها، وأشك فى أن أية امرأة قد قامت بحلها حتى الآن. العقبة التى نواجهها لاتزال شديدة القوة، ورغم ذلك، أجد أن من الصعب تحديدها. ظاهريا، أى شىء أبسط من كتابة الكتب؟. لكن ما العقبات التى تواجه المرأة ولا تواجه الرجل داخليا؟ كما أعتقد، الوضع هنا شديد الاختلاف.. فالمرأة عليها أن تقاتل أشباحاً كثيرة وأن تتغلب على العديد من التعصبات. بالتأكيد الوقت لايزال طويلاً قبل أن تستطيع المرأة أن تجلس لتكتب كتابا دون أن تجد شبحًا يجب أن تقتله، أو صخرة تصطدم بها. وإذا كان الوضع كذلك فى الأدب، وهو الأكثر حيرة بين كل المهن للنساء، فكيف إذن يكون الحال فى المهن الجديدة التى تدخلنها الآن ولأول مرة؟!

تلك كانت الأسئلة التى كنت أود أن أسألكن إياها لو توافر لى الوقت. وبالتأكيد، إذا كنت قد ركزت على تلك الخبرات المهنية الخاصة بى، فقد قصدت ذلك لأننى أعتقد أنها رغم الاختلاف تخصكن أيضا، حتى لو كان الطريق مفتوحا. عندما لا يكون هناك ما يمنع امرأة من أن تكون طبيبة أو محامية أو موظفة مدنية، فسيوجد العديد من الأشباح والعقبات التى تعترض طريقها. أن نناقش ونحدد طبيعتها هو فى نظرى شديد الأهمية والقيمة، لأنه بذلك فقط يمكن اقتسام العمل والتغلب على المصاعب. ولكن إلى جانب ذلك، من الضرورى أيضا مناقشة الغايات والأهداف التى تكافح المرأة من أجلها، وتحارب تلك العقبات الكئود. تلك الأهداف لا يمكن أخذها على أنها أمور مسلم بها،

يجب باستمرار مناقشتها واختبارها. الوضع الكلى - كما أراه - فى هذه القاعة المليئة بالنساء اللاتى يقمن لأول مرة فى التاريخ بمزاولة مهن لا أعرف طبيعتها أو عددها، هو وضع له أهمية غير عادية. لقد اكتسبتن غرفًا خاصة بكن فى البيت الذى كان مملوكًا بكامله للرجال، وأنتن قادرات بالجهد والعمل الشاق على دفع الإيجار حيث تستطعن أن تكسبن الأموال الخاصة بكن. ولكن هذه الحرية ما هى إلا بداية، الغرفة تخصكن ولكنها لا تزال خاوية، يجب فرشها وتزيينها، ويجب أن نتشارك فيها. كيف ستفرشنها وكيف ستزيننها؟ ومع من ستسكنن فيها، وبأية شروط؟ هذه، كما أعتقد أسئلة شديدة الأهمية. فلأول مرة فى التاريخ تستطعن أن تسألن، ولأول مرة تستطعن أن تقررن لأنفسكن ما يجب أن تكون عليه الإجابة. أنا مستعدة للبقاء ومناقشة تلك الأسئلة وإجاباتها، ولكن ليس الليلة.. فقد حان موعد ذهابى.. ويجب أن أتوقف الآن.

الفصل السادس

اللغة والتحيز الجنسى

هويتك من كلامك

روبين لاكوف

(١)

لغة النساء هي تلك الطريقة الممتعة الرقيقة، لطيفة العبارة والناعمة في الحديث، والتي تعلمناها عندما كنا فتيات صغار، وقد اكتنف التحيز الثقافي اللغة التي يسمح لنا بالتحدث بها والموضوعات التي يسمح لنا بالتحدث فيها، وكذلك الطريقة التي يتم التحدث بها.

ولأننا تعلمنا دروسنا اللغوية جيدا، فإننا ندخل إلى العالم لكي نكتشف أننا عاجزات عن الاتصال، ملعونات أيضا إذا لم نستطع.

إذا رفضنا التحدث "كسيدات" يُسخر منا ونُنتقد باعتبارنا لسنا بإناث ويقولون "إنها تفكر كرجل" وذلك على أفضل تقدير، وإذا تعلمنا اللغة المشوشة، غير المنظمة لجنسنا، يُسخر منا لعدم القدرة على إيضاح الأفكار وعدم القدرة على المشاركة في نقاش جدي، وبالتالي نكون غير صالحات لتقلد المواقع الرفيعة في الحكومة!

لا يستلزم الأمر إذن الكثير لكي تبدأ المرأة في الإحساس بأنها تستحق هذه المعاملة نتيجة عدم الكفاءة في ذكائها وتعليمها.

(٢)

تظهر "لغة النساء" في كل مستويات اللغة الإنجليزية. على سبيل المثال، يتم تشجيع النساء والسماح لهن بالتميز الدقيق في تسمية الألوان عن الرجال. كلمات مثل "موف، بيج، أزرق بحاري، لافاندر" وغيرها ليست ملحوظة في مفردات اللغة النسائية

ولكنها غائبة تماما بالنسبة إلى لغة الرجال. لا أعرف دليلا يؤكد أن النساء يرين بالفعل مجالا أوسع من الألوان عن الرجال. ومع ذلك فالتميز الدقيق من هذا النوع وببساطة أكثر مناسبة للمفردات النسائية وليس للمفردات الرجالية، فبالنسبة إلى الرجال الذين يتحكمون فى معظم أمور العالم، مثل هذا التمييز يعد تافهاً وغير لائق.

وفى مجال علم النحو نجد خصوصيات مماثلة تتعلق بالحديث على علاقة بطراز الجنس. فهناك تركيب معين على وجه الخصوص تستعمله النساء فى الحديث أكثر كثيرا من الرجال، مثل السؤال الموصول. الوصلة هى النقطة الوسطى بين الجملة التقريرية والسؤال بنعم أو لا، فهى أقل تقريراً من الأولى ولكنها أكثر ثقة من الثانى.

الجملة التقريرية تشير إلى الثقة بمعلومات المتحدث ومن المؤكد أن يتم تصديقها، بينما السؤال يشير إلى الافتقار إلى المعرفة عن بعض النقاط ويشمل ضمنيا أن الفجوة فى معلومات المتحدث سوف يتم اجتيازها بإجابة. على سبيل المثال، السؤال الموصول لأنه وسط بين التقرير والسؤال، يُستخدم عندما يكون المتحدث يدعى أمراً، ولكنه يفتقر إلى الثقة الكاملة فى صدق هذا الادعاء، وبالتالى إذا قلت "هل چوان هنا؟" فسوف لا أندهش إذا كانت الإجابة "لا" ولكنى إذا قلت "چوان هنا، أليس كذلك؟" بدلا من ذلك، فأنا متحيزة إلى جانب إجابة إيجابية، وأحتاج فقط للتأكيد. ولازلت أحتاج لاستجابة ولكن عندى معرفة كافية (أو أعتقد أن عندى) لتوقع الاستجابة. السؤال الموصول إذن يمكن النظر إليه كتقرير لا يتطلب أن يتم تصديقه بواسطة أى شخص ما عدا المتحدث، أى أنه طريقة لإعطاء طريقٍ مفتوحٍ، أى لعدم إجبار المتحدث إليه على أن يساير المتحدث فى وجهة نظره.

ومن الطرق الشائعة لاستخدام السؤال الموصول هو الحديث الصغير عندما يحاول المتحدث أن يستظهر الحديث كأن يقول: "بالتأكيد الجو حار هنا، أليس كذلك؟".

ولكن عند مناقشة الأحاسيس أو الآراء الشخصية فإن المتحدث فقط عادة لديه معرفة بالإجابة الصحيحة. فالجمل مثل "عندى صداع، أليس كذلك؟" هى مضحكة بوضوح. ولكن هناك أمثلة أخرى عندما يكون رأى المتحدث بدلا من انطباعاته، هو المطلوب مثل فى "الوضع فى جنوب شرق آسيا فظيع، أليس كذلك؟".

وبينما توجد تفسيرات أخرى بالطبع، لجمل مثل تلك الجملة فأحد هذه الاحتمالات هى أن المتحدث لديه إجابة محددة فى عقله "نعم" أو "لا" ولكنه لا يريد أن يقولها بوضوح. مثل الأسئلة الموصولة من الأرجح أن تستعمل بواسطة النساء عن الرجال فى الحديث. لماذا كان الحال كذلك؟

(٣)

السؤال الموصول يسمح للمتحدث بأن يتجنب الالتزام، وبالتالى يجنب الاصطدام مع من يتحدث إليه. المشكلة هى أنه بعمل ذلك، فإن المتحدث قد يعطى الانطباع بأنه ليس متأكداً فى الواقع من نفسه أو يتطلع إلى تأكيد ممن يتحدث إليه بهذه الأفكار. عدم التأكد هذا يقوى بصورة كبيرة أيضا. هناك جملة معينة، بنغمة معينة، تستخدمها النساء فقط، وفقًا لما أعرف، والتى تغيِّر الإجابة إلى سؤال. أثر استعمال الانعطاف الحادث المميز للسؤال "نعم - أم لا" هو الإيحاء بأن المتحدثة تبحث عن التأكد، على الرغم من أنها الوحيدة التى تملك المعلومات المطلوبة، وهو سبب سؤالها فى المقام الأول:

السؤال : متى سيكون الغداء جاهزا؟

الإجابة : أوه... حوالى الساعة السادسة...؟

إنه يبدو كما لو أن المتحدث الثانى يقول : "الساعة السادسة.. هل يناسبك هذا، إذا وافقت"؟ الشخص المتحدث إليه يوضع فى موضع الذى يجب أن يوفر التأكيد. أحد توابع ذلك على الأرجح بالنسبة إلى لنساء، هو أنها دون أن تشعر، تتبنى المتحدثة رأيًا عن تجربتها والأخريات سيمتنعن عن أخذه بجدية أو الثقة فيه بالنسبة إلى أية مسئولية حقيقية لأنها "لا تستطيع الجزم"، و"غير واثقة بنفسها". مثل هذه التلفيقات قد تشرح لماذا كانت لغة النساء أكثر تهذيبا من لغة الرجال. فمن اللباقة ترك القرار مفتوحًا، لا أن تفرض رأيك أو وجهة نظرك أو ادعاءاتك على أى فرد آخر، وبالتالى، فالسؤال الموصول هو جملة مهذبة، لا إرغام فيها على الموافقة أو التصديق من جانب المتحدث إليه. بالطريقة نفسها يكون الطلب عبارة عن أوامر مهذبة لا يرغم على الطاعة

من جانب المتحدث إليه وإنما يقترح شيئًا يبدو كمجاملة للمتحدث. الأوامر الواضحة تحتوى ضمنيا على تهديد بتوابع معينة إذا لم يتم .ـ ' عها، وأيضا فى عدم التهذيب، أنها تحتوى ضمنيا أن المتحدث هو فى وضع أعلى وبادر على أن تطاع أوامره. فبجعل الرغبات تبدو فى صورة طلبات، من ناحية أخرى، فإن المتحدث ضمنيا ـ يشير إلى أن طلبه لم يُجب، والمتحدث فقط هو الذى سيعانى. فعدم الاستجابة لا يمكن أن يضر المتحدث إليه. وبالتالى، فالقرار متروك للمتحدث إليه.

التميز يبدو واضحًا فى هذه الأمثلة :

"أغلق الباب".

"من فضلك أغلق الباب".

"ألا أغلقتَ الباب؟".

"أتغلق الباب من فضلك؟".

"أو لم تغلق الباب؟".

(٤)

بالكيفية نفسها، وكما أن الكلمات وأسلوب الخطاب المستعملين بواسطة المرأة يهددان صورتها، فإن ما يستخدم منهما لوصف المرأة يجعلها فى وضع أسوأ. عادة ما تستخدم الكلمة لكل من المرأة والرجل (وربما لأشياء أيضا)، ولكن عندما تستخدم للمرأة فإنها تتضمن معنى معينًا، يكون ضمنيا وليس تقريريا، يحط من قدر النساء كمجموعة. واستخدام العبارة المحسنة له هذا الأثر. والعبارة المحسنة هى البديل لكلمة اكتسبت معنى سيئًا لارتباطها بشىء غير مُستحب أو مُحرج. ولكن ما إن تصبح الكلمة شائعة الاستخدام، حتى تحمل المعنى نفسه السيئ القديم، لأن الإحساس تجاه الأشياء أو الناس الذين يُشار إليهم لا يتغير بتغير الاسم، وبالتالى فالعبارات المحسّنة الجديدة لا بد من أن توحى بالمعنى السيئ القديم.

هناك عبارة محسنة عن النساء لا تزال متداولة إلى الآن، وهذه الكلمة هي بالطبع كلمة "سيدة". فكلمة "سيدة"، لها انطباع رجولى مناظر وهو "السيد المهذب" والتى أحيانا ما تُختصر إلى المهذب. ولكن لسبب ما، فإن كلمة "سيدة" أكثر شيوعا فى الاستخدام عن "المهذب". قرار استخدام كلمة "سيدة" بدلا من "امرأة" أو العكس، قد يغير تغييرا جوهريا معنى الجملة، مثلما يوضح المثال التالى :

(أ) امرأة (سيدة) أعرفها تعمل عميدة بجامعة بيركلى.

(ب) امرأة (سيدة) أعرفها تقوم بعمل أشياء مذهلة من أربطة الأحذية والصناديق القديمة.

استخدام "سيدة" فى الجملة (أ) يضفى استخفافًا أو عدم جدية على الجملة (ب) سوف يشير إلى أن المتحدث يعتبر "الأشياء المذهلة" ليست فنا جديا وإنما مجرد هواية. فإذا ما استخدمت كلمة "امرأة" فربما كانت تعنى فنانة حقيقية. فأن يقال، السيدة الدكتورة يعد تلطيفا، حيث لا يقال أبدا السيد المهذب الدكتور، أو الرجل الدكتور. على سبيل المثال، فى إعلانات سان فرانسيسكو فى ٣١ يناير عام ١٩٧٢ أشير إلى مادلين موراى أوهاير على أنها السيدة الملحدة، مما هبط بها إلى شاذة مشتتة العقل. فحتى تعبير المرأة الملحدة لا يمكن الدفاع عن استخدامه، فالجنس لا علاقة له بموقفها الفلسفى.

(٥)

تجادل الكثيرات من النساء فى أن كلمة "سيدة" تحمل معها دلالات تستدعى زمن الفروسية القديم، وتضفى قيمة عالية على من يُشار إليها. وهذا يجعل المصطلح يبدو مهذبا فى البداية، ولكن يجب أيضا أن نتذكر أن هذه المتضمنات تعد خطيرة لأنها تشير إلى أن "السيدة" تعد عاجزة، ولا يمكنها عمل الأشياء بنفسها.

يمكن أيضا استخدام كلمة "سيدة" متضمنة الاستخفاف كما فى أسماء الهيئات. فالهيئات التى لها هدف جاد (ليس مجرد تمكين السيدات من قضاء الوقت مع بعضهن)

لا يمكنها استخدام كلمة "سيدة" فى اسمها، ولكن الهيئات الأقل جدية يمكنها ذلك. قارن بين عبارة "السيدات الملحقات" بمجموعات الرجال أو "جمعية مساء الخميس للسيدات" بعبارات "جمعية تحرير السيدات" أو "حركة السيدات للسلام".

المثير فى هذا الانقسام هو أن كلمة "سيدة هى فى الأصل تحسين وبديل، تضع وجهًا أفضل على شيء يجده الناس غير مريح، أى المرأة، فأى تحسين هذا الذى يحط من الناس الذين يشير إليهم؟ ربما تقوم كلمة "سيدة" مقام كلمة "امرأة"، لأنها لا تشتمل على المتضمنات الجنسية المجودة فى "امرأة ، ولأنها غير محرجة بهذا الاستعمال. فإذا كان ذلك ممكنا، فإننا نتوقع فى المستقبل أن تحل كلمة "سيدة" محل كلمة "امرأة".

(أ) هى فى الثانية عشرة فقط، ولكنها أصبحت امرأة بالفعل.

(ب) بعد عشر سنوات فى السجن، يريد هارى أن يجد امرأة.

(جـ) إنها امرأتى، كما ترى، فلا تعبث معها.

(٦)

من البدائل الشائعة لكلمة "امرأة" كلمة "فتاة". نادرا ما يستمع المرء رجلاً تعدى مرحلة النضج يشار إليه بكلمة "صبى" فيما عدا بعض التعبيرات مثل "الخروج مع الصبية" والذى يقصد به التعبير عن جو الاستهتار وعدم المسئولية. ولكن النساء من كل الأعمار هن "فتيات"، حيث يمكن أن تلتقى المرأة بـ "رجل" ليلة السبت وليس بـ "صبى". ولكن الرجل يمكن أن يلتقى بـ "فتاة" ليلة السبت وليس "بامرأة" أو سيدة. للنساء صديقات من الفتيات، ولكن الرجال ليس لهم - بالمدلول غير الجنسى - أصدقاء من الفتيان. ربما كان استخدام كلمة "فتاة" أمر تحسينى كما فى استخدام "سيدة" للتأكيد على عدم النضج ولإزالة الدلالات الجنسية التى توجد فى "امرأة". فكلمة "فتاة" تعنى عدم المسئولية، فأنت لا ترسل فتاة لتؤدى مهمة امرأة (أو مهمة صبى)، فالفتاة شخصية غير ناضجة وبعيدة تماما عن الحياة الفعلية بحيث لا يمكن أن توكل إليها مسئوليات أو تُكلف باتخاذ قرارات ذات طبيعة مهمة أو جادة.

لنأخذ الآن اثنتين من الكلمات التى بمدلول علاقتها المحتملة بالمجتمعات الأسبق، كانت تكافئ (ذكر - أنثى) ومناظرة لكلمتى (ثور - بقرة). لنفترض أننا وجدنا ولأسباب مستقلة أن المجتمع قد تغير بطريقة تجعل المعنى الأصلى يعد غير صالح حاليا ولكن الكلمات لم تُهمل وإنما اكتسبت معانى جديدة على علاقة مجازية بالدلالة الأصلية.

ولكن افترض أن هذه الاستخدامات المجازية لا توازى بعضها البعض الآن. فبتقدير أين تلاشى التوازى سوف نكتشف شيئا عن الأدوار التى لعبها الرجال والنساء فى تلك الثقافة.

من الأمثلة الجيدة لمثل هذا التباعد الزمنى ما يوجد بين كلمتى: سيد، سيدة. فالاستعمال الأصلى كان يشير إلى سيطرة المرء على خَدَمِه، ولكن هذه الكلمات لم تعد مستعملة الآن بمدلول السيد والخدم، حيث إن العلاقة أصبحت أقل شيوعًا فى مجتمعنا، ولكن الكلمات لا تزال شائعة.

وما لم تستخدم بمدلول الحيوانات، فكلمة "سيد" الآن تعنى رجلا اكتسب قدرات فائقة فى مجال من المجالات، عادة ما يكون غير جنسى، ولكن بالمدلول الأنثوى المناظر لا يمكن استخدامها بهذه الطريقة، فهى بصورة خاصة محددة بمدلولها الجنسى "للعشيقة". لقد بدأنا بمدلولين، كليهما على نحو عام يشير إلى "واحد له سلطة على آخر". ولكن الصورة الرجولية، حيث لم يعد لأى فرد القدرة على أن تكون له السلطة المطلقة على فرد آخر، أصبحت تستخدم مجازيا بمدلول "القدرة على عمل أشياء"، فالسيد كلمة تتطلب كهدف لها أن تقترن باسم نشاط ما، شىء لصيق ومجرد. ولكن السيدة، تتطلب اسما رجوليا مرتبطا بها يسبقها. لا يمكن للمرء أن يقول "مرجريت هى سيدة"، فهى لابد من أن تكون سيدة شخص ما. الرجل يتم تعريفه بما يفعل، والمرأة يتم تعريفها بجنسها، أى بمدلول خاصية معينة لعلاقتها بالرجل. إنه لأمرٌ غريب حقا أن تكون عبارة "السيد العجوز"، مثل هانز هولبين، وأمر آخر أن تكون "سيدة عجوز" بمعنى عشيقة عجوز.

(٧)

يصدق الشيء نفسه على كلمات "العانس" و "العزب"، وهى كلمات ذات الدلالة الجنسية "للفرد غير المتزوج". التشابه ينتهى مع التعريف. فبينما "عزب" هو اسم محايد، عادة ما يستعمل للإطراء، فكلمة "عانس" تستعمل عادة للتحقير بمعانى الملل والنكد وغيرها. فأن يكون المرء عزباً تعنى ضمنيا أن له حق اختيار أن يتزوج أو لا يتزوج، وهذا يجعل العزب جذّابا فى الأدبيات الشائعة، فهو قد تم السعى وراءه ولكنه تخلص من مطارديه. ولكن "العانس" فهى التى لا يتم السعى وراءها، أو على الأقل لم يتم السعى وراءها بجدية، فهى كبيرة السن، وسلعة غير مرغوب فيها. المعنى المجازى لكلمة "عزب" يشير عادة إلى الحرية الجنسية، بينما لكلمة "عانس" فيشير إلى العفة أو الترهب.

هذه الأمثلة يمكن تكرارها، وبصفة عامة، يعتبر من غير اللائق فى المجتمع تهنئة امرأة بخطبتها، بينما من الصواب تهنئة خطيبها، لماذا كان ذلك؟

يبدو أن السبب هو أنه من غير المستحب تذكير الناس بأمور قد لا تكون مريحة لهم. فلكى تهنئ امرأة بخطبتها يعنى فى الواقع أن تقول لها "شكرا لله! لقد نجوت بأعجوبة"، أما بالنسبة إلى الرجل، من الناحية الأخرى، لم يكن هناك خطر مماثل. فاختياره لأن يتزوج ينظر إليه على أنه أمر طيب ولكنه ليس شيئًا ضروريا.

الكيل بمكيالين لغويا يوجد عبر حياة العلاقة بين الزوجين. فبعد الزواج، يصبح العزب والعانس رجلا وزوجة، وليس رجلا وامرأة. والمرأة التى يتوفى زوجها تبقى "أرملة چون"، ولكن چون لا يكون أبداً "أرمل مارى".

أخيرا، لماذا يسرع البائعون وغيرهم فى النداء على زبائنهم من النساء بكلمات مثل "عزيزتى"، "يا جميلة" وغيرها من معانى الإعزاز التى لا شأن لهم بها؟ الزبون الرجل لا يمكنه تحمل ذلك، ولكن النساء كالأطفال، من المفترض أن يستمتعن بهذا الإعزاز لا أن يغضبن منه.

كيف يتحدث الرجال.. وكيف تتحدث النساء؟

جلوريا ستاينم

(١)

في وقت ما ومنذ سنوات قلائل، اعتقد علماء النفس أن الطريقة التي نختارها للاتصال هي بدرجة كبيرة تدل على الشخصية. فإذا كانت أساليب معينة للحوار تُعد أكثر تمييزًا لأحد الجنسين عن الآخر (أكثر تجريدا وعدوانية للرجال، وأكثر ذاتية وإبهامًا للنساء) فإن هذا يمثل رافدًا آخر لأثر التكوين البيولوچي على الشخصية.

لقد تحدت عضوات الحركة النسائية هذا الفرض منذ البداية، سواء بوعي أو بغير وعي. الكثيرات منا تعلمن درسًا كبيرًا في الستينات عندما تحدث جيلنا عن مظالم الحرب والعرق والطبقة، والنساء اللائي استعملن نفس الكلمات تمامًا ونفس الأسلوب الذي استعمله رفاقنا من الرجال، كن أقل حظا في الاستماع إليهن أو في أن يؤخذن بالجدية اللازمة عندما حاولنا أن نتكلم عن هذه الإحباطات وغيرها، أصبح عدم الاستماع إلينا أكثر سوءًا، مع الاعتراض وحتى إلى درجة السخرية لكل ما كنا نطرحه في كل ركن. كانت لقاءات النساء فقط وقولهن الحقيقة هما ما بدآ في تأكيد ما اعتقدت كل واحدة منا أنها الوحيدة التي مرت به. لقد كانت مجموعات إثارة الوعي هي فقط التي بدأت في تطوير أسلوب للحديث أكثر تعاونا وأقل صراعًا وحِدَّة، أي أسلوب بديل، احتفظت به الكثيرات من النساء وقوّينه منذ ذلك الحين.

المشكلة هي أن هذه الصورة المختلفة ثقافيا ظلت حدثا أنثويا تماما. صحيح أنها ساعدت الكثيرات والكثيرات من النساء للوصول إلى فهم بعضهن البعض، وتصميم إستراتيجيات للعمل ولكنها لم تؤثر على الأسلوب الذكرى الثقافي في الحديث العام، بل ظلت بعيدة مثلما كانت الصورة الأكثر استئناسا في الماضي.

(٢)

أحد أسباب تأخرنا لعقد من الزمن فى تحدى الأساليب الموجودة للحديث صنع حِسا تكتيكيا جيدا . كانت أول مهمة لنا هى تغيير الكلمات نفسها. لم نشعر بأننا داخل دائرة الاهتمام ومشتملات (أثبتت الدراسات أننا بالفعل لم نكن كذلك)، فى المئات من المصطلحات الجنسية مثل الجنس البشرى، والعلوم البحتة وتعريفات ومصطلحات الدولة، ولم نفشل فى رؤية المعادل العنصرى لتميزنا كـ "بنات" فى أعمار متقدمة أو بأسمائنا الأولى فقط، أو بعلاقتنا الشخصية (أو انعدام وجودها) بعضو من المجموعة الأعلى المتسيِّدة.

ومثلما كان صعبا (ولا يزال) هذا الفعل الجذرى للقبض على سلطة تسمية أنفسنا وتجربتنا، فقد كان أسهل من الحديث عن سياسة الحوار. إن تسجيل نماذج الحديث فى المجتمع على اتساعه يتطلب بحوثا مكلفة واستقصاءات. ومع ذلك، فإن تسجيل الجنس فى الكلمات وفى استعمال البدائل، قامت به امرأة دارسة شجاعة فى قاموس "الخطوط المحددة للمعاملة المتساوية للجنسين"، وهو العمل الرائد للباحثة آلما جراهام. لقد كان هذا سببا اقتصاديا جيدا لكون مثل هذه الأعمال من بين أول وأفضل أعمال الدراسات من النساء.

استعراضا لما مضى، فإن السبب الثانى للتأخر، يرجع لإدراك أقل من النساء، أو بالأحرى الاهتمام الواسع بالتدريب على تأكيد ذواتهن. فمعظم النساء احتجن إلى أن يكن أكثر تأكيدا لذواتهن (أو أكثر جسارة وعدوانية رغم أن الكلمة الأخيرة ما زالت مثار خلاف). معظم هذه المقررات كانت تعلم النساء كيف يلعبن المباراة القائمة وليس كيف يغيِّرن القواعد. وعلى خلاف الهجوم الأنثوى على اللغة الجنسية، والذى طالب بسلوك جديد من الرجال، فالتدريب على تأكيد ذواتهن كان إصلاحيا أكثر من أن يكون ثوريا. فقد دفع بتغيير أحادى للنساء فقط، وهو الذى يبدو مؤكدا للأسلوب الذكورى فى الاتصال على أنه الأكثر فاعلية، أو هو الأسلوب الوحيد الناضج. لكن من المؤكد أن

العديدات من النساء ساعدهن ذلك، وأن كثيراً من الرجال ووجهوا بالخبرة التعليمية للمرأة التي تأكدت ذاتها بالخبرة المكتسبة، ولكن الأثر الأكبر كان عادة هو مديح المباراة الرجولية في سياسة الحديث والميل إلى أن يقلدنها.

(٣)

منذ ذلك الحين والقليلات من الدارسات لطبيعة الأنوثة قد توافرت لديهن عناصر الوقت والمال لكي يقمن بتسجيل نماذج الحديث لمجموعات أحادية الجنس أو مختلطة الجنس، سواء هنا في الولايات المتحدة أو في أوروبا. والدراسات التقليدية التي تأثرت بالأنوثة، بدأت أيضا في النظر إلى أساليب الحديث كمؤشرات للسلطة والبيئة. على سبيل المثال، الموظفون يتعقبون موضوعات يثيرها أصحاب العمل أكثر من العكس، والكبار يشعرون بالحرية في مقاطعة حديث الأصغر منهم سنا، والمرءوسون أكثر تأدباً من الرؤساء.

وحيث إن النساء يشاركن عادة في المناقشات والحديث مع الأقل سلطة، في المستويات المختلفة والأوضاع التي تقتضي ذلك، فكيف يمكن أن يكون ذلك مجرد أمر عارض؟

وحتى البحوث الجديدة المتأثرة بالأنوثة، أمامها طريق طويل لتحييد التحيز الرجولي للدراسات الحالية. على سبيل المثال، التحدث يُفترض أنه الفعل المهم والإيجابي، بينما الاستماع هو بالتأكيد وظيفة إنتاجية، ولكن ذلك لا يعد موضع دراسة على الإطلاق.

على الرغم من ذلك، هناك منحٌ دراسية كافية لتسجيل الطرق المختلفة للحديث للإشارة إلى بعض الفروق في النموذج الرجولي للاتصال، ولإعطاء فكرة عن كيفية خلق توليفة من كليهما توفر مجالا أوسع كثيرا من البدائل للنساء وللرجال.

هل يفترض أن النساء يتحدثن أكثر من الرجال، وبالتالي قد يتسيدن المناقشات ما لم يتسيدن أي شيء آخر؟ إذا كانت هذه هي وجهة نظرك، فأنت لست وحدك.

الباحثون فى الفروق بين الجنسين فى اللغة بدءوا بهذا الافتراض، وكذلك فعلت الكثيرات من ناشطات الحركة النسائية، واللائى عادة ما يشرحن الولع المفترض بالحديث فى النساء كتعويض عن عدم توافر سلطة الفعل لهن.

فى الحقيقة، عندما راجعت "دال سبندر" الدراسة الإنجليزية للدراسات الخاصة بالحديث، لكتابها الجديد: "اللغة التى صنعها الرجل"، خلصت إلى أن "ربما فى أكثر من أى مجال للبحث، كانت النتائج متعارضة تماماً مع النمط المألوف، لم توفر دراسة واحدة دليلا على أن النساء يتحدثن أكثر من الرجال، وهناك العديد من الدراسات التى تشير إلى أن الرجال يتحدثون أكثر من النساء".

(٤)

إن استنتاجاتها تعد صحيحة دون الأخذ فى الاعتبار إذا ما كانت الدارسة سألت الأفراد أن يتحدثوا إلى جهاز تسجيل من غير تفاعل مع المجموعة، أم قارنت الرجال والنساء وهم يتحدثون فى التليفزيون، أم قامت بقياس كمية الحديث فى مجموعات مختلطة بين الرجال والنساء فى مجلس المشرعين بالولاية، أو اشتملت على مجموعات نقاش كانت النساء لديهن خبرة أكبر فيها (فى ورشة عمل بلندن عن الجنس والتربية مثلا، تمكن الرجال الخمسة الحاضرون من الحديث أكثر من الاثنين والثلاثين زميلة مجتمعات).

بعض الدراسات عن سكوت الذكر فى الثنائيات المختلطة، ربما تتعارض مع هذه النتائج، لكن بحوث سبندر تؤيد الاستنتاجات فى أن الجزء الأكبر من حديث الأنثى فى حالات حديث (فرد – لفرد) يكون موجها لرسم صورة للرجل، بسؤاله عدة أسئلة، أو بتقديم موضوعات متعددة له أن يوافق هو على واحد منها، أو إظهار الاهتمام بالموضوعات التى يقدمها.

من الواضح أن صمت الذكر لا يماثل بالضرورة الاستماع، فقد يعنى رفض المتحدث فى أن يكون مكشوفًا بالتحدث عن نفسه هو، أو أنه أخذ قرارًا بأن هذا الحوار

ليس له أهمية. وبالمثل، الحديث بواسطة المجموعة المرءوسة ليس بالضرورة دليلا على السلطة، فقد يكون الحافز كحديث شهرزاد، احتياج إلى الدهاء لمجرد البقاء، أو ببساطة لشرح وتبرير أفعال الفرد.

بالإضافة إلى حجم الحديث الأكبر للرجال، يقاطع الرجال النساء أكثر مما يحدث بالعكس. ويصدق هذا على المجموعات وحديث الثنائيات. ومقاطعة الرجال للنساء يؤدى إلى استياء اجتماعى أقل من مقاطعة الأنثى للذكر. الذكور أيضا يقاطعون الإناث أكثر من مقاطعة الأنثى للأنثى.

بالإضافة إلى ذلك، فالذكور يراقبون ويحرسون موضوع الحديث فى المجموعات المختلطة. أوضحت دراسة على أسر الطبقة العاملة أن النساء قد يغامرن بالدخول فى موضوعات رجولية مثل السياسة أو الرياضة، وأن الرجال قد يشاركون فى المناقشات النسائية للأحداث المنزلية، ولكن فى كلتا الحالتين، كان الرجال هم الذين يصححون ويوبخون من يبالغن. حتى في ورشة لندن عن الجنس، على سبيل المثال، تم طمس الخبرة القوية للنساء المشاركات لصالح الاستنتاجات المجردة العامة عن الجنس التى فضلها الرجال. لقد وضع الرجال القلائل الحاضرون إطار الموضوعات لكل الإناث الموجودات.

(٥)

كيف بدأت أسطورة كثرة حديث الأنثى وسيادتها للنقاش؟ لماذا تم قبول هذه القدرة المفترضة، والتى قبلها أيضا كثير من علماء الاجتماع، وبعض النساء تبريراً لعنف بعض الرجال ضد زوجاتهم؟

الحقيقة غير المريحة تبدو فى أن كمية الحديث بواسطة النساء قد تم قياسها مقابل كمية حديث الرجال بدرجة أقل من قياسها مقابل توقعات بسكوت الأنثى.

بالتأكيد، النساء اللائى يقبلن ويشرعن فى نقض أسطورة المرأة الأكثر حديثا قد يدفعن الثمن الأكبر. ففى محاولة أن يصبحن الاستثناء، فهن يُسكِتنَ أنفسهن. فإذا كان

الأمر كذلك فقياس سلوكنا الشخصي مقابل مواقف حقيقية ودراسات حقيقية سوف يكون متنفساً وتأكيداً لأحاسيس لا تقال.

بالطبع، إننا لسن مجنونات، مثلا إذا شعرنا، عندما نحصل على فرصة للحديث ونحن فى مجموعة أننا مكشوفات كعازف الآلة المذعور الذى شذَّ عن اللحن، فلا نكون مجنونات إذا شعرنا بأن كمًا هائلاً من الأفكار التى لم تُقل توجد حبيسة داخل رءوسنا وتخرج مندفعة بطريقة تجعل من الصعب علينا التحدث بهدوء وقد لاحت لنا الفرصة أخيراً.

(٦)

ما إن نتخلى عن البحث عن تأييد لكبت أفكارنا أو أن نقوم بتقليد أسلوب الذكر فى التجريد والاتصال التأكيدى، حتى نجد أنه من السهل أن نقول ببساطة ما هو مطلوب طرحه، وبالتالى نكتسب الاحترام والتأييد. إن فقدان الإحساس بالذات والخوف يجعلاننا نركز على إيضاح مضمون ما نقوله بدلا من أن نركز على أنفسنا.

المهارة المتطورة للنساء كمستمعات، والتى ربما كانت المصدر الحقيقى لما يزهَون به وهو "الحدس" لا يجب تركها خلفنا. يجب أن نحتفظ بها لأنفسنا ونعلمها للرجال بأن نأتى بها معنا إلى عملنا وشئوننا اليومية، ولكن ذلك سيحدث فقط إذا أكدنا قيمتها. إن ثقافة الأنثى لديها الكثير مما تشارك به من يدعى السيادة، إضافة إلى ذلك، قد تشعر النساء بتحسن إذا تحدثن بمساواة بأن يخترن الموضوعات ويجبرن الرجال على الإنصات لما يقلنه، وتوخين السلوك المعقول، وساعدوا الرجال فى أن يصبحوا مستمعين جيدين. نحن بذلك نضفى عليهن شرف الاتصال معنا وبإخلاص ما وسعتنا القدرة، ونعاملهم كما نود أن يعاملونا. فقبل كل شيء، إذا اكتسب رجال مهارة أكثر فى الاستماع الجيد، فسوف تكون لديهم القدرة على "الحدس" أيضا.

(٧)

هناك تدريبات عملية للوصول إلى تغيير توازنات الحديث. حاول تسجيل مناقشة حول مائدة الطعام أو لاجتماع (مع إخفاء حقيقة التسجيل حتى لا يصبح المشاركون واعين لسياسة حديثهم)، ثم أدِر التسجيل لنفس المجموعة، واسألهم أن يجمعوا عدد الدقائق التى تم فيها الحديث، والمقاطعات والموضوعات التى قدمها كل جنس، أو أعطِ اثنتى عشرة قطعة معدنية لكل مشارك فى المناقشة واطلب منهم أن يتم دفع قطعة كل مرة يتحدث فيها الشخص، أو اقطع حاجز الصمت لأولئك الذين نادراً ما يتحدثون بأن يتجولوا حول الغرفة مرة عند بدء اجتماع، ثم حاول توسيع دائرة المشاركة الجماعية بسؤال يجب أن يجيب عنه كل مشارك بصورة شخصية، حتى ولو كان مجرد تقديم نفسه (يقال إن حزب العمال البريطانى ولد عندما قضى الأعضاء والنواب المتنافسون ساعة فى نقل طاولة المؤتمر إلى غرفة أكبر، هذا العمل الجماعى أدى إلى كسر دائرة الصمت والعزلة الفردية، مثلما أن دورة واحدة من الكلام الجماعى تفيد فى كسر الجليد).

إذا كانت هذه الطريقة تتطلب تخطيطًا مسبقًا أو تأثيراً على المجموعة أكبر مما يمكنك القيام به، أو إذا كنت تحاول تفعيل شخص واحد فقط، حاول أن تقوم بأعمال فردية. إن مناقشة النتائج المترتبة على حديث كبير يمكن أن تؤدى إلى إنتاج درجة جيدة من إدراك الذات لكلٍ من النساء والرجال. إذا كان أحد أعضاء المجموعة يتحدث نادراً، حاول أن توجه ملاحظاتك الخاصة له (أو لها) مباشرة. من الناحية الأخرى، إذا كان رجل أو امرأة مقاطعا مثابراً، حاول الاعتراض عليه مباشرة، مقاطعا له ومحدداً الدقائق التى استغرقها حديثه، أو حديثها، أو لا تنصت له (أو لها).

إذا قطع حديثك أحد، قل بخفة ظل "هذه واحدة" وهدد بعمل ظاهر إذا وصلت المقاطعة إلى ثلاث مرات، احتفظ بتسجيل الموضوعات الناجحة المقدمة ثم اجمعها وفقًا للجنس الذى قدمها وأعلن النتيجة عند نهاية المناقشة.

إذا كانت الأسئلة والتعليقات التالية للمحاضرة تأتى غالبا من الرجال، قف وقل ذلك، فقد تكون لحظة معرفة لكل فرد. إن وفرة الرجال المتحدثين فى الحضور المختلط جعل بعض الحاضرات من النساء يخصصن وقتًا مساويا للأسئلة من النساء فقط.

(٨)

لإظهار أهمية الاستماع باعتباره عملاً إيجابيا، حاول أن تعطى امتحانًا فى محتويات حديث كل من الرجال والنساء، والأمل ألا تكتشف ما هو معتاد. إن الذكور عادة ما يتذكرون ما يقوله المتحدثون الذكور أفضل من تذكرهم محتويات ما قالته المتحدثات من النساء، وأن النساء يتذكرن محتويات ما يقوله الذكور بصورة أفضل بدرجة ما من الرجال.

اختبر سياسة الكلام المختفية فى سلوكك الخاص؛ هل يرتفع مستوى قلقك عندما تتحدث النساء وينصت الرجال وليس العكس؟ على سبيل المثال، يشعر الرجال بالراحة حيال التحدث لساعات والنساء ينصتن، ولكن النساء يملن إلى الكلام فى وجود الرجال لفترة قصيرة قبل أن ينتابهن القلق والاعتذار وتشجيع الرجال على الكلام. إذا بدأت فى الإحساس الخاطئ بأنك غير مرتاح بجعل الرجال ينصتون، حاول تجربة هذا التدريب: استمر فى الكلام وشجع أخواتك من النساء على فعل الشىء نفسه. احترِم الرجال بأن تعاملهم بشرف كما تعامل النساء، فإنك بذلك سوف تسمح لهم بأن يتعلموا.

هذه ثلاثة افتراضات شائعة :

١) النساء يتحدثن عن أنفسهن، يشخِّصن ويقمن بالنميمة أكثر من الرجال.

٢) يفضل الرجال التحدث إلى مجموعة من الرجال عن التحدث إلى مجموعة مختلطة، بينما تفضل النساء المجموعات المختلطة عن مجموعة من النساء فقط.

٣) المتحدثات من النساء والموضوعات النسائية يعوقهن الأسلوب الأنثوى فى طريقة العرض.

لعلك قد خمَّنت، معظم الدلائل تشير إلى عكس هذه الافتراضات.

(٩)

بعد تسجيل نقاط الحوار بين مجموعات الجنس الواحد والمجموعات المختلطة، وجدت عالمة النفس "إليزابيث آريس" أن الرجال فى المجموعات المكونة من الرجال فقط كانوا يتحدثون عن أنفسهم أكثر مما تفعل النساء فى المجموعات المكونة من النساء فقط. كان الرجال يستعملون الإشارة إلى الذات لإظهار التفوق أو العدوانية، بينما النساء يستخدمن الإشارة إلى الذات للمشاركة فى انفعال عاطفى على ما تقوله الأخريات.

وقد صاغ "فيل دوناهيو"، أحد أشهر المحاورين ذوى الخبرة، الفروق الثقافية بين الرجال والنساء كالتالى : لو أنك فى موقف اجتماعى والنساء يتحدثن إلى بعضهن البعض، وواحدة منهن قالت"لقد صدمتنى سيارة اليوم" فكل من حولها من النساء سيقلن: "إنك تمزحين! ما الذى حدث؟ وأين؟ هل أنت بخير؟" فى الموقف نفسه مع الرجال عندما يقول أحدهم : "لقد صدمتنى سيارة اليوم" أضمن لك أن رجلاً آخر من المجموعة سيقول : "انتظر حتى أقول لك ما حدث لى".

إذا كانت كمية الحديث عن النفس باعتبارها معياراً للذاتية وتضخيم الذات عبر استحضار ضعف الآخرين هى صورة من صور النميمة، فالرجال إذن أكثر نميمة من النساء، خاصة إذا تضمن ذلك التفاخر الجنسى. إضافة إلى ذلك، الموضوعات التى يقدمها الرجال فى المجموعات المختلطة من الأرجح أن "تنجح" عن الموضوعات التى تقدمها النساء، وكما استنتجت "آريس"، النساء فى المجموعات المختلطة يتفاعلن أكثر مع الرجال عن النساء الأخريات، وبالتالى، ليس من غير المعقول استنتاج أن المجموعات المختلطة تنفق وقتاً أطول فى مناقشة حياة واهتمامات الذكور المشاركين عن الإناث المشاركات.

(١٠)

من جانب آخر، فإن بحوث "آريس" وآخرين أوضحت أن النساء من الأرجح أن يقمن بمناقشة العلاقات الإنسانية. وحيث إن مناقشة "العلاقات" يندرج عادة تحت النميمة من وجهة نظر الرجال، فربما كان هذا مسئولا عن ملاحظة الرجال المتكررة بأن النساء "يثرثرن" في كل شيء.

المحاضرون عادة ما يقولون إن النساء من النظارة يسألن أسئلة عملية عن حياتهن الخاصة، بينما الرجال يسألون أسئلة تجريدية عن القوانين أو التجارب أو السياسات. وعندما يكون الموضوع هو الحركة النسائية، تميل النساء إلى السؤال عن مشكلات عملية. أما الرجال فمن الأرجح أن يقولوا شيئًا مثل: "ولكن كيف ستؤثر الحركة النسائية في الأسرة الأمريكية"؟

واقتباسا من "دوناهيو" الذي يتعامل في الغالب مع مشاهدات من النساء "دائما ما كنت أشعر بقليل من القلق عن إمكانيات برنامج ليلي مشاهدوه من الرجال، المشكلة كما أتصورها، وهذا بوجه عام، أن الرجال يميلون إلى إلقاء الخطب بينما النساء يسألن أسئلة ثم ينصتن للإجابة ويقمن بالمشاركة في الحوار. ففي مواقف لا تحصى، كان أحد الذكور من المشاهدين يقف ويقول ما فحواه "أنا لا أعرف ما الذي تناقشه، هذه هي الإجابة على هذا الشيء" ثم يبدأ في إلقاء خطبة قصيرة.

سجلت "آريس" أيضا النمط المتبادل والتعاوني للحديث والقيادة في المجموعات النسائية فقط، وهو "العادة الواعية أو غير الواعية لأخذ الدور"، ونتيجة لذلك تفضل النساء بالطبع الحديث داخل مجموعتهن الجنسية نظرا للميزة الواضحة في أن كلاًمنهن لها دور نقاشي، ويتم الإنصات لها. على الجانب الآخر، أيدت الأبحاث التي توضح أن مجموعات الذكور فقط لها تنظيم هرمي ثابت يتولى فيه الشخص نفسه أو عدد من الأشخاص إدارة دفة الحديث معظم الوقت.

وكما أشارت "آريس" لا عجب في أن الرجال يفضلون الاختلاف وفرصة وجود نظارة من الجنسين، فهم يقرنون الحضور الذكوري باختيار أسلوب أفضل للحديث، وأضافت سيندر، على الأقل في وجود مستمعات غير منافسات من النساء.

(١١)

طريقة البنات الصغيرات الرقيقة فى توصيل المعنى، والاختيار الأنثوى اللطيف للأوصاف، والاهتمام الأكبر بالنحو والتأدب هى أمور محط النقد العنيف. "روبن لاكوف" عالمة اللغويات كانت رائدة فى عرض الخطاب الذى يشبه خطاب سيدات المجتمع، والمطلوب من البنات الصغيرات أن يقلدنه، ويستخدم لتبرير لماذا هن لا يؤخذن بجدية؟ (حتى "لاكوف" يبدو أنها تفترض أن خطاب الأنثى عرضة للنقد كأسلوب معيب، بينما خطاب الذكر هو الأسلوب العادى وبالتالى يتهرب من التعليق على الاثنين). عالمة الاجتماع "آرلى هوتشتشيلد" ذكرت بعض الأساليب الباقية للأقليات العرقية والتى يبدو أن النساء من كل الأعراف يتشاركن فيها مثل "ادعاء الغباء والتظاهر بالتأييد المتكرر للآخرين".

أما إذا كان هذا النقد لخطاب الأنثى له مبرر أم لا، فهنالك دليل على أن رفض الطريقة التى تتحدث بها المرأة هو عادة إدانة لها أو انصرافا عنها دون التعرض لمحتويات ما تقوله.

فعلى سبيل المثال، المتحدثات من النساء من المرجح أن يسمعن مثلا "لمايك حجة جيدة، ولكنك لا تجعلينها مؤثرة" أو "أسلوب عدوانى جدا /ضعيف /هادئ". بمثل هذا النقد الأبوى ينصرف السياسيون الذكور عن المحتوى الجاد لرسالة زميلة من الإناث، أو يحول به الزوج موضوع حوار تقوم به الزوجة إلى اتجاه آخر.

إن مثل هذا النقد هو ما يجعل المرشحات من النساء يتم رفضهن دون التعرض لمحتوى الموضوع الذى يطرحنه.

(١٢)

عندما رشحت "بيلا إبزوج" بنيويورك و "جلوريا شافير" بكونيكتيكت نفسيهما لمنصب سياسى فى أحد الأعوام القليلة الماضية، قيل عن كل منهما إن لديها أسلوبا شخصيا يمنعها من أن تصبح سيناتورا فعّالا، إبزوج كانت شديدة الاحتكاك وعدوانية،

بينما شافير كانت كسيدات المجتمع وهادئة. كان الأسلوب هو النقطة التى ركزت عليها الصحافة، وبالتالى أصبح نقطة مركزية فى صناديق الاقتراع، وكلتاهما خسرت.

هناك ثلاث سلبيات تطيح بهذا النقد الذى يفترض أنه بنَّاء :

أولا : إنه نادرا ما يستخدم عندما لا تتحدى رسالة المرأة سلطة الذكر. (كم مرة انتُقِدت فيها النساء لأنهن كن شديدات الضراوة فى دفاعهن عن حقوقهن؟ كم مرة انتُقِدت فيها فيليس شلافلى لأنها كانت شديدة العدوانية فى معارضتها لتعديل مادة الحقوق المتساوية بالدستور؟).

ثانيا : نادراً ما يصاحب النقد أى تأييد حقيقى، حتى عندما يكون الناقد (أو الناقدة) متعاطفاً (المرشحات السياسيات من النساء يقلن إنهن يواجهن من ينتقدون طرق جمع التبرعات التى يتبعنها بدلا من جمع النقود السائلة، حتى من أناس يتفقون معهن فى الموضوع).

ثالثا : إن كل شخص تقريبا ودون أى اعتبار لمكانته، له كل الحرية والحق فى النقد (تقرر النساء الأساتذة بالجامعة أن طريقة تدريسهن يتم انتقادها من الطلاب الصغار، كما يحدث للرئيسات فى العمل من الموظفين الذكور).

وكما أن هناك موضوعات حوارية يجدها الرجال فى مجموعة مختلطة تكون أكثر إلحاحاً من أى موضوع تقدمه امرأة (حتى لو كان هو الموضوع نفسه تماماً ولكنه مقدم من رجل). أو قضية سياسية تعد "أكثر أهمية" عن أى قضية تهم المرأة، فإن هناك دائما أسلوباً أفضل وأكثر تأثيراً عن ذلك الذى يمكن أن تستخدمه المرأة.

يقال لنا إن الرجال قد يؤيدوننا إذا عرفنا كيف نطلب بطريقة صحيحة هذا التأييد. وهذا يعد أسلوبا لإدانة الضحية.

(١٣)

ما الذى يمكننا إذن عمله لكسر هذه الأنماط؟ إن الاحتفاظ بمذكرات عن نسبة الذكور إلى الإناث فى أحد الاجتماعات أو فى تجمع ما للنساء والرجال قد يكون تعليميا، وتحديد يوم تمنع فيه استخدام الكلمات التى تنتهى بصيغة التجهيل والتعميم قد يشجع الرجال على أن يقولوا ما يعتقدونه شخصيا دون إخفائه فى قوالب الاستنتاجات العامة. وكتدريب شخصى، يجب أن نحاول استبدال أمثلة مفهومة بالتجريدات المبهمة. عندما كان دافيد سسكند وجيرمين جرير ضيفين فى نفس البرنامج التليفزيونى الحوارى، استخدم سسكند عبارات عامة شبه علمية عن التغيرات الشهرية العاطفية للمرأة كطريقة لإيجاد مبررات لوقائع الظلم التى أوردتها هذه المرأة شديدة الذكاء. أخيرا، التفتت جرير بأدب إلى سسكند وسألته "قل لى يا دافيد، هل تستطيع أن تحدد ما إذا كنتُ الآن فى حالة حيض أم لا؟" فهى بذلك لم تنسف فقط كل الشكوك التى أثارها سسكند بعباراته، ولكنها أسكتت أسلوبه المشاكس على مدى البرنامج.

الرجال أنفسهم يعملون على إسقاط التعميمات وروح التنافس اللذين فرضتهما الثقافة التى يتسيدها الذكر عليهم. البعض منهم يتقابل فى مجموعات ويسعى جاهدا لتعلم كيفية الاتصال بانفتاح أكبر، وبصورة شخصية مع بعضهم البعض.

العديدات من النساء أيضا يحاولن إسقاط الحواجز التى صنعنها بأنفسهن. مثلا؛ تفضيل النساء للحديث مع بعضهن له علاقة قوية بالخبرة المشتركة بينهن. بالإضافة إلى ذلك، المجموعات الأقل سلطة عادة ما يستمعون للمجموعات الأكثر سلطة بطريقة أفضل من العكس. السود عليهم فهم البيض أكثر لكى يتمكنوا من البقاء، والنساء يجب أن يعرفن الرجال، ولكن المجموعة الأكثر سلطة تستطيع اعتبار المجموعة الأقل سلطة غامضة.

مما لاشك فيه أن فكرة الفروق والغموض للآخر قد تكون تبريراً ضروريا لعدم توازن السلطة وعدم وجود التعاطف المطلوب.

إحدى نتائج ذلك أنه حتى إذا رغبت المجموعة الأكبر سلطة في الاستماع، فقد تيأس المجموعة الأخرى من الكلام، لأنه من المجهد جدا القيام بالشرح، كما أن إدراك عدم تساوى المعرفة يشجع النساء على الحديث إلى الرجال عن أنفسهن، على الأقل لجعل الوقت الذى يق فى حديث عن أنفسهن له قيمة، وحتى لا يتركهن الرجال ويمضون لحال سبيلهم حين يدركون أنهن لا يجب ما يقلنه.

(١٤)

وعن موضوع الكلام، فإن انعكاس الأدوار قد يعد أمراً تنويريا. فمثلا، اسألى رجلاً ينتقد النساء العدوانيات أن يحاول مناقشة موضوع سياسى جاد وهو يتحدث كـ "سيدة مجتمع". يمكن أيضا لمرشحة من النساء أن تسأل المنتقدين لها أن يكتبوا لها خطاباً بالشكل الذى يعتقدون أنها يجب أن تستخدمه. الاستجابة يمكن أن تخلق انعكاساً سريعاً. قد يكون هناك نوع من الرضا حين يقال لرجل وهو يلقى خطابا حماسيا: أعتقد أن لديك نقطة مهمة ولكنك لا تعبر عنها جيدا". لكن فى كل الأحوال إذا استخدمت أنت أمثلة أكثر شخصية، وإذا غيرت من لهجة حديثك والتوقيتات المناسبة للتوقف ربما كان ذلك أكثر مدعاة لاكتساب التعاطف.

آخيراً إذا فشلت كل الأحاديث، حاولى أن تضعى الرسالة نفسها بالكتابة. المهم أن تجعلى رسالتك تنفذ، سواء استطاع الرجل موضع السؤال أن يفصلها عن الوسط أو لا.

(١٥)

إن أصوات النساء عالية الحدة وأصوات الرجال منخفضة الحدة، وهذا ناتج عن فسيولوچية كل منهما. ولأن الأصوات العميقة أكثر طلاوة وحزماً، تكون المتحدثات من النساء دائما فى ورطة. بالإضافة إلى ذلك فإن تعبيرات وجه الأنثى وإيماءاتها ليست بالقوة نفسها التى للرجال... وهكذا. صحيح أن نبرة الصوت تنجم جزئيا من انقباضات

الزور وتشنجات عظام الحنجرة، لكن على الرغم من وجود مساحة واسعة للتداخل بين الأنثى والذكر في نبرة الصوت، وأيضاً في قوة الصوت، فإننا نفترض أن كل الرجال أصواتهم أعمق من النساء.

في الحقيقة لا يعرف أحد ما هي النسبة من أصواتنا التي ترجع للتقليد أو تكون ناتجة عن الثقافة، الدراسات التي أجريت على الصبية الصغار قبل البلوغ أظهرت أن حدة أصواتهم تتعمق حتى قبل أن تصبح التغيرات الفسيولوجية مسئولة عن ذلك. إنهم يقلدون كلام الذكور الموجودين حولهم. "دال سبندر" أشارت إلى دراسة عن الذكور الذين ولدوا صما ولكنهم ليسوا خرسا، وبالتالي لا يمكنهم تقليد الأصوات، بعضهم لم يحدث له تحول في الصوت عند البلوغ مطلقًا. ومهما كان اختلاط العوامل الفسيولوجية والثقافية، فإن أهم نقطة هي أن قبول درجة الصوت أمر ثقافي وبالتالي عرضة للتغير.

في اليابان مثلاً، صوت المرأة الناعم العالي الحدة يعد خاصية جنسية شديدة الأهمية، عندما سئلوا في استطلاع عام للرأي عن الخاصية التي يجدونها أكثر جاذبية في النساء، أغلب اليابانيين من الرجال قالوا "الصوت"، ورغم أنهن متدربات على الكلام بحدة عالية، فإن النساء اليابانيات كغيرهن من النساء حول العالم، يتكلمن بصوت خفيض عند عدم وجود الرجال. وربما يغيرن من لغتهن أيضا (تسبب أحد التسجيلات لطالبات المدارس اليابانيات وهن يتكلمن فيما بينهن في فضيحة، كن يستعملن نهايات رجولية للكلمات والأفعال في بلد اللغة فيه مقسمة إلى مؤنثة ومنكرة). وعلى ذلك، ربما يجد الرجال اليابانيون أن الصوت الحاد جذابٌ ليس لأنه كذلك، ولكن لأنه يعبر عن التبعية التقليدية.

(١٦)

بعض الأمريكيات يقلدن الصوت العالي الطفولي أو الصوت الهامس لمارلين مونرو، ولربما أحسسنا بأن هناك امرأة تتحدث إلى رجل عند الطرف الآخر من التليفون أو أن رجلا يتحدث إلى امرأة لأنها تخفف من نبرة صوتها وهو يعمق من صوته.

طراز الصوت الشبيه بصوت الأطفال أو الأنثوى جدا، أصبح يمثل ارتداداً عندما تحاول النساء القيام بأى دور قوى فعّال. قارئات النشرات من النساء حُجِبنَ عن الشاشة والراديو لسنوات نتيجة أن أصواتهن كانت عالية جدا ومهتزة وغير حاسمة لإذاعة الأخبار بطريقة صحيحة. وحتى حاليا، يعتقد أن أصوات النساء ملائمة أكثر للأمور الإنسانية والأخبار الناعمة، بينما لا يزال الرجال يذيعون الأخبار الجادة.

فى الأيام الأولى لظهور التليفزيون، كان يُسمح للنساء بتقديم أخبار الطقس، وعندما أصبحت الإحصائيات وخرائط الطقس ضرورية لكى تظهر مع الأخبار، انقلبت معظم القنوات إلى الرجال. الآن ٨٥٪ من الأصوات فى الإعلانات التليفزيونية – بما فى ذلك السلع النسائية – هى أصوات رجال، حتى بالنسبة إلى شمع الأرضية والمنظفات، أصوات الرجال هى الأرجح للخبرة والحسم.

على المدى البعيد، يعانى الرجال من القيود الثقافية على حدة الصوت أكثر من النساء. دراسة عالمة اللغة روث بريند عن النماذج الصوتية للنساء فى الولايات المتحدة أوضحت أربعة مستويات متعارضة تستخدمها النساء فى الحديث العادى، وثلاثة مستويات فقط يستخدمها الرجال. ليست هذه نتيجة للاختلافات الفسيولوجية، فللرجال أيضا أربع مستويات متاحة، ولكنهم نادراً ما يستخدمون المستوى الأعلى. وهكذا، ربما تتكلم النساء فى الاجتماعات بالحدة العالية والمنخفضة بدرجة من القبول الاجتماعى، ولكن الرجال يجب أن يستخدموا الحدة المنخفضة فقط. من المسموح به امتداح الطبقة الحاكمة بالتقليد، كما هو مسموح للنساء بلبس البنطلون أو للسود بالحديث بلغة البيض وارتداء الملابس كالرجال البيض، ولكن ليس من المسموح للرجال لبس ملابس أنثوية أو للبيض بالتحدث بلغة السود أو بلغة الشارع، أو للرجال بتقليد حديث النساء، بعض استثناءات الطبقة الراقية مثل عروض تقليد النساء بجامعة هارفارد أو لبعض أغنياء الرجال بكاليفورنيا تتطلب عند السخرية من النساء وجوب توافر الأمن، فذلك لا يحدث على مستوى الطبقة العاملة أو فى النوادى العامة.

(١٨)

للظهور بمظهر الرجولة، لا يميل الرجال إلى تنويع أحاديثهم وتغيير نبرات أصواتهم للتعبير عن مجالات متنوعة من العواطف، والنسبة العالية لرتابة الأصوات الرجولية هى عقوبة للأذن العامة.

وبالطريقة نفسها، يمكن النظر إلى التعبيرية الجسمية على أنها أنثوية. فالنساء يمكنهن أن يكن خفيفات الروح حيث يستخدمن تعبيرات وجوههن وقسماتهن لإبداء إيماءات أكثر من الرجال، حيث الرجال لا بد من أن يكونوا مثل الصخر، لكن بعض الرجال ذوى الخصائص التعبيرية العالية يستخفون بهذا الاعتقاد.

الجزء السلبى هو أن المجال الأوسع للتعبير بالوجه للنساء يستخدم فى السخرية منهن على أساس عدم الثبات العاطفى. هذه النقطة المحزنة أبرزتها "نانسى هنلى" فى كتابها: "سياسة الجسم، الجنس، والاتصال غير اللغوى". لقد قالت "إن تعبيرية وجوه النساء لها مجال أوسع من الرجال وتشتمل داخل النمط الجنسى ليس فقط على التعبيرات المفرحة وإنما أيضا على التعبيرات السلبية مثل البكاء". وحيث يتم تشجيع الذكور على ترك البكاء وغيره من التعبيرات العاطفية فى طفولتهم، فالإناث اللائى يحتفظن بهذه الخصائص الإنسانية عادة ما يتم مقارنتهن بالأطفال.

على الرغم من ذلك، فإن المجال الأوسع للنساء يسمح لهن بالتعرف على التعبيرات الجسمية عندما يرينها. فقد أشارت هنلى إلى دراسة توضح أن نساء كل الأعراق والرجال السود يبزون البيض فى تمييز الإشارات العاطفية غير المقرونة بالكلام.

باختصار، تحتاج النساء إلى تأكيد وتوسيع التعبيرية بأية طريقة ولكن الرجال تفوقهم بعض الطرق الرئيسية لإرسال الإشارات إلى العالم وأن تصلهم هذه الإشارات.

(١٩)

لا يمكنك تغيير الأحبال الصوتية للرجال أو النساء، ولكن باستطاعتك التأكد من أنها تستعمل بطريقة جيدة. سجِّل أصواتًا لنساء يتحدثن معًا ثم سجل أصواتًا لنفس النساء وهن يتحدثن إلي رجال. إنه أسلوب جيد لمعرفة ما إذا كانت النساء يرسلن إشارات صوتية تشبه إشارات فتيات الجيشا. بعض النساء لا يستخدمن المدى المنخفض لهن ولغيرهن، خاصة عندما يرغبن فى أن يؤخذن بجدية، فهن يحاولن تعويض العاطفية بتضييق المجال الصوتى إلى رتابة معقولة. الرجال أيضا قد يغيرون من أصواتهم تحت ضغط التسجيل للصوت. مثلا، التناقض بين تبلد الرجال وهم يتحدثون مع رجال وبين التعبيرية عندما يتحدثون مع الأطفال. العديد من الممثلين، ذكورا وإناثا يعدون نماذج حية للمدى الذى يمكن أن يتغير به مجال الصوت نتيجة للمجهود والتدريب والتقليد.

من المهم أن نتذكر أنه لا يوجد ما يعيب أصوات النساء ولا يوجد موضوع أو عاطفة لا تستطيع أصواتهن إيصالها. يعد مهما بصورة خاصة للنساء اللائى هن علامات مميزة. النساء الأوائل كأساتذة فى كليات الحقوق أو عضوات فى مجالس الإدارة أو المجالس النيابية دائما ما يقررن أن أصواتهن أصابتهن بصدمة. فقد كانت حائلا رئيسيا أمامهن لكى يلقين المحاضرات، أو يتحدثن فى السياسة، أو يتناقشن فى اجتماعات الاتحادات. ربما يستغرق الأمر وقتًا لكلمات تقال بصوت امرأة إلى أن تؤخذ بجدية، ولكن الاستجابة للأصوات غير العادية هى تهنئة لصاحباتها على أنهن رائدات شجاعات.

(٢٠)

إن تقدم تسجيلات الفيديو كان إنجازًا كبيرًا فى تفهم وتغيير تعبيراتنا غير المنطوقة، فمشاهدة الدليل على كيفية اتصالنا بالآخرين قد تكون أكثر فائدة من سنوات من الدراسات النفسية، حيث يمكن لكثير من الرجال والصبية الاستفادة من هذه التدريبات

على التعبير بمباراة فى الألغاز أو فى الاتصال بالأطفال، كما يمكن للنساء والبنات أن يحررن حركات أجسامهن بالرياضة، وهو مجهود واع لأخذ فراغ أكبر عند الجلوس أو الوقوف واستخدام لغة الجسم التى قد لا نستخدمها إلا عند الجلوس مع غيرنا من النساء.

يمكن لكثيرات منا الاستفادة من مشاهدة النساء الممثلات وتعلم الطرق العديدة التى يستخدمنها، ثم نتدرب عليها لنكون أكثر قدرة على التعبير.

النقطة الأساسية هى أن جنس الفرد ونمطه الثقافى لا يعدان أرقى من ذلك الخاص بالآخرين. الأسلوب "الأنثوى" الحالى فى الاتصال قد يكون مطابقا أكثر للفنون الأدائية، حيث إن لها تعبيرية عاطفية كاملة.

الأسلوب الرجولى الحالى ربما يكون مطابقا أكثر للتعليم الإجرائى الذى يتطلب القيادة الهرمية والمقابلات الوظيفية. لقد طور هذا الأسلوب التفكير التجريدى والقيادة السريعة والرغبة فى الحديث الجيد عن النفس، أو لإيضاح وجهات نظر بحزم. ولكننا لن نصل إلى هذه الدائرة الإنسانية الكاملة من التعبير إذا قلدت النساء طراز الذكر "الناضج"، فيجب أن نُعلِّم كما يجب أن نتعلَّم.

إن المهاجمة النسائية لسياسة الحديث والاستماع هى عمل جذرى، إنها طريقة لتحويل الوعاء الثقافى الذى يحدث فيه التغير فى الاتصال اللحظى والأنثروبولوجى طويل المدى. فعلى عكس الكلمة المكتوبة، أو التصور المرئى، أو أى من صور الاتصال المقطوع عن وجودنا فإن الحديث والاستماع لن يسمحا لنا بالاختباء. لا توجد صفحة بيضاء، أو صورة أو صوت أو اسم بلا تحديد للجنس.

نحن نطالب بأن يتم قبولنا وفهمنا بكل الحواس وبصورة كاملة. هذا بالتحديد ما يجعل التغيير صعبًا وأيضا حاسمًا.

الفصل السابع

المرأة والمؤسسات الاجتماعية

المرأة المتعلمة

م. كارى توماس

(١)

الرغبة الملحة لنساء جيلى فى التعليم العالى كانت مصحوبة عبر مسارها بالشك المرعب الذى أحسته النساء وأحسه الرجال أيضا فيما إذا كانت النساء كجنس صالحات جسديا وعقليا لذلك. أعتقد أننى أستطيع توضيح ذلك إذا أشرت باختصار إلى تجربتى الخاصة. لا يمكننى تذكر الوقت عندما لم أكن متأكدة من أن الدراسة ودخول الجامعة هى من الأمور التى أرغب فيها فوق كل شىء آخر. كنت دائمًا أتعجب ما إذا كان ذلك حقيقيا، كما اعتقد كل شخص، أن الأولاد أكثر ذكاءً من البنات، بالتأكيد، كنت مهتمة كثيرا لدرجة لم أجرؤ معها على سؤال أى شخص ناضج السؤال المباشر، ولا حتى أبى أو أمى، لأننى كنت أخشى سماع الإجابة.

أتذكر باستمرار الصلاة من أجل ذلك وسؤال الله أنه إذا كان صحيحًا، ولأننى خلقت بنتًا فلن أستطيع إتقان اليونانية والذهاب إلى الجامعة وفهم الأشياء. كنت أطلب من الله أن يميتنى على الفور لأننى لن أتحمل الحياة فى مثل هذا العالم الظالم. عندما صرت أكبر قليلا، قرأت الإنجيل كله بقابلية متحمسة لأننى سمعت أنه يثبت أن النساء أدنى من الرجال. لم تكن تلك الأيام هى الخاصة بالنقد الراقى.

أستطيع تذكر أننى كنت أبكى على مصير آدم وحواء، لأنه تراءى لى أن اللعنة التى اختصت بها حواء قد تعوق الفتيات عن دخول الجامعة، وحتى هذا اليوم لا يمكننى قراءة أجزاء كبيرة من رسائل بولين دون أن أشعر مرة أخرى بقلبى يغوص بين ضلوعى،

وعندما كنت أسرع فى قراءة الأبيات التى تشير إلى ضرورة أن تلزم النساء الصمت فى الكنائس ومن سؤال أزواجهن فى البيت. لم أبحث فى الكتاب المقدس فقط وإنما فى كل الكتب الأخرى التى استطعت الحصول عليها للاستنارة فيما يخص موضوع المرأة. قرأت "ملتون" بغضب وسخط. حتى وأنا طفلة كنت أعرف أنه يكره المرأة. إن عظمة شكسبير شوهتها بالنسبة إلىَّ الافتقار إلى القوة العقلية في شخوصه النسائية العظيمة. وحتى حاليا، يبدو لى أن إيزابيلا فقط فى مسرحية "دقة بدقة" كانت تفكر بطريقة رائعة وتزن تصرفاتها بعظمة مثل هاملت وبروتس.

(٢)

أستطيع أن أتذكر جيدا يومًا طويلاً من أيام الصيف الحارة عندما كنت جالسة فى أرجوحة تحت الشجرة، ومعى معجم فرنسى، تعمينى دموعى التى كانت تلفحنى أكثر من شمس يونيو، كنت أترجم أكثر الكتب فُحشًا قرأته في حياتى وهو كتاب "ميشيليت" الشهير، لعله لا يكون الآن منسيا، فسوف أسميه الكتاب السيئ عن المرأة، وعنوانه "المرأة". كنت خارج نفسى من الرهبة من أن تثبت صحة أننى شىء تافه ومريض، وبين هذا اليوم من صيف عام ١٨٧٤ ويوم معين فى خريف عام ١٩٠٤ مر ثلاثون عاما. ورغم أننى خلال هذه الأعوام الثلاثين قرأت كل كتاب كُتِب عن المرأة بأية لغة واستطعت الحصول عليه، فلم يحدث أن وقعت مرة أخرى على كتاب بدا لى أنه يحط من قدرى بصفتى امرأة مثل الفصل السابع والفصل السابع عشر عن المرأة وتعليم المرأة للرئيس ستانلى هول "المراهقة".

كانت عاطفية ميشيليت المريضة والإفراط المزعج فى الموضوعات الجنسية قد بدت لى وقد عادت تتنفس مرة أخرى فى كل صفحة من الزيف العلمي. ولكن ما أوسع الفارق بين ذلك الوقت والزمن الحالى بالنسبة إلى مشاعرى ومشاعر كل امرأة كان عليها أن تعمل فى تعليم البنات. فى ذلك الوقت كنت أنا وكل امرأة أخرى معى يصعقنا الخوف من أن يكون مصيرنا أن نعيش عاجزات مريضات فى كون غاشم فى ظلمة للمرأة كجنس.

الآن نحن نعرف أنه لسنا نحن بل الرجل هو الذى يعتقد فى مثل تلك الأمور بخصوصنا والذى هو نفسه مريض وتعميه الضبابات العصبية للجنس، فلا يستطيع رؤية أن النساء يشكلن نصف السلالة الطبيعية الصحية من البشر فى العالم، وأن النساء مثل الرجال تلهمهن نفس الدراسة للعادات العظيمة لسلالتهن ونفس الحب والشغف للتعلم، ونفس العشق للعلوم ونفس الحب للحقيقة المجردة، وأن النساء مثل الرجال يستفدن كثيراً جسديا وعقليا وأخلاقيا، ويصبحن أمهات أفضل كثيراً عندما يصبح الرجال آباءً أفضل، بجعل الغرائز الجنسية أقل أهمية من الزمالة الإنسانية، بالتعليم المتماثل والمثل العليا الفكرية والاجتماعية المتماثلة.

(٣)

لم يكن عجيبًا أننا لم نكن متأكدات فى تلك الأيام الخالية من النتيجة النهائية لتعليم المرأة. فقبل أن أذهب أنا نفسى إلى الجامعة لم أرَ مطلقا امرأة جامعية. كنت قد سمعت أن هناك امرأة جامعية فى بلدتنا، وأن هذه المرأة تقيم فى بيت بعض معارفها، ذهبت للقائها بخوف، حتى لو كانت ظهرت لى بحوافر وقرون فقد كنت مصممة على الذهاب إلى الجامعة بأى حال، ولكن الأمر كان مختلفًا تماما، إذ وجدت تلك الخريجة طويلة ووسيمة وترتدى الملابس التى ترتديها النساء الأخريات. وعندما ذهبت بعد خمس سنوات إلى ليبزج للدراسة بعد أن تخرجت من جامعة كورنل، اعتادت والدتى أن تكتب لى أن معارفها لم يذكروا اسمى لها مطلقا، كانوا يعتقدون أننى عارٌ لأسرتى كما لو كنت قد هربت مع الحوذى. الآن، النسوة اللائى دخلن الجامعة هن بكثرة العنب الأسود فى شجيرات الصيف، حتى بلدتى مسقط رأسى بالتيمور مليئة بهن، والنسوة اللائى درسن بعد ذلك فى ألمانيا يشار إليهن باحتفاء من نساء بالتيمور اللائى غضبن منى.

(٤)

خلال ربع القرن الذى أُنشئَت فيه رابطة الخريجات الجامعيات، وصل إلى مرحلة النضج جيلان من خريجات الجامعة، والجيل الأقدم حاليا يعبر هذه المرحلة. نحن بالتالى أفضل إعداداً عن ذى قبل لكى نعطى فكرة عما تم إنجازه فعلا، وأن نتوقع ماذا ستكون عليه ميول النساء الجامعيات والتعليم الجامعى فى المستقبل.

إن مناهج كليات النساء قد أصبحت جامدة بزيادة أعداد النساء فى الكليات الخاصة بهن أو فى كليات التعليم المشترك. يبدو أنهن يفضلن الدراسة على النمط القديم والتى تسمى الدراسات النظامية ولا يعرفن اهتماما بما يسمى إنجازات. أعتقد أنه حاليا يوجد من النساء أكثر من الرجال يتلقين التعليم الجامعى، حتى على الرغم من أنهن فى معظم الأحيان يتلقينه جالسات بجوار الرجال فى غرف المحاضرات نفسها.

نحن نعيش الآن وسط تغيرات عظيمة هى فى معظمها مفيدة، تغيرات اجتماعية تمهد الطريق للاستقلال الاقتصادى القادم للنساء.

ولكى نتهيأ لهذا الاستقلال الاقتصادى، يجب أن نتوقع رؤية ما يحدث الآن. كليات النساء والأقسام المشتركة فى الجامعات تؤمها أعدادٌ متزايدة من الطالبات. وفى سبع من الجامعات الكبرى فى الغرب تزيد أعداد النساء على الرجال فى أقسام الكلية.

ونظرا لأن النساء قد أظهرن شهية للتعليم الجامعى ومتعة فى استقباله، فيجب أن نحرص على الحفاظ عليه لهن فى صورته المتكاملة. يجب أن نعمل على ألا يتدنَّى نظامه الكيفى، بإدخال ما يسمى المقررات العملية والتى من المفترض زيفًا أن تمهِّد للحياة. النساء فى سبيلهن إلى التحكم فى التعليم بكليات النساء، ومن واجبنا تقرير ما إذا كنا سنقايض فى مقابل بعض حبات الفول السودانى ميراث الفتيات اللائى ينتمين لهذا الجيل والذى شقيت فتيات جيلى للحصول عليه لأنفسهن ولغيرهن من الفتيات.

أريد زوجة !

جودى سايفرز

(١)

أنا أنتمى لتلك الفئة من البشر المعروفة بالزوجات، فأنا زوجة وليس بالصدفة تماماً أننى أم.

من زمن ليس بعيداً جدا، ظهر أحد أصدقائى من الذكور على مسرح الأحداث بعد أن أصبح مطلقًا. كان لديه طفل واحدٌ ظل بالطبع مع زوجته السابقة. كان يبحث عن زوجة أخرى، وبينما كنت أفكر فيه وأنا أقوم بالكيِّ فى إحدى الأمسيات، طرأ على فكرى فجأة أننى أيضا أود أن تكون لى زوجة.. لماذا أرغب فى أن تكون لى زوجة؟

أريد أن أعود مرة أخرى إلى الدراسة بحيث أستطيع أن أكون مستقلة اقتصاديا وأعول نفسى، وإذا احتاج الأمر أعول من يعتمدون علىَّ. أريد زوجة تعمل وترسلنى أنا إلى الدراسة، وحينما أذهب للدراسة أريد زوجة لتعتنى بأطفالى. أريد زوجة تحافظ على مواعيد طبيب الأطفال وطبيب الأسنان وتحافظ على مواعيدى أيضا. أريد زوجة تتأكد من أن أطفالى أكلوا جيدا وبحالة نظيفة. أريد زوجة تغسل ملابس الأطفال وتحفظها بحالة جيدة. أريد زوجة تراقب تغذية أطفالى وترتب أمور مدارسهم وتتأكد من أن لهم حياة اجتماعية مناسبة مع رفاقهم، وتأخذهم إلى الحديقة العامة وحديقة الحيوان... إلخ.

أريد زوجة ترعى الأطفال عندما يمرضون، زوجة توجد عندما يتطلب الأطفال رعاية خاصة؛ لأننى لا أستطيع الغياب عن دروسى الجامعية. يجب على زوجتى أن ترتب كيف تخسر الوقت فى العمل ولا تخسر الوظيفة. ربما يعنى ذلك نقصاً بسيطًا

فى دخل زوجتى من وقت لآخر، ولكننى أعتقد أن بقدرتى تحمل ذلك، ولا يحتاج الأمر إلى تقرير أن زوجتى يجب عليها مقابل العناية بالأطفال عندما تكون هى فى العمل.

أريد زوجة تراعى احتياجاتى الجسدية. أريد زوجة تحافظ على بيتى نظيفًا. زوجة تلتقط الأشياء خلف الأطفال وتلتقط الأشياء خلفى. أريد زوجة تحافظ على ملابسى نظيفة ومكوية ومهيأة ومُستبدلة بأخرى عند الحاجة، والتى تراعى أن تظل أشيائى الخاصة فى مكانها الصحيح لكى أجدها لحظة احتياجى إليها. أريد زوجة تطهو جيداً وتنظم الوجبات وتقوم بشراء الحاجيات اللازمة، تعد الوجبات وتقدمها بطريقة طيبة تفتح الشهية، ثم تقوم بالتنظيف بينما أقوم أنا بدراستى. أريد زوجة تعتنى بى عندما أمرض وتتعاطف مع آلامى وفقدان الوقت من الدراسة. أريد زوجة تتجاوب عندما تأخذ أسرتنا إجازة بحيث يوجد شخص ما يعتنى بى وبأطفالى عندما أحتاج إلى الراحة وتغيير المناظر.

(٢)

أريد زوجة لا تشغلنى بالشكوى من واجبات الزوجة فقط، ولكنى أريد زوجة تستمع لى أيضًا عندما أحس بالحاجة إلى شرح نقطة صعبة عرضت لى خلال دراستى. وأريد زوجة تكتب أوراقى على الآلة الكاتبة عندما أفرغ من كتابتها بقلمى.

أريد زوجة ترعى تفاصيل حياتى الاجتماعية عندما ندعى أنا وهى إلى السهر خارجًا مع أصدقائنا، أريد زوجة تعتنى بترتيبات جليسة الأطفال عندما أقابل أناسًا بالمدرسة أود استضافتهم، أريد زوجة تجعل البيت نظيفًا وتعد وجبة خاصة وتقدمها لى ولأصدقائى، ولا تقاطعنا عندما نتحدث عن أشياء تثير اهتمامى واهتمام أصدقائى.

أريد زوجة ترتب أن يكون الأطفال قد تناولوا عشاءهم واستعدوا للنوم قبل وصول ضيوفى بحيث لا يضايقوننا. أريد زوجة تعتنى بطلبات ضيوفى بحيث يشعرون بالراحة وتتأكد من وجود منفضة للسجائر، وأن المشهيات قد مرت بين أيديهم وأنه قد قدمت لهم دورة ثانية من الطعام، وأن كئوس النبيذ يعاد ملؤها عند الضرورة، وأن القهوة تقدم لهم بالطريقة التى يفضلونها.

أريد زوجة تعرف أنه أحيانا ما أريد أن أقضى الليلة بالخارج مع نفسى.

أريد زوجة تكون حساسة لحاجاتى الجنسية، زوجة تمارس الجنس بعاطفة وإقدام عندما أرغب فى ذلك، زوجة تتأكد من أننى وصلت إلى مرحلة الإشباع. وبالطبع زوجة لا تطلب أن أنتبه جنسيا لها عندما لا يكون مزاجى مواتيا لذلك.

أريد زوجة تتحمل المسئولية كاملة فيما يختص بتنظيم النسل، لأننى لا أريد أطفالا أكثر من ذلك. أريد زوجة تظل أمينة لى من الناحية الجنسية بحيث لا تتداخل مع حياتى الفكرية مشاعر الغيرة. وأريد زوجة تفهم أن احتياجاتى الجنسية قد تتطلب أكثر من الالتزام الصارم بالزوجة فقط. ويجب أن تتوافر لى بقدر الاستطاعة القدرة على الاتصال بالناس بكامل انفتاحى.

إذا وجدت بالصدفة امرأة أخرى مناسبة بدرجة أكبر من الزوجة التى معى، أريد حرية استبدال زوجة أخرى بزوجتى الحالية. بالطبع، سوف أتوقع حياة جديدة، زوجتى تأخذ الأطفال وتصبح المسئولة الوحيدة عنهم بحيث تتركنى حُرا.

عندما أنتهى من الدراسة وألتحق بوظيفة، أريد من زوجتى أن تترك العمل وتظل بالبيت بحيث يمكن لها أن تراعى بطريقة أشمل وأكثر كمالاً واجبات الزوجة.

يا إلهى!! من ذا الذى لا يريد زوجة؟!

المرأة المتزوجة

سيمون دى بوفوار

(١)

لا يوجد من المهام ما يماثل عذاب سيزيف أكثر من العمل المنزلى بتكراره الذى لا ينتهى. فالتنظيف يتسخ، والمتسخ يتم تنظيفه، مرات ومرات عديدة، ويوما بعد يوم تنهك ربة المنزل نفسها وهى تحسب الزمن، هى فى الحقيقة لا تفعل شيئًا سوى مجرد تكرار الحاضر. هى لا تحس مطلقًا بانتصار أى شىء إيجابى، وإنما بصراع لا ينتهى مع الشر السلبى.

كتبت تلميذة صغيرة فى مقال " لن يكون عندى أبدًا يومٌ لتنظيف المنزل". كانت تفكر فى المستقبل على أنه ارتقاء ثابت تجاه قمة غير معروفة، ولكن فى أحد الأيام وبينما أمها تغسل الأطباق، بدا لها أن كلتيهما ستظل مرتبطة بتلك الطقوس حتى الموت، الأكل والنوم والتنظيف.. السنوات لا ترتفع فى اتجاه السماء، وإنما هى مطروحة أمامًا، رمادية ومتماثلة. المعركة ضد التراب والأوساخ لا انتصار فيها.

الغسيل، الكى، الكنس، عمل شرائط قماش من الملابس المستعملة.. كل هذه الأمور التى تورث الملل، هى أيضا إنكار للحياة، لا بد للزمن من أن يخلق ويدمر فى الوقت نفسه. جانبه السلبى فقط هو ما يهم ربة المنزل. يضعها هو وضع المانويين من الوجهة الفلسفية، جوهر المانوية ليس مجرد اعتقادهم فى قاعدتين أساسيتين، إحداهما الخير والأخرى الشر، وإنما فى الإصرار على أن الخير يتم الوصول إليه بمحو الشر وليس بأعمال إيجابية. وبهذا المدلول لا تكون المسيحية مانوية بالرغم من

وجود الشيطان، وأى مفهوم للخلاص والتحرر يجعل من هزيمة الشر نتيجة لتقدم الخير، ولكن المرأة ليس مطلوبا منها أن تبنى عالمًا أفضل، فمجالها محدد وعليها فقط الاستمرار فى المعركة التى لا تنتهى ضد الأشياء الشريرة التى تضنى حياتها، ففى معركتها ضد التراب والبقع والطين والأوساخ هى تحارب الذنوب وتصارع الشيطان.

(٢)

إنه مصير محزن أن يكون مطلوبًا منك أن تدفع دون توقف عدوا بدلا من أن تعمل فى سبيل غايات إيجابية. وعادة ما تستسلم ربة المنزل لذلك بصورة مجنونة قد تصل بها إلى حافة الانحراف إلى شكل من (السادية - المازوكية). فربة المنزل تصاب بالهوس وتشن حربها الغاضبة على الأوساخ، وتلوم الحياة نفسها على القمامة التى يأتى بها اضطراد الحياة. عندما يخطو أى كائن حى لمنزلها، تلمع عيناها ببريق شرير وتصيح: امسح نعليك، لا تمزق المكان تمزيقًا، اترك ذلك وشأنه. هى تود لو أن من فى أسرتها يتنفسون بالكاد، فكل شىء يعني عملاً شاقا لها، فهى عصبية ومشغولة ودائمًا تراقب وتفقد بالتالى فرحة الحياة وتصبح ثقيلة الظل ومملة. هى تمنع دخول الشمس بإغلاق النوافذ، لأنه معها تأتى الحشرات والميكروبات والتراب إلى جانب أن الشمس تتلف الستائر الحريرية وتؤدى إلى ضياع لون المفروشات. إنها هى التى تعانى من مرارة مستمرة، وغير محتملة وتصبح عدوانية لكل ما هو حى، والنهاية أحيانا هى القتل!!

(٣)

المرأة الصغيرة التى تتمتع بالحيوية لن تنجذب لمثل هذه الشرور النكدة، فالعصبية والحقد يناسبان بدرجة أكبر النساء الجامدات المحبطات والعانسات، وكذلك الزوجات المخدوعات، أولئك اللائى يكون أزواجهن دكتاتوريين ويجبرونهن على حياة الوحدة الخاوية.

عرفت مرة امرأة عجوزًا كانت مرحة وخفيفة الحركة، كانت تستيقظ كل صباح فى الخامسة لتراجع موجودات دواليبها، فلأنها كانت متزوجة من رجل لا يعيرها انتباهًا وتعيش وحدها فى بيت منعزل مع طفل واحد، فقد أدمنت على الأعمال المنزلية كما يدمن الآخرون على شرب الخمر. وفى ظل هذا الجنون، أصبح المنزل شديد الأناقة والنظافة لدرجة لا يجرؤ معها أى فرد أن يعيش فيه، والمرأة مشغولة به لدرجة أنستها معها وجودها. الاهتمام بالبيت لدرجة الهوس وبأعماله التى لا تعرف حدودًا تسمح للنساء بالهروب إلى (السادية - المازوكية) ومن نفسها عندما تنهمك بجنون فى الأعمال المنزلية الموجودة حولها، وهى فى حالة ذهول وفراغ عقلى. هذا الهروب عادة ما تكون له مسحة جنسية. من المعروف أن الهوس بالنظافة يصل إلى أقصى مدى فى هولندا حيث النساء باردات جنسيا، وأيضا فى المدنيات المتطهرة التى تضع مثاليات الطهر والنقاء فى تعارض مع ملذات الجسد. فإذا كانت نساء حوض البحر الأبيض المتوسط يعشن فى حالة من القذارة المبهجة، فليس مرد ذلك إلى ندرة المياه فحسب، بل يرجع إلى حب الجسد والشهوة والاهتمام بهما، وهذا يؤدى إلى تحمل الرائحة الإنسانية والقذارة وحتى الحشرات.

(٤)

تجهيز الطعام وإعداد الوجبات عمل إيجابى فى طبيعته وأكثر إيجابية من أعمال التنظيف. فقبل كل شىء، فإن ذلك يعنى التسوُّق والذى يمثل عادة النقطة المضيئة فى اليوم بكامله. كما أن النميمة على درجات السلم عند تقشير الخضراوات تعد تفريجًا مرحًا للوحدة، فالذهاب لجلب الماء كان مغامرة كبيرة للنساء المسلمات نصف المحبوسات، فالنساء فى الأسواق والمحلات يتكلمن عن الأمور المنزلية باهتمام واضح وقد أحسسن بأنهن عضوات فى مجموعة مضادة لمجموعة من الرجال، تضاد المهم مع غير المهم.

والشراء متعة عظيمة، فهو اكتشاف وتقريبا اختراع، وكما قال أندريه جيد فى "الجورنال": "لأن المسلمين لا يعرفون المقامرة، وضعوا مكانها اكتشاف الكنوز المخبأة، أى فى الشعر وفى السفر ومغامرات التجارة والاتصال مع الحضارات الأخرى".

ربة المنزل لا تعرف إلا القليل عن الكسب فى المباريات، ولكن كرنبة جيدة أو قرصًا ناضجًا من الجبن يُعدّان كنوزا يجب اغتنامها بحذق من البائع، فالمباراة هى الحصول على الأفضل بأقل النقود، وتسرها انتصاراتها العابرة عندما تنظر إلى حجرة الكرار المكتظة عن آخرها بالأشياء.

(٥)

أدى استخدام الغاز والكهرباء إلى قتل سحر النار، ولكن فى الريف لا تزال الكثيرات من النساء يعرفن متعة الحصول على اللهب الحى من الخشب الخامد. فمع استمرار النار فى الاشتعال تصبح المرأة ساحرة بحركات صغيرة، حيث إنها عبر سحر النار تقوم بتحويل المواد، فالمواد تصبح طعامًا. هناك سحر فى هذه الكيمياء، وهناك شعر فى عمل الأطعمة وأنواع المأكولات. فالمرأة تجد لذة لا تعادلها لذة حين تجد البصل والسمن والخضراوات قد تحولت إلى أطباق شهية بسحر يديها هى. الطهو ثورة وخلق، والمرأة تستطيع أن تجد إشباعا خاصا فى صنع كيك جيدة أو حلوى طيبة لأنه ليس بمقدور كل امرأة أن تصنع مثلها، فلابد من توافر الموهبة.

تكون البنت الصغيرة مغرمة طبيعيا بتقليد من يكبرنها بصنع كعك من الطين وما شابه ذلك، وتساعد فى لف العجين الحقيقى بالمطبخ، ولكن مثل سائر الأعمال المنزلية، التكرار سرعان ما يفسد هذه المتع الصغيرة، وسحر الفرن نادرًا ما يجلب البهجة للنساء المكسيكيات عن النساء الهنود اللائى ينفقن نصف حياتهن يضعن التورتلا يومًا بعد يوم ومن قرن إلى قرن، حيث إنه من المستحيل الاستمرار يومًا بعد يوم فى اقتناص الكنوز من التسوق أو النظر إلى الصنبور اللامع.

الكُتّاب من الرجال والنساء الذين يعظّمون هذه المتع هم أناس نادرًا ما اشتركوا فى عمل من أعمال المنزل. إنه عمل متعب، ممل ورتيب ومهنة. إذا كان الفرد الذى يقوم بهذا العمل منتجًا أيضا ويحب عمله، فسيكون مندمجًا بصورة طبيعية فى الحياة اندماجًا طبيعيا ولا يشكو الملل، ولهذا السبب فإن الأعمال المنزلية التى يقوم بها الرجال

لا تسبب لهم إلا القليل من الضجر، حيث إنها تمثل لهم مجرد نقطة سلبية ليس لها توابع يهربون منها، وهو ما يجعل نصيب الزوجة الخادمة منه هو نكرانه للجميل. فتقسيم العمل بينه وبينها يجبرها تمامًا على عمل الشيء العام وغير المهم. فتنظيف مكان المعيشة وإعداد الطعام يفيدان الحياة ولكنهما لا يمنحان الأهمية. فالأهداف المباشرة لربة المنزل هي مجرد وسائل وليست غايات حقيقية. هي تحاول بالطبع أن تعطى بعض التميز لعملها وتجعله يبدو مهما، ولا يمكن لأى فرد لآخر، كما تعتقد، أن يقوم بعملها بالكفاءة نفسها، فلها وسائلها وطقوسها الخاصة وتطيراتها وطرقها في عمل الواجبات المنزلية. ولكن غالبا ما تكون ملاحظاتها الشخصية مجرد إعادة تنظيم للهرجلة بصورة عديمة المعنى.

(٦)

تضيع النساء وقتا كبيرا وجهدا عظيما في بحثهن عن الإبداع والكمال المتميز؛ وذلك يعطى عمل المرأة الطبيعية غير المرتبة، ويجعل من الصعب تقدير العبء الحقيقى للعمل المنزلي. وقد أوضحت الدراسات الحديثة أن متوسط العمل المنزلى لربة الأسرة يصل إلى ثلاثين ساعة أسبوعيا، أى ما يعادل ثلاثة أرباع العمل الأسبوعى للموظفات، ويعد هذا كبيراً إذا كان يمارس بالإضافة إلى عمل تؤجر عليه، وصغيراً إذا لم يكن لدى المرأة ما تعمله.

رعاية عدة أطفال يضيف بالطبع الكثير إلى عمل المرأة، فالأم الفقيرة تعمل تقريبا كل الوقت، أما الطبقة المتوسطة اللائى يوظفن من يساعدهن، فيكن عاطلات تقريبا ويجلبن بذلك الملل مقابل راحتهن. فإذا لم يكن لهن ميول خارجية، فعادة ما يضاعفن ويعقدن مهامهن المنزلية بطريقة مسرفة لمجرد أن يجدن ما يعملنه.

أسوأ ما في الأمر هو أن هذا العمل يخلق شيئًا راسخًا. فالنساء يغريهن - وكلما زاد ذلك زاد الألم الذى يعانينه - النظر إلى عملهن على أنه غاية في حد ذاته، فالمرأة تتنهد وهى تنظر إلى الكعكة الممتازة التى خرجت لتوها من الفرن وتقول "إنه لمن

المحزن أن تؤكل"، وإنه لمن السيئ جدا أن يمرح الزوج وأولاده بأقدامهم المتسخة بالطين فوق الأرضية الخشبية التى تم تلميعها بالشمع. فاستعمال الأشياء يؤدى إلى اتساخها أو تدميرها، وقد رأينا كيف أنها تميل إلى الحفاظ عليها من الاستعمال، فهى تحتفظ بالمربى إلى أن تصاب بالعفن، وتغلق غرفة الجلوس وتبقيها دون استعمال، ولكن الزمن يمر والمربى تجذب الفئران وتصبح مصابة بالدود، والبطاطين تجذب العثة وكذلك الملابس، وغرفة الجلوس تملأها الأتربة.... إلخ..

العلم ليس حلمًا منقوشًا على الحجر، ولكنه مصنوع من أشياء عرضة للتلف، فالمواد الغذائية عرضة للتلف مثلها مثل ساعات كريستيان ديور البراقة، واللحوم قد تبدو جامدة وغير فاسدة، ولكن اليرقات المختبئة داخلها قد تكون غيَّرتها وحولتها إلى جيفة، وربة المنزل التى تسرف فى الاحتفاظ بالأشياء، تصبح معتمدة على تلك الأشياء كاعتمادها على العالم بكامله، وعندما تتلف الأشياء أو تدمر يكون ذلك كارثة رهيبة، لأنه عندما يتم تدميرها، فإنها تذهب إلى الأبد، وبالتالى فإن الاحتفاظ بالأشياء مع الطمأنينة لا يمكن الوصول إليهما، والقنابل والألغام غالبا ما يهددان دولاب المرأة وبيتها.

(٧)

منتجات العمل المنزلى يجب بالضرورة أن تُستهلك، والتنازلات المستمرة مطلوبة من المرأة التى يكتمل عملها عندما يتم تدميرها. بالنسبة إليها لكى تقبل ذلك دون أسف، فإن هذه الحروب الصغيرة يجب على الأقل أن تنعكس بسعادة ومتعة على أحد. ولكن لأن عمل ربات المنازل ممتد للحفاظ على الوضع القائم، فإن الزوج عندما يأتى للمنزل، قد يلاحظ بعض الفوضى أو الإهمال، ولكن يبدو أن النظام والأناقة بالنسبة إليه يأتيان وحدهما. إن له اهتمامًا إيجابيا بوجبة طيبة، ولحظة سعادة الطاهية تتأتى عندما تضع طبقًا شهيا على المائدة؛ فالزوج والأولاد يستقبلونه بالتأييد الحار، ليس فقط بالكلمات وإنما بالتهامه بتلذذ، وكيمياء المطبخ تأخذ طريقها، حيث يصبح الطعام الذى أعدته لحمًا ودماءً.

وهكذا، فالحفاظ على الأجسام الحية، يعد من الاهتمامات الضرورية والحيوية أكثر من الحفاظ على أرضية ناعمة وبحالة لامعة، لأن مجهود الطاهية يمتد إلى المستقبل، ويصبح من الأفضل المشاركة في الحفاظ على صحة الآخرين على أن تخسر نفسها في الأشياء التافهة، لأن ذلك ليس له أقل أهمية. إن أهمية عمل الطاهية هو الذى يوجد في أفواه المحيطين بمائدتها، فهى تحتاج إلى استحسانهم، وتطلب منهم تقدير أطباقها، وأن يطلبوا المزيد منها مرة ومرة، وتستاء إذا لم يكونوا جائعين إلى الحد الذى يجعل المرء يتساءل عمًّا إذا كانت البطاطس المقلية هى لزوجها أم أن زوجها هو للبطاطس المقلية. يتضح هذا التناقض فى السلوك العام للزوجة التى تقوم بأعمال البيت، هى تعتنى بالبيت من أجل زوجها ولكنها أيضا تريده أن ينفق كل ما يكسبه فى الأثاث والثلاجة الكهربائية. هى ترغب فى جعله سعيداً، ولكنها تؤيد أنشطته فقط إذا كانت فى إطار السعادة الذى أقامته.

(٨)

كانت هناك أوقات عندما كانت تلك السلوكيات تجد قبولا بصورة عامة، وقت أن كانت لهذا الهناء انعكاسات مثالية على الرجل، عندما كان مشدوداً لبيته وأسرته فوق كل اعتبار آخر، وعندما كان الأطفال شغوفين بالجلوس إلى والديهم والاستماع لهما والتحدث إليهما. فى تلك الأوقات، كانت المرأة هى التى تحكم البيت، وهى التى تشرف على مائدة الغذاء، وكان يُنظر إليها كشىء فائق عندما كانت لا تزال تلعب هذا الدور اللامع بين ملاك الأراضى والفلاحين الموسرين الذين يحافظون بحرص على متانة العلاقات الأسرية الأبوية.

ولكن بصفة عامة، فالزوج حاليا ما هو إلا أثر باقٍ لأساليب أخرى تعكس ركود الحياة، ووضع الزوجة لم يتغير كثيراً عمًّا سبق؛ لأنها لا تزال عليها نفس الواجبات ومع ذلك لا تعطيها نفس الحقوق والمزايا والاعتبار.

الرجل يتزوج الآن ليحصل على مقر للإقامة وليس لكى يتم حبسه داخله، هو يريد أن يكون له بيت وموقد، بينما يمرح هو بالهروب منه، هو يستقر جزئيا ولكنه عادةً ما يظل هائما بقلبه، وهو ليس محتقراً للأعمال المنزلية ولكنه لا يجعل منها غاية فى حد ذاتها، فالتكرار يصيبه بالملل، وهو يسعى وراء التجديد والمجازفة والمغامرة لتغلب عليها مع الرفاق والأصدقاء الذين يأخذونه من الوحدة. الأطفال أكثر من أبيهم يودون هم الآخرون الهروب بعيداً عن حدود الأسرة، فالحياة بالنسبة إليهم تكون أجمل فى مكان آخر، ويرونه أمامهم. الطفل دائما يسعى لما هو مختلف. المرأة تحاول إقامة عالم من الاستقرار والاستمرار، والزوج والأطفال يريدون تجاوز الوضع الذى رتبته هى لهم، والذى بالنسبة إليهم هو مجرد "حكومة". هذا السبب فى أنها حتى إذا رفضت الإقرار بالطبيعة المعارضة للأنشطة التى تكرس لها حياتها، فهى مجبرة على تقديم خدماتها بالقوة. إنها تتحول من أمٍّ وزوجةٍ إلى زوجة أب قاسية وحادَّة الطباع.

وهكذا فإن عمل المرأة داخل البيت لا يعطيها أية سلطة، فهو ليس نافعًا بطريقة مباشرة للمجتمع، ولا يفتح طريقًا للمستقبل؛ لأنه لا ينتج شيئًا. إنه يكتسب معنى وعزَّة فقط إذا ارتبط بكائنات موجودة تسعى لما هو أبعد من ذواتهم ويريدون أن يتجاوزوا عالمهم والانطلاق فى اتجاه المجتمع للعمل و الإنتاج.

(٩)

لكن ذلك لا يحرر المرأة، فوظائفها تجعلها معتمدة على الزوج والأطفال، هى تحصل على الاعتراف بها عن طريقهم، ولكنها فى حياتهم مجرد شىء وسيط عديم الأهمية. هذه "الطاعة" التى ليست واجبا شرعيا عليها لا تغير وضعها، لأن ذلك يعتمد ليس فقط على إرادة الزوجين، ولكن على التركيب الفعلى للمجموعة المتزوجة. المرأة ليس مسموحاً لها بأن تعمل أى شىء مؤثر وإيجابى فى عملها تكسب به الاعتراف بأنها شخص كامل. فعلى الرغم من أنها تكسب الاحترام فإنها تظل تابعة، ودورها ثانويا. اللعنة القاسية

التى تصيبها مكونة من التالي "إن المعنى الرئيسى لحياتها ليس فى يديها، لهذا كانت نجاحات وفشل حياتها الزوجية مهمة جدا لها أكثر من أهميتها لزوجها، فهو مواطن أولاً ومنتج، ثم زوج ثانيا، ومن وضعها هذا فإننى أرى العكس، وأن لعملها قيمة سواء كبيرة أو صغيرة. فهى محبة ومخلصة جدا وتقوم بعملها بسرور، ولكن ذلك يبدو لها كفاحًا وسببا للضجر إذا قامت به مرغمة". لكن من سوء قدرها أن عملها لا يشكل إلا دوراً غير ذى أهمية ولا يساعدها فى إنجاح حياتها الزوجية واستمرارها، فلا بد إذن من النظر إلى وضع المرأة فى الحياة، هذا الوضع الذى يتمثل بالضرورة فى "الخدمة فى الفراش" و "الخدمة فى العمل المنزلى"، والذى فيه تجد المرأة مكانها عزيزًا فقط عند قبولها لعبوديتها.

الأمومة.. ومن الذى يحتاج إليها؟

بيتى رولن

(١)

الأمومة فى مأزق، ولا بد من أن تكون كذلك. السؤال الفظ الذى كان يجب أن يسأل منذ وقت طويل، من الذى يحتاج إليها؟ الإجابة لا بد أن تكون : (١) المجتمع و (٢) النساء. ولكن مع الرعب الماثل أمامنا الآن من زيادة السكان، فإن المجتمع لا يحتاج إليها، والنساء لا يحتجن إليها أيضا، والفضل لأسطورة الأمومة. وفكرة أن إنجاب الأطفال هى أمر ترغب فيه النساء الطبيعيات غريزيا، ويحتجن إليه ويستمتعن بالقيام به، ثبت أنهن يعتقدن ذلك فقط.

مفهوم أن الرغبة فى الأمومة ونشاط الأمومة أمران غريزيان أو إجباران بيولوچيان هو الخطأ عينه. عندما تحاول أن تسأل معظم علماء الاجتماع وعلماء النفس والمحللين النفسيين وعلماء الحياة - والكثير منهم أمهات - عن الأمومة وهل هى غريزية؟ فإن ذلك يشبه سؤال صاحب المتجر هل بابا نويل حقيقى أم لا؟ لقد صاح جيسى برنارد عالم الاجتماع الشهير قائلا " إنه قدر بيولوچى... لا، ليس بيولوچيا، فلو أنه قدر بيولوچى لفضل الناس الموت عن القيام به".

(٢)

النساء لا يحتجن إلى أن يصبحن أمهات أكثر من احتياجهن إلى الإسباجتى، كما يقول ريتشارد رابكن عالم النفس بنيويورك، ولكنك إذا كنت فى عالم كل من فيه يأكلون الإسباجتى ويعتقدون أنهم يحتاجون إلى ذلك ويرغبون فيه، فسوف تعتقد أنت أيضا

كذلك. فالرومانسية لوثت العلم وما يسمى غريزة عبارة عن تنبيه، إنها ليست أشياء موجودة بداخلك.

عندما تقول امرأة بإحساس دافق إنها اشتاقت إلى طفلها من داخلها، فإنها تضع فى لغة بيولوجية ما هو نفسى، كما يقول فريدريك وايات من جامعة ميتشيجان، لا يوجد غرائز، ولكن توجد انعكاسات مثل الرمش بالعين ودوافع مثل الجنس، كما لا توجد دوافع فطرية لإنجاب الأطفال. والضغط الثقافى الهائل القائم للتكاثر يرجع إلى أسباب اجتماعية، فلا توجد ضغوط ثقافية تقول لك ابتعد بيديك عن النار.

هناك بالتأكيد بعض البيولوجيين وغيرهم لا يزالون يعتقدون فى القدر البيولوجى، أى الهدف الفطرى أو الغريزى للأمومة (عند نهاية القرن، كانت الرأسمالية القديمة يتم تفسيرها بواسطة المنظرين بوصفها غريزة الامتلاك).

العديد من المحللين النفسيين يتمسكون بالنظرة الفرويدية فى أن النساء يشعرن بالاستياء الشديد من عدم امتلاكهن "عضو ذكرى" لدرجة أنهن بالضرورة مدفوعات للرغبة فى امتلاك طفل ليحل محل العضو الغائب.المحللون النفسيون يبالغون فى الحاجة النفسية لتكرار ما فعله الوالد من نفس الجنس. وحيث إن كل امرأة لها أم، فهى من الطبيعى أن ترغب فى تقليد أمها بأن تصبح أما هى الأخرى.

(٣)

بالتأكيد هناك رغبة فى ممارسة الحب بحرية إذا ما أتيح لمتعة الفرد وبدون ضغط أو إكراه، ولكن الإصرار على أن النساء يجب أن يمارسنه بنفس الطريقة يماثل الإصرار على أن كل رجل كان أباه بستانيا يجب أن يصبح بستانيا هو الآخر. لقد قال أحد المحللين النفسيين ببساطة: هناك رغبة فى إذعان الفرد لطبيعته البيولوجية، نعم، ولكننا لا نحتاج إلى ذلك أحيانا ولا يجب أن نفعله (من المثير للاهتمام أن المرأة التى شاركت بدرجة كبيرة فى علاج الأطفال والتى أعطت الأطفال أكثر من أى فرد آخر وهى د. أنا فرويد ابنة عالم النفس الشهير فرويد، لم تكن أما).

على كل حال، ما يقوله المئات من الخبراء لنا هو ببساطة أن الإمكانية البيولوجية والرغبة ليستا متماثلتين "للحاجة" البيولوجية، فللنساء أجهزة لحمل الأطفال، إذا رغبن في ألا يستخدمنها فذلك ليس معناه أنه إيقاف لما هو غريزي أكثر من أن يختار رجل ألا يصبح رافع أثقال سواء كانت له عضلات أم لا.

الكثير يقال عن الرغبة، فماذا عن الأنشطة "الغريزية" للأمومة؟

أظهرت دراسة على الحيوانات أنه عند وضع صغار النوع في قفص مع عضو أكبر عمرا من نفس النوع فإن الأخير يسلك سلوكا حمائيا، بطريقة "أمومية". وينطبق هذا على الذكور والإناث الذين كانت لهم أمهات. وأشارت الدراسات إلى أن الطفل الإنساني يستجيب لمن يلعب دور الأم له مهما كان، حتى لو كان الأب نفسه. وقد أشارت مارجريت ميير وآخرون إلى أن الأمومة يمكن أن تكون وظيفة جيدة إذا ما رغب المرء في ذلك، ولأي من الجنسين. في تجربة أخرى على القرود الذين نشأوا بدون أمهات وُجِدَ أنهم ينقصهم السلوك الأمومي تجاه نسلهم.

وفي دراسة مماثلة ظهر أن القرود التي نشأت بمعزل عن القرود من الجنس الآخر، لم تكن لديها ميول للتزاوج، وكل ذلك يشير إلى أن الأمومة والسلوك التزاوجي يتم تعلمهما وليس غريزيين، وأيضا البط الذي يتبع أمه بحب، وجد أنه في غياب الأم يمكن أن يتبع بنفس الحب بطا خشبيا أو حتى مكنسة كهربائية!

(٤)

إذا لم تكن الأمومة غريزية، فمتى ولماذا ولدت أسطورة الأمومة؟ حتى وقت قريب، كان السؤال الخاص بدوافع الأمومة يبدو أكاديميا. الجنس، سواء رضينا أم لم نرضَ، يعني أطفالا. لا يعني ذلك أنه لم تكن هناك دائما أساليب لمنع الحمل. ولكن إلى أن تم تصنيع الواقي الذكري عام ١٨٨٠، كانت ولادة الأطفال أمرًا لا يمكن تجنبه. وعمومًا، لم يظهر أحد اهتماما بذلك فالناس يميلون إلى أخذ الأمور الحتمية بروح رياضية. والسبب الآخر، أنه في الماضي، كان هناك احتياج إلى زيادة النسل، فمعدلات الوفيات

كانت عالية، والثقافة الزراعية على وجه الخصوص احتاجت إلى الأطفال دائما للمساعدة. وبالتالى فلمجرد أنها حدثت، ولأنه كانت هناك حاجة إليها، كان الفرض بأن الأمومة فطرية.

فى البدء، كانت كلمة "الله" "كونوا مثمرين وتكاثروا"، هى ما أطلقت الأرض لتدور. وهو اقتراح عملى حيث لم يكن هناك من البشر سوى آدم وحواء. ولكن فى وقت قصير جدا غيَّر المفرطون فى الأخلاقيات مثل القديس أوغسطين اللهجة إلى الرسالة التالية: "الجماع حتى مع الزوجة الشرعية، ليس حلالا ويُعد شرا إذا ما مُنع حمل الأطفال". وكان موقف الروم الكاثوليك على نفس الوتيرة. ففى ذلك الحين كما هو الآن، الإنجاب كانت له قيمة عظمى بين الناس الذين نظروا (ولا يزالون) إلى المتعة الجنسية باعتبارها إثمًا. فالمرء قد يشارك فى المتعة المحرمة ولكنه يغضبه الإنجاب اللاحق. فالأمومة تنظف الجماع، وأيضا تُطهر النساء اللائى كن يُعتبرن شرا نظرا لتعدى حواء وإغوائها لآدم، ولكن خلاص المرأة يكون عبر حملها للأطفال، واعتبرت المرأة نجسة بسبب الحيض.

وعلى ذلك، فبالتأسيس على الحاجة، والأوهام النفعية، أصبحت أسطورة الأمومة فعالة من وجهة نظر المجتمع، ونمت الأسطورة كما ينمو الذرة فى كانساس. وقام المجتمع بتقويتها بالقوانين والدعاية والقوانين التى جعلت المرأة متاعًا وأنكرت عليها التعليم، وأقنعوها بأنها تكون جميلة ورائعة وهى تفعل ذلك وأن الأمومة أمر جميل ورائع لتفعله.

(٥)

فى الحقيقة، استقرت الأسطورة محطمة الأرقام القياسية لأطول الضلالات عمراً فى التاريخ، وحتى الأمس القريب فكلما تكشفت الحقيقة عن الأسطورة زادت حقوق المرأة وأدركت المرأة الرسالة فى أنها بالتأكيد يمكنها فعل معظم ما يفعله الرجال، وأن النساء أصبحن أطول عمرًا وأن أمخاخهن ليست أصغر، وأخيرًا عندما جاءت الأخبار أن باستطاعتهن اختيار أن يكن أمهات... ماذا حدث؟ حلقت الأمومة عاليًا عن أى وقت مضى.

فكما وصفت بتى فريدان فى كتابها "سر الأنوثة"، أنتجت حقبتا الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى مجموعة من السيدات اللاتى كان لديهن أطفالٌ، كما لو كن خارج الموضة (وربما كن كذلك)، ولكن كما لم يحدث من قبل، جعلن من الأمومة عبادة. لقد أسهبن فى وصف جمالها، على الرغم من أن متاعب وآلام الولادة الطبيعية والرضاعة كانا واجبين للأمومة. لقد دفنَّ رءوسهن فى رمال الأمومة قائلات كم كن سعيدات ومشبعات للدرجة القصوى. ولكن كما تقول فريدان بوضوح، "هن لم يكن كذلك". سرت الأسطورة أكثر وأكثر بعْد أن تحول إنجاب الأطفال من ميزة عملية إلى مسئولية للوالدين وللمجتمع. فمع وصول متوسط تكلفة طفل الطبقة المتوسطة إلى حوالى ٣٠٠٠٠ دولار (دون أن يتضمن ذلك تكلفة الدراسة الجامعية)، فكل والد يعرف جيداً أن من يستفيدون اقتصاديا من الأطفال هم صناع السلع الاستهلاكية، مما يفسر كل هذه الإعلانات عن متطلبات الأمومة، وقد استحوذت الأسطورة على قوة دفع على الرغم من أنها لم تطفئ حماسنا إلا أنها جعلتنا متوترات وغير مستريحات. فتقريبا كل مشاكلنا الاجتماعية، من البسيطة مثل المرور إلى الكبيرة مثل الجوع يخبرنا علماء الاجتماع أنها ناتجة عن كثرة النسل ووجود الكثير من الناس.

ومن الذى يعانى أكثر؟ بالتأكيد الأطفال الذين جيء بهم إلى العالم دون رويَّة، إنهم هم الذين عليهم التجاوب مع الأوضاع الصعبة واللا إنسانية الناجمة عن زيادة السكان، إنهم هم الذين عليهم التجاوب مع الآلام النفسية للإحساس بأنهم غير مطلوبين بواسطة المجتمع، ولا يعد هذا هو السبب الأول لمشكلة المخدرات ولكنه بالتأكيد أحد الروافد لذلك.

(٦)

لسوء الحظ، أضعفت من أثر عوامل ضبط الزيادة السكانية، تلك الحواجز الرومانسية الأيديولوچية والعنيدة... وهى كيف تصبح برامج الحد من النسل مؤثرة طالما أن صورة الأمومة الرائعة لا تزال دون تغيير؟ (حتى الأبوة كان يجب أيضا تخفيفها بالتبعية، إذ يجب أن يحدث ذلك بالنسبة إلى الأبوة).

الأمومة بين الفقراء على وجه الخصوص تعد واحدة من المؤسسات الإيجابية القليلة المتاحة. إحدى المتخصصات فى مشكلة السكان من جامعة بيركلى بكاليفورنيا وهى جوديث بلاك، أشارت إلى أن "برامج تحديد النسل المرتبطة بالفقراء لا معنى لها كمعيار للحياة الجيدة... طالما ظلت السياسات الحالية تشجع التزاوج، والحمل والرعاية والإعالة وإعاشة الأطفال". ربما كان عليها أن تضيف، طالما أن شق رعاية الطفل من الأمومة يظل مهمشاً.

بالتأكيد، الأمومة تصبح مثاراً للسخرية أحياناً، سخرية فليب ويلى من "المامية" كانت شائعة فى الأربعينيات، ومقال فيليب روث "شكوى بورنتوى" أدى إلى تعجيز الصورة اليهودية للأمومة، ولكن كان ينظر إلى هذه الأمور باعتبارها الصيحات المريرة للساخرين السود هنا وهناك، كل شخص كان يرتعش ويضحك، ولكنها كانت كنكتة الفيل والفأر. وظلت الأسطورة باقية. بالأمس، تم إدانة امرأة من بروكلين متهمة بالتسبب فى موت أحد عشر طفلاً فى حريق شب فى بيت تملكه وأهملته بإجرام، "ولكن" كما قال محاميها: "موكلتى السيدة برسلو، أم وجدة، وأم لجدات".

الأكثر لفتاً للنظر هو أن الأمومة استمرت على الرغم من التعاسة الهائلة للأمهات وعجزهن التام. لو كان التكاثر أمراً عرضياً وليس مكلفاً، ولو كانت التجربة ثرية ومُرضية كما تريد "الكليشيهات" منا أن نصدق، ولو كانت رحلة ممتعة لكل فرد: الأم والأب والطفل، فإن فكرة أن كل فرد يجب أن يكون له طفلان تعد كافية. بالتأكيد هناك العديدات من الأمهات الفرحات بأطفالهن وتنعكس على الآباء فرحتهن، ولكن الكثير من الدلائل يشير إلى أن الكثيرات من النساء، وأكثر مما يعترف به البعض، يمكن أن تكون الأمومة بالنسبة إليهن بائسة، إذا لم تكن كما يقول عالم النفس ريلى: "ما كان العالم يصبح فى الورطة التى هو فيها الآن".

(٧)

توجد دلالات إحصائية من دراسات حديثة للدكتور برنارد أرنولد يقارن فيها الأمراض العقلية والتعاسة التى تعاني منها الأمهات المتزوجات بتلك الخاصة بالنساء غير المتزوجات. المجموعة الأخيرة اتضح أنها أقل بدرجة كبيرة فى التعرض لهذه الأمراض، وأنهن أكثر سعادة، بالطبع من الصعب قياس سلوك كالسعادة، الكثيرات من النساء وصلن إلى مرحلة (الرضوخ ـ الامتثال) كما يقول د. برنارد، والتى تفسر بوصفها سعادة. وحيث إن السعادة الأنثوية من المفترض أن تكمن فى تكريس المرأة نفسها للزوج والأولاد، فهن يفعلن ذلك وبالتالى يفترض أنهن سعيدات، والكثيرات من النساء غير المدربات على الاستقلال والمهيآت للأمومة يجدن وضعهن أفضل كثيراً من البدائل التى لا توجد فى الواقع.

أيضا، الأمهات التعيسات يخشين الاعتراف بذلك، والسبب هو أنه إذا نظر المجتمع إلى عدم الأمومة باعتباره شذوذاً، فإنه ينظر إلى الأم التى لا تباركها الأمومة باعتبارها شريرة. وعلى عكس الزواج المخيب للآمال، الأمومة المخيبة للآمال لا يمكن إنهاؤها بالطلاق. بالطبع، لا يثنى أى من هذه الأمور تلك النساء عن التعبير عن عدم الرضا بطرق عديدة. مرة أخرى، ليست هى فقط التى تعاني، ولكن زوجها وأطفالها أيضا، فالزوجة الشمطاء المتمردة والمستفزة تصبح شيئًا لا يحتمل. حقائق الأمومة بمقدورها تحويل النساء إلى كائنات فظيعات. واستنادا إلى ٥٠٠٠٠ حالة لسوء معاملة الطفل فى الولايات المتحدة كل عام، نجد أن بعض النساء أكثر من فظيعات.

فى بعض الحالات، حقائق الأمومة غير المبهجة، تبدأ حتى قبل أن تصبح المرأة أما، ففى كتابها "الاختلافات اللانهائية" تصف مورتون هنت النساء صغيرات السن الحوامل للمرة الأولى بأنهن "من الأرجح أن يصبن بالفزع والاكتئاب، وأن يخفين مشاعرهن حتى لا يصبحن مثاراً للازدراء، إن قدوم الحمل يقطع الحلم الجميل للأمومة، ويوقظهن على إدراك أنهن لا يمتلكن سوى القليل من المال أو لا يوجد لديهن مكان كاف، أو لديهن مشاكل زوجية لم تحل بعد".

(٨)

فيما يلي بعض المقتبسات من مقابلات مع بعض الأمهات اللاتي يصفن أنفسهن بأنهن سعيدات بدرجة معقولة، كلهن كانت لديهن عبارات إيجابية عن أطفالهن، رغم أنه عندما سئلن عن أفضل لحظات يومهن، اعترفن جميعا بأنها عندما يخلد الأطفال للنوم. وهذه هي البقية :

تقول إحداهن : "فجأة كان عليَّ أن أكرس نفسي تمامًا للطفل كنت تحت وهم أن الطفل سوف يتلاءم مع حياتي ووجدت أنني يجب أن أغير حياتي وأساليبي لكي أتلاءم معه". وتقول فتاة : "أنا في حالة حب، وسوف أتزوج وسوف يكون لنا طفل". في البداية يكون هناك اثنان، ثم يصبحون ثلاثة وهذا أمر بسيط رومانسي، لدرجة أنك لا تفكر حتى في العمل.

وتقول أخرى : "أنت لا تتخلصين مطلقًا من المسئولية، حتى عندما يكون أطفالك مع جليسة أطفال، فإنك لا تكونين خارج ضغوط المسئولية".

وقالت ثالثة : "إنني أكره كي سراويلهم وغسل ملابسهم الداخلية، هم لا يضعون ملابسهم مطلقًا في سلة الغسيل، وكلما كبروا، تقل مطالبهم من وقتنا، لأنهم يكونون في المدرسة، ولكن مطالبهم تكون أكبر فيما يتعلق بتكوين قيمهم...".

وقالت رابعة : "أفضل لحظات اليوم هي عندما يكون الأطفال في أسرَّة النوم، وأسوأ وقت في اليوم هو الساعة الرابعة عصرًا عندما يكون عليك تقديم الغداء ويكون الأطفال متعبين وجائعين، وكل واحد يريد الحديث عن يومه المنقضي، ويكون عليك الإنصات لهم حتى يصيبك الصداع".

وتقول خامسة : "ما إن صرت أما، حتى أصبحت مسئولية أطفالي واهتمامي بهم شديدي الابتلاع... يحتاج الأمر إلى إرادة قوية للاحتفاظ بالأجزاء الأخرى من شخصيتي. بالنسبة إليَّ ، الأمومة تصبح أصعب كلما كبر الأطفال لأن التحكم فيهم يقل...، إنني أحبهم وأود أن يكون لي العديد منهم، ولكن أشعر أحيانا بأنني أود ألا يكون لي أي منهم".

وتقول سادسة "توقعت أن الطفل سوف ينام ويأكل فقط، ولكن كانت التجربة أشمل من ذلك، لم أفكر بصورة خاصة فيما تعنيه الأمومة بالمعنى الواقعي، كنت أريد فعل أشياء أخرى مثل أن أشترك في أشياء لها قيمة - لا أعني بذلك نوادي النساء - ولكن ليس لدى الطاقة العضلية للاستمرار حتى المساء، أشعر بأنني أفتقر إلى شيء ما، كمتعة الوجود مع الناس وهم يتحدثون، الخروج للتسوق... الاسترخاء والقراءة، أشياء تحدث في العالم... وأنا محرومة منها".

(٩)

كل فرد ناضج يتوقع أن يدفع ثمن مسراته، ولكن نادراً ما يكون الثمن بحجم ما تتحمله معظم الأمهات، مهما كن سعيدات، لقد ذكرنا عامل التكلفة ولكن ما الذى يعنيه ذلك؟ بالنسبة إلى نساء الطبقة الوسطى الأمريكيات يعنى شكل الحياة القاسى الفظيع الذى لا يمكن احتماله، أى الحياة فى الضواحى، فمن الذى يستطيع توفير ثلاث غرف للنوم إذا أقام بالمدينة؟ وما الذى تعنيه الضواحى؟ بالنسبة إلى النساء، الضواحى تعنى نساء أخريات وأطفال وبقايا شكائر زبدة الفول السودانى وأزواج يندر رؤيتهم، حتى ضحايا الأنوثة - الزوجات اللائى يقررن فى النهاية أن حياتهن خلف المكنسة (ولتكن مكنسة كهربائية) تدفعهن للجنون - يعفين أنفسهن من زيادة معاناتهن بإهمال أطفالهن. ولكنها ببساطة الحقيقة، إن المرأة المتزوجة التى ليس لديها أطفال والتى لا تقوم بأعمال خاصة بالطفل، والعمل المنزلى المطلوب منها قليل يمكنها الحياة فى المدينة، أما إذا كانت لا تزال تفضل الضواحى أو الريف، يمكنها أخذ القطار مع زوجها إذا رغبت. حتى الأم شديدة الإخلاص فى البحث عن عمل، سوف تجد القليل فى مجال الفرص العظيمة، لأنها عندما تستيقظ، تكون قد فقدت القدرة على التمييز للعالم الخارجى، وليس لديها ثقة بالنفس لاستعادة هذه القدرة، قد تقول إن هناك الكثيرات من الأمهات اللاتى يعشن بالمدن، ولكن معظم هاته النسوة يأتين بدخل إضافى للأسرة من عمل ما، وبالطبع لا يكون هو العمل المثير وظيفياً، والذى يتطلب اهتماماً كبيراً فى أثناء سنوات رعاية الأطفال. إن الطريق ليس مفروشاً بالورود للأم التى تريد

أن تفعل ذلك باحتراف. الناقدة ماريا مانز تقول : إذا كان للمرأة المبدعة أطفال، فلا بد من أن تدفع مقابل ذلك حملاً ثقيلاً من الإحساس بالذنب؛ لأن حياتها سوف توزع بين ثلاث، أطفالها وزوجها وعملها. لا توجد امرأة لها قلب تستطيع كتابة فقرة بينما طفلها لديه متاعب، المرأة المبدعة لا توجد لديها زوجة لتحميها من الدخلاء، الرجل إلى مكتبه في غرفة مقفلة الأبواب هو رجل يعمل، في حين أن المرأة إلى مكتب في غرفة يكون من السهل استدعاؤها في أي لحظة لتلبية طلبات زوجها أو أولادها.

(١٠)

بمناسبة الكلام عن الوظائف، تذكر أن الأمومة وظيفة، سواء بمرتب أو بغير مرتب. حتى أولئك الذين بمقدورهم توفير ممرضات لأطفالهم لا يزالون في حاجة إلى لعطاء العاطفي، أطفال الطبقة الغنية، المعتنى بهم جيداً، ليسوا غرباء عن مجتمعنا. من الجوانب اللامعقولة في الأسطورة هو افتراض أن النساء حيث إنهن مهيآت بيولوچيا لحمل الأطفال، فإنهن نفسيا وعقليا وعاطفيا مهيآت لتنشئتهم، لا عليك من السعادة ولكن افتراض أن هذه المهمة الضرورية والمهمة كل النساء مهيآت لأدائها هو أمر خطير وغير معقول، كافتراض أن كل من له أحبال صوتية يجب أن يلتحق بالأوبرا.

من التوقعات الرئيسية للأسطورة الخاصة بالأمومة، أن الأطفال يجعلون الزواج البارد أكثر حرارة، أو الزواج الذي يكتنفه الفتور أكثر دفئًا وعاطفة، إلا أن كل الدراسات المتاحة تشير إلى أن الزيجات التي بلا أطفال أكثر إسعاداً، إحدى هذه الدراسات شملت ٨٥٠ زوجًا وزوجة، وأجراها د. هارولد فيلدمان من جامعة كورنل، وقد لخص نتائج الدراسة كالتالي : "الزيجات ذات الأطفال كان مستوى الإشباع العاطفي منها أقل معنويا عن الزيجات بلا أطفال". بعض الأسباب يكمن في أن أكثر الأطفال حبا، لهم متطلبات إضافية وتعقيدات وصعوبات للأبوين الأشد حبا. فإذا أحست امرأة بخيبة الأمل ووقعت أسيرة لدور الأم، فإن ذلك لا بد من أن يؤثر على زواجها بأي طريقة من الطرق، إذ ربما تجده مسليًا أكثر لما تشعر به من ملل في حياتها اليومية.

تبدأ المرأة فى الابتعاد عن روجها بعد إنجاب الأطفال كما تقول إحدى سيدات ميتشجان، فهو يعمل من أجل مستقبله الوظيفى، وأنت تعملين من أجل الأسرة، ولكن كليكما يجب أن يوجه حياته من أجل الأطفال. أنت تعملين أشياء تجعل الأطفال سعداء أكثر مما تعملين من أجل أشياء تسعدك أنت. الأكثر خطورة هو ما تفعله الأمومة بأحاسيس المرأة الجنسية، فعندما يحط الطائر فى العش تطير الأحاسيس الجنسية بعيداً. ففي عقلية بعض الأمهات وأزواجهن، أن المرأة عندما تصبح أما، لا تصبح امرأة، ليس لأن الأمومة تدمر جاذبيتها فحسب، ولكن تصورها بأن واجبات الأمومة تطاردها، يدمر أحاسيسها الجنسية.

(١١)

لكن ماذا عن الأجر؟ عادة، حتى بين أكثر المضحيات بالنفس، فهن يتوقعن شيئًا فى المقابل، الأزواج السعداء ليسوا غير معروفين فى العالم الغربى، ولكن هناك من يشعرون بأنهم يعطون أكثر مما يأخذون. فالتجربة التى ذكرتها سابقًا - عندما يتبع البط الصغير مكنسة كهربائية بدلاً من أمه - تشير إلى أن ما يمر من الحب من الطفل إلى الأم هو شكل مندثر من الارتباط الشخصى. وبدون أن تشعر الكثيرات من النساء أنهن كالمكنسة الكهربائية، فإنهن يشعرن بالإحباط، ليس فقط لأن أطفالهن ليسوا ظرفاء لكى يتحدثن إليهن ولكن أيضا لأنهم ليسوا على درجة من الوعى أو الاعتبار. حتى ألطف الأطفال ليس باستطاعتهم أن يكونوا على درجة من الوعى إلى أن يصبحوا أكبر عمراً. وأحيانا لا يكون باستطاعتهم أن يكونوا كذلك على الإطلاق. يقول د. وايات إنه عادة، فى السنوات الأخيرة على وجه الخصوص، عندما يصبح المقابل موجوداً، تكون الأم الطيبة هى الأكثر معاناة إذا أنجبت طفلاً أو طفلة. فعندئذ عليها أن تواجه الحقيقة، الطفل الملحق الذى يحمل جيناتها ليس ملحقًا، وإنما شخص منفصل. والأكثر من ذلك، (إنه) أو (إنها) كشخص منفصل لا يحبها أو هى لا تحبه.

إذا كانت الموسيقى رديئة، فكيف يمكن أن يرقص كل شخص؟ فلأن موسيقى الأمومة تدرّس دون مقابل منذ الولادة، وسواء كانت تحب الموسيقى أم لا، فكل امرأة

من المتوقع أن ترقص عليها. بالتأكيد، هى تريد أن تفعل ذلك. البنات الصغيرات يبدأن فى تعلم ماذا يجب عليهن أن يفعلن، وماذا يردن أن يصبحن، وهن لا زلن فى قمطهن. تشير د. ميريام كيفير المختصة فى علم النفس الاجتماعى إلى أن الدراسات أوضحت أن : "عند عمر ستة أشهر، تعامل الأمهات طفلاتها وأطفالها الذكور بطرق مختلفة، مثلا، وجد أن الأمهات يلمسن ويداعبن ويتحدثن إلى البنات أكثر، فإذا كانت هذه الفروق فى التعامل توجد عند هذا العمر المبكر فليس من المدهش أن يكون الناتج النهائى مختلفًا كما هو عليه الحال الآن. ما هو مدهش حقا أن الرجال والنساء متماثلون فى ذلك".

(١٢)

يشير بعض الناس إلى طريقة لعب البنات الصغار بالعرائس كإثبات على أنهن مفطورات على الأمومة. ولكن يجب تذكر أن البنات الصغيرات يُعطين العرائس. عندما قدمت مارجريت ميد بعض العرائس لأطفال غينيا الجديدة، كان الأولاد وليس البنات هم الذين أرادوا أن يلعبوا بها، وفعلوا ذلك بالغناء لهم وهدهدتهم بالأسلوب الأمومى. أما البنات فعندما يصلن سن البلوغ، فمعظمهن – بدون وعى أو وعى – يكن قد تعلمن ما يكفى عن الدور الخاص بهن بما يؤهلن للحصول على درجة الماجستير فى ذلك. ومهما كان المستقبل الوظيفى الذى تفكر فيه، يجب أولا وآخرًا أن تصبح الفتاة زوجة وأما. فأم البنت هى مدرِّستها الأولى. وكما يقول د. جوود "لا تلقن المرأة بواسطة المجتمع فقط أن يكون لها طفل، إن أمها تلقنها أنها لا بد من أن يكون لها طفل". الأم التى تعلق كل حياتها على أسطورة الأمومة سوف تجبر ابنتها حديثة الزواج على التدرب مبكرًا بأن تطلب أن يكون لها حفيد. والجدات لسن الوحيدات فى ذلك. الأزواج أيضا يبيعون هذه الفكرة بنجاح. فبعد كل شىء، لديهم أسطورة الأبوة. الرجل المتزوج من المفترض أن يكون له أطفال عادة، خاصة بين الإثينيين، فالأطفال دلالة على القدرة الجنسية. إنهم يساعدونه على أن يؤكد للعالم – ولنفسه – أنه الرجل العظيم الذى من

المفترض أن يكونه. إضافة إلى ذلك، فالأطفال يوفرون له الخلود، مهما كان لذلك من معنى، وربما فرصة أن يكون أكبر فى حياته بما يصل إليه أولاده خاصة ولده. أحيانا يكون من المهم للابن أن يكون أفضل من أبيه ولكن ليس بدرجة كبيرة جدا.

يمكن للأصدقاء أيضا أن يكونوا مروجين للأسطورة. بالطبع، يرغب المرأ أن يفعل ما يفعله أصدقاؤه. إحدى الدراسات وجدت تلازمًا بين خصوبة المرأة وخصوبة أقرب ثلاثة من صديقاتها. والترويج السلبى يحدث هنا أيضا. رأينا ما تعنيه حالة المرأة غير الأم (باردة، أنانية، غير أنثوية، شاذة). واقعيا، خاصة فى الضواحى، يمكن أن تعنى ببساطة الاستبعاد من الأنشطة المتعلقة بالأطفال (أى معظم الأنشطة)، ومن المناقشات المتعلقة بالأطفال (أى معظم المناقشات). ويمكن أن تعنى أيضا أن تكون محلاً للنكات، والأسوأ من ذلك كله، أن تصبح محلاً للشفقة.

فى حالة تجنبها كل هذه الضغوط فالمرأة الصغيرة المتزوجة عادة ما تريد طفلا لكى : (١) يتوفر لها شىء لتعمله (الأمومة أفضل من وظيفة كاتبة آلة كاتبة وهى عادة الوظيفة الوحيدة الذى يمكنها الحصول عليها، حيث من المتوقع ألا تكون أفضل من ذلك ورئيسها فى العمل يتوقع منها أن تترك العمل وتصبح أما)، (٢) أن يتوفر لها شىء تحتضنه ويكون ملكا لها، وأن تشعر بالاحتياج إليها وبأن لها سلطة عليه، (٣) أن تصبح شيئًا له قيمة مثل أم لطفل.

(١٣)

الأمومة توفر للأنثى ذاتية لحظية. أولا، عبر الزوجية، هى زوجة رجل ما ثم تصبح أما لشخص ما. كلا الأمرين يوفران الذاتية والنشاط وأيضا المكانة والنجومية بشكل ما. خلال الحمل، يمكن للمرأة أن تنتظر الاهتمام والتدليل اللذين لم يكن لها أن تحصل عليهما من أى طريق آخر. بعض النساء يعتبرن الولادة أعظم إنجاز فى حياتهن، والذى يمكن تفسيره كما لو أنه لا يوجد ما يقال عن باقى حياتهن. وكما يقول د. جوود: "إنها مثل المقامر الذى يعلم أن عجلة الروليت غير سليمة ولكنها اللعبة الوحيدة فى

المدينة"، أيضا، مع الأمومة فإن الإحساس بالإنجاز لحظى. فى الحقيقة إنه أسهل وأسرع أن تصنع طفلا عن أن ترسم لوحة أو تكتب كتابا أو تصل إلى إنجاز ما فى وظيفة. وهو سهل أيضا لنقل الاهتمام من تطوير النفس إلى تطوير الطفل، خاصة حيث إنه بالنسبة إلى النساء يعد تطوير النفس أنانية. حتى الأمهات غير المتزوجات قد يصلن إلى إحساس من هذا النوع (كما رأينا، القليل من التفكير يوجه إلى ما بعد وقوع الحدث). ومرة أخرى، حيث إن الكثير من النساء يعتبرن ناقصات النمو كبشر، فإنهن يشعرن بأن ما يستطعن أن يقدمنه بجانب الأطفال لا يعد شيئًا ذا قيمة سواء لأنفسهن أو لأزواجهن أو للعالم.

قد تسأل لماذا إذن، والحقائق تنساب هكذا، ترغب النساء فى أن يكون لهن طفل ثان وثالث وحتى رابع :

الإجابة (١) إن انسياب الحقائق لا يعنى أنهن يردن مواجهتها. الطفل الجديد يمكن أن يساعد في استرجاع بعض الأوهام القديمة. وكما تقول د. ناتالى شاينس المحللة النفسية : "المرأة قد تنظر إلى كل طفل تال كفارس في درع سوف ينقذها من أن تصبح أما سيئة وتعيسة".

(٢) التالى فى قائمة المخاوف من ألا يكون لها أطفال، هو أن يكون لها طفل. ويكفى القول إن الأطفال ليسوا مرغوبين فقط ولكن لهم معدل عال من التميز.

(٣) كلا الأبوين يرغب فى أن يكون له طفل من كل جنس. الزوج لأسباب سبق مناقشتها ربما يرغب فى أن يكون له ولد.

(٤) كلما كثر عدد الأطفال كان هناك مبرر للفرد لعدم تطوير نفسه بأية طريقة أخرى.

(١٤)

ما الغرض إذن؟ عالم بلا أطفال! بالتأكيد لا. فلا شىء يمكن أن يكون أسوأ أو أقل ترجيحًا. لا يهم ما يقوله أى فرد فى أى مكان، فالأمومة لم يحل موعد رحيلها كالمصباح المنطفئ، ومن الذى يقول إنها يجب أن ترحل؟ فقط الأسطورة يجب أن تنتهى والآن هى تتراجع.

إناث الجيل الأصغر اللاتي نشأن على تعلم الأسطورة لم يرفضنها كلية، ولكنهن على الأقل يعرفن أنه قد يكون أكثر حبًا للأطفال ألا يرزقن بهم. على الأقل هن يتحدثن عن تبني الأطفال بدلا من حملهن. الأكثر من ذلك، حيث إن هذا الجيل من غير الحوامل غير متعلقات بالتملك، يبدو أنهن يعرفن أنك إن أحببت الأطفال فليس من الضروري أن يكون لديك منهم. نهاية أسطورة الأمومة قد تجعل النساء المحبات (والرجال) أكثر توافراً للأطفال الموجودين فعلاً. عندما تصبح الأمومة غير قهرية ثقافيا، سوف يقل ما هو موجود منها. بدأت النساء في التفكير والعمل على تطوير الذات في مصادرهن الفردية. بعيدات كل البعد عن أن يكن أنانيات، وهذا التطور هو أملنا الوحيد، فهو يعني بدائل أكثر للنساء. والبدائل الأكثر تعني اختياراً أكبر لأمومة أفضل وأسعد، إنها ليست قضية هل الأطفال رائعون عند إنجابهم وتنشئتهم، السؤال هو ، حتى لو كانوا، هل المرء على استعداد لدفع ثمن ذلك؟ لا معنى لأن ندعي أكثر من ذلك، إن النساء يحتجن إلى الأطفال عندما يكون ما يحتجنه فعلا هو أنفسهن. إذا كان الله لا يزال يتحدث إلينا بصوت يمكننا سماعه، فحتى هو سيقول: "كونوا مثمرين ولا تتكاثروا".

الفصل الثامن

التمييز ووضع النساء

هل النساء متحيزات ضد النساء؟

فيليب جولدبرج

(١)

قرر أرسطو أن "المرأة يمكن القول إنها رجل ناقص". ولأنه كان رجلاً فربما كان أرسطو متحيزًا. ولكن ما الذى تعتقده النساء؟ هل يعتبرن، بوعى أو بغير وعى، أن جنسهن ناقص؟ وإذا كن كذلك، فهل يؤدى هذا الاعتقاد بهن إلى التحيز ضد النساء الأخريات، أى ينظرن إلى النساء، لأنهن نساء، على أنهن أقل قدرة من الرجال؟

وفقًا لدراسة قمت بها مع آخرين، الإجابة على السؤالين هى نعم. النساء بالفعل يعتبرن جنسهن ناقصًا. وحتى إذا لم تقدم الحقائق تأييدًا لهذا الاعتقاد، فإنهن وبإصرار يقللن من القدرات - وعلى الأخص الفكرية والمهنية - للإناث.

على مر السنوات، أوضح علماء النفس أن كلا الجنسين يعتبر الرجال باستمرار أعلى من النساء كثيرا. فالخصائص التى تعد ذكورية دائما ما تمدح، وتلك التى تعتبر أنثوية عادة ما تنتقد. فى عام ١٩٥٧ لاحظ شريفز وماك كى أن "النساء يعتبرن مذنبات بالتعاظم وعدم الرشد وعدم النضج العاطفى". وقد اتفق مع ما وجده كل من فرنش وليسر عام ١٩٦٤ من أن "النساء اللاتى يقدرن الإنجازات الفكرية يشعرن بأنهن يجب أن يرفضن دور المرأة". فالإنجازات الفكرية تعتبر حتى بين النساء المفكرات، خاصية رجولية، إضافة إلى ذلك، المتحمسات للأنوثة مثل سيمون دى بوفوار وبتى فريدان يعتقدن أن الرجال متفوقون على النساء فى كثير من الأمور المهمة.

الآن، هل هذا الاعتقاد هو ببساطة تحيز، أم أن خصائص وإنجازات النساء تعد متدنية بالمقارنة بتلك الخاصة بالرجال؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا عمل بعض المقارنات الدقيقة.

(٢)

مختلفات أم متدنيات؟

من المهم جدا إدراك أن هناك بعدين متميزين لموضوع الفروق الجنسية.

السؤال الأول هو : هل توجد فروق جنسية على الإطلاق بعيداً عن الفروق الجسمية الواضحة؟

الإجابة عن هذا السؤال يبدو أنها بالإجماع، نعم. فالنساء والرجال وعلماء الاجتماع يوافقون على أن النساء يختلفن عن الرجال سيكولوجيا وعاطفيا كما يختلفن جسمانيا.

ولكن هل الاختلاف يصل لدرجة أن يكن أدنى؟

من الممكن جدا إدراك الفرق بدقة، ولكن تقييمه يأتى بدون دقة. هل النساء ينظرن أتوماتيكيا إلى الفروق بينهن وبين الرجال على أن لديهن نقائص؟ الدليل يرجح أنهن يفعلن ذلك، وأن هذا الحكم يفتح الباب للتحيز ضد الأنثى. حيث إنه إذا اعتقد فرد (ذكر أو أنثى) أن النساء أدنى، فإن إدراكه للنساء شخصياتهن، وسلوكهن، وقدراتهن وإنجازاتهن - سوف يميل لأن يتأثر بهذه التوقعات التى تحط من قدر النساء.

كما أشار جوردون ألبورت فى مقاله "طبيعة التحيز"، بأنه مهما كانت الحقائق الخاصة بالفروق الجنسية، فإن التحيز ضد الأنوثة مثله مثل أى تحيز آخر، يشوه الإدراك والخبرة. ما يميز العداء للأنوثة ليس فى الاعتقاد بأن النساء متدنيات، وإنما فى السماح لهذا الاعتقاد بتشويه تصورات الفرد للنساء. وبشكل أكثر تعميماً، إنه ليس التحيز فى ذاته، ولكن التشويه الناتج عن هذا التحيز، هو ما يميز التحيز.

فالمعادى للسامية قد يرى وهو يراقب يهوديا، السلوك الملتوى المخادع له، ولكنه بالنسبة إلى المسيحى قد يعتبر أن مثل هذا المسلك مجرد تحفظ أو هدوء أو حتى خجل. التحيز سلوك مستمر، فهو يشوه دائما "الدليل" الذى يقيم الفرد المتحيز ادعاءه عليه.

أوضح ألبورت أن معاداة الأنوثة مثلها مثل معاداة السامية أو أى صورة من صور التحيز الأخرى، ودائما وباستمرار ما تطوى "الدليل" الخاص بالخبرة. فنحن لا نرى ما هو موجود بل ما نتصور وجوده.

(٣)

الغرض من دراستنا كان البحث فيما إذا كان هناك تحيز – ضد النساء – وما إذا كان الإدراك في حد ذاته قد تشوه بطريقة غير مرغوبة. وبالتحديد، هل ترى النساء مقالا مهنيا بعين متعصبة عندما يعتقدن أنه صادر عن امرأة، بينما يمتدحن نفس المقال عندما يعتقدن أنه صادر عن رجل؟. كانت افتراضاتنا كالتالي :

حتى إذا كان العمل متطابقًا، فإن النساء يرين عمل الرجال أعلى كثيراً من عمل النساء.

ولكن عندما يكون المجال المهنى من المعتاد أنه يقتصر على النساء (كالتمريض والتغذية) فإن التقييم سوف يقل كثيرا، وسوف لا يحظى بالاهتمام الكافي.

تم اختيار ١٤٠ طالبة جامعية بطريقة عشوائية لهذه الدراسة، مئة خضعن للعمل الأولى بينما أربعون منهن فى التجربة الرئيسية.

لاختبار الافتراض الثانى، أعطينا المائة فتاة خمسين وظيفة وسألناهن أن يقيِّمن "شدة ارتباط الوظيفة بالرجال أو النساء". ووجدنا أن المحاماة وتخطيط المدن كانا من الوظائف التى تم الربط بقوة بينها وبين الرجال، بينما التدريس فى المدارس الابتدائية تم ربطه بالنساء، بينما فى مجالين هما اللغويات والتاريخ كان الاختيار محايدا ولم يتم الربط بقوة بينهما وبين أى من الجنسين.

كنا مستعدين للتجربة الرئيسية، وأخذنا من أدبيات كل مهنة من المهن الستة السابقة، مقالا واحداً، تم اختصاره إلى ١٥٠٠ كلمة، ثم جمعناها فى مجموعتين متساويتين من الكتيبات، نفس المقالة حملت اسم رجل فى مجموعة من الكتيبات،

واسم امرأة فى المجموعة الأخرى. وكمثال إذا كانت المقالة الأولى فى إحدى المجموعتين تحمل اسم چون ماكاين، فهى فى المجموعة الثانية تحمل اسم چوان ماكاين، وكل كتيب كان يحتوى على ثلاث مقالات للرجال وثلاث للنساء.

أُجلست الطالبات معًا فى مدرج متسع وتم سؤالهن أن يقرأن المقالة فى كتيباتهن وأن يقمن بالتالى :

فى هذا الكتيب سوف تجدين ستة مقالات لستة مؤلفين فى ستة مجالات مهنية مختلفة. عند نهاية كل مقالة سوف تجدين عدداً من الأسئلة... ليس من المفترض أن تكونى غزيرة المعرفة فى كل المجالات. نحن مهتمون بقدرة طالبات الجامعة فى القيام بتقييم دقيق..".

لاحظ أنه لم يُشَر على الإطلاق لجنس المؤلف، فهذه المعلومة يمكن معرفتها فقط من اسم المؤلف. الطالبات بهذه الطريقة لا يستطعن معرفة ما نبحث عنه فعلا.

(٤)

عند نهاية كل مقالة كانت توجد تسعة أسئلة يُطلب من الطالبات أن يُعطين درجة للمقالة وفقا لقيمتها، مدى إقناعها، شمولها، ثم تقييم المؤلف وفقا لأسلوبه فى الكتابة، قدرته المهنية، موقعه المهنى، وقدرته على التأثير فى القارئ. لكل جزئية كانت الطالبات يعطين درجات من ١ (أعلى تقييم) إلى ٥ (أقل تقييم).

كانت النتائج متوافقة بصورة عامة مع توقعاتنا، ولكن ليس بصورة كاملة. عند تحليل النتائج، استخدمنا ثلاث طرق مختلفة. قمنا بمقارنة التحيز ضد النساء فى المجالات المهنية المختلفة (هل الرجال بدرجة أعلى كمخططين للمدن، والنساء بدرجة أعلى كمتخصصات تغذية؟)

قمنا كذلك بمقارنة كمية التحيز التى وضحت فى الأسئلة التسعة الملحقة بكل مقال (هل يتم تقييم الرجال على أنهم أكثر مقدرة، والنساء على أنهن أكثر إقناعًا؟) ثم قمنا بعمل مقارنة عامة شاملة للأسئلة الخاصة بكل المجالات المهنية.

بدءًا من تحليل التحيز فى المجالات المهنية، فوجئنا بمفاجأة كبيرة. كان هناك تحيز عام للنساء ضد النساء، وكان التحيز أقوى فى المجالات الرجولية. ولكن فى المجالات الأخرى كان الموقف مشوشا. كنا نتوقع أن التحيز ضد الإناث سوف ينعكس فى المجالات التى من المعتاد أن تكون نسائية. ولكن ظهر أنه حتى فى هذه المجالات تعتقد النساء أنهن أدنى درجة من الرجال. إذ يبدو أن النساء يعتقدن أن الرجال أفضل منهن فى كل شيء، بما فى ذلك التدريس فى المرحلة الابتدائية والتغذية!

والتمحيص فى أسئلة التقييم أدى إلى نفس النتائج. ففى الأسئلة التسعة جميعًا، وبغض النظر عن مهنة المؤلف، وجدت الطالبات بإصرار أن المقالة عالية القيمة وأن المؤلف أكثر قيمة، عندما حملت اسم رجل. وعلى الرغم من أن المقالات كانت هى نفسها، أحست الطالبات أن تلك المقالة التى كتبها چون ماكايز كانت بالتأكيد أشد أثرا وعكست عظمة أكثر لكاتبها عما فعلت المقالة المتواضعة لچوان ماكايز. ربما لأن العلم قد قبل المؤلفات من النساء منذ وقت طويل، كانت الطالبات على استعداد للتنازل والإقرار بأن الكتابات المهنية النسائية ليست أدنى بكثير من كتابات الرجال. ولكن هذا التنازل لمصلحة مقدرة النساء كان نادرًا بالتأكيد.

(٥)

أيد التحليل الإحصائى هذه الانطباعات وجعلها مؤكدة. فمع ست مقالات وتسعة أسئلة لكل مقالة كان هناك ٥٤ درجة يمكن منها عمل مقارنات بين المؤلفين من الرجال والمؤلفات من النساء. من هذه الـ٥٤ مقارنة، كانت ثلاث مقارنات محايدة، وسبع فضلت النساء المؤلفات و٤٤ فضلت المؤلفين الرجال!

وحيث إن المقالات التى من المفترض أن كاتبيها رجال هى نفسها تلك التى من المفترض أن كاتباتها نساء، فإن تصور أن مقالات الرجال هى الأعظم يعد تشويها. فلأسباب خاصة بهن، كانت الطالبات حساسات لجنس المؤلف وأدى ذلك وعلى الرغم من عدم أهميته، إلى تحيز صارخ، كان التشوه والحساسية التى تسبقه دلالتين على التحيز.

النساء– على الأقل طالبات الجامعة – أبدين تحيزًا ضد النساء المهنيات دون اعتبار لإنجازات هاته المهنيات، كما يرفضن بشدة اعتبارهن مساويات لزملائهن من الرجال.

هل الكيل بمكيالين في الفكر والثقافة، قد مات حقيقة؟ لا.. على الإطلاق. وإذا كانت طالبات الجامعة في هذه الدراسة ممثلات للفئة المتعلمة والتقدمية من المجتمع، فإنه ليس في مرحلة الموت. فمهما يكن الكلام الأجوف لهاته الطالبات عن الأفكار الحديثة للمساواة بين الرجال والنساء، فإن معتقداتهن تقليدية جدًا. إن مدربهن الرئيسي في الصراع بين الجنسين ليس سيمون دي بوفوار أو بتي فريدان.. إن مدربهن هو أرسطو.

النساء خلف قضبان خفية

بريچيد برونى

(١)

نعم، لا أحد يجادل فى أن النساء أحرار، على الأقل يظهرن أحراراً. وحتى يشعرن بالحرية فإنهن يتناسين القيود التى تكبلهن. النساء فى العالم الغربى الصناعى اليوم كالحيوانات.. فى حديقة حيوان مفتوحة، حيث لا توجد أقفاص ولا قضبان. فعمليا لا تزال النساء فى أماكنهن بنفس الحزم الذى تحبس فيه الحيوانات فى أماكنها المغلقة، والحواجز التى تبقيهن فى الداخل أصبحت خفية.

لقد مرت أربعون سنة منذ بدأ رواد الحركة النسائية، فى إثارة الشغب بهز قضبان الأقفاص، أو خلق الإزعاج الظاهر للعيان بتقييد أنفسهن بالسلاسل فى الأقفاص، حتى أجبر المجتمع أخيراً على الاهتمام بالنساء. كانت النتيجة اقتلاع القضبان وفتح الأقفاص، ولكن معظم النساء اللاتى كن سجينات قررن البقاء داخل الأقفاص!!!

وبدقة أكثر، اعتقدن أنهن قررن ذلك، والمجتمع الذى يمكنه بصدق كامل أن يقول "انظروا، لا قضبان" اعتقد أنه يعطيهن الاختيار. لا توجد قوانين ولا تمييز (إلا القليل) تمنع نساء المجتمعات الغربية الصناعية من التصويت، أو الترشيح أو دخول المهن المختلفة. فإذا كان هناك القليلات نسبيا من المحاميات أو المهندسات - ولندع جانباً رئيسات للولايات المتحدة - فما الذى تستنتجه النساء سوى أن ذلك كان نتيجة لاختيارهن الحر أو لشىء ما فى طبيعة الأنثى؟

الكثيرات منهن وصلن لذلك الاستنتاج. لقد عدن مرة أخرى لنفس الجدل الخاص بالمعادين للأنوثة - الكثيرات منهن نساء - في أن النساء غير صالحات بطبيعتهن للحياة خارج الأقفاص. ولكي يجعلن العجلة القديمة تدور دورة كاملة، سقطت النساء ضحايا لخدعة الثقة التي تعد أكبر الخدع عبقرية وغدراً.

في الحقيقة، لا طبيعة الأنثى ولا إرادة النساء الحرة في الاختيار وضعتا موضع الاختبار. فكما اكتشف الزنوج الأمريكان، أنه لكي تكون حُرا رسميا لا يعني بأية درجة أن تكون حُرا فعليا ونفسيا. ففي مجتمع بارع في الدعاية كمجتمعنا - سواء الدعاية السياسية أو التجارية - يجب أن يكون معلوماً له أن الإقناع الذي يعني فن الهجوم بالأساطير والمثبطات الزائفة، هو في قوة تأثيره كقوة القانون. لا شك في أن سبب موافقة المجتمع على إلغاء القوانين المعادية للمرأة هو أنه أصبح واثقا في قيادة كتيبة من المقنعين بالعدول عن ذلك لأداء المهمة على أكمل وجه. قضبان الأقفاص وسيلة خرقاء للتحكم وتثير الشخصيات الأشد تمرداً بالداخل لكي تحاول كسر القضبان. المجتمعات الحديثة، كحديقة الحيوان الحديثة، ابتدعت أن تتخلص من القضبان دون أن تغير حقيقة السجن. كل مصممي حدائق الحيوان ما عليهم سوى عمل منطقة عازلة من الهواء البارد أو الساخن، لا تستطيع أيٌّ من الحيوانات تحملها حول الأقفاص ومكان القضبان التي كانت قائمة، والحيوانات الإنسانية ليست أقل حساسية للمناخ الاجتماعي.

(٢)

النقطة العبقرية الخاصة بالشكل الجديد لحديقة الحيوان هي أنها تخدع كلا الجانبين وراء القضبان الخفية. فالحيوانات لا يمكنها إدراك أنها مسجونة بالفعل، والزائر يرتاح ضميره من الإحساس بالرحمة لعدم الإبقاء على الحيوانات حبيسة حيث يمكنه القول "انظروا، لا توجد قضبان حول الحيوانات كما يقول المجتمع، انظروا، لا توجد قوانين تقيِّد النساء"، حتى وهو يوقف النساء جامدات في أماكنهن تحت ضغط اجتماعي شديد.

هناك على الرغم من ذلك فارق كبير. فالمرأة لكونها حيوانًا مفكرًا، قد تكون أكثر تضررًا من كون أن القفص بدون قضبان حقيقية، فما يريح ضمير المجتمع قد يضر بها، فلأنها لا تستطيع إدراك ما الذى يمسك بها للخلف، فقد تتهم نفسها وجنسها بكامله بالتهيب الجبان لأن النساء لم يقفزن ويمسكن بما ظهر لهن على أنه عرض للحرية.

بالتأكيد أحست كثيرات من النساء بالذنب لأنه فى السنوات القليلة الماضية قامت صناعة كبرى لاستغلال ذلك. بعض الأصوات الخبيثة جعلت الهواء مشحونا وموحيًا بالثقة وهى تشرح أنه لا يوجد ما يخجل فى ألا تسعى المرأة نحو مستقبل وظيفى، وأن الاقتناع بوضعها الذى هى عليه ليس ذنبًا، وأن رعاية البيت والأسرة قد تكون "مشبعة" للنفس وذات قيمة اجتماعية ذات اعتبار.

وهذه المجادلة لا خلل فيها، فيما عدا أنها موجهة للنساء فقط. لو أنها موجهة لكلا الجنسين لأصبحت فى التوّ تقدمية وإنسانية، ولكنها على النحو الذى هى عليه عبارة عن تعصب ضد النساء، فإن الكثيرات من النساء قد يصبحن أسعد حالا فعلا إذا لم يسعين لمستقبل وظيفى أو مغامرات فكرية، وهذا جزء من الحقيقة. أما الحقيقة بكاملها فهى أن الكثير من الناس قد يصبحون كذلك. إذا كان للمجتمع الرؤية الثاقبة لطمأنة الرجال كما يُطمئن النساء بأنه لا يوجد ما يُخجِل فى البقاء بالمنزل دون تنافس ودون عدوانية، ولأمكن تجنب العديد من الأمراض العصبية الرجولية والأمراض المزمنة المميتة الأخرى، ولتمتع الكثيرون من الأطفال بتنشئتهم على يدى أب موهوب فى تلك الوظيفة بدلا من أمٍّ غير موهوبة فيها، ولكنها تشعر بالذنب لافتقارها إلى الطموح اللازم لذلك، ولكن المجتمع لا يفعل شيئًا بهذه المعقولية، فهو بطريقة عمياء يصرُّ على فكرة أن الرجال هم الذين يجب أن يخرجوا للعمل والمغامرة، وهى الفكرة الخرقاء التى تهدد الموهبة. كل المواهب الخاصة بالعمل المنزلى والتى توجد فى عقول الذكور يتم وأدُها، مع أن أعمالنا وحكومتنا مليئة بأناس قدرتهم على العمل تتكون من مجرد كونهم -حسب الاعتقاد السخيف- هم الجنس الصالح لأدائه.

(٣)

الضغوط التى يمارسها المجتمع لدفع الجال خارج المنزل تعد غير رشيدة وغير عادلة، كتلك التى يمارسها للإبقاء على النساء بالمنزل. خطأ الإصلاحيين القدماء كانت فى افتراض أن الرجال قد تحرروا بالفعل، وبالتالى فالإصلاح يتطلب فقط تحرير النساء. ما يجب علينا أن نفعله الآن هو أن نعود للبحث ولطلب تحرير كلا الجنسين. فلأن الرجال هم أنفسهم ليسوا أحرارًا، فقد وجدوا أن من الضرورى خداع النساء بالخدع التى تجعلهن يظهرن أحرارًا بينما هن لسن كذلك...

المناطق العازلة من الهواء الساخن والبارد التى يستخدمها المجتمع للإبقاء على الأوضاع غير الاقتصادية وغير المعقولة للمرأة، هى الأبسط والأكثر تأثيرا. فالمجتمع يلعب على غرورنا الجنسى. فكما أن المناطق الجنسية هى أكثر الأعضاء ضعفًا فى الجسم، فإن الأحاسيس الجنسية هى أكثر مكونات الذات ضعفًا.

إذا قلت لرجل إنه "ليس رجلا حقيقيا" أو قلت لامرأة "إنها ليست امرأة بنسبة مائة فى المائة"، فأنت بذلك تصف كليهما بأنه ليس جذابا للجنس الآخر، ولا يستطيع أى منهما أن يتحمل ألا يكون جذابًا للجنس الآخر. هذا هو المناخ الذى لا يستطيع "الحيوان" الإنسانى أن يتحمله.

وعلى ذلك فالمجتمع يجعلنا جميعا تحت رحمته. ما عليه إلا أن يهمس للرجل أن البقاء بالبيت خاصية أنثوية إلا وتجده يندفع خارج البيت كالطلقة. وما يوحى للمرأة بأن المنطق والعقل هما من خصائص العقل الرجولى بينما "العاطفة" و "الشعور" هما من مزايا الأنثى، حتى تقذف بكتب الفيزياء من النافذة، وتحبس نفسها فى المنزل وتهب نفسها للأحاسيس الشاعرية وهى تنسق الزهور.

هى لن تهتم بأن يقال لها بأن أحاسيسها مائعة. لقد تم إقناعها بأنها لكى تكون لها أحاسيس راقية من ذلك الطراز الذى يوجد فى الشعر العظيم (معظمه من وضع الرجال)، فإن ذلك يجعلها امرأة فائقة الأنوثة، أى أنها لا تقلد الرجال، فى الحقيقة، هى لن

تقلد الرجال عامة، لأن معظم الشعراء لم يكتب سطراً من الشعر الحقيقى، ولأن الشعراء أغلبهم من الرجال، يكون هذا المنطق المعوج مقبولا منها لأن جزءاً من الأساطير التى ابتلعتها يخبرها بطريقة عبقرية أن "المنطق" ليس من مزاياها.

(٤)

لو كانت موهبة امرأة أو ذكاؤها لا يمكن كبحهما بحيث تصر على إنتاج أعمال فنية ذات قيمة، أو كتابة أعمال إبداعية محكمة، سيقال إن لها "عقلا كعقل رجل" هذا فى الواقع أسلوب حالى يترجم إلى ما معناه "عقل جيد".

استخدام هذا الأسلوب يشارك فى تدعيم فكرة أن كل العقول الجيدة "رجولية" لأنها متى ظهرت فى النساء توصف بأنها "كعقل الرجال".

ولأنها تخشى من أن تصبح "بعقل كعقل رجل"، تتشجع النساء لأن يصبح لهن أفكار وأحاسيس ذات طبيعة أنثوية خاصة. فالمجتمع واسع الدهاء بحيث لا يضع اعتماده كاملا على تهديد للنساء بلفحات من الهواء البارد أو الساخن، فأكثر صور خداعه وتهكمه هو القول بأن النساء لهن مشاركات أنثوية خاصة لصنع الحضارة. لكن لسوء الحظ، فلأن الحضارة قد شيدها وبناها الرجال قبل إصدار الدعوة للنساء للمشاركة، فقد كان أقصى ما يمكن أن تفعله النساء هو أقل القليل. فالحضارة تتكون من الأفكار الإبداعية والأعمال الفنية النابعة من الإحساس المرهف والخيال المبتكر. هناك طريق واحد لكى تكون منطقياً، وهو أن تفكر بطريقة صحيحة، ونوع وحيد من الفن يمكن أن يكون مبتكراً وجديداً وهو الفن الجيد. فإذا كانت النساء سوف يجافين المنطق والخيال الفنى فى صالح "العاطفة" و "الشعور"، يصبح من الواضح أن معنى ما يقال عن "العاطفة" ما هو إلا تسمية مهذبة "للتفكير السيئ"، وأن ما يقال عن "الشعور" ما هو إلا اسم ملفق "للفن الردىء".

(٥)

في الحقيقة إن فكرة المشاركة الأنثوية في النشاط الثقافي والفني على وجه الخصوص، تُواجه بالاستخفاف من الجنس الآخر حيث يدعي الرجال أن الثقافة ليست هي الشيء الذي يمكن أن تبرع فيه النساء، حيث إنه مجال يقتصر على الرجال، ولا يمكن أن يتاح لأي "أحد" لا يمتلك الموهبة. وبنفس القياس نجد أن فكرة أن أي "أحد" من أيٍّ من الجنسين يمكنه خلق فنٍّ جيد من مجرد الشعور البسيط الذي لا يهذبه التدريب هي فكرة مادية. فالفنون مجال يبدو أن النساء كن بارعات فيه ولكنهن كن بارعات أكثر من اللازم، أكثر مما يتطلبه الفن. وبدلا من أن تتحلى النساء بالوقار الذي يجب أن يتوافر للفنانين أسأن إلى أنفسهن بالسلوكيات الأنثوية الطائشة. ومن الغريب أن الرجال يعترفون جزئيا بمواهب النساء، لكنهم يرون أنها تعد "ترفيهية"، وأن النساء حين يمارسن الفنون، فمن اللطيف أن ينشغلن بها في أوقات فراغهن، بعد أن يخرج الرجال من البيت ليتعاملوا مع أعمال المجتمع "الجادة".

أعتقد في هذا المجال "الجاد"، أن من الصعب أن تصادف امرأة. إن الرجل الذي يحكم عليه بالسجن، ربما يحس بأن عقوبته قد تضاعفت نتيجة للامتهان الذي يحسه إذا حكمت عليه امرأة قاضية بقانون صاغته مشرعة أنثى، ويلازمه نفس الشعور إذا حدث عند دخوله أن فحصته طبيبة السجن. أما إذا حدث مثل هذا كل يوم، فلن يكون امتهانا، وإنما يكون هو المسار الطبيعي للأحداث. ولم يحدث أبداً أن يكون ذلك مساراً طبيعيا للأحداث، ولن يحدث، طالما المرأة مقتنعة بأن ذلك ليس طبيعيا بالنسبة إليها.

(٦)

لقد أفلح المجتمع بامتياز في إرهاب النساء بذلك التهديد بأن بعض السلوكيات ليست طبيعية وغير مناسبة وغير نسائية، بحيث لم يُتح لهن وقت للتفكير، أو لمجرد ملاحظة ما هي الطبيعة النسائية.

لقرون عديدة تم قبول الشعوذة باعتبارها قوانين طبيعية. الحقائق الفسيولوجية فى أن النساء فقط يفرزن اللبن لإرضاع الصغار تم توسيعها إلى الأسطورة الخالصة بأن عمل النساء هو إعداد الطعام وخدمة تقديمه للعائلة بكاملها. أصبح المطبخ هو مكان المرأة "الطبيعى"، لأنه خلال الأشهر القليلة من حياة طفلها كان مكان إرضاع الطفل هو مكان وجودها طول النهار. حتى يومنا هذا، قد تشك المرأة فى أنها ليست على درجة من الأنوثة إذا اكتشفت فى نفسها عدم القدرة على أن تحب الطهو. قذف بها الخوف إلى تلك الحالة من الارتبـاك لدرجة أنها تخلط بين ألا يكون لديها تفضيل للطهو وأن لا يكون لديها ثديان، وبالعكس تفترض أن الطبيعة أفاءت على أنثى الإنسان بقدرات خاصة على التعامل مع أوانى الطهو.

حتى التحليل النفسى الذى يعد عمومًا الملهم الأعظم للحضارة منذ اختراع العجلة، قام بتأييد حملة الإرهاب.

فى الإحصائيات المجردة يتم اعتبار كل رائدة أو عبقرية أو مُصلحة اجتماعية بما فى ذلك أول امـرأة طلبت أن تخـرج من المطبخ إلى صناديق الاقتـراع، أنهـا شـاذة وتضـاف إلى سجل المجنونات وغريبات الأطوار. إن ما يميز العبقرى عن المجنون هو أن شذوذ العبقرى يمكن تبريره بتفوق العقل أو الإبداع. أما إذا قامت امرأة أنهكها الحبس فى المطبخ، بالنظر حولها لمعرفة ماذا تفعل النسـاء الأخريات، ووجدت أنهن يقبلن العمل بالمطبخ برضاء تام، فقد نستنتج أنها شاذة وأن من الأفضل لها أن تطلب المساعدة من المحلل النفسى لتعتاد "الحياة" فى المطبخ! ما يجب عليها أن تطلبه هو أن تعرف ما إذا كان من الرشد للنساء أن يحبسن فى المطبخ، وما إذا كانت الطبيعة تصر فعلا على ذلك بنفس إصرارها على أن يكون للنساء أثداء. وبمفهوم أبعد قليلا، فإنها عندمـا تسـأل هـذا السؤال هل تكون طبيعيـة وراشدة؟ عن أن تتعلم أن "تعيش" مع الإعاقة الخاصة بوضع المرأة الاجتماعى المتدنى. الأمر الطبيعى والعادى للبشر هو عدم تحمل الإعاقات، بل إصلاح المجتمع، وخداع الطبيعة أو إكمالها. نحن لم نتعلم أن نعيش بأعضاء ناقصة كالساق أو اليد، فقد اخترعنا ساقًا صناعية ويدًا صناعية.

(٧)

هذا فى الحقيقة هو صلب الموضوع، ليس فقط التمييز الذى رسمناه بين طبيعة الذكر وطبيعة الأنثى بطريقة عرفية وبشعوذة خالصة، فذلك خارج الموضوع تماما لأنهما يهملان جوهر الطبيعة الإنسانية.

السؤال المهم ليس هو أن النساء فى ذكاء الرجال أم لسن فى ذكاء الرجال؟ ولكن هو: هل بقدور التعليم وجهود إلغاء الضغوط الاجتماعية غير المنطقية أن تحسن من طبيعتنا وتجعلنا مساويات للرجال فى الذكاء والمواهب؟

ما يميز الإنسان عن أى حيوان آخر فى طبيعته هى القدرة على ألا يكون طبيعيا. إن الثقافة والفن ليسا أنشطة غريزية، ولكن طبيعتنا تشتمل على القدرة على اكتسابهما. ليس طبيعيا للجسم البشرى أن يدور حول الأرض، ولكن العقل البشرى له قدرة استكشافية جعلت بمقدوره اختراع الآلات التى تجعل الجسم يفعل ذلك. لا يوجد فى الحقيقة مخلوق يعتبر إنسانا "طبيعيا"، فمهما ذهبوا إلى الماضى البعيد، لن يستطيع علماء الحفريات أن يجدوا رجلاً برِّيا فى بيئته الطبيعية. ففى أشد صوره البدائية، كان قد بنى لنفسه بيئة مختلفة، صنعها بنفسه وزيّنها ليس بطريقة غريزية ثابتة، كما تبنى الطيور أعشاشها، وإنما بطريقة فردية – أى شاذة – سواء بأعمال فنية أو بالاستعانة بالسحر. وليفعل ذلك، لم تكفه الأصابع التى وهبتها له الطبيعة، بل توسَّع فى تطويعها بصنع الأدوات.

المدنية تتكون ليس بالضرورة أن يكون بتحدى الطبيعة، وإنما بجعلنا قادرين على ذلك إذا أيقنَّا أنه أمر مرغوب فيه. وكلما ارتفعنا بأنوفنا أكثر عن أحجار الطبيعة، اتسعت المساحة التى بمقدورنا اختيارها، وزادت اختياراتنا التى نقوم بها بحرية، وزادت فرديتنا التى نحن عليها. نحن نكون عند أعلى مدنيتنا عندما لا تملى الطبيعة علينا ما نفعله وما لا نفعله كما تملى على الحيوانات، ولكن عندما نستطيع أن نجعلها ملائمة لحياتنا ونطورها للأفضل. إذا كانت المدنية الحديثة قد اخترعت طرقًا للتعليم تجعل من الممكن للرجال إطعام الأطفال، وتجعل النساء يفكرن بطريقة منطقية، فإننا نخون المدنية نفسها إذا لم نطلق كلا الجنسين أحرارًا ليقوموا بالاختيار.

الاغتصاب

دايان جونسون

(١)

لا يوجد موضوع تختلف فيه نظرة الرجال عن نظرة النساء مثل موضوع الاغتصاب، فالنساء تصبن بالهلع وتشمئززن منه لدرجة لا يدركها الرجال، وهذه هى الشكوى الأساسية والنهائية للنساء من الرجال. بالطبع يعرف الرجال أنه من الخطأ استخدام القوة البدنية ضد إنسان آخر، وأن القوانين المتعلقة بالاغتصاب لا تطبق بعدالة... إلى غير ذلك، ولكن عند نقطة معينة من الأرجح أن يقولوا «ولكن ما الذى كانت تفعله هناك فى تلك الساعة على أية حال، إنها تتحمل جزءًا من الذنب».

تحس النساء – وبالتأكيد أنهن لهنّ أن يحسسن بذلك – أن مؤسسة الاغتصاب تحميها وبغرابة ترسانة من الفولكلور – قصص الكتاب المقدس، والسوابق القانونية، والنظريات النفسية المزخرفة، وأكثر من ذلك أنها يحميها الاعتقاد الذكورى عميق الجذور فى أن النساء يُردن أن يغتصبن – وهو ما تصر النساء على نفيه، بعد اختيار دوافعهن بطريقة واعية – أو أنهن يستحققن الاغتصاب نتيجة الخروج على العادات التى تحكم طريقة ارتداء الملابس أو السلوك المهذب، وهى فرضية غريبة لا تسلم بها المرأة.

فبينما تتخيل معظم النساء أنهن ضحايا للاغتصاب، يعرف معظم الرجال أنهم ليسوا بمغتصبين. وبالتالى فالحالات التى تثير ثورة واشمئزاز الرجال بصورة شخصية هى إذا ما حدثت لنسائهم، وبخلاف ذلك لا تثير لديهم الاهتمام الداخلى للجدل.

(٢)

ظل الاغتصاب أمراً يثير اهتمام النساء بشدة، حتى لو كن لا يفكرن فيه كثيراً، فمعظمهن أدخلن إلى حياتهن احتياطات روتينية تتفق مع الحدود التى رسمتها الثقافة العامة. فمنذ الأيام الأولى للمرأة، يتم تحذيرها ضد الأغراب ومن الشوارع المظلمة والأماكن المغلقة، والمرافقين والسلوك المستفز. وهى تستوعب الدروس، وتدرك أن كسر قواعد السلوك يعنى تعرضها للاغتصاب، وعلى الرغم من أن مخاوفها قد لا تكون كلها واقعية، فإنها على الأقل تكون كافية فى أعماقها وتنشط باستمرار بالعديد من الحوادث التقليدية التى تقرأها فى الصحف اليومية. ولاختبار ذلك، اسأل أى امرأة ماذا تعرف عن ريتشارد سبك، سفاح بوسطون، وعن "ما حدث فى شارع كذا فى الأسبوع الماضى"، وسوف تجد أنها تحفظ العديد من حوادث الاغتصاب حفظاً جيدا.

يبدو أنه من المهم عند محاولة تقدير قيمة أو خطورة مقال سوزان براونميلر عن الاغتصاب، أن نفهم أن هناك فى الحقيقة نوعين من المشاهدين، نوع يعرف الكثير مما تحكيه بالفعل، ونوع آخر غير مهيأ سواء بالتدريب أو التعاطف لفهم ذلك على الإطلاق. وربما كان ذلك هو السبب فى عدم تساوى لهجة الحديث الذى يتأرجح من الاستياء إلى مجرد استخدام الإحصائيات بأسلوب المناظرات العلنية. ليس من المستغرب إذن أن تلجأ النساء فى السنوات القليلة الماضية إلى توجيه شكاواهم من الاغتصاب لبعضهن البعض، وليس للرجال، ويستنتج المرء أن الموضوع لا يزال يُعتقد أنه يهم النساء فقط. يبقى أن نرى ما هى الإستراتيجيات التى تثبت جدواها فى إثارة اهتمام الرجال.

(٣)

معظم ما تظنه المرأة هو أن الاغتصاب عدوانى وشرس، ويهدف إلى الوصول بها إلى الاستسلام الكامل، وإنه التعبير شديد التطرف للسلوك الذكورى ضد المرأة. هذا ما تظنه كل النساء، حتى النساء اللاتى لم يتعرضن للاغتصاب، وإنما يقبلن منطق أن هذا هو الحال الخاص بالذكور.

أما النساء اللاتى تعرضن للاغتصاب فعلاً (أكثر من مائتين وخمس وخمسين ألف حالة كل عام)، فمتأكدات من ذلك، بعدما شاهدن عدم اكتراث ولامبالاة رجال الشرطة والأطباء والقضاة والمحلفين وحتى أعضاء أسرهن. إن المغتصبين من الرجال الذين قاموا باغتصاب عدد من النساء قد أشاعوا الرعب فى قلوب كل النساء.

ما تبقى للشرح ولم تناقشه براونميلر أو چين ماكيلر فى كتاب صدر حديثًا عن الاغتصاب بعنوان "الاغتصاب : الطُّعم والفخ"، هو ما الذى تدور حوله دراما جريمة الاغتصاب والعقوبة التى توقع على مرتكبها بالضبط؟ كلا الكتابين يشيران إلى تصادم القوة المتجمعة من الغضب الأنثوى مع ما قد يؤدى إليه من تغير فى الإجراءات القانونية والبوليسية، وربما فى السلوك المعتاد للمجتمع تجاه هذه القضية. مع زيادة القلق الخاص بالموضوع، والذى يتضح فى المشاهد الإجبارية للاغتصاب فى الأفلام الحالية، والكتب الرائجة تجاريا. ربما كان الغضب الأنثوى مؤديًا إلى زيادة جرائم الاغتصاب، لأن كل ما هو حادث بالنسبة إلى هذه العدوانية التاريخية هو أن المغتصب يصبح بعد ارتكابه لجريمته لا يجد فى نصوص القانون رادعًا قويا يمنعه من تكرار الجريمة وظهره للحائط. وليس من العسف القول بأن كتاب براونميلر محبط بشدة، وغير مشجع بالمرة، فهو تأريخ لفشل القوانين والأساليب الشرعية والعلوم الاجتماعية فى تحسين المجتمع، على الأقل كما يُنظر إليه من منظور نسائى، كما أنه تأريخ لفشل العلوم الاجتماعية فى تفسير الغموض الخاص بالعدوانية الذكورية تجاه من هن أضعف منهم. هذا الفشل يوضح عجز المؤسسات الإنسانية عن مواجهة الأساطير غير الحقيقية، والتى تعد قدرتها على أن تعكس بل تحدد السلوك الإنسانى أمرًا خفيا.

(٤)

ويعد كتاب براونميلر محبطًا. من ناحية أخرى لأن ما ورد به من أساطير وقصص مرعبة كانت مقبضة بدرجة كبيرة وكأن ذلك هو الهدف منها. ففى جزء منه توجد كل قصص الاغتصاب التى يسمعها المرء، وهى قصص مخيفة ومثيرة، وكأن الناشر قد تعمد بها أن يكون الكتاب مثيراً. لقد وقعت براونميلر فى فخ تقليد أسلوب كُتاب الإثارة

فجاء أسلوبها مجافيا للأدب نفسه، بحيث لم يحقق كتابها على اعتباراتها الخاصة. والأمثلة المأخوذة من حكاية "ذات الرداء الأحمر" إلى قصة "كيتى جينوفيز" إلى مشهد الترلالا فى قصة "المخرج الأخير إلى بروكلين" لا بد من أنها بدرجة ما تتصل بالطبيعة المثيرة لأسلوب الكاتبة. وقد ينتقد الكتاب على أساس منهجه المثير والعاطفى، لكن ذلك لا يعنى اعتباره عملاً غير مؤثر ولا يتبع أسلوب التحليل العقلى. فلان الاغتصاب موضوع مهم له طبيعة حسية شهوانية، فمن المؤسف أن الكتاب ليس نموذجًا فى تناول حالات الاغتصاب وأسبابها ونتائجها المعنوية على ضحاياها، كما يفتقر إلى المنهج العلمى، إلا أنه كان كتابا مطلوبا فى الموضـوع فى هذا الوقت بالذات، وربما نجح فى كشف ما فشل فيه التكتم من إضفاء الشرعية على شكاوى النساء من عدوان الرجل.

معظم الكتاب ينصب على محاولة البحث فى التـاريخ عن أسباب الاغتصاب، ولكن البحث هنا غير ذى جدوى لأنه على الرغم من أن التاريخ يوفر الدليل، فإنه لا يقدم التفسير الكافى لكى يتعرف المرء على أن الاغتصاب كان معنا منذ الأزمان الأولى، وأنه كان متصلاً بالسياسات العسكرية، وبأفكار الملكية والاستحواذ. (اغتصاب زوجة رجل ما كان غالبًا ما يتم اعتباره سرقة). فى المعارك القبلية والإشكاليات المعقدة للنظام الاجتماعى للطبقات والقبائل، (سادة وعبيد، رعاة بقر وهنود)، والصراعات داخل الجنس الواحد على السلطة والسيادة كاغتصاب صغار السن أو الضعفاء من الرجال بواسطة عصابات من الرجال الأقوى، أو كما فى السجون وفى العائلات بواسطة الأقارب الذكور لصغار الفتيات والأطفال. لا يتفق أى من هذه الأطر مع الآخر بصورة كاملة، ولكن بالنظر إليها ككل فإنها تعطى دلالة على الاستسلام لقانون طبيعى، والذى تشتق منه الثوابت المفترضة للطبيعة الإنسانية بما فى ذلك الاغتصاب. التشابه بين العدوان على نساء القبائل المهزومة فى بنجلاديش ونساء الهنود الحمر فى أمريكا أو الرجال فى السجون يتضح فى أنه ينبع من الصراع على السلطة والزعامة. فى الحروب بين مجموعات الرجال تكون النساء ضحايا عرضية وغنائم، ولكن فى مؤخرة السيارة ينجم الصراع بين رجل وامرأة على ما يخصها هى. لقد غرست

ثقافتنا بعمق فى كلا الجنسين فكرة أن الرجل هو الذى يتغلب. وهذا ما يؤكد أنه عادة ما يفعل ذلك، ولكن السؤال الرئيسى لماذا يظل التفوق الذكورى أمرًا حتميا يبقى بلا إجابة، وربما لا يتم توجيهه على الإطلاق كسؤال. فى نفس الوقت، درس التاريخ يبدو أنه يُعلى من حقوق الذكر، لتوفير الطاعة وإنزال العقاب كقانون غير قابل للتغيير.

(٥)

علم الأجناس القديمة (الأنثروبولوجى) يعضد ذلك أيضا، على الرغم من محاولات براونميلر أن تبحث عن بدائية (قبيلة الأرابش الخالية تمامًا من الاغتصاب) لإثبات العكس. فقد وجدت أن أصل الزواج بواحدة فقط يكمن فى خوف الأنثى من التعرض للاغتصاب، وبالتالى فهى مستعدة للارتباط بذكر معين لتصبح ملكيته الخاصة. فإذا كان الأمر كذلك، فتلك هى الحالة الوحيدة التى نجحت فيها الأنثى فى إملاء نظام اجتماعى معين على أية حال، توجد نظرية بديلة أفضل لأصل ونشوء الأسرة، وهى أنها نشأت لإنجاب الأطفال وحمايتهم.

إن تعميم برانميلر يعرض كتابها لخطر الانتقاص من أهليته، وبالتالى إهدار الموضوع نفسه. فإذا سلمنا بأنه توجد قبيلة بدائية قابلة لأن تكون نموذجًا اجتماعيا، مهما كان هذا النموذج، فإن المرء يود أن يعرف كل الأدلة الأنثروبولوجية عن الاغتصاب. فإذا كان الاغتصاب هو الأسلوب البدائى الشائع، وإذا كانت النساء كما يقول ليفى شتراوس هن أول ما استعمل فى المقايضة كبديل للنقود، وإذا ما كان الذكور فى الطبيعة يجرون كالمجانين بحثًا عن أنثى شاردة لاغتصابها – على خلاف الشمبانزى التى قيل إنها لا تفعل ذلك – فهل يكون الاغتصاب شذوذا؟ أم كان مجرد أمرًا كريهًا.

من الواضح أنه مهما كانت حقائق طبيعتنا، فإن ثقافتنا هى التى تقود النساء بدرجة ما للتعاون فى عملية اغتصابهن، وهو الجانب من الأمر الذى يصر عليه الرجال

متحللين بذلك من المسئولية. ربما كان ذلك موجوداً في الافتراضات المتعلقة بسلطة الذكور التي يرثونها، ولكن كل امرأة ترث أيضا الافتراضات الخاصة باستسلام الأنثى. حتى في أبسط قصص الحوريات، لا يحتاج المحتوى الجنسي للعقاب إلى إيضاح. فكل امرأة تعرف ما الذي حدث "لذات الرداء الأحمر" في الغابة، وللجدة أيضا في هذا الخصوص. معظم النساء لا يذهبن للغابة بمفردهن ولكن النقطة الرئيسية هي أن التحذير كما هو وارد في معظم القصص ليس هو "لا تذهبي وحدك إلى الغابة وإلا تعرضت للاغتصاب" ولكن "أطيعيني ولا تذهبي للغابة وحدك، فقد تغتصبين".

وعلى ذلك فإن فكرة العقاب الجنسي لعدم الطاعة يتم تعلمها مبكراً جدا ويتم قبولها. فعندما قال عطيل "من الذي فعل بك ذلك يا ديدمونة؟" ردت قائلة "لا أحد، أنا فعلته بنفسي، الوداع ". قالت ديدمونة ذلك بوداعة وهي تموت". كما أن كل فرد يقر أن كارمن "نالت ما تستحق"، وأن انتحار لوكريس كان نبيلاً، وكذلك انتحار آنا كارنينا أيضا. وبالتالي فإذا ما اغتصبت امرأة، فإنها تشعر بالإضافة إلى الثورة العارمة بالذنب العميق وبالحاجة لمعرفة ما الخطأ الذي فعلته ليحدث لها ذلك، حتى لو كان ذنبها مجرد الغفلة. على سبيل المثال قيل لمواطني بالو ألتو منذ أيام قلائل أنه "أحيانا ما تغتصب النساء نتيجة لعدم توخي الحذر".

إذا استطاعت المرأة إقناع المحلفين بأنها لم تكن مهملة أو مثيرة لدرجة الإغواء، فقد يحكم على من هاجمها بأنه مذنب ويتم تبرئتها من الذنب، ولكن غالبًا ما يوجد في محاكمات الاغتصاب شيء في سلوكها يعد مسئولا عن ما حدث لها، ومهما كانت ملابسات حادث الاغتصاب فإن السلوك الاجتماعي والإجراءات القانونية المطبقة حاليا يجعلان الضحية مذنبة ومسئولة عن اغتصابها. حتى أشد الضحايا براءة تقول لها أمها : "لقد قلت لك ألا تعــودي للبيـت بمفردك" ويصبح هذا سلوك المجتمـع بكامله، ففي بنجلاديش يتم عقاب الآلاف من الزوجات المغتصبات بواسطة أزواجهن.

(٦)

الضحية التعسة للاغتصاب تكون بدرجة ما أسوأ حالا كلما كانت أكثر "أنوثة" وأنجح اجتماعيا، حيث إنها تكون أكثر التزاماً بالضوابط الاجتماعية الطبيعية وتتعامل بدرجة من الرقة والتهذيب، ولا يوصف سلوكها بالخشونة أو تصخب أو تضرب. ولكنها حين يتم اغتصابها والقبض على مهاجمها، فسوف ينظر المحلفون إلى الصراع والمقاومة والاستماتة التى أبدتها فى الدفاع عن نفسها بعين الاعتبار، (على الرغم من أنه لا ينتظر منها مقاومة رجل مسلح)، وعدم المقاومة فى نظر المحلفين معناه أنها كانت تريد أن تغتصب!، فى قاعة المحاكمة يتظاهر الرجال بعدم فهم المدى الذى تمنع فيه المحاذير الاجتماعية المرأة من مقاومة قوة الذكر، حتى ولو كانت القوة النفسية، رغم أنهم يفهمون ذلك جيدا عندما يتحرشون بالنساء فى مواقف السيارات والأماكن المزدحمة!

فى عالمنا الواقعى، من المغتصِب ومن المغتصَب؟ وما الذى يجب عمله؟ هنا تبدو معالجة براونميلر شديدة الإثارة والإرباك. فكل من براونميلر وماكيلر متفقتان فى النواحى الإحصائية: ضحية الاغتصاب من الأرجح أن تكون فتاة مراهقة سوداء، ولكنها قد تكون أيضا امرأة من أية فئة عمرية، وأنها تعرف مهاجمها بدرجة ما فى حوالى نصف حالات الاغتصاب. المغتصب هو من نفس نوع الأفراد الذين يتميزون بالعنف الإجرامى، فهو صغير السن، غير متعلم، عاطل، زنجى، أسود على الأرجح، أو من أية فئة محرومة أخرى. فالمغتصب ليس الابن الوحيد الخجول الذى يعيش مع والدته، والذى يكون ضحية تسلطها النفسى عليه، فحوالى ٢٥٪ من حالات الاغتصاب تتم بواسطة عصابات من أفراد عدة أو من اثنين معاً.

والطبيعة الاجتماعية للمغتصبين لها بعض الجوانب السياسية الصعبة كما يتضح ذلك من حذر براونميلر عند تناولها لهذه الجوانب. فقد تتبعت التاريخ المعقد للتحررية الأمريكية، والعنصرية الجنوبية التى أوصلتنا إلى المأزق الحالى والذى يعترض فيه من حاربوا من أجل حرية البشر على منح الحرية للنساء. فتاريخيا - كما تذكرنا بذلك منشورات اليسار القديم والحزب الشيوعى على وجه الخصوص - هم يميلون إلى اعتبار

أن الاغتصاب هو "فعل من أفعال القهر السياسي عندما تكون الضحية من السود والمغتصب من البيض". أما اغتصاب البيض للبيض فهو مجرد "إجرام" وليس له توصيف في مدفعيتهم الماركسية، واغتصاب السود للسود غالبًا ما يتم إهماله والتغاضي عنه. أما اغتصاب السود للبيض، والذى كانت الأمة بأسرها تنظر له بعصبية شديدة فقد نوقش في مدرسة جيفرسون كما لو أنه لا يحدث أبدًا، وما لم يكن تهمة ملفقة تستخدمها "السلطة" لإدانة رجل أسود يراد الزج به في السجن تحت أى سبب.

في نفس الوقت، تغيرت الظروف، فتعصب الجموع مثل المحكمة، يتبين لها لاحقًا أنها تعرف نصف الحقيقة أو القليل منها، وأن من المسلم به أن الرجل الأسود قد اعتاد على الاغتصاب. والآن فإن "واقعة الاغتصاب الفعلية عند ارتباطها بالرجل الأسود كمغتصب، أو التي يشارك فيها مع آخرين، يجب فهمها على أنها موجهة ضد حرية وحركة وإلهامات كل النساء، بيضا وسودًا. إنها في العادة تكون مفترق طريق للعنصرية والتعصب وكراهية السود، وسببًا لتأجيج الازدراء والاحتقار والعنف ضد الرجال السود ولا فائدة من الادعاء بغير ذلك.

(٧)

في مفترق الطريق هذا تظهر المشكلة أكثر تعقيدا وغير قابلة للحل، فالمشكلة ليست في لون المغتصب.. أبيض أم أسود، ولكن في أناس يتخفون في لباس أصحاب الفكر الصحيح، مثل جماعة أ. س. ل. ى. وغيرها، المتصلة بحركات الحرية المدنية لا يزالون مقتنعين بأن حماية حقوق الرجال السود تعد أكثر أهمية من اغتصاب النساء، سواء كن بيضا أم سودًا. الرجال السود والنساء البيض هم في الحقيقة متحفزون ضد بعضهم البعض بصورة تعوق تقدم كلا المجموعتين نحو حالة التعايش وعلى الأخص إنها تخفى ما يقع على النسوة السود من ظلم، فقد أوضحت الدراسات أن السود يرتكبون ما يصل إلى تسعين في المائة من جرائم الاغتصاب وأن ضحاياهم من

ثمانين إلى تسعين فى المائة، هم نسوة وبنات سود، ويجب عليهن أن يتحملن من رجال من نفس جنسهم ما كن يتحملنه من الرجال البيض. البنت السوداء من عمر العاشرة إلى الخامسة عشرة يزيد احتمال أن تصبح ضحية لهذه الجريمة اثنتى عشرة مرة عن قريناتها من البنات البيض.

(٨)

فى هذا الوضع من الذى سيكسب فى النهاية : العنصرية الجنسية أم العنصرية العرقية؟ وأيهما يعد الخصمٍ الطبيعى؟ من الأرجح وفقا للدليل المتوافر، أن العنصرية الجنسية هى التى سوف تنتصر لأنها الأقدم.

أما كتاب ماكيلر، وهو كتاب مختصر عن الإغتصاب ويمكن استخدامه بواسطة المحلفين أو المحامين، فيعطى صورة للجريمة وللمغتصب تماثل تماماً تلك الصورة التى توضحها براونميلر. ولكن نصائح ماكيلر عند مقارنتها بتلك الخاصة ببراونميلر تبدو مثقلة بالتفاؤل الاجتماعى الساذج. فما الذى تستطيع النساء فعله لتجنب الاغتصاب؟، بالطبع يمكنهن تجنب الإشارة للسيارات طلبا لتوصيلة، ويمكنهن أن يصبحن فى أمان فى الفراش. تقول ماكيلر: "من الطبيعى أن النساء يكن أكثر تحرراً وأقل حياءً مع رجالهن فى الفراش، فالإحساس بالحرمان الذى يحسه الزوج والذى ينجم عن الاحتشام الزائد يمكن أن يقل كثيرا" فالتمنع والحياء الزائد الذى يؤدى إلى عدم الإشباع قد يدفع الرجال لأن يقوموا بعمليات الاغتصاب، والسلطات لأن تطاردهم. والكثيرون من صغار السن الذين اعوجَّ سلوكهم نتيجة حياة أسرية فاسدة، لا يزال بالإمكان تقويمهم إلى حياة صالحة إذا ما عولجوا فى الوقت المناسب". والتعليم فقط هو الذى يساعد على التقليل من جرائم الاغتصاب.

ربما. ولكن هل يوجد أى دليل يشير إلى أن أيا من ذلك يمكن أن يساعد على تراجع معدلات الاغتصاب بالفعل؟ لم تجد براونميلر أى دليل، ولكنى أفترض أنها ستوافق ماكيلر أنه بالنسبة إلى ثقافة العنف الأمريكية لا بد من تطبيق العلاجات

التقليدية بمساعدة هؤلاء الناس اقتصاديا واجتماعيا، ومساواتهم فى فرص التعليم والتوظف والمسكن المناسب، وتغيير القيم الأساسية للمجتمع الأمريكى.

فطالما ظل السلوك العدوانى هو النمط الشائع، فمن المتوقع أن الأفراد الذين يشعرون بالظلم والتفرقة سوف يرتكبون هذه الأخطاء، وأن الأعضاء الأضعف فى المجتمع سوف يكونوا هم الضحايا.

(٩)

إلى أن يتحقق تراجع ملموس فى السلوك العدوانى فإن هناك بعض المعايير الإصلاحية التى تم اقتراحها بواسطة كل من ماكيلر وبراونميلر، فهما تحبذان محاكمة المغتصبين وعقابهم. ولكن براونميلر ترى أن العقاب يجب أن يناسب الجريمة، وأنه يجب أن يتلاءم مع هذا التهجم الخطير، وترى ماكيلر أن العقوبة يجب أن تناسب المجرم: "فالرجل الأسود الذى عمره تسعة عشر عامًا وعاطل ولم يكمل تعليمه، وليس له أب، والذى طردته آمه الملتزمة من المنزل لا يجب أن يحاكم بنفس المعايير أو يحكم عليه بنفس الحكم الذى يحكم به على رجل أبيض فى منتصف العمر يبيع السيارات المستعملة، وتزوج مرتين واغتصب بنتا التقطها من الطريق وهى تشير له لتركب معه "أوتوستوب".

إن ماكيلر لا تقول من الذى يجب أن تكون عقوبته أشد، لكن كلتيهما تتفق على ضرورة إلغاء متطلبات التعزيز واستجوابات قاعة المحكمة فيما يختص بالتاريخ الجنسى السابق للضحية وهو ما توافق عليه أيضا إدارة تطبيق القانون. حاليا، تصر وجهات النظر العامة على أنه سواء كانت الفتاة المغتصبة عذراء أم لا فلا علاقة لذلك بما كانت الممارسة الجنسية قد حدثت فى إحدى المرات بالقوة. لأن ذلك يعكس الفكرة القديمة فى انتفاء مسئولية الذكر عند التشكك فى عفة وطهارة الأنثى المغتصبة، ويعنى أن تخسر المرأة حقها فى القصاص من مغتصبها.

(١٠)

أوضحت إحدى الدراسات أن مكاتب الادعاء بصفة عامة لا تفعل الكثير للحث على مراجعة القوانين التى عفا عليها الزمن، وأن النظام القضائى يمنع فى الحقيقة أى إصلاح. وتقول الدراسة "حيث إن المغتصبين ليس لهم جمعيات تدافع عنهم، فإن المعارضة الرئيسية لإصلاح القوانين من المتوقع أن تأتى من المدافعين، أى هيئات الدفاع بصورة عامة، ومن مجموعات مثل الاتحاد الأمريكى للحريات الاجتماعية والتى تعد راعية لحقوق المتهمين فى الجرائم".

الاستنتاج الذى لابد أن يصل إليه المرء هو أن ما يجب اتخاذه من إجراءات بشأن الاغتصاب يجب أن تقوم به النساء بالدرجة الأولى.

وتقترح براونميلر أن هيئة المحلفين فى جرائم الاغتصاب يجب أن تضم بين أعضائها خمسين فى المائة من النساء. حيث إن ما يعد أمراً ذا مغزى أنه بينما يقرر الرجال الذين يطبقون الإجراءات القانونية أن خمسة عشر إلى عشرين فى المائة من قضايا الاغتصاب "ليس لها أساس". فى حين تجد الباحثات من النساء أن اثنتين فى المائة فقط من الشكاوى هى التى بلا أساس، وهى تقريباً نفس النسبة للشكاوى الكيدية لجرائم العنف الأخرى. من الواضح أن هدف اشتراك النساء والرجال فى إجراءات تطبيق القانون تكتنفه صعوبات، فالشرطيات بمدينة واشنطون اشتكين حديثاً من أن رفاقهن الذكور فى سيارات الدورية يحاولون إجبارهن على ممارسة الجنس معهم. وحيث إن الشرطيات مسلحات بالمسدسات، فربما كان هذا سبباً مانعاً لتصاعد محاولات التحرش الجنسى بين أفراد الشرطة الذكور والإناث.

(١١)

تحبذ ماكيلر نوعاً من التدرج فى العقوبة كما فى حالة القتل، بحيث إن الاغتصاب بواسطة رجل غريب عن الضحية يمثل اغتصاباً من الدرجة الأولى، بينما الاغتصاب من الدرجة الثالثة فيأخذ فى الاعتبار الحالات التى قد تكون فيها الضحية مشتركة فى

المسئولية الخاصة بتدبير الموقف الذى أدى إلى حدوث الاغتصاب - على سبيل المثال، بأن تشير للسيارات طلبا لتوصيله. هذه الوضعية قد لا تحظى بموافقة مجموعات تحرير النساء التى تشعر بأن المرأة لا تعد مسئولة عن الاغتصاب تحت هذه الظروف بدرجة أكبر من مسئولية رجل يتعرض للإيذاء إذا كان فى نفس هذا الموقف.

من الأرجح ألا تؤخذ نظرية العقاب بالتدرج فى الاعتبار عند نظر قضايا الاغتصاب نتيجة الضغوط التى تمارسها الجمعيات النسائية، المعارضون يرون أن اعتراضهم ينصب على صعوبة بل استحالة تحديد مسئولية الأنثى التى تتعرض للاغتصاب، وهذا صحيح إلى حد كبير.

وعلى ذلك فإذا استمر الرجال فى الاعتقاد أن للرجل الحق فى صياغة القوانين التى تعفيه من العقوبة، أو توقع به عقوبة مخففة وغير رادعة، تقترح براونميلر أسلوبين قد يؤديان إلى تثبيط دوافع الذكور لارتكاب جرائم الاغتصاب.

الأول : هو التحكم والرقابة على التصوير الإباحى والذى ترى براونميلر أنه الوسيلة التى تساعد على انتشار الاغتصاب. ورغم الاعتراض على الرقابة، ورغم غياب الدليل على أن التصوير الإباحى والعنف مرتبطان بالاغتصاب، فإن الجدل الذى تقدمه براونميلر يعد أمرا جديًا. أما الأسلوب **الثانى** فهو أن النساء يجب أن يتعلمن الدفاع عن أنفسهن ليكتسبن بعض الثقة فى إمكانية الدفاع عن أجسادهن حين يتعرضن للاغتصاب. ولكن من الممكن أن ذلك قد يأتى بنتيجة غير مرغوبة، إذ تجعل الأنثى تتحمل بعض المسئولية فى حالة تعرضها للاغتصاب. فإذا تعلمت الأنثى "الكاراتيه" وتم اغتصابها، فإن السؤال سيصبح: "لماذا لم تتعلمه بصورة أفضل؟".

(١٢)

من المؤكد أن الحضارة يتم تعريفها بأنها الوضع الذى ينأى فيه القوى عن ممارسة تفوقه على الضعيف. إذا أمكن إقناع الرجال بأن ترويض القوة الجنسية الجامحة يعد أمراً ضروريا لصنع الحضارة على المدى البعيد، فربما أمكنهم أن

يتعاونوا فى تطبيق المعايير التى تثبت فائدتها على المدى القصير. إن الأثر العام لناشطات الحركات النسائية فيما يتعلق بجرائم الاغتصاب يجب أن يكون أكثر فعالية ومؤثرًا بدرجة أكبر.

إن تعاون سلطات الدولة وخاصة فى حالة اغتصاب السود للبيض، يرتكز على نظراتهم لواقعة الاغتصاب على أنه تحدٍ لسلطة الرجل الأبيض (كما هو الحال فى الجنوب). قد يُنتج ذلك بالتبعية تحالفًا بين رجال الشرطة والاتحادات النسائية كاستجابة لتواتر وتكرار حوادث الاغتصاب. ولكن هل ندرك أن المغتصبين قد يخرجون من السجون - وهى فى ذاتها مراكز لاغتصاب الرجال الأقوياء للرجال الضعفاء - أكثر استعدادًا لفعل ذلك مرة أخرى؟

إن المرء لا تطيب له الاتجاهات المتعلقة بالرغبة فى تطبيق الإصلاح قبل تنفيذ القانون لأنه يبدو مكرسًا بالكامل لجعل الجريمة أقل مأساوية للضحية. كما أنه يخفى مشاركة العديد من الرجال فى استمراريتها. إن ذلك يعنى ببساطة أن الأوضاع ستستمر كما هى عليه.

التصوير الإباحى

سوزان براونميلر

(١)

خضع التصوير الإباحى فى هذه الأيام عمليات صقل وتطوير مستمرة، ولزخرفة أنيقة باسم حرية التعبير، لدرجة أن التمييز المهم بين حرية التعبير السياسى (ضرورة ديمقراطية)، والتربية الجنسية الأمينة للأطفال (فائدة اجتماعية)، والبذاءات البغيضة الأخرى، (الامتهان المتعمد لدور النساء من خلال الأوضاع الفاضحة والمشوهة) أصبح أمرًا شديد الالتباس. يكمن جزءٌ من المشكلة فى أن الذين يُعَدون تقليديا أشد المعارضين للإباحية الجنسية، هم عادة ما يكونون نفس الأشخاص الذين يرتعدون من مجرد الإشارة لأى موضوع جنسى. فتحت أعينهم التى تراقب وتدقق، يصبح النشر الواعى والمجانى للمواد التعليمية المتعلقة بالإجهاض، ومنع الحمل وعملية الولادة وبيولوچية الأنثى بصورة عامة، أمورًا خطيرة ومدمرة وقذرة.

لست غافلة عن أن المناقشة الصريحة والحرة للاغتصاب "الجريمة التى لا توصف" قد يعطى لأولئك المتيقظين، الذين هم على حق دائمًا. سببا آخر للارتعاد.

ولأن حدود المعركة كانت قد رسمت بطريقة زائفة منذ أمد بعيد، وقبل أن تكون هناك حركات نسائية مسموعة الصوت، فإن القوى المعادية للتصوير الفاضح بدت فى أغلبها مكونة من المتدينين، أى المحافظين الجنوبيين والجناح اليمينى، بينما كانت القوى المؤيدة له من الشرقيين والملحدين والليبراليين. ولكن منظور المرأة يتطلب تحالفًا جديدا تمامًا أو على الأقل مراجعة جديدة.

(٢)

إن تقرير الأغلبية للهيئة الرئاسية الخاصة بالإباحية التحررية والتصوير الإباحى (١٩٧٠)، وهو التقرير الذى عضّد بقوة إزالة كل العوائق الشرعية عن التصوير الإباحى، فى صورتيه الخفيفة والشديدة، قد أصبح أن تسعين فى المائة من المواد الفاضحة تتجه إلى سوق الذكور الطبيعيين، العشرة فى المائة الباقية تتجه إلى الشواذ جنسيا من الذكور)، وأن الذين يشترون المواد الفاضحة هم أغلبهم من البيض، من الطبقة الوسطى، ومتوسطى الأعمار من الذكور المتزوجين، وأن الأوضاع التى ترسم بالجرافيك – وهى مقومات المطبوعات الفاضحة – هى للجسم الأنثوى العارى والأفعال العديدة التى تمارس مع هذا الجسم.

عند مناقشة محتويات الأفلام الإباحية، "جزء معتاد وراسخ من المشهد الأمريكى"، أوضح تقرير اللجنة الآتى : "لأن التصوير الإباحى يعتقد تاريخيا أنه مثار الاهتمام الذكورى، فإن ما تهتم به الأفلام الإباحية يمثل ما يهتم به الذكور الأمريكان من الطبقة الوسطى. وعلى ذلك فالشذوذ الجنسى بين الذكور والبهيمية هما أمران نادران نسبيا، بينما الشذوذ الجنسى بين النساء فيعد أكثر شيوعًا".

أعضاء اللجنة فى هذه الجزئية قاموا بتفنيد الادعاءات الخاصة بالحرية الجنسية التى يتعلل بها منتجو هذه الأفلام وانتهت إلى أن "الأفلام الجنسية ليست احتفالية خاصة بالحرية الجنسية، بل هى استغلال وضيع للنشاط الجنسى الأنثوى، بجعل هذا النشاط وبالتالى كل الإناث "بغايا". الأسوياء من الذكور الذين يستهلكون التصوير الجنسى عادة ما تثيرهم مشاهدة المثليات جنسيا وهن فى أوضاع ممارسة الشذوذ (رغم أن ذلك لا يحدث مطلقًا إلا فى البدايات وليس فى المشاهد الختامية)، بينما يصيبهم الاشمئزاز والغثيان عند مشاهدة رجال عراة يمارسون الشذوذ مع بعضهم البعض. إحدى الدراسات التى أشير إليها فى تقرير اللجنة، توصلت إلى استنتاج أن "مشاهدة الأفلام الجنسية فى صحبة الرفاق الذكور يقى الفوران الرجولى". بالتأكيد هذا ما يحدث. فالرجال فى مجموعات عندما يشاهدون الأفلام الجنسية لا يكونون عراة،

وهذه ملاحظة مهمة. عند مقارنة استجابة الذكر للتصوير الجنسى باستجابة الأنثى تتضح اختلافات كبيرة فى السلوك. فوفقًا للجنة "يقرر الذكور أنهم يصبحون مستثارين بدرجة كبيرة عند مشاهدتهم لأوضاع النساء العاريات، ويظهرون اهتمامًا أكبر بالأوضاع الخاصة بالنساء العاريات عما تظهره الإناث".

(٣)

استشهاداً بأرقام ألفريد كنزى، لاحظت اللجنة أن أغلبية الذكور (٧٧٪) استثيروا نتيجة مشاهدة أفلام للممارسة الجنسية، بينما أغلبية النساء (٦٨٪) لم يستثرن نتيجة ذلك، "أظهرت النساء بصورة أكبر من الرجال استهجانًا وتقززًا" من أين تأتى هذا التقزز والاستهجان للنساء؟ هل الإناث متخلفات جنسيا أم أكثر تحفظًا بطبيعتهن؟ التقزز الشديد الذى تشعر به معظم النساء عند مشاهدة الأفلام الجنسية والذى لا يعد الاعتراف به أمرًا عصريا الآن، يتأتى كما أعتقد من إدراك أننا كنساء قد نزعت عنا ملابسنا وأصبحنا عراة أمام أعين الرجال لكى تزيد "إثارة الرجال" التى تعلو وتزداد قوة من مشاهدة إناث مجهولات، كلعب رخيصة يلهو بها البالغون، وبعد أن تمتهن وتنكسر يلقى بها جانبًا.

هذه هى بالطبع فلسفة الاغتصاب. إنها ليست مجرد حادث، (فما الذى يمكن أن يكون الهدف خلافا لذلك؟). إن الإناث فى مسرح التصوير الإباحى يتم تصويرهن فى دورين مميزين: عذارى يتم الإمساك بهن و"التعامل معهن بعنف"، أو شرهات للجنس لا يشبعن منه أبدا. وأشهر الخيالات الإباحية شيوعًا تجمع بين الاثنين: أنثى بريئة غير مدربة تتعرض للاغتصاب و"الممارسات غير الطبيعية" تحولها إلى شرهة ومتوحشة جنسيا، ولا تشبع أبدًا من القضيب الضخم للذكر.

(٤)

لا يمكن أن توجد "مساواة" فى التصوير الإباحى حيث لا يوجد عنصر تكافؤ بين الإناث والذكور، حيث لا تنعكس الأوضاع والمراكز بين الاثنين أبدًا. التصوير الإباحى مثله مثل الاغتصاب، اختراع ذكورى، تم تصميمه للحط من قيمة النساء، ولاختزال قيمة الأنثى إلى مجرد وسيلة جنسية وليس لتنظيم الشهوة الجنسية بطريقة أخلاقية مقبولة اجتماعيا. سيظل الجسد الأنثوى العارى وسيلة التصوير الإباحى الدائمة. تُستعرض فيه الأثداء والأعضاء الجنسية، لأن الرجل هو الذى صمم كل ذلك، فالجسد العارى هو "عار" الأنثى، وأعضاؤها الحساسة هى الملكية الخاصة للرجل، بينما أعضاؤه هو فهى الأدوات القديمة، المقدسة، والخاصة بقوته، ليتحكم فى الأنثى بالقوة والقهر.

(٥)

التصوير الإباحى هو جوهر الدعاية ضد الإناث. إن نفس الأحرار الذين فهموا بسرعة وسيلة وغرض جهاز الدعاية الجبار للرايخ الثالث لهتلر، والإعلانات المصممة بدقة للعداء للسامية، والأعمال الفاضحة التى أوجدت أساسًا أيديولوچيا للهولوكوست، نفس هؤلاء الأحرار هم الذين استناروا من تجاربهم لإذلال السود، فقد بحثوا فى ضمائرهم الخاصة وتمكنوا من فهم أن إطلاقهم للنكات على الزنوج، وتصويرهم لأعين الخدم وهى تشاهد بشغف الأفلام الإباحية، قد حافظوا على الأسطورة الخالدة لدونية السود ومنحوا أساسًا أيديولوچيا لاستمرارية قهر السود. نفس هؤلاء الأحرار هم الذين يصرون الآن على أن كراهية وازدراء النساء التى تظهر فى كلمات تستخدم مدسوسة بين الكلمات بصفة دائمة، وفى الكتب التى تسمى "مثيرة" وفى الأفلام، هى امتداد طبيعى لحرية التعبير التى يجب الحفاظ عليها كحق دستورى.

إن الدفاع عن حق فرد أمريكى واحد من النازيين المجانين وهو يثير دعاية تطالب بإبادة كل اليهود كما فعلت إحدى الهيئات باسم حرية التعبير، هو موقف لا يتصف بالشجاعة، لأن اليهود الأمريكيين ليسوا مهددين الآن بجنود عاصفة، ولا بمستعمرات

إبادة جماعية ولا بالقتل الوشيك ولكن أتساءل ما إذا كان موقف تلك الهيئة سيتغير إذا ما أصبحت محلات بيع الكتب ودور السينما التى توجد على جانبى شارع اثنين وأربعين بمدينة نيويورك لن يصبحوا مكرسين لامتهان النساء بالاغتصاب والتعذيب كما هو عليه الحال الآن، وإنما بالدعاية الناجحة تجاريا.

هل هذه المقارنة متعسفة؟ لن تكون كذلك إذا كنت امرأة تدرك خطر التهديد الدائم بالاغتصاب وانتشار المفهوم الذى يجعله يبدو كما لو كان متعة متحررة. إن تقرير الأغلبية للجنة الرئاسية عن الفحش والتصوير الإباحى حاول الاستهانة برأى الهيئات التى تطبق القانون عبر الدولة بكاملها، وبما لهم من خبرة خاصة قوية فى التعامل مع المذنبين الذين يضبطون متلبسين مما جعلهم يخلصون إلى أن التصوير الإباحى هو عامل رئيسى فى جرائم العنف الجنسى، على الرغم من إصرار اللجنة على أنه ليس من الممكن حاليا الوصول إلى إثبات علمى على وجود مثل هذه العلاقة!

ولكن هل يحتاج المرء إلى أسلوب علمى لكى يستنتج أن الدعاية المضادة للإناث التى تأتى فى مقدمة الناتج الثقافى لأمتنا، تعضد المناخ الذى يتم فيه استمرار العداء الجنسى الموجه للنساء وأيضا تشجعه أيديولوچيا؟ لقد استعدت فى ذهنى مناظرة جرت منذ سنوات عديدة كانت تناقش ما إذا كان التمجيد الزائد للعنف له أثر وعلاقة مباشرة بالمعدل المتزايد للجريمة خاصة بين الشباب. ومما يثير الاهتمام فى هذا الجانب – رغم كونه أمراً غير جنسى ولا علاقة له بالإساءات ضد النساء – فى الحقيقة أن الرأى العام كان مؤيداً للاعتقاد بأن العنف الواضح فى وسائل الإعلام له بالفعل أثر ضار حيث يجعل العنف أمراً عاديا وروتينيا وليس أمراً غير مألوف من الناحية الأخلاقية.

والأسوأ من هذا كله، أن الذين يطالبون بمنع مشاهد العنف فى الأفلام والتليفزيون باسم الأخلاق والذوق الرفيع، وما هو أفضل لأولادنا، يُتهمون بأنهم مؤيدون للرقابة على المصنفات أو أنهم ضد حرية التعبير! وبالمثل، منظمات الأقليات من السود واليهود والهنود الحمر الذين يناهضون وصمة العرقية والصور التى تحقر من شأنهم فى الأفلام أو التليفزيون أو الإعلانات التجارية، حيث يُنظر لهم على أنهم يشنون حرباً

سياسية، يتهمون أيضًا بأنهم ضد حرية التعبير، لأنه إذا ادعت مجموعة أقلية أنها تكدرت من تصويرها بصورة سيئة، وأرجعت ذلك إلى تاريخ من القهر والاستهانة، فلن يجرؤ سوى القليل من الأحرار على الدفاع عنهم بالحوار الدستورى معارضين ذلك على أسس نظرية، إذا ما رغبوا فى الاحتفاظ بأهليتهم كأحرار. ولكن عندما يتصل الأمر بمعاملة النساء، يظل ضمير الأحرار فظا قاسيًا، رافضا أن يتزحزح عن موقفه، لأن خطيئة الظهور بمظهر العدل والإنصاف فى زمن ما يسمى بالثورة الجنسية أصبحت من أسوأ الخطايا.

المترجم فى سطور :

محمد قدرى عمارة

– من مواليد مدينة طنطا عام ١٩٤٧ .

– أمضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية بمدينة طنطا، ثم التحق بكلية الزراعة جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣، وحصل على بكالريوس العلوم الزراعية عام ١٩٦٧ بدرجة ممتاز وعين معيداً بقسم الوراثة والچينات بالكلية.

– سافر إلى إنجلترا فى بعثة للحصول على درجة الدكتوراه، وحصل على الدكتوراه فى علم الوراثة والچينات من جامعة ويلز عام١٩٩٧ .

– بعد حصوله على الدكتوراه عين مدرساً بقسم الوراثة بكلية الزراعة جامعة أسيوط، ثم أستاذاً مساعداً.. ثم أستاذاً، وهو الآن رئيس قسم الوراثة بالكلية.

– ترجم العديد من الأعمال من الإنجليزية إلى العربية منها :

– انتصار السعادة	برتراند راسل
– أفضل ما كتب برتراند راسل	برتراند راسل
– المختارات من أعمال تشيكوف	أنطون تشيكوف
– مغامرات بونيكيو	كارلو كولودى
– نقد المسرح الإنجليزى	ستيفن هيوز

كما قام بترجمة العديد من المقالات والقصص القصيرة التى نشرت فى المجلات المختلفة.

المحتــويات



ستظل القراءة هى المظلة الرئيسية
للبناء الروحى والفكرى والوجدانى
للإنسان، والثقافة هى بكل المقاييس
أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل
و«ثقافة السلام» هى الضمان الأكيد
لإرساء دعائم الأمن والسلام الاجتماعى،
والتسامح ومكافحة العنف، ونشر العلم
والمحبة والإخاء والديمقراطية،
والتواصل مع الحضارات الأخرى.

سوزان مبارك

٤ جنيهات

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦







الهيئة المصرية العامة للكتاب